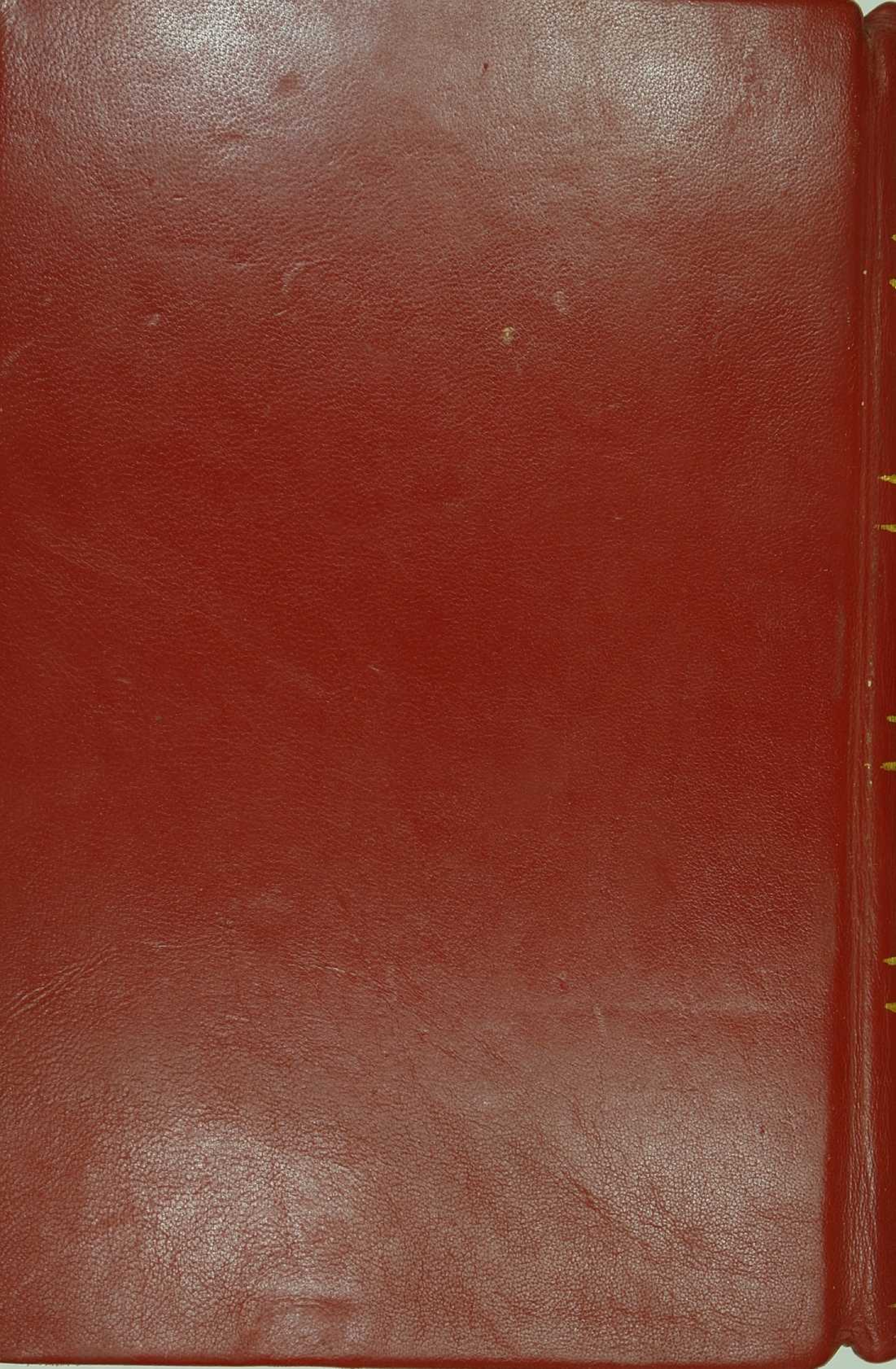


أدب الدنيا والدين

ابو الحسن علي بن محمد
الماوردي

أدب الدنيا والدين ، تأليف علي بن محمد ، ابي الحسن
الماوردى سنة ٤٥٠هـ. كتب سنة ٨٠١هـ.
١٧٠ ق ٣٠ س ٢٤٫٥×١٦٫٥ سم
نسخة جيده ، نفيسه ، خطها نسخ نفيس ، مضطربة
الترتيب. طبع.

معجم المؤلفين ٧ : ١٨٩ ، دار الكتب المصرية ١ : ٢٦٣
١- الشعائر والتقاليد والاخلاق الاسلامية
أ- الماوردى ، علي بن محمد -٤٥٠هـ ب- تاريخ
النسخ.

مثل عقل

الاداب الدين

اللهم اغفر لعبده
سنة ٢٦٤٢

من كتب عبد
ناب ... الله عفي عنه
انتقل الى ملك

...م الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد

الحمد لله ذي الطول والالاء • وصلواته على انبيايه ورسله الاتقيا • اما بعد
فان شرف المطلوب بشرف نتايجه • وعظم خطره بكثرة منافعه • وبحسب ...
تجب العناية به • وعلى قدر العناية به يكون اجتناء ثمرته • واعظم الامور خطرا وقـ...
واعمها نفعا ورفدا • ما استقام به الدين والدنيا • وانتظم به صلاح الاخرة والاولى
لان باستقامة الدين تصح العبادة • وبصلاح الدنيا تتم السعادة • وقد توخيت ...
الكتاب الاشارة الى ادابهما • وتفصيل ما اجمل من احوالهما • من غير اكثار ...
الى تجر قاريه • واطالة تفضي الى ملل الناظر فيه • واودعته من شواهـ...
الله سبحانه ما يقتضيه • ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ما ضاهيه
عقبت ذلك بامثال الحكما • واداب البلغا • واقوال الشعرا • لان ...
ترتاح الى الفنون المختلفة • وتسأم الفن الواحد • وقد قال علي رضي الله
القلوب تمل كما تمل الابدان فاهدوا اليها طرايف الحكمة • وكان المامو...
كثيرا في داره من مكان الى مكان • وينشد قول النابغة •

• لا يصلح النفس اذ كانت مدبرة • الا التنقل من حال الى حال •

وجعلت ما تضمنه من ذلك خمسة ابواب **الباب الاول**
في مدح العقل وذم الهوى • والثاني في ادب العلم • والثالث في ادب الد...
والرابع في ادب الدنيا • والخامس في ادب النفس • وانا استمد الله حسـ...
والمتوقع حفظ موهبته بطوله ومشيته وهو ثقتي وحسبي ومعيـ...

باب مدح العقل وذم الهوى

ان لكل فضيلة اسا • ولكل ادب ينبوعا • واس الفضايل وينبوع الادا...
العقل جعله الله تعالى اصلا وللدنيا عمادا • فاوجب التكليف بكمالـ...
... امور ه باحكامه ... بين خلقه مع اختلاف هممهم و...
مقاصدهم • وجعل ما تعبدهم به قسمين قسما و...
• وقسما جاز في العقل فاوجبه الشرع فـ...
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما اكتسـ...

مثل

1

مثل عقل يهديه صاحبه الى هدي او يرده عن ردي • وقال لكل شي دعامة ودعامة
المرء عقله فبقدر عقله تكون عبادته لربه اما سمعتم قول الفجار لو كنا نسمع او نعقل
ما كنا في اصحاب السعير • وقال عمر رضي الله عنه اصل الرجل عقله وحسبه دينه
ومروته خلقه • وقال الحسن البصري رحمه الله ما استودع الله احدا عقلا الا استنقذه
به يوما • وقال بعض الحكما العقل افضل موجود والجهل انكا معدوم مفقود • وقال
بعض الادبا خير المواهب العقل وشر المصايب الجهل • وقال بعض البلغا صديق
كل امرئ عقله وعدوه جهله • وقال بعض الشعراء وهو ابراهيم بن حسان حيث يقول

• يزين الفتى في الناس صحة عقله • وان كان محظورا عليه مكاسبه •
• يشين الفتى في الناس قلة عقله • وان كرمت اعراقه ومناسبه •
• يعيش الفتى بالعقل في الناس انه • على العقل يجري علمه وتجاربه •
• وافضل قسم الله للمرء عقله • فليس من الاشيا شي يقاربه •
• اذا اكمل الرحمان للمرء عقله • فقد كملت اخلاقه ومآربه •

واعلم ان العقل يعرف حقايق الامور ويفصل بين الحسنات والسيات • وهو ينقسم
قسمين غريزي ومكتسب فالغريزي هو العقل الحقيقي وله حد يتعلق به التكليف لا
يتجاوزه الى زيادة ولا نقصان وبه يمتاز الانسان من ساير الحيوان فاذا تم في الانسان
سمي عاقلا وخرج به الى حد الكمال كما قال صالح بن عبد القدوس •

• اذا تم عقل المرء تمت اموره • وتمت اياديه وتم ثناوه •

وروي عن الضحاك في قوله لتنذر من كان حيا اي عاقلا • واختلف الناس في العقل على مذاهب
شتى فقال قوم هو جوهر لطيف يفصل بين حقايق المعلومات ثم اختلف هولا في محله
فقال قوم الدماغ وقال قوم القلب لان القلب معدن الحيوة ومادة الحواس • وقولهم
انه جوهر فاسد من وجهين احدهما ان الجواهر متماثلة فلا يصح ان يوجب بعضها
ما لا يوجب سايرها ولو اوجب سايرها ما لا يوجب بعضها لاستغنى العاقل بوجود
نفسه ... عقله • والثاني ان الجوهر يقوم بذاته فلو كان العقل جوهرا جاز ان
... كما جاز ان يكون جسم بغير عقل فامتنع بهذين ان يكون العقل
... ولم قال اخاف ان العقل هو المدرك للاشيا على ما هي عليه من حقايق ... فانظر

القول وان كان اقرب مما قبله فبعيد من الصواب من وجه واحد وهو ان الادراك من صفات الحي والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل ان يكون ملتذا او آلما مشتهيا وقال آخرون من المتكلمين العقل هو جملة العلوم الضرورية وهذا الحد غير محصور لما تضمنه من الاجمال وتناوله من الاحتمال والحد انما هو بيان المحدود بما ينفي عنه الاجمال وقال آخرون الصحيح ان العقل هو العلم بالمدركات الضرورية وذلك نوعان احدهما ما وقع عن درك الحواس والثاني ما كان مبتدا في النفس فاما ما كان واقعا عن درك الحواس فمثل المرئيات المدركة بالنظر والاصوات المدركة بالسمع والمطعومات المدركة بالذوق والروايح المدركة بالشم والاجسام المدركة باللمس فاذا كان الانسان ممن لو ادرك بحواسه هذه الاشيا ثبت له هذا النوع من العلم لان خروجه في حال تغميض العين من ان يدرك بهما ويعلم لا يخرجه من ان يكون كامل العقل من حيث علم من حاله انه لو ادرك لعلم واما ما كان مبتدا في النفس فكالعلم بان الشي لا يخلو من وجود او عدم وان الموجود لا يخلو من حدوث او قدم وان من المحال اجتماع الضدين وان الواحد اقل من الاثنين وهذا النوع من العلم لن ينتفي عن العاقل مع سلامة حاله وكمال عقله واذا صار عالما بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل وسمي بذلك تشبيها بعقل الناقة لان العقل يمنع الانسان من الاقدام على شهواته اذا قبحت كما يمنع العقال الناقة من الشرود ان تعزب ولذلك قال عامر بن عبد قيس اذا عقلك عقلك عما لا ينبغي فانت عاقل وقد جاءت السنة بما يؤيد هذا القول في العقل وهو ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العقل نور في القلب يفرق به بين الحق والباطل ومن نفى ان يكون العقل جوهرا اثبت محله في القلب لان القلب محل العلوم كلها قال الله تعالى افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها فدلت هذه الاية على امرين احدهما ان العقل علم [illegible] ان محله القلب وفي قول الله عز وجل يعقلون بها تاويلان احدهما يعلمون والثاني يعتبرون و[illegible] فهذه جملة القول في العقل الغريزي واما العقل الكسبي فهو نتيجة العـ[illegible] وهي نهاية المعرفة وصحة السياسة واصابة الفكر وليس لها حد لانه ينمى اذا استعمل [illegible] [illegible] ونماه يكون باحد وجهين اما بكثرة الاستعمال اذا لم يعارضه مانع من الشرع فقد [illegible] يحصل لذوي الاسنان من الحنكة وصحة الروية [illegible] انه قال ما اكتسب [illegible]

الامور ولذلك حمدت العرب اراء الشيوخ حتى قالت المشايخ اشجار الوقار ومنابع الاخبار لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم ان راوك في قبيح صدوك وان ابصروك على جميل امدوك وقالوا عليكم باراء الشيوخ فانهم ان فقدوا ذكاء فقد مرت على عيونهم وجوه العبر وتصدت لاسماعهم اثار الغير وقيل في منثور الحكم من طال عمره نقصت قوة بدنه وزادت قوة عقله وقيل فيه لا تدع الايام جاهلا الا ادبته وقال بعض الحكما كفى بالتجارب ادبا وبتقلب الايام عظة وقال بعض البلغاء التجربة مراة العقل والغرة ثمرة الجهل وقال بعض الادباء كفى مخبرا عما بقي وكفى عبرا لاولي الالباب ما جربوا وقال بعض الشعراء

الم تر ان العقل زين لاهله ... ولكن تمام العقل طول التجارب

وقال اخر

اذا طال عمر المرء في غير افة ... افادت له الايام في كرها عقلا

واما الوجه الثاني فقد يكون بفرط الذكاء وحسن الفطنة وذلك جودة الحدس في زمن مسهل الحدس فاذا امتزج بالعقل الغريزي صار نتيجتها هو العقل المكتسب كالذي يكون في الاحداث من وفور العقل وجودة الراي حتى قال هرم بن قطبة حين تنافر اليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة عليكم بالحدث السن الحديد الذهن ولعل هرما اراد ان يدفعهما عن نفسه فاعتذر بما قال لكن لم ينكروا قوله اذ عانا للحق فصارا الى ابي جهل لحداثة سنه وحدة ذهنه فابا ان يحكم بينهما فرجعا الى هرم فحكم وفيه قال لبيد

يا هرم بن الاكرمين منصبا ... انك قد اوتيت حكما معجبا

وقالت العرب عليكم بمشاورة الشباب فانهم ينتجون رايا لم يفله طول القدم ولا استولت عليه رطوبة الهرم وقال الشاعر

رايت العقل لم يكن انتهابا ... ولم يقسم على عدد السنينا

ولو ان السنين تقاسمته ... حوى الاباء انصبة البنينا

قال الاصمعي قلت لغلام حدث من اولاد العرب كان يحادثني فامتعني بفصاحته وملاحته ايسرك ان يكون لك مائة الف درهم وانك احمق قال لا والله قلت ولم قال اخاف ان يجني علي حمقي جناية تذهب بمالي ويبقى علي حمقي فانظر

الى هذا الصبي كيف استخرج بفرط ذكايه واستنبط بجودة قريحته ما لعله يدق على من هو
اكبر منه سنا واكثر تجربة وليس للذكا غاية ولا لجودة القريحة نهايه حكي ان سليمان
بن عبد الملك امر الفرزدق بضرب اعناق اسارى من الروم فاستعفاه الفرزدق فلم يفعل
واعطاه سيفا لا يقطع شيا فقال الفرزدق بل اضربهم بسيف ابي رغوان مجاشع
يعني سيف نفسه فقام فضرب به عنق رومي فنبا السيف فضحك سليمان ومن حوله
فقال الفرزدق • ايعجب الناس ان اضحكت سيدهم • خليفة الله يستسقى به المطر •
لم ينب سيفي من رعب ولا دهش • عن الاسير ولكن اخر القدر •
ولن يقدم نفسا قبل ميتتها • جمع اليدين ولا الصمصامة الذكر •
ثم عمد الى سيفه وهو يقول
• ما ان يعاب سيد اذا صبا • ولا يعاب صارم اذا نبا • ولا يعاب شاعر اذا كبا •
ثم جلس وهو يقول كاني بابن المراغة قد هجاني فقال
• بسيف ابي رغوان سيف مجاشع ضربت • ولم تضرب بسيف ابن ظالم •
ثم قام وانصرف وحضر جرير فخبر الخبر ولم ينشد الشعر فقال
• بسيف ابي رغوان سيف مجاشع ضربت • ولم تضرب بسيف ابن ظالم •
ثم قال يا امير المومنين كاني بابن القين قد اجابني فقال
• ولا نقتل الاسرى ولكن نفكهم • اذا اثقل الاعناق حمل المغارم •
فاستحسن سليمان حدس الفرزدق على جرير ثم اخبر الفرزدق بشعر جرير ولم يكن
با حدس جرير فقال الفرزدق
• كذاك سيوف الهند تنبو ظباتها • وتقطع احيانا مناط التمايم •
• ولن نقتل الاسرى ولكن نفكهم • اذا اثقل الاعناق حمل المغارم •
• وهل ضربة الرومي جاعلة لكم • ابا عن كليب او اخا مثل دارم •
فشاع حديث الفرزدق بهذا حتى حكي ان المهدي اتي باسرى من الروم فامر بقتلهم
وكان عنده شبيب بن شيبة فقال اضرب عنق هذا العلج فقال يا امير المومنين
قد عرفت ما ابتلي به الفرزدق فعير به قومه الى اليوم فقال له اردت تشريفك
وقد اعفيتك وكان ابو الهول الشاعر حاضرا فقال

جزع عن الرومي وهو مقيد • فكيف ولو لاقيته وهو مطلق •
دعاك امير المومنين لقتله • فكاد شبيب عند ذاك يفرق •
فنح شبيبا عن قراع كتيبة • وادن شبيبا من كلام يلفق •
وليس العجب من خبر الفرزدق ان صح من جودة القريحتين واكثر من اتفاق الخاطرين
وقد قالت الحكما اية العقل سرعة الفهم وغايته اصابة الوهم وليس لمن منح
جودة القريحة وسرعة الخاطر عجز عن الجواب ولو اعضل كما قيل لعلي رضي الله عنه
كيف يحاسب الله العباد على كثرتهم وكثرة عددهم فقال كما رزقهم على كثرة عددهم
وقيل لعبد الله بن عباس رضي الله عنه اين تذهب الارواح اذا فارقت الاجسام
فقال اين تذهب نار المصابيح عند فناء الادهان وهذان الجوابان جوابا اسكات
تضمنا دليلي اذعان ويجتني ثمرة من هذا الفن وان كان مستكثرا ما حكي ان ابليس
حين ظهر لعيسى عليه السلام فقال له الست تقول انه لن يصيبك الا ما كتب الله لك
قال نعم قال فارم بنفسك من ذروة هذا الجبل فان تقدر لك السلامة تسلم فقال
له يا ملعون ان الله تعالى ان يختبر عباده وليس للعبيد ان يختبروه ومثل هذا الجواب
لا يستغرب من انبيا الله الذين امدهم الله بوحيه وايدهم بنصره وانما يستغرب
ممن يلجا الى الخاطر ويقول على بديهته وروى قاسم بن العباس قال قيل لعلي
رضي الله عنه كم بين السما والارض فقال دعوة مستجابة فقيل كم بين المشرق والمغرب
قال مسيرة الشمس وكان هذا السوال من سايله اما اختبارا واما استبصارا
فصدر عنه من الجواب ما اسكته فاما اذا اجتمع هذان الوجهان في العقل
المكتسب وهو ما ينميه فرط الذكا بجودة الحدس وصحة القريحة بحسن البديهة
مع ما ينميه الاستعمال وطول التجارب ومرور الزمان بكثرة الاختبار فهو
العقل الكامل على الاطلاق من الرجل الفاضل بالاستحقاق روى انس بن مالك
رضي الله عنه قال اثني على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم بخير فقال كيف عقله
فقالوا يا رسول الله ان من عبادته ان من خلقه ان من فضله قال كيف عقله
فقالوا يا رسول الله نثني عليه بالعبادة والخير وتسلنا عن عقله فقال صلى الله
عليه وسلم ان الاحمق العابد يصيب بجهله اعظم من فجور الفاجر وانما يقرب الناس

من يهم بالزلف على قدر عقولهم واختلف الناس في العقل المكتسب اذا تناهى وزاد من
الانسان هل يكون فضيلة ام لا فقال قوم لا يكون فضيلة لان الفضيلة مرتبة متوسطة
بين فضيلتين ناقصتين كما ان الخير متوسط بين رذيلتين فما جاوز التوسط خرج
عن حد الفضيلة وقد قالت الحكماء للاسكندر ايها الملك عليك بالاعتدال
في كل الامور فان الزيادة عيب والنقصان عجز هذا مع ما وردت به السنة عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال خير الامور اوساطها وقال علي رضي الله عنه
خير الامور النمط الاوسط اليه يرجع العالي وبه يلحق التالي قال الشاعر

لا تذهبن في الامور فرطا . لا تسألن ان سألت شططا ، وكن من الناس جميعا وسطا

قالوا ولكن زيادة العقل تفضي بصاحبها الى الدها والمكر وذلك مذموم وقد امر
عمر بن الخطاب ابا موسى الاشعري رضي الله عنهما ان يعزل زيادا رضي الله عنه
عن ولايته فقال زياد اعن موجدة ام خيانة يا امير المومنين فقال لا عن واحدة
منهما ولكن خفت ان احمل على الناس فضل عقلك ومن اجل هذا المحكي عن عمر
رضي الله عنه ما قال قيل قديما افراط العقل مضر بالجسد وقد قال بعض الحكماء
كفاك من عقلك ما دلك على سبيل رشدك وقال بعض البلغاء قليل يكفي خير من كثير
يطغي قال اخرون وهو اصح القولين زيادة العقل فضيلة لان المكتسب غير محدود
وانما تكون زيادة الفضائل المحدودة نقصا مذموما لان ما جاوز الحد لا يسمى فضيلة
كالشجاع اذا زاد على حد الشجاعة نسب الى التهور والسخي اذا زاد على السخا نسب
الى التبذير وليس كذلك حال العقل المكتسب لان الزيادة فيه زيادة علم بالامور وحسن
اصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن الى ما يكون فذلك فضيلة لا نقص وقد روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال افضل الناس اعقل الناس وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه
قال العقل حيث كان الف مالوف وقد قيل في تاويل قوله تعالى قل كل يعمل على شاكلته
اي بحسب عقله وقال القاسم بن محمد كانت العرب تقول من لم يكن عقله اغلب خصال
الخير عليه كان حتفه في اغلب خصال الشر عليه وقيل في منثور الحكم كل شي
اذا كثر رخص الا العقل فانه اذا كثر غلا وقال بعض البلغاء ان العاقل من عقله في ارشاد
ومن رايه في امداد فقوله سديد وفعله حميد والجاهل من جهله في اغراء ومن هواه

في اغراء

في اغراء فقوله سقيم وفعله ذميم وانشدني بعض اهل الادب لابيه

من لم يكن اكثره عقله   اهلكه اكثر ما فيه

واما الدهاء والمكر فانه مذموم لان صاحبه صرف فضل عقله الى الشر ولو
صرفه الى الخير لكان محمودا وقد ذكر المغيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فقال
كان والله افضل من ان يخدع واعقل من ان يخدع وقال عمر رضي الله عنه لست بالخب
ولا يخدعني الخب واختلف الناس فيمن صرف فضل عقله الى الشر كزياد واشباهه
من الدهاة هل يسمى الداهية منهم عاقلا ام لا فقال بعضهم اسميه عاقلا لوجود العقل
منه وقال اخرون لا اسميه عاقلا حتى يكون خيرا دينا لان الخير والدين من موجبات
العقل واما الشرير فلا اسميه عاقلا وانما اسميه صاحب روية وفكرة وقد قيل
العاقل من عقل عن الله عز وجل امره ونهيه حتى قال اصحابنا فيمن وصى بثلث ماله لاعقل
الناس انه يصرف في الزهاد لانهم انقادوا للعقل ولم يغتروا بالامل وروى لقمان
بن عامر عن ابي الدرداء رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا عويمر
ازدد عقلا تزدد من ربك قربا قلت بابي وامي انت ومن لي بالعقل قال اجتنب محارم
الله واد فرائض الله تكن عاقلا ثم تنفل صالحات الاعمال تزدد في الدنيا عقلا وتزدد
من ربك قربا وعليه عزا وانشدني بعض الادبا وذكر انها لعلي رضي الله عنه

ان المكارم اخلاق مطهرة   فالعقل اولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها   والخوف خامسها والجود ساديها
والبر سابعها والصبر ثامنها   والشكر تاسعها والدين عاشيها
والنفس تعلم اني لا اصدقها   ولست ارشد الا حين اعصيها
والعين تعلم من عيني محدثها   ان كان من حزبها او من اعاديها

واعلم ان العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزي لانه نتيجة منه وقد ينفك
العقل الغريزي عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضائل موفور الرذائل
كالانوك الذي لا تجد له فضيلة والاحمق الذي قل ما يخلو منه رذيلة روى
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الاحمق ابغض خلق الله اليه اذ حرمه اعز الاشيا
عليه وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال الاحمق كالفخار لا يرقع ولا يشعب

وقال بعض الحكماء الحاجة الى العقل احوج واكد من الحاجة الى المال وقال بعض البلغاء
دولة الجاهل عبرة العاقل وقال انوشروان لبزرجمهر اي الاشياء خير للمرء قال
عقل يعيش به في الناس قال فان لم يكن قال فاخوان يستورون عيبه قال فان لم يكن قال
فمال يتحبب به الى الناس قال فان لم يكن قال فعي صامت قال فان لم يكن قال فموت
جارف وقال سابور بن اردشير العقل نوعان احدهما مطبوع والاخر مسموع
ولا يصلح واحد منهما الا بصاحبه فاخذ ذلك بعض فقال

رايت العقل نوعين فمصنوع ومطبوع
فلا ينفع مطبوع اذا لم يك مصنوع
كما لا تنفع العين وضوء الشمس ممنوع

وقد وصف بعض الادباء العاقل بما فيه من الفضايل والاحمق بما فيه من الرذايل فقال
العاقل اذا والى بذل من المودة نصره واذا عادى رفع عن الظلم قدره فيسعد مواليه
بعقله ويعتصم معاديه بفضله ان احسن الى احد ترك المطالبة بالشكر وان اسا اليه
مسيء سبب له اسباب العذر او منحه الصفح والعفو والاحمق ضال مضل
ان اونس تكبر وان [illegible] حد وان استنطق تخلف وان ترك تخلف مجالسته
مهنة ومعاتبته محنة ومحاورته تعر وموالاته تضر ومقاربته عمى ومفارقته
شفا وكانت ملوك الفرس اذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل والاحمق يسيء
الى غيره ويظن انه احسن اليه فيطالبه بالشكر ويحسن اليه فيظن انه قد اساء فيطالبه
بالعذر فمساوي الاحمق لا تنقضي وعيوبه لا تتناهى ولا يقف النظر منها الى غاية
الا لوحت مما وراها بما هو ادنى منها واردى وامر وادهى فما اكثر العبر لمن نظر
وانفعها لمن اعتبر وقال الاحنف بن قيس من كل شي يحفظ الاحمق الا من نفسه
وقال بعض البلغاء ان الدنيا ربما اقبلت على الجاهل بالاتفاق وادبرت عن العاقل
بالاستحقاق فان اتتك منها سهمة مع جهل او فاتتك فيها بغية مع عقل فلا
يحملنك ذلك على الرغبة في الجهل والزهد في العقل فدولة الجاهل من الممكنات
ودولة العاقل من الواجبات وليس من امكنه شي من ذلك كمن استوجبه بالته
وادواته وبعد فدولة الجاهل كالغريب الذي يحن الى النقلة ودولة العاقل كالنسيب

الذي

الذي يحن الى الوصلة فلا يفرح المرء بحالة جليلة نالها بغير عقل او منزلة رفيعة حلها
بغير فضل فان الجهل ينزله منها ويزيله عنها ويحطه الى رتبته ويرده الى قيمته بعد
ان تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه ويصير مادحه هاجيا ووليه معاديا واعلم
ان بحسب ما ينشر من فضايل العاقل كذلك يظهر من رذايل الجاهل حتى يصير مثلا
في الغابرين وحديثا في الاخرين مع هتكه في عصره وقبح ذكره في دهره كالذي
رواه عطا عن جابر قال كان في بني اسرايل رجل له حمار فقال يا رب لو كان
لك حمار لعلفته مع حماري هذا فهم به نبي من انبياء الله فاوحى الله سبحانه
اليه انما اثيب كل انسان على قدر عقله واستعمل معاوية رضي الله عنه رجلا
من كلب فذكر المجوس يوما عنده فقال لعن الله المجوس ينكحون امهاتهم والله
لو اعطيت عشرة الاف درهم ما نكحت امي فبلغ ذلك معاوية رضي الله عنه فقال
قبحه الله اترونه لو زادوه فعل وعزله وولى الربيع العامري وكان من النوكى
مناير اليمامة فاقاد كلبا بكلب فقال الشاعر

شهدت بان الله حقا لقاوه وان الربيع العامري رقيع
اقاد لنا كلبا بكلب ولم يدع دماء كلاب المسلمين تضيع

وليس لعار الجهل غاية ولا لمضار الحمق نهاية وقد قال الشاعر

لكل داء دواء يستطب به الا الحماقة اعيت من يداويها

فصل فاما الهوى فهو عن الخير صاد وللعقل مضاد لانه ينتج من الاخلاق قبايحها
ويظهر من الافعال فضايحها ويجعل ستر المروة مهتوكا ومدخل الشر مسلوكا قال
ابن عباس رضي الله عنه الهوى اله يعبد من دون الله ثم قرا افرايت من اتخذ الهه
هواه وقال عكرمة في قوله تعالى ولكنكم فتنتم انفسكم يعني بالشهوات وتربصتم
يعني بالتوبة وارتبتم يعني في امر الله وغرتكم الاماني بالتسويف حتى جا امر الله
يعني الموت وغركم بالله الغرور يعني الشيطان وقال صلى الله عليه وسلم طاعة
الشهوة دا وعصيانها دوا وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اردعوا هذه
النفوس عن شهواتها فانها طاغية تنزع الى شر غاية ان هذا الحق ثقيل مري وان
الباطل خفيف وبي وترك الخطية خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة

ورب شهوة ساعة اورثت حزنا طويلا وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه اخاف عليكم
اثنين اتباع الهوى وطول الامل فاتباع الهوى يصد عن الحق وطول الامل ينسي الاخرة
وقال الشعبي انما سمي الهوى هوى لانه يهوي بصاحبه وقال اعرابي الهوى هوان ولكن
غلط في اسمه فاخذه الشاعر فقال

ان الهوى هو الهوان قلب اسمه فاذا هويت فقد لقيت هوانا

وقيل في منثور الحكمة من اطاع هواه اعطى عدوه مناه وقال بعض الحكماء العقل
صديق مقطوع والهوى عدو متبوع وقال بعض البلغاء افضل الناس من عصى هواه
وافضل منه من رفض دنياه وقال هشام بن عبد الملك

اذا انت لم تعص الهوى قادك الهوى الى كل ما فيه عليك مقال

قال ابن المعتز لم يقل هشام بن عبد الملك غير هذا البيت وقال الشاعر

اذا ما رايت المرء يقتاده الهوى فقد ثكلته عند ذاك ثواكله
وقد اشمت الاعداء جهلا بنفسه وقد وجدت فيه مقالا عواذله
وما يردع النفس اللجوج عن الهوى من الناس الا حازم الراي كامله

فلما كان الهوى غالبا والى سبيل المهالك موردا جعل العقل عليه رقيبا مجاهدا يلاحظ
عثرة غفلته ويرمق سطوة بادرته ويوضح خداع حيلته لان سلطان الهوى قوي
ومدخل مكره خفي ومن هذين الوجهين يوتى العاقل حتى تنفذ احكام الهوى عليه
اعني باحد الوجهين قوة سلطانه وبالاخر خفي مكره اما الوجه الاول فهو ان يقوى
سلطان الهوى لكثرة دواعيه حتى يستولي عليه مغالبة الشهوات فيكل العقل عن
دفعها ويضعف عن منعها مع وضوح قبحها في العقل المقهور بها وهذا يكون في الاحداث
اكثر وعلى الشباب اغلب لقوة شهواتهم وكثرة دواعي الهوى المسلطة عليهم وانهم ربما
جعلوا الشباب عذرا لهم كما قال محمد بن بشير

كل يرى ان الشباب له في كل مبلغ لذة عذر

لذلك قال بعض الحكماء الهوى ملك غشوم ومسلط ظلوم وقال بعض الادباء الهوى
عسوف والعدل مالوف وقال بعض الشعراء

يا عاقلا اردى الهوى عقله ما لك قد سدت عليك الامور

الجهل

لا تجعل العقل اسير الهوى وانما العقل عليه امير

وحسم ذلك ان يستعين العقل بالنفس النفورة فيشعرها ما في عواقب الهوى من شدة
الضرر وقبح الاثر وكثرة الاجرام وتراكم الاثام فقد قال صلى الله عليه وسلم حفت
الجنة بالمكاره والنار بالشهوات اخبر ان الطريق الى الجنة احتمال المكاره والطريق
الى النار اتباع الشهوات وقال علي رضي الله عنه اياكم وتحكيم الشهوات على انفسكم
فان عاجلها ذميم واجلها وخيم فان لم ترها تنقاد بالتحذير والارهاب فسوفها
بالتامل والارغاب فان الرهبة والرغبة اذا اجتمعا على النفس ذلت لهما وانقادت
وقال ابن السماك كن لهواك مسوفا ولعقلك مسعفا وانظر ما تسوء عاقبته
فوطن نفسك على مجانبته فان ترك النفس وما تهوى داؤها وترك ما تهوى دواؤها
فاصبر على مضض الدواء كما تخاف من عاقبة الداء وقال الشاعر

صبرت على الايام حتى تولت والزمت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس الا حيث يجعلها الفتى فان توقت تاقت والا تسلت

فاذا انقادت النفس للعقل بما قد استشعرته من عواقب الهوى لم يلبث الهوى ان يصير
بالعقل مدحورا وبالنفس مقهورا ثم له الحظ الاوفى من ثواب الخالق تعالى وثناء المخلوقين
قال الله سبحانه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي الماوى وقال الحسن البصري
افضل الجهاد جهاد الهوى وقال الحكيم اعز العز الامتناع من ملك الهوى وقال
اخر خير الناس من اخرج الشهوة من قلبه وعصى هواه في طاعة ربه قال بعض الادباء
من اماتت شهوته احيى مروته وقال بعض العلماء ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة
وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب ابن ادم من كليهما فمن غلب عقله شهوته فهو
خير من الملائكة ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم وقيل لبعض الحكماء من
اشجع الناس واحراهم بالظفر في مجاهدته قال من جاهد الهوى طاعة لربه واحترس
من ورود خواطر الهوى على قلبه قال بعض الشعراء

قد يدرك الحازم ذو الراي المنى بطاعة الحزم وعصيان الهوى

واما الوجه الثاني فهو ان يخفي الهوى مكره حتى تتموه افعاله على العقل فيتصور
الحسن قبيحا والضر نفعا وهذا يدعوا الى احد شيئين اما ان تكون للنفس ميل الى ذلك

الشيء فيخفى عنها القبيح بحسن ظنها وتصوره حسنًا لشدة ميلها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم حبك الشيء يعمي ويصم اي يعمي عن الرشد ويصم عن الموعظة وقال عليه السلام الهوى عمى قال الشاعر

حسن في كل عين من تود

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه

ولست براء عيب ذي الود كله . ولكن عين السخط تبدي المساويا

وأما السبب الثاني فهو استثقال الفكر في تمييز ما اشتبه وطلب الراحة في اتباع ما سهل حتى يظن ان ذلك اوفق امريه واحمد حالتيه اغترارًا بان الاسهل محمود والاعسر مذموم فلن يعدم ان يتورط بخدع الهوى وزينة المكر في كل مخوف حذر ومكروه عسر ولذلك قال عامر بن الظرب الهوى يقظان والعقل راقد فمن ثم غلب وقال سليمان بن وهب الهوى امنع والراي انفع وقيل في المثل العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح وقال الشاعر

اذا المرء اعطى نفسه كل ما اشتهت ولم ينهها تاقت الى كل باطل

وساقت اليه الاثم والعار بالذي دعته اليه من حلاوة عاجل

وحسم السبب الاول ان يجعل فكر قلبه حكمًا على نظر عينيه فان العين رائد الشهوة والشهوة من دواعي الهوى والقلب رائد الحق والحق من دواعي العقل وقال الحكيم نظر الجاهل بعينه ونظر العاقل بقلبه وخاطره ثم يتهم نفسه في صواب ما احبت وتحسين ما اشتهت ليصح له الصواب ويتبين له الحق فان الحق اثقل محملًا واصعب مركبًا فان اشكل عليه امران اجتنب احبهما اليه وترك اسهلهما عليه فان النفس عن الحق انفر وللهوى آثر وقد قال العباس رضي الله عنه اذا اشتبه عليك امران فدع احبهما اليك وخذ اثقلهما عليك وعلة هذا ان الثقيل يبطئ النفس عن التسرع اليه فيتضح مع الابطاء وتطاول الزمان صواب ما استعجم وظهور ما استبهم وقد قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه من تفكر ابصر والمحبوب السهل تسرع النفس اليه وتعجل الاقدام عليه فيقصر الزمان عن تصفحه ويفوت استدراكه لتقضي فعله فلا ينفع التصفح بعد العمل ولا الاستبانة بعد الفوت وقال بعض الحكماء من كان عنك معرضًا فلا تكن له متعرضًا وقال الشاعر

اليسر طلاب ما قد فات جهلا وذكر المرء ما لا يستطيع

ولقد وصف بعض البلغاء حال الهوى وما يقارنه من محن الدنيا فقال الهوى مطية الفتنة والدنيا دار المحنة فانزل عن الهوى تسلم واعرض عن الدنيا تغنم ولا يغرنك هواك بطيب الملاهي ولا تفتننك دنياك بحسن العواري فمدة الهوى تنقطع وعارية الدهر ترجع ويبقى عليك ما ترتكبه من المحارم وتكتسبه من المآثم وقال علي بن عبد الله الجعفري سمعتني امراة بالطواف وانا انشد

اهوى هوى الدين واللذات تعجبني وكيف لي بهوى اللذات والدين

فقالت هما ضرتان فذر ايهما شئت وخذ الاخرى وأما فرق ما بين الهوى والشهوة مع اجتماعهما في العلة والمعلول واتفاقهما في الدلالة والمدلول فهو ان الهوى مختص بالآراء والاعتقادات والشهوة تختص بنيل المستلذات فصارت الشهوة من نتائج الهوى وهي اخص والهوى اصل وهو اعم نسأل الله تعالى ان يكفينا دواعي الهوى ويجنبنا سبل الردى ويجعل التوفيق لنا قائدًا والعقل لنا مرشدًا فقد حكي ان الله تعالى اوحى الى عيسى بن مريم عليه السلام عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحي مني وقال [illegible] كاسة

يا من يرى ادبًا قولًا يجاريه ما انت عن زيغ الهوى بأديب

حتى تكون بما تعلم عاملًا من صالح فيكون غير معيب

ولقل ما تغني اصابة قايل افعاله افعال غير مصيب

ابدا بنفسك فانهها عن غيها فان انتهت عنه فانت حكيم

فهناك يقبل ما تقول ويقتدى بالقول منك ويقبل التعليم

لا تنه عن خلق وتاتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

حكي ابو فروة ان طارقًا صاحب شرطة خالد القسري مر بابن شبرمة وطارق في موكبه فقال ابن شبرمة

اراها وان كانت تحب فانها سحابة صيف عن قريب تقشع

اللهم لي ديني ولهم دنياهم فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضا فقال له ابنه اتذكر قولك يوم كذا وكذا اذ مر بك طارق في موكبه فقال يا بني انهم يجدون مثل ابيك ولا يجد ابوك مثلهم ان اباك اكل من حلواهم فحط في اهوائهم اما ترى

اما ترى هذا الدين الفاضل كيف عوجل بالتقريع وقوبل بالتوبيخ من الخصوم وبه واهله من ابن نبيه فكيف بنا ونحن اطلق منه عنانا واقلق منه جنانا اذ رمقتنا اعين المتتبعين وتناولتنا السن المتعنتين هل نجد غير توفيق الله ملاذا وسوى عصمته معاذا

باب ادب العلم

اعلم ان العلم اشرف ما رغب فيه الراغب وافضل ما طلبه وجد فيه الطالب وانفع ما كسبه واقتناه الكاسب لان شرفه يثمر على صاحبه وفضله ينمي عند طالبه قال الله تعالى هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون فمنع من المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم من فضيلة العلم فقال وما يعقلها الا العالمون فنفى ان يكون غير العالم يعقل عنه امرا او يفهم عنه زجرا وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اوحى الله تعالى الى ابرهيم عليه السلام اني عليم احب كل عليم وروى ابو امامة رضي الله عنه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين احدهما عالم والاخر عابد فقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم رجلا وقال عليه السلام الناس ابناء ما يحسنون وقال مصعب بن الزبير لابنه تعلم العلم فان يكن لك مال كان لك جمالا وان لم يكن لك مال كان لك مالا وقال عبد الملك بن مروان لبنيه يا بني تعلموا العلم فان كنتم سادة فقتم وان كنتم وسطا سدتم وان كنتم سوقة عشتم وقال بعض الحكماء العلم افضل خلف والعمل به اكمل شرف وقال بعض البلغاء تعلم العلم فانه يقومك ويسددك صغيرا ويقدمك ويسودك كبيرا ويصلح زيغك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوم عوجك وميلك ويصحح همتك واملك وانشد الرشيد عن المهدي بيتين اراهما له

يا نفس خوضي بحار العلم او غوصي ... فالناس ما بين معموم ومخصوص

لا شيء في هذه الدنيا يحيط به ... الا الاحاطة منقوص بمنقوص

وقال علي عليه السلام قيمة كل امرئ ما يحسن فاخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

لا يكون العلي مثل الدني ... لا ولا ذو الذكاء مثل الغبي

قيمة المرء قدر ما يحسن المرء ... قضاء من الامام علي

وليس يجهل فضل العلم الا اهل الجهل لان فضل العلم لا يعرف الا بالعلم وهذا ابلغ

في فضله

في فضله لان فضله لا يعلم الا به فلما عدم الجهال العلم الذي به يتوصلون الى فضل العلم جهلوا فضله واسترذلوا اهله وتوهموا ان ما تميل اليه نفوسهم من الاموال المقتناة والطرف المشتهاة اولى ان يكون اقبالهم عليها واحرى ان يكون اشتغالهم بها وقد قال ابن المعتز في منثور الحكم العالم يعرف الجاهل لانه كان جاهلا والجاهل لا يعرف العالم لانه لم يكن عالما وهذا صحيح ولاجله انصرفوا عن العلم واهله انصراف الزاهدين وانحرفوا عنه وعنهم انحراف المعاندين لان من جهل شيئا عاداه وانشدني ابن لنكك لابي بكر بن دريد

جهلت فعاديت العلوم واهلها ... كذاك يعادي العلم من هو جاهله

ومن كان يهوى ان يرى متصدرا ... ويكره لا ادري اصيبت مقاتله

وقيل لبزرجمهر العلم افضل ام المال فقال بل العلم قيل فما بالنا نرى العلماء على ابواب الاغنياء ولا نكاد نرى الاغنياء على ابواب العلماء فقال ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال وجهل الاغنياء بفضل العلم وقيل لبعض الحكماء لم لا يجتمع العلم والمال فقال لعز الكمال وانشدني بعضهم لنفسه

وفي الجهل قبل الموت موت لاهله ... فاجسامهم قبل القبور قبور

وان امرأ لم يحي بالعلم ميت ... فليس له حتى النشور نشور

وتنقص بعض المتعلمين بباب عالم فنادى تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرسا ولا يسقم نفسا فاخرج له طعاما ونفقة فقال فاقتي الى كلامك اشد من حاجتي الى طعامك اني طالب هدى لا سائل ندى فاذن له العالم وافاده عن كل ما سال عنه فخرج جذلان فرحا وهو يقول علم اوضح لبسا خير من مال اغنى نفسا واعلم ان كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والاحاطة بجميعها محال قيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلم فقال كل الناس وقال عليه السلام من ظن ان للعلم غاية فقد بخسه حظه ووضعه في غير منزلته التي وضعه الله بها حيث يقول وما اوتيتم من العلم الا قليلا ولو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته كنا قد بدانا العلم بالنقيصة ولكنا نطلبه لننقص كل يوم من الجهل ونزداد في كل يوم من العلم وقال بعض العلماء المتعمق في العلم كالسابح في البحر ليس يرى ارضا ولا يعرف طولا ولا عرضا وقيل لحماد الراوية اما

تشبع من هذه العلوم فقال استفرغنا فيها المجهود فلم نبلغ فيها المحدود فنحن كما
قال الشاعر اذا قطعنا علما بدا علم وانشد الرشيد المهدي بيتين اراهما له

يا نفس خوضي بحار العلم او غوصي فالناس ما بين معموم ومخصوص
لا شي في هذه الدنيا يحيط به الا احاطة منقوص بمنقوص

واذا لم يكن الى معرفة جميع العلوم سبيل وجب الاهتمام الى معرفة اهمها والعنا
باولاها وافضلها واولى العلوم وافضلها علم الدين لان الناس بمعرفته يرشدون
وبجهله يضلون اذ لا يصح اداء عبادة جهل فاعلها صفات ادايها ولم يعلم شروط
اجزايها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم فضل العلم خير من فضل العبادة
والعبادة مع خلو فاعلها من العلم بها قد لا يكون عبادة فلزم علم الدين كل مكلف وقال
صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم وفيه تاويلان احدهما علم ما لا
يسع جهله من العبادات والثاني جملة العلم اذا لم يقم بطلبه من فيه كفاية واذا
كان علم الدين قد اوجب الله فرض بعضه على الاعيان وفرض جميعه على الكفاية
قال الله سبحانه فلولا نفر من كل فرقة منهم طايفة ليتفقهوا في الدين وروى عبد الله
بن عمر رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فاذا هو بمجلسين
احدهما يذكرون الله تعالى والاخر يتفقهون فقال صلى الله عليه وسلم كلا المجلسين
على خير واحدهما احب الي من صاحبه اما هولاء فيذكرون الله تعالى ويسالونه
فان شا اعطاهم وان شا منعهم واما المجلس الثاني فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل
وانما بعثت معلما فجلس الى اصحاب الفقه وقال عليه الصلاة والسلام الخير عادة والشر
لجاجة ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وقال صلى الله عليه وسلم خيار امتي علماوها
وخيار علمايها فقهاوها وروى معاذ بن رفاعة عن ابرهيم بن عبد الرحمن العذري قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف
الغالين وانتحال المبطلين وتاويل الجاهلين وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
عليكم بخلفاي قالوا ومن خلفاوك قال الذين يحيون سنتي يعلمونها عباد الله وروى
انس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال التفقه في الدين حق على كل مسلم الا فتعلموا وعلموا
وتفقهوا في الدين ولا تموتوا جهالا وروى سليمان بن يسار عن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي

صلى

صلى الله عليه وسلم قال ما عبد الله بشي افضل من فقه في الدين ولفقيه واحد
اشد على الشيطان من الف عابد ولكل شي عماد وعماد هذا الدين الفقه وقد بين
الشافعي رحمه الله تعالى فضل كل علم فقال من تعلم القران عظمت قيمته ومن تعلم الفقه
نبل مقداره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رايه ومن تعلم
العربية رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه ولعمري ان صيانة النفس اصل
الفضايل لان من اهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلته وتوكلا على ما
يلزم الناس من صيانته سلبوه فضيلة علمه ووسموه بقبيح تبذله فلم يف ما اعطاه
العلم بما سلبه التبذل لان القبيح انم من الجميل والرذيلة اشهر من الفضيلة لان
الناس لما في نفوسهم من الحسد ونزاع المنافسة تنصرف عيونهم عن المحاسن الى
المساوي فلا يحابون محسنا ولا ينقصون مسيئا لا سيما من كان بالعلم موسوما
واليه منسوبا فان زلته لا تقال وهفوته لا تعذر اما لقبح اثرها واغترار اكثر
الناس بها فقد قيل في منثور الحكمة زلة العالم كالسفينة تغرق وتغرق معها
خلقا كثيرا قيل لعيسى عليه السلام من اشد الناس فتنة قال زلة العالم اذا زل
زل بزلته عالم كثير فهذا وجه واما الان اهل الجهل بذمه اغرى وعلى تنقصه
احرى ليسلبوه فضيلة التقدم ويمنعوه مباينة التخصص عنادا لما جهلوه ومقتا
لما باينوه فان الجاهل يرى العلم تكلفا ولوما كما ان العالم يرى الجهل تخلفا وذما
وانشدت عن الربيع للشافعي رحمه الله ورضي عنه يقول

ومنزلة السفيه من الفقيه كمنزلة الفقيه من السفيه
فهذا زاهد في قرب هذا وهذا فيه ازهد منه فيه
اذا غلب الشقاء على سفيه تنطع في مخالفة الفقيه

قال يحيى بن خالد لابنه عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان المرء عدو ما جهل
وانا اكره ان تكون عدو شي من العلم وانشد

تفنن وخذ من كل علم فانما يفوق امرو في كل فن له علم
فانت عدو للذي انت جاهل به ولعلم انت تتقنه سلم

اذا صان ذو العلم نفسه حق صيانتها ولازم فعل ما يلزمها امن تغير الموالي وتنقص

المعادي وجمع الى فضيلة العلم جمال الصيانة وعز النزاهة فصار بالمنزلة التي يستحقها
بفضائله روى ابو الدرداء رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال العلماء ورثة
الانبياء لان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم وروى ابو هريرة رضي
الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال للانبياء على العلماء درجتين وللعلماء على الشهداء
فضل درجة وقال بعض البلغاء ان من الشريعة ان تجل اهل الشريعة ومن الصنيعة ان
تحسن الصنيعة فينبغي لمن استدل بفطرته على استحسان الفضائل واستقباح
الرذائل ان ينفي عن نفسه رذائل الجهل بفضائل العلم وغفلة الاهمال باستيقاظ
المعاناة ويرغب في العلم رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه فلا يلهيه عن طلبه
كثرة مال او جدة ولا نفوذ امر ولا علو منزلة فان من نفذ امره فهو الى العلم احوج
ومن علت منزلته فهو بالعلم ارجى روى انس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس
الملوك وقال بعض علماء السلف اذا اراد الله بالناس خيرا جعل العلم في ملوكهم
والملك في علمائهم وقال بعض الادباء كل عز لا يوكده علم فهو مذلة وكل علم لا
يوكده عقل مضلة وقال بعض البلغاء العلم عصمة الملوك لانه يمنعهم من الظلم ويردهم
الى الحلم ويصدهم عن الاذية ويعطفهم على الرعية فمن حقهم ان يعرفوا حقه ويستبطنوا
اهله واما المال فظل زايل وعارية مسترجعة وليس في كثرته فضيلة
ولو كانت فيه فضيلة لخص الله تعالى به من اصطفاه لرسالته واجتباه لنبوته وقد
كان انبيا الله تعالى مع ما خصهم به من كرامته وفضلهم على ساير خلقه اكثر الناس
فقرا لا يجدون الا بلغة ولا يقدرون على شي حتى صاروا في الفقر مثلا وقال البحتري

فقر كفقر الانبياء وغربة ✽ وصبابة ليس البلاء بواحد

ولعدم الفضيلة في المال ما منحه الله للكافر وحرمه للمومن قال الشاعر

يا لائم الدهر على عسره ✽ لا تحمد الدهر على يسره
كم كافر بالله امواله ✽ تزداد اضعافا على كفره
ومومن ليس له درهم ✽ يزداد ايمانا على فقره
يا لايم الدهر وافعاله ✽ مشتغلا يزري على دهره

الجهل بفضائل العلم وغفلة الاهمال باستيقاظ المعانات ويرغب
في العلم رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه ولا يلهيه عن
طلبه كثرة مال وجدة ولا نفوذ امر وعلو منزلة فان من تفقد
امره فهو الى العلم احوج ومن علت مرتبته فهو بالعلم احق وروى
انس عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الحكمة تزيد الشريف
شرفا وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك وقال بعض
الادبا كل عز لا يوكده جود مذلة وكل علم لا يويد عقل مضلة وقال
بعض علماء السلف اذا اراد الله تعالى بالناس خيرا جعل العلم في ملوكهم
والملك في علمائهم وقال بعض العلما العلم عصمة الملوك لانه يمنعهم من
الظلم ويردهم الى الحكمة ويصدهم عن الاذية ويعطفهم على الرعية
فمن حقهم ان يعرفوا حقه ويستبطنوا اهله فاما المال فظل زايل
وعارية مسترجعة وليس في كثرته فضيلة ولو كانت فيه فضيلة
لخص الله به من اصطفاه لرسالته واجتباه لنبوته وقد كان اكثر
الانبياء عليهم الصلاة والسلام مع ما خصهم الله به من كرامته وفضلهم
على ساير خلقه فقراء لا يجدون بلغة ولا يقدرون على شي حتى
صاروا في الفقر مثلا فقال البحتري فقر كفقر الانبيا وغربة وصبابة
ليس البلاد بواحد ولعدم الفضيلة في المال منحه الله تعالى الكافر
وحرمه المومن قال الشاعر في المال

كم كافر بالله امواله ✽ تزداد اضعافا على كفره
ومومن ليس له درهم ✽ يزداد ايمانا على فقره
يا لايم الدهر وافعاله ✽ مشتغلا يزري على دهره
الدهر مامور له آمر ✽ ينصرف الدهر الى امره

وقد سئل علي بن ابي طالب رضي الله تعالى فضلة ابين العلم

عن
يبين؟

ولو كانت الارزاق تجري على الحجا ✽ هلكن اذا من جهلهن البهايم

الدهر

والمال فقال العلم خير من المال انعلم يحرسك وانت تحرس المال والعلم
حاكم والمال محكوم عليه مات خزان الاموال وبقي خزان العلوم اعيانهم
مفقودة واشخاصهم في القلوب موجودة وقال صالح بن عبد القدوس
وسئل بعض الحكما ايما افضل العلم ام المال فقال الجواب غير هذا ايما
افضل المال او العقل وقال صالح بن عبد القدوس كان خير ثنائه في
الناس قولهم غني واجد وربما امتنع الانسان من طلب العلم لكبره
وعلو سنه واستحيا من تقصيره في صغره ان يتعلم في كبره فرضي بالجهل
ان يكون به موسوما واثره على العلم ان يصير به مبتديا وهذا
من خدع الجهل وغرور الكسل لان العلم اذا كان فضيلة فرغبة
ذوي الاسنان فيه اولى والابتدا بالفضيلة فضيلة ولان يكون
شيخا متعلما خير واولى من ان يكون شيخا جاهلا حكي ان بعض العلما راى
شيخا يحب النظر في العلم ويستحي فقال له يا هذا انستحي ان تكون
في اخر عمرك افضل مما كنت في اوله وذكر ان ابرهيم بن المهدي
دخل على المامون وعنده جماعة يتكلمون في الفقه فقال يا عم ما
عندك فيما يقول هولاء فقال يا امير المومنين شغلونا في الصغر
واشتغلنا في الكبر فقال لم لا نتعلم اليوم قال او يحسن بمثلي طلب
العلم قال نعم والله لان تموت طالبا للعلم خير ان تعيش قانعا
بالجهل قال والى متى يحسن بي طلب العلم قال ما حسنت بك الحيوة
ولان الصغير اعذر وان لم يكن في الجهل عذر لانه لم تطل به مدة
التفريط ولا استمر عليها ايام الاهمال وقد قيل في منثور الحكم جهل
الشباب وعلم محقور واما الكبير فالجهل به اقبح ونقصه عليه افضح لان
علو السن اذا لم يكسبه فضلا ولم يفده علما وكانت ايامه في الجهل
ماضية ومن الفضل خالية كان الصغير افضل منه لان الرجا له اكثر

ولو كانت الارزاق تجري على الحجا هلكن اذا من جهلهن البهايم

لعالايم الدهر وافعاله مشتغلا يزري على دهره

مساويا ١٢

والامل فيه اظهر وحسبك نقصا برجل يكون الصغير المساوي له
في الجهل افضل منه . وانشد بعض اهل الادب
ه اذا لم تكن مر السنين مترجما ؛ عن الفضل في الانسان سميته طفلا
ه وما تنفع الاعوام حين تعدها ؛ ولم تستفد منهن علما ولا فضلا
ه ارى الدهر من سوء التصرف مايلا ؛ الى كل ذي جهل كان به جهلا
وربما امتنع من طلب العلم لتعذر الكفاية وبشغله اكتسابها
عن التعلم وهذا وان كان من غيره اعذر مع انه قل ما يكون
ذلك الا عند ذي شره عزيب وشهوة مستعدة فينبغي ان يصرف
الى العلم حظا من زمانه فليس كل الزمان زمان الاكتساب ولا بد
للمكتسب من اوقات الراحة والاستراحة وايام العطله ومن
صرف نفسه الى الكسب حتى لم يترك لها فراغا الى غيره فهو من عبيد
الدنيا واسراء الحرص وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال لكل شيء فطرة فمن كانت فطرته الى العلم فقد نجا وروي عنه صلى
الله عليه وسلم انه قال كونوا علماء صالحين فان لم تكونوا علماء صالحين
فجالسوا العلماء واستمعوا علما يدلكم على الهدى ويردكم عن الردا
وقال بعض الحكما من صاحب العلماء وقر ومن جالس السفها
حقر وربما منعه من طلب العلم ما يظنه من صعوبته وبعد
غايته ويخشى من قلة ذهنه وبعد فطنته وهذا الظن
اعتذار ذوي النقص وخيفة اولي العجز لان الاخبار قبل الاختبار
جهل والخشية قبل الابتلا عجز قال الشاعر
ه لا تكونن للامور هيوبا ؛ فالى خيفة يصير الهيوب ؛
وقال رجل لابي هريرة اريد ان اتعلم العلم واخاف ان اضيعه
فقال كفا بترك العلم اضاعة ولبس وان تفاضلت الافهام

ولو كانت الارزاق تجري على الحجا هلكن اذا من جهلهن البهايم

وتفاوتت الفطن ما ينبغي لمن قل منها حظه ان ييأس من
نيل القليل وادراك اليسير الذي يخرج به من حد الجهالة
الى ادنى مراتب التخصيص فان الماء مع لينه يوثر في صم الصخور
وكيف لا يوثر العلم الزكي في نفس راغب شهي وطالب خلي
لا سيما وطالب العلم معان قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الملائكة
لتضع اجنحتها لطالب العلم رضا بما طلب وربما منع ذا
سفاهة من طلب العلم ان يصور في نفسه حرفة اهله وتضايق
الامور مع الاشتغال به حتى يستهم بالادبار ويتوسمهم
بالحرمان فان راى محبرة تطير منها او وجد كتابا اعرض عنه وان
راى متحليا بالعلم هرب منه كانه لم يره عالما مقبلا وجاهلا
مدبرا ولقد رايت من هذه الطبقة جماعة ذوي منازل
واحوال كنت اخفي عنهم ما يصحبني من محبرة او كتاب لئلا اكون
عندهم مستثقلا وان كان البعد منهم مونسا ومصلحا والقرب
منهم موحشا ومفسدا فقد قال بزرجمهر الجهل في القلب كالنز
في الارض يفسد ما حوله لكني اتبعت فيهم الحديث المروي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خالقوا الناس باخلاقهم وخالفوهم
في اعمالهم وقال رب جهل وقيت به علما وسفه حميت به حلما
وهذه الطبقة مما لا يرجى لها صلاح ولا يومل لها فلاح لان
من اعتقد ان العلم شين وتركه زين وان للجهل اقبالا مجديا
وللعلم ادبارا مكديا كان ضلاله مستحكما ورشاده مستبعدا
وكان هو الخامس الهالك قال فيه علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه اغد عالما او متعلما او مستمعا او محبا ولا تكن الخامس
فتهلك وليس لمن هذه حاله في العذل نفع ولا في الاستصلاح

له

وكان بزرجمهر في الجهل
نظر قول القلب كالنز في الارض يفسد ما حوله

بعض البلغا

الذي

وقد روي هذا الحديث عن عبد الرحمن بن ابي بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا صح

ولو كانت الارزاق تجري على الحجا هلكن اذا من جهلهن البهائم

لائم الدهر وافعاله مشتغلا يزري على دهره

الدهر

به علما او سفه حسبت به حلما وهذه الطبقة ممن لا يرجى لها صلاح ولا يؤمل لها فلاح
لان من اعتقد ان العلم شين وان تركه زين وان للجهل اقبالا مجديا وللعلم ادبارا
مكديا كان ضلاله مستحكما ورشاده مستبعدا وكان هو الخامس الهالك الذي
قال فيه علي رضي الله عنه كن عالما او متعلما او مستمعا او محبا ولا تكن الخامس فتهلك
وقد رواه خالد الحذا عن عبد الرحمن بن ابي بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم مسندا
وليس لمن هذه حاله في العذل نفع ولا في الاستصلاح مطمع وقد قيل لبزرجمهر
ما لكم لا تعاتبون الجهال قال انا لا نكلف العمي ان يبصروا ولا الصم ان يسمعوا وهذه
الطبقة تبعد ايضا من العقلا لنفورها من اهل العلم وتعتقد ان العاقل محارف
وان الاحمق محظوظ وناهيه من يعتقد هذا في العلم والعقل وانهما سبب لقلة الحظ
وقد انصرفت عيونهم عن حرمان اكثر الجهال وادبار اكثر النوكى والعلة في ذلك ان العلما
والعقلا قليلة وعليهم من فضلهم سمة ولذلك قيل العلما غربا لكثرة الجهال فاذا
ظهرت سمة فضله وصادف ذلك قلة حظ بعضهم فتوهموا بالتمييز واشتهروا
بالتعيين وصاروا مقصودين باشارة المتعنتين ملحوظين بايماء الشامتين والجهال
والحمقا لما كثروا ولم يتخصصوا انصرفت عنهم النفوس فلم يلحظ المحروم منهم بطرف
شامت ولا قصد المجدود منهم باشارة عانت فلذلك ظن الجاهل المرزوق ان الفقر
والضيق يختصان بالعلم والعقل دون الجهل والحمق ولو تصفحت احوال العلما والعقلا
مع قلتهم لوجدت الاقبال في اكثرهم ولو خبرت الجهال والحمقا مع كثرتهم لوجدت الحرمان
في اكثرهم وانما يصير ذو الحال الواسعة منهم ملحوظا مشتهرا لان حظه عجيب واقباله
مستغرب كما ان حرمان العالم العاقل غريب واقلاله عجيب ولم يزل الناس على سالف
الدهور من مثل ذلك متعجبين وبه معتبرين حتى قيل لبزرجمهر ما اعجب الاشيا
فقال نجح الجاهل واكدا العاقل لكن الرزق بالجد والحظ لا بالعلم والعقل حكمة
منه تعالى يدل بها على قدرته واجرا الامور على مشيئته وقد قالت الحكما لو جرت
الاقسام على قدر العقول لم تعش البهايم فنظمه ابو تمام فقال

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ... ويكدي الفتى في دهره وهو عالم
ولو كانت الارزاق تجري على الحجا ... هلكن اذا من جهلهن البهايم

وقال كعب بن زهير بن ابي سلمى

لو كنت اعجب من شي لاعجبني … سعي الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لامور ليس يدركها … والنفس واحدة والهم منتشر

على ان العلم والعقل سعادة واقبال وان قل معهما المال وضاقت معهما الحال والجهل والحمق حرمان وادبار وان كثر معهما المال واتسع فيهما الحال لان السعادة ليست بكثرة المال فكم من مكثر شقي ومقل سعيد وكيف يكون الجاهل الغني سعيدا والجهل يضعه ام كيف يكون العالم الفقير شقيا والعلم يرفعه وقد قيل في منثور الحكمة كم ذليل اعزه علمه وكم عزيز اذله جهله وقال عبد الله بن المعتز الجاهل كروضة على مزبلة وقال بعض الحكما لبنيه يا بني تعلموا العلم وان لم تنالوا به من الدنيا حظا فلان يذم الزمان لكم احب الي من ان يذم الزمان بكم وقال بعض الادبا من لم يفد بالعلم مالا كسب به جمالا وانشد بعض الادبا لابن طباطبا

حسود مريض القلب يخفي انينه … ويضحي كئيب البال مضنى حزينه
يلوم على ان رحت للعلم طالبا … اجمع من عند الرواة فنونه
واعرف ابكار الكلام وعونه … واحفظ مما استفيد عيونه
فيا لايمي دعني اغالي بقيمتي … فقيمة كل الناس ما يحسنونه

وانا استعيذ بالله من خدع الجهل المزلة وبوادر الحمق المضلة واسله السعادة بعقل رادع يستقيم به من زل وعلم نافع يستهدي به من ضل وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا استرذل الله عبدا احظر عليه العلم فينبغي لمن زهد في العلم ان يكون فيه راغبا ولمن رغب فيه ان يكون له طالبا ولمن طلبه ان يكون فيه واعيا ومنه مستكثرا ولمن استكثر منه ان يكون به عاقلا ولا يطلب لتركه احتجاجا ولا لتقصيره فيه عذرا وقد قال الشاعر

فلا تعذراني في الاسآة انه … شرار الرجال من يسي فيعذر

ولا يسوف نفسه بالمواعيد الكاذبة ويمنيها بانقطاع الاشغال المتصلة فان في كل وقت شغل وفي كل زمان عذر وقد قال الشاعر

نروح ونغدو لحاجاتنا … وحاجة من عاش لا تنقضي

وليقصد طلب العلم واثقا بالله وتيسيره قاصدا وجه الله بنية خالصة وعزيمة صادقة

فقد

فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من تعلم علما لغير الله او اراد به غير الله فليتبوا مقعده من النار وروى ابو هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعلموا العلم قبل ان يرفع ورفعه ذهاب اهله فان احدكم لا يدري متى يحتاج الى ما عنده وليحذر بطلبه المرا والريا فان المماري مهجور لا ينتفع والمرائي به محضور لا ينتفع وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تعلموا العلم لتماروا به السفها ولا لتجادلوا به العلما فمن فعل ذلك منكم فالنار النار واعلم انه ليس المماري به هو المناظر فيه طلبا للصواب منه ولكن القاصد لدفع ما يرد اليه من فاسد او صحيح وفيهم جات الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا يجادل الا منافق او مرتاب وقال الاوزاعي اذا اراد الله بقوم شرا اعطاهم الجدل ومنعهم العمل وانشد الرقاشي لمصعب بن عبد الله

اجادل كل معترض ظنين … واجعل دينه غرضا لديني
فاترك ما علمت لراي غيري … فليس الراي كالعلم اليقين
وما انا والخصومة وهي شي … يصرف في الشمال وفي اليمين
فاما ما علمت فقد كفاني … واما ما جهلت فجنبوني

وقد بين ذلك بعض العلما فقال لصاحبه لا يمنعك حذار المرا من حسن المناظرة فان المماري هو الذي لا يريد ان يتعلم منه احد ولا يرجوا ان يتعلم من احد واعلم ان لكل مطلوب باعثا والباعث على المطلوب شيان رغبة او رهبة فليكن طالب العلم راغبا راهبا فاما الرغبة في ثواب الله تعالى لطالبي مرضاته وحافظي مفترضاته واما الرهبة فمن عقاب الله لتاركي اوامره ومهملي زواجره فاذا اجتمعت الرغبة والرهبة اديا الى كنه العلم وحقيقة الزهد لان الرغبة اقوى الباعثين على العلم والرهبة اقوى السببين في الزهد وقد قالت الحكما اصل العلم الرغبة وثمرته السعادة واصل الزهد الرهبة وثمرته العبادة فاذا اقترن العلم والزهد فقد تمت السعادة وعمت الفضيلة وان افترقا فيا ويح مفترقين ما اضر افتراقهما واقبح انفرادهما وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من ازداد في العلم رشدا ولم يزدد في الدنيا زهدا لم يزدد من الله الا بعدا وقال بعض الحكما الفقيه بغير ورع كالسراج يضي للبيت ويحرق نفسه وقال ملك ابن دينار من لم يوت من العلم ما يقمعه فما اوتي من العلم ما ينفعه

واعلم ان للعلوم اوايل تودي الى اواخرها ومداخل تفضي الى حقايقها فليبتدي طالب
العلم باوايلها لينتهي الى اواخرها وبمداخلها ليفضي الى حقايقها ولا يطلب الاخر قبل الاول
ولا الحقيقة قبل المدخل فلا يدرك الاخر ولا يعلم الحقيقة لان البنا على غير اس لا يبنى
والثمر من غير غرس لا يجتنى ولذلك اسباب فاسدة ودواعي واهية فمنها ان تكون
في النفس اغراض تختص بنوع من العلم فيدعو الغرض الى قصد ذلك النوع ويعدل عن
مقدماته كرجل يوثر القضا ويتصدى للحكم فيقصد من علم الفقه ادب القضاة وما
يتعلق عليه من الدعاوي والبينات او يحب الارتسام بالشهادة فيتعلم كتاب الشهادات
ليصير موسوما بجهل ما يعاني فاذا ادرك ذلك ظن انه قد حاز من العلم جمهوره
وادرك منه مشهوره ولم ير ما بقي منه الا غامضا طلبه عنا وغويصا استخراجه
فنا لقصور همته على ما ادرك وانصرافها عما ترك ولو نصح نفسه لعلم ان ما
ترك اهم مما ادرك لان بعض العلم مرتبط ببعض ولكل باب منه تعلق بما قبل
فلا تقوم الاواخر الا باوايلها وقد يصح قيام الاوايل تركا للاواخر والاوايل فاذا
ليس يعرى من لوم وان كان تارك الكل الوم ومنها ان يحب الاشتهار بالعلم
اما للتكسب او لتجمل فيقصد من العلم ما اشتهر به من مسايل الجدل وطريق النظر ويتعاطى
علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه ليناظر على الخلاف وهو لا يعرف الوفاق ويجاول الخصومة وهو لا يعرف مذهبه مخصوما وقد رايت من هذه الطبقة عددا
قد تحققوا بالعلم تحقق المتكلمين واشتهروا به اشتهار المتحذقين اذا اخذوا في
مناظرة الخصوم ظهر كلامهم واذا سيلوا عن واضح مذهبهم ضلت افهامهم
حتى انهم يتخبطون في الجواب خبط عشوا فلا يظهر لهم صواب ولا يتقرر لهم
جواب ثم لا يرون ذلك نقصا اذا انطلقوا في المجالس كلاما موصوفا ولفقوا على
المخالف حجاجا مالوفا وقد جهلوا من المذهب ما يعلمه المبتدي ويتداوله الناشي
فهم دايما في لغط مضل او غلط مزل وقد رايت منهم قوما يرون الاشتغال بالمذهب
تكلفا والاستكثار منه تخلفا وحاجني بعضهم عليه فقال لان علم حافظ
المذهب مستور وعلم المناظر عليه مشهور قلت وكيف يكون حافظ المذهب
مستورا وهو سريع الجواب كثير الصواب قال لانه ان لم يسيل سكت فلم يعرف

والمناظر

لها فيصير طلب الاواخر بترك الاوايل

والمناظر ان لم يسيل سال فعرف فقلت اليس اذا سيل الحافظ فاصاب
بان فضله قال نعم قلت افليس اذا سيل المناظر فاخطا بان نقصه وقد قيل
عند الامتحان يكرم المرء او يهان فامسك عن جوابي لانه اذا انكر كابر
المعقول ولو اعترف لزمته الحجة والامساك اذعان والسكوت رضا ولان
ينقاد الى الحق اولى من ان يستفزه الباطل وهذه طريقة من يقول اعرفوني
وهو غير معروف ومن لم يعرف العلم لبعيد ان يعرف به وقال زهير
ومهما تكن عند امري من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم
ومن اسباب التقصير ايضا ان يغفل عن التعليم في الصغر ثم يشتغل
به في الكبر فيستحيي ان يبتدي بما يبتدي به الصغير ويستنكف ان يساويه
الحدث الغرير فيبدا باواخر العلوم واطرافها ويهتم بحواشيها واكنافها
ليتقدم على الصغير المبتدي ويساوي الكبير المنتهي وهذا ممن قد رضي بخداع
نفسه وقنع بمداهنة حسه لان من تعقله ان احتشم معقول لكل ذي حس
يشهد بفساد هذا التصور وينطق باختلال هذا التخيل لانه شي لا يقوم
في وهم والجهل بما يبتدي به المتعلم اقبح من جهل ما ينتهي اليه العالم وقال
الشاعر ترق الى صغير الامر حتى يرقيك الصغير الى الكبير
فتعرف بالتفكر في صغير كبيرا بعد معرفة الصغير
ولهذا المعنى واشباهه كان التعلم في الصغر احمد وروى مروان عن حامد
عن اسماعيل عن ابي الدردا رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم مثل الذي يتعلم في صغره كالنقش على الحجر والذي يتعلم في كبره كالذي
يكتب على الما وقد قال علي رضي الله عنه قلب الحدث كالارض الخالية مهما
القي فيها من شي قبلته وانما كان كذلك لان الصغير افرغ قلبا واقل شغلا
وايسر تبذلا واكثر تواضعا وقد قيل في منثور الحكمة المتواضع من طلاب
العلم اكثرهم علما ونفعا كما ان المكان المنخفض اكثر البقاع ما فاما ان يكون الصغير
اضبط من الكبير اذا عري من هذه المواضع واوهى منه اذا خلي من هذه القواطع
حكي ان الاحنف بن قيس سمع رجلا يقول التعلم في الصغر كالنقش في الحجر

فقال الاحنف الكيس اكثر عقلاً ولكنه اشغل قلبًا ولعمري لقد فحص الاحنف عن
المعنى ونبه على العلة لان قواطع الكبر كثيرة فمنها ما ذكرنا من الاستحيا ومنها وفور
شهواته وتقسيم افكاره قال الشاعر

صرف الهوى عن ذي الهوى عز ان الهوى لنيل له ميز

وقال بعض البلغاء القلب اذا علق كالرهن اذا غلق ومنها الطوارق المزعجة والهموم
المذهلة وقد قال الحكيم الهم قيد الحواس وقال بعض البلغا من بلغ اشده لاقى
من العيش اشده ومنها كثرة اشتغاله وترادف خلاله حتى انها لتستوعب زمانه
وتستنفد ايامه فان كان ذا رياسة الهته وان كان ذا معيشة قطعته ولذلك
قيل تفقهوا قبل ان تسودوا وقد قال بزرجمهر الشغل مجهدة والفراغ مفسدة
فينبغي لطالب العلم ان لا يني في طلبه وينتهز الفرصة به وربما شح الزمان
بما سمح وضن بما منح ويبتدي العلم باوله ويأتيه من مدخله ولا يتشاغل بطلب
ما لا يضر جهله فيمنعه ذلك من ادراك ما لا يسع جهله فان لكل علم فضولا مذهلة
وشذوذا مشغلة ان صرف اليها نفسه قطعته عما هو اهم منها وقد قال ابن عباس
رضي الله عنه العلم اكثر من ان يحصى فخذوا من كل شي احسنه وقال المامون بن الرشيد
رحمهما الله ما لم يكن من العلوم بارعا فبطون الصحف اولى به من قلوب الرجال وقال بعض
الحكما ترك ما لا يعنيك يثمر لك ما يغنيك ولا ينبغي ان يدعوه ذلك الى ترك ما
استصعب عليه اشعارا لنفسه ان ذلك من فضول علمه واعذارا لها في ترك الاشتغال
فان ذلك مطية النوكى وعذر المقصرين ومن اخذ من العلم ما تسهل وترك منه ما تعذر
كان كالقناص اذا امتنع عليه الصيد تركه فلا يرجع الا خائبا اذ ليس يرى الا
ممتنعا كذلك العلم كله صعب على من جهله سهل على من علمه لان معانيه التي يتوصل
اليها مستودعة في كلام مترجم عنها وكل كلام مستعمل يجمع لفظا مسموعا ومعنى
مفهوما فاللفظ كلام يعقل بالسمع والمعنى تحت اللفظ يفهم بالقلب وقد قال بعض
الحكما العلوم مطالعها من ثلاثة اوجه قلب مفكر ولسان معبر وبيان مصور فاذا
عقل الكلام بسمعه فهم معانيه بقلبه واذا فهم المعاني سقطت عنه كلفة
استخراجها وبقي عليه معاناة حفظها واستقرارها لان المعاني شوارد تضل بالاغفال

وللعلوم

نفسه صح — طلبه صح — الخلفا صح

والعلوم وحشية تنفر بالارسال فاذا حفظها بعد الفهم انست واذا ذكرها بعد
الانس رست وقال بعض الحكما من اكثر المذاكرة بالعلم لم ينس ما علم واستفاد
ما لم يعلم قال الشاعر

اذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه ولم يستفد علما نسي ما تعلما
فكم جامع للكتب في كل مذهب يزيد مع الايام في جهلها عمى

وان لم يفهم معاني ما سمع كشف عن السبب المانع منها ليعلم العلة في تعذر فهمها
فان بمعرفة اسباب الاشيا وعللها ترجع الى تلافي ما شذ وصلاح ما فسد وليس
يخلو السبب المانع من ثلاثة اقسام اما ان يكون لعلة في الكلام المترجم او لعلة
في المعنى المستودع او يكون لعلة في السامع المستخرج فان كان لعلة في الكلام
المترجم عنها لم يخل ذلك من ثلاثة احوال **الحال الاولى** ان يكون لتقصير اللفظ
عن المعنى فيصير تقصير اللفظ عن ذلك المعنى سببا مانعا من فهم ذلك المعنى وهذا
قد يكون من وجهين اما من حصر المتكلم وعيه واما من بلادته وقلة فهمه
والحال الثانية ان تكون لزيادة اللفظ على المعنى فتصير الزيادة علة
مانعة من فهم المقصود منه وهذا قد يكون من احد وجهين اما من هذر
المتكلم واكثاره واما لسوء ظنه بفهم سامعه **والحال الثالثة** ان يكون
لمواضعة يقصدها المتكلم فاذا لم يعرفها السامع لم يفهم معانيها فاما تقصير
اللفظ وزيادته فمن الاسباب الخاصة لا العامة لانك لست تجد ذلك عاما
في كل كلام وانما تجده في بعضه فان عدلت عن الكلام المقصر الى المستوفى وعن
الزائد الى الكافي ارحت نفسك من تكلف ما يكد خاطرك وان اقمت على
استخراجه اما لضرورة دعتك اليه عند اعواز غيره او لحمية داخلته عند
تعذر فهمه فانظر في سبب الزيادة والتقصير فان كان التقصير لحصر والزيادة
لهذر سهل عليك استخراج المعنى منه لان ما له في الكلام محصول لا يجوز
ان يكون المحتمل منه اكثر من الصحيح وفي الاكثر على الاقل دليل وان كانت
زيادة اللفظ على المعنى لسوء ظن المتكلم بفهم السامع كان استخراجه
اسهل وان كان تقصير اللفظ عن المعنى لسوء فهم المتكلم فهو اصعب الامور

جمعه — لمواضع

خالاً وابعدها استخراجاً لان ما لا يفهمه مكلمك فانت من فهمه ابعد الا ان يكون
لفرط ذكايك وجودة خاطرك تتنبه باشارته على استنباط ما عجز عنه واستخراج
ما قصّر فيه فتكون فضيلة الاستيفاء لك وحق التقدم له **واما المواضعة**
فضربان عام وخاص فالعام كمواضعة العلماء فيما جعلوه القاباً للمعاني التي
لا يستغني المتعلم عنها ولا يقف على معاني كلامهم الا بها كما جعل المتكلمون للجوهر
والعرض والجسم القاباً تواضعوها لمعان اتفقوا عليها وليست تجد من العلوم علماً
يخلو من هذا وهذه المواضعة العامة تسمى عرفاً والله اعلم **و**اما الخاصة فمواضعة
الواحد بقصد باطن كلامه غير ظاهره فان كانت في الكلام كانت رمزاً
وان كانت في الشعر كانت لغزاً فاما الرمز فلست تجده في كلام مغنوي
ولا كلام لغوي وانما يختص غالباً باحد شيئين اما مذهب شنيع يخفيه معتقده
ويجعل الرمز به سبباً لتطلع النفوس اليه واحتمال التاويل فيه سبباً لدفع التهمة
عنه **و**اما ما يدعي اربابه انه علم معوز وان ادراكه بديع معجز كالصنعة التي
وضعها اربابها اسماً لعلم الكيميا فرمزوا باوصافه واخفوا معانيه ليوهموا الشح
به والاسف عليه خديعة للعقول الواهية والاراء الفاسدة وقد قال الشاعر
منعت شيئاً فاكثرت الولوع به احب شيء الى الانسان ما منعا
ثم لم يكونوا ابرياً من عهدة ما قالوه اذا جُرّب ولو كان ما تضمن هذا النوعان واشباههما
حقاً وعلماً مستفاد الخرج من الرمز الخفي الى اللفظ الجلي فان اغراض الناس مع اختلاف
اهوايهم لا تتفق على ستر سليم واخفاء مفيد وقد قال زهير
والستر دون الفاحشات ولا يلقاك دون الخير من ستر
وربما استعمل الرمز من الكلام فيما يراد تفخيمه من المعاني وتعظيمه من الالفاظ ليكون احلى
في القلوب موقعاً واعلى في النفوس موضعاً فيصير بالرمز سائراً وفي الصحف مخلداً كالذي
يحكى عن فيثاغورس في وصاياه المرموزة انه قال احفظ ميزانك عن الندا واوزانك
عن الصدا فحفظك الميزان من الندى حفظ اللسان من الخنا وحفظ الاوزان من الصدا
حفظ العقل من الهوى فصار بهذا الرمز مستحسناً ومدوناً ولو قاله باللفظ الصريح
والمعنى الفصيح لما سار عنه ولا استحسن منه وعلة ذلك ان المحجوب عن الافهام

كالمحجوب

كالمحجوب عن الابصار فيما يحصل له في النفوس من التعظيم وفي القلوب من التفخيم وما
ظهر منها ولم يحتجب هان واستر ذل وهذا انما يصح استجلاؤه فيما قل وهو باللفظ
الصريح مستقل **فاما** العلوم المنتشرة التي تتطلع النفوس اليها فقد استغنت
بقوة الباعث عليها وشدة الداعي اليها عن الاستدعاء اليها بمستحيل
ولفظ مستغرب بل ذلك منفر عنها لما في التشاغل باستخراج رموزها
من الابطاء عن ذكرها وتصور معانيها وهذا حال الرمز **واما اللغز**
فهو تجدي اهل الفراغ وشغل ذوي البطالة ليتنافسوا في تباين قرائحهم ويتفاخروا
في سرعة خواطرهم فيستكد واخواطر قد منحوا صحتها فيما لا يجدي نفعاً
ولا يفيد علماً فهم كاهل الصراع الذين قد صرفوا ما منحوه من صحة اجسامهم
الى صراع كدود يصرع عقولهم ويهد اجسامهم لا يكسبهم حمداً ولا يجدي
عليهم انظروا الى قول الشاعر
رجل مات وخلى رجلاً ابن ام ابن ابي اخت ابيه
معه ام بني اولاده وابو اخت ابني عم اخيه
اخبرني عن هذين البيتين وقد روعك صعوبة ما تضمنهما من السؤال
اذا استكدك الفكر في استخراجه فعلمت انه اراد ميتاً خلف اباً وزوجة وعماً
ما الذي افادك من العلم ونفى عنك من الجهل الست بعد علمه تجهل ما كنت جاهلاً
من قبله ولو ان السايل قلب لك السؤال فاخر ما قدم وقدم ما اخر لكنت
في الجهل به قبل استخراجه كما كنت في الجهل بالاول فقد كددت فكرك
واتعبت خاطرك ثم لا تعدم ان يرد عليك مثل هذا مما تجهله فتكون فيه كما
كنت فيما قبله فاصرف نفسك تولى الله رشدك عن علوم النوكى وتكلف
البطالين **فقد** روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من حسن اسلام المرء
تركه ما لا يعنيه **ثم** اجعل ما منّ الله به عليك من صحة القريحة وسرعة
الخاطر عليه مذخوراً وكد القريحة فيه مشكوراً **فقد** روى سعيد بن ابي
هند عن ابن عباس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمتان
معبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ **و**نحن نستعيذ بالله تعالى من ان

يُغَيّرِ فضل نعمته علينا ويجهل نفع احسانه الينا وقد قيل في منثور الحكم من الفراغ
تكون الصبوة وقال بعض البلغا من امضى يومه في غير حق قضاه او فرض اداه
او مجد اثله او حمد حصله او خير اسسه او علم اقتبسه فقد عق يومه وظلم
نفسه وقال بعض الشعراء

لقد هاج الفراغ عليك شغلا ۞ واسباب البلاء من الفراغ

فهذا تعليل ما في الكلام من الاسباب المانعة من فهم معانيه حتى خرج بنا الاستيفا
الى الاطالة والكشف الى ما غامض **واما القسم الثاني** وهو ان يكون السبب المانع
من فهم السامع لعلةٍ في المعنى المستودع فلا يخلوا حال المعنى من ثلاثة اقسام اما
ان يكون مستقلا بنفسه او يكون مقدمة لغيره او يكون نتيجة من غيره فاما
[ما يكون مستقلا] بنفسه فضربان جلي وخفي فاما الجلي فهو يسبق الى فهم متصوره من اول وهلة
وليس هو من اقسام ما يشكل على ذي تصور واما الخفي فيحتاج في ادراكه
الى زيادة تامل وفضل معاناة ليتجلى عما اخفي وينكشف عما اغمض وباستعمال
الفكر فيه يكون الارتياض به وبالارتياض به يسهل منه ما استصعب ويقرب
منه ما بعد فان للرياضة جراة وللدربة تاثيرا واما ما كان مقدمة لغيره
فضربان احدهما ان تقوم المقدمة بنفسها وان نُعِت الى غيرها فيكون كالمستقل
بنفسه في تصوره وفهمه وان كان مستدعيا للنتيجة والثاني ان يكون مفتقرا الى نتيجته
فيتعذر فهم المقدمة الا بما يتعقبها من النتيجة لانها تكون بعضا منه وتبعيض
المعنى يشكل لان بعضه لا يغني عن كله واما ما كان نتيجة لغيره فهو لا يدرك
الا باوله ولا يتصور على حقيقته الا بمقدمته والاشتغال به قبل المقدمة عنا
واتعاب الفكر في استنباطه قبل قاعدته اذا فهذا يوضح تعليل ما في المعاني من
الاسباب المانعة من فهمها **واما القسم الثالث** وهو ان يكون السبب المانع
لعلة في المستمع فضربان احدهما من ذاته والثاني من طارئ طرا عليه فاما ما كان
من ذاته فنوعان احدهما ما يمنعه من تصور المعنى وفهمه والثاني ما كان مانعا
من حفظه بعد تصوره وفهمه فالاول بلادة وقلة فطنة وهو الداء العيا وقد
قال بعض الحكما اذا افتقد العالم الذهن قل على الاضداد احتجاجه وكثر الى الكتب

احتياجه

احتياجه وليس لمن بلي به الا الصبر والاقلال لانه على القليل اقدر وبالصبر ينال
ويظفر وقد قال بعض الحكماء قدم لحاجتك بعض لجاجتك وليس يقدر على الصبر
من هذه حاله الا ان يكون غالب الشهوة بعيد الهمة فيشعر قلبه الصبر لقوة شهوته
ويجده احتمال التعب لبعد همته فاذا تلوح له المعنى بمساعدة الشهوة اعقبه
انجاح الامليين ونشاط المدركين وقل عنده كل كثير وسهل عليه كل عسير
وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال انكم لا تنالون ما تحبون الا بالصبر
على ما تكرهون ولا تبلغون ما تهوون الا بترك ما تشتهون وقيل في منثور
الحكم اتعب قدمك فكم تعب قدمك وقال بعض البلغا اذا اشتد الكلف هانت
الكلف وانشد بعضهم لعلي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه ورحمه

لا تعجلن ولا تدخلك مضجرة ۞ فالنجح يهلك بين العجز والضجر

واما المانع من حفظه بعد تصوره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة
التقصير واهمال التواني فينبغي لمن بلي به ان يستدرك تقصيره بكثرة التفكر
ويوقظ غفلته بادامة النظر فقد قيل لن يدرك العلم من لا يطيل درسه ويكد
نفسه وكثرة الدرس كد ولا يصبر عليه الا من يرى العلم مغنما والجهالة
مغرما فيحتمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم وتنتفي عنه معرة الجهل فان نيل
العظيم بامر عظيم وعلى قدر الرغبة يكون الطلب وبحسب الراحة يكون التعب
وقد قيل علة الراحة قلة الاستراحة وقال بعض الحكما اكمل الراحة ما كانت عن
كد التعب واعز العلم ما كان عن الطلب وربما استثقل المتعلم الدرس والحفظ
واتكل بعد فهم المعاني على الرجوع الى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة اليها فلا
يكون الا كمن اطلق ما صاده ثقة بالقدرة عليه بعد الامتناع منه فلا تعقبه الثقة
الا خجلا والتفريط الا ندما وهذه حال قد يدعوا اليها احد ثلاثة اشيا اما الضجر
من معاناة الحفظ ومراعاته او طول الامل في التوفر عليه عند نشاطه او فساد الراي
في عزيمته وليس يعلم ان الضجور خايب وان الطويل الامل مغرور وان الفاسد الراي
مصاب والعرب تقول في امثالها حرف في قلبك خير من الف في كتبك وقالوا لا خير
في علم لا يعبر معك الوادي ولا يعمر بك النادي وانشدني عن الربيع للشافعي رحمهما الله تعالى

علمي معي حيث ما يممت ينفعني ... قلبي وعاء له لا بطن صندوق
ان كنت في البيت كان العلم فيه معي ... او كنت في السوق كان العلم في السوق

وربما اعتنى المتعلم بالحفظ من غير تصور ولا فهم حتى يصير حافظا لالفاظ المعاني قيما بتلاوتها وهو لا يتصورها ولا يفهم ما تضمنها يروي بغير روية ويخبر عن غير خبرة فهو كالكتاب الذي لا يدفع شبهة ولا يويد حجة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال همة السفهاء الرواية وهمة العلما الرعاية وقال بن مسعود رضي الله عنه كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له رواة فقد يرعوي من لا يروي ويروي من لا يرعوي وحدث الحسن البصري بحديث فقال له رجل يا ابا سعيد عن من قال ما تصنع بعن من اما انت فقد نالتك عظته وقامت عليك حجته وربما اعتمد على حفظه وتصوره واغفل عن تقييد العلم في كتبه ثقة بما قد استشعر في نفسه وهذا خطا منه لان الشك معترض والنسيان طاري وقد روى انس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال قيدوا العلم بالكتاب وروي ان رجلا شكا الى النبي صلى الله عليه وسلم النسيان فقال استعن بيمينك اي اكتب حتى ترجع اذا نسيت الى ما كتبت وقال الخليل بن احمد اجعل ما في الكتب راس المال وما في قلبك للنفقه وقال منصور لولا ما عقدته الكتب من تجارب الاولين لانحل مع النسيان عقول الاخرين وقال بعض البلغاء ان هذه الاداب نوافر تند عن عقل الاذهان فاجعلوا الكتب عنها حماة والاقلام لها رعاة واما الطاري فنوعان احدهما شبهة يعترض المعنى فيمنع من تصوره وتدفع عن ادراك حقيقته فينبغي ان يزيل تلك الشبهة عن نفسه بالسوال والنظر ليصل الى تصور المعنى وادراك حقيقته ولذلك قال بعض العلما الا تخل قلبك من المذاكرة فتعود عقيما ولا تعف طبعك من المناظرة فتصير سقيما وقال بشار

شفاء العمى طول السوال وانما ... دوام العمى طول السكوت على الجهل

والثاني افكار تعارض الخاطر فيذهل عن تصور المعنى وهذا سبب قل ما يعرى منه احد لا سيما من انبسطت امالة واتسعت امانيه وقد يقل في من لم يكن له في غير العلم ارب ولا فيما سواه همة فان طرا على الانسان لم يقدر على مكابرة نفسه على الفهم وغلبة قلبه على التصور لان القلب مع الاكراه اشد نفورا وابعد قبولا وقد جا الاثر

ان القلب

[illegible] اذا اكره عمي ولاكن يعمل في دفع ما طرا عليه من هم مذهل او فكر [illegible] له القلب مطيعا قال الشاعر

[illegible] في المودة شافع ... اذا لم يكن بين الضلوع شفيع

[illegible] ان لهذه القلوب تنافرا كتنافر الوحش فتالفوها بالاقتصاد [illegible] وسط في التقويم لتحسن طاعتها ويدوم نشاطها فهذا تعليل ما في [illegible] الاسباب المانعة في فهم المعاني وهاهنا قسم رابع يمنع من معرفة الكلام وفهم معانيه لكنه قد يعرى من بعض الكلام فلذلك لم ندخله في جملة اقسامه ولم نستجز الاخلال بذكره وهو الخط لان من الكلام ما كان مسموعا لا يحتاج في فهمه الى تامل الخط فيه والمانع له من فهمه هو على ما ذكرنا من اقسامه ومنه ما كان مستودعا بالخط محفوظا بالكتابة ماخوذا بالاستخراج فكان الخط حافظا له ومعبرا عنه وقد روي عن بن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى او اثارة من علم قال الخط وروي عن مجاهد في قوله تعالى يوتي الحكمة من يشا قال الخط ومن يوتى الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا يعني الخط والعرب تقول الخط احد اللسانين وحسنه احدى الفصاحتين وقال جعفر بن يحيى الخط سمط الحكمة به تفصل شذورها وينظم منثورها وقال بن المقفع اللسان مقصور على القريب الحاضر والقلم على الشاهد والغايب وهو للغابر الكاين مثله للقايم الراهن وقال حكيم الروم الخط هندسة روحانية وان ظهر بالة جسدانية وقال حكيم العرب الخط اصل في الروح وان ظهر بحواس الجسد واختلف في اول من كتب الخط فذكر كعب الاحبار ان اول من كتب ادم عليه السلام كتب ساير الكتب قبل موته بثلاثماية سنة في طين ثم طبخه فلما اغرقت الارض في زمن نوح عليه السلام بقيت الكتابة فاصاب كل قوم كتابتهم وبقي الكتاب العربي الى ان خص الله تعالى به اسماعيل عليه السلام فاصابه وتعلمه وحكى ابن قتيبة ان اول من كتب ادريس عليه السلام وكانت العرب تعظم قدر الخط وتعده من اجل نفع حتى قال عكرمة بلغ فدا اهل بدر اربعة الاف درهم حتى ان الرجل ليفادى به على ان يعلم الخط لما هو مستقر في نفوسهم من عظم خطره وجلالة قدره وظهور

بفعه واثره وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم اقرأ وربك الا[كرم الذي]
علم بالقلم فوصف نفسه بان علم بالعلم كما وصف نفسه بالكرم واعت[د] ... تعالى فيما ابتلاو[ه]
العظام واياديه الجسام حتى اقسم به في كتابه فقال ن والقل[م] ... [...]يرة فهو كا[...]
فاقسم بالقلم كما اقسم بما يخط بالقلم واختلف في اول من كتب ... [...]سلم انه قال[...]
كعب الاحبار ان اول من كتب بها آدم عليه السلام ثم وجدها بعد[ه] ...
عليه السلام وحكى بن عباس رضي الله عنه ان اول من كتب بها و[...] المعلم [...]
اسماعيل عليه السلام على لفظه ومنطقه وحكى عروة بن الزبير رضي الله [عنه]
ان اول من كتب بها قوم من الاوايل اسماؤهم ابجد وهوز وحطي وك[لمن]
وسعفص وقرشات وكانوا ملوك مدين وحكى بن قتيبة في المعارف
ان اول من كتب بالعربية مرامر بن مروة من اهل الانبار ومن الانبار انتشرت وحكى
المدايني ان اول من كتب بها مرامر بن مروة واسلم بن سدرة وعامر بن جدرة فمرامر [وضع]
الصور واسلم وصل وفصل وعامر وضع الاعجام ولما كان الخط بهذه الحال و[جب]
على من اراد العلم ان يعتني به بامرين احدهما تقويم الحروف على اشكالها الموضوعة
لها والثاني ضبط ما اشتبه منها بالنقط والاشكال المميزة لها ثم ما زاد على هذ[ين]
من تحسين الخط وملاحظة نظمه فانما هو زيادة حذق بصنعته وليس بشرط [في]
صحته وقال علي بن عبيدة حسن الخط لسان اليد وبهجة الضمير وقال ابو العباس
المبرد رداءة الخط زمانة الادب وقال عبد الحميد البيان في اللسان والبنان
وانشدني بعض العلماء لاحد شعراء البصرة

اعذر اخاك على رداءة خطه ۝ واغفر رداءته لجودة ضبطه
واعلم بان الخط ليس يراد من ۝ تركيبه الا تبين سمطه
فاذا ابان عن المعاني لم يكن ۝ تحسينه الا زيادة شرطه

ومحل ما زاد على الخط المفهوم من تصحيح الحروف وحسن الصورة محل ما زاد على الكلام
المفهوم من فصاحة الالفاظ وصحة الاعراب ولذلك قالت العرب حسن الخط احدى
الفصاحتين وكما انه لا يعذر من اراد التقدم في الكلام ان يطرح الفصاحة والاعر[اب]
وان فهم وافهم كذلك لا يعذر من اراد التقدم في الخط ان يطرح تصحيح الحروف وتحس[ين]

الصور

الاعراب معظم ولذلك قالت العرب حسن الخط احد الفصاحتين
وكما انه لا يعذر من اراد التقدم في الخط ان يطرح تصحيح الحروف
وتحسين الصور وان فهم وافهم وربما يقدم بالخط من كان الخط
اجل فضائله واشرف خصائله حتى صار عالما مشهورا وسيدا
مذكورا غير ان العلماء اطرحوا صرف الهمة الى تحسين الخط لانه
يشغلهم عن العلم ويقطعهم عن التوفر عليه ولذلك نجد خطوط العلماء
في الاغلب ردية لا يلحظ الا من اسعده القضاء وقد قال الفضل بن سهل
من سعادة المرء ان يكون ردي الخط لان الزمان الذي يفنيه

من تصحيح الحروف
الصور محل ما زاد على
الكلام المفهوم من

كعب الاحبار ان [illegible]
عليه السلام وحكي بن عباس ان [illegible]
اسماعيل عليه السلام على لفظه ومنطقه وحكي عروة بن [illegible]
ان اول من كتب بها قوم من الاوايل اسماوهم ابجد وهواز وحطي وكلمن
وسعفص وقرشات وكانوا ملوك مدين وحكي بن قتيبة في المعارف
ان اول من كتب بالعربية مرامر بن مروة من اهل الانبار ومن الانبار انتشرت وحكى
المدايني ان اول من كتب بها مرامر بن مروة واسلم بن سدرة وعامر بن جدرة فمرامر
الصور واسلم وصل وفصل وعامر وضع الاعجام ولما كان الخط بهذه الحال وجب
على من اراد العلم ان يعتني بامرين احدهما تقويم الحروف على اشكالها الموضوعة
لها والثاني ضبط ما اشتبه منها بالنقط والاشكال المميزة لها ثم ما زاد على هذين
من تحسين الخط وملاحظة نظمه فانما هو زيادة حذق بصنعته وليس بشرط في
صحته وقال علي بن عبيدة حسن الخط لسان اليد وبهجة الضمير وقال ابو العباس
المبرد رداءة الخط زمانة الادب وقال عبد الحميد البيان في اللسان والبنان
وانشدني بعض اهل العلم لاحد شعراء البصرة

اعذر اخاك على رداءة خطه — واغفر رداءته لجودة ضبطه
واعلم بان الخط ليس يراد من — تركيبه الا تبين سمطه
فاذا ابان عن المعاني لم يكن — تحسينه الا زيادة شرطه

ومحل ما زاد على الخط المفهوم من تصحيح الحروف وحسن الصورة محل ما زاد على الكلام
المفهوم من فصاحة الالفاظ وصحة الاعراب ولذلك قالت العرب حسن الخط احدى
الفصاحتين وكما انه لا يعذر من اراد التقدم في الكلام ان يطرح الفصاحة والاعراب
وان فهم وافهم كذلك لا يعذر من اراد التقدم في الخط ان يطرح تصحيح الحروف وتحسين

الصور

مستغنون وان فهم وافهم وربما تقدم بالخط من كان الخط اعلى فضايله واشرف خصايله
[illegible] مشهورا وسيدا مذكورا غير ان العلماء رضي الله عنهم اطرحوا صرف
[illegible] ساير العلوم الى الخط لانه يشغلهم عن العلم ويقطعهم عن التوفر عليه ولذلك تجد
[illegible] معرفة صنعته في الاغلب رديئة لا يلحقها الا من اسعده القضاء وقد قال الفضل
[illegible] المرء ان يكون ردي الخط ليكون الزمان الذي يفنيه بالكتابة
[illegible] بالحفظ والنظر وليست رداءة الخط هي السعادة وانما السعادة ان لا
يكون له صارف عن العلم وعادة ذي الخط الحسن ان يتشاغل بتحسين خطه عن
العلم فمن هذا الوجه صار برداءة خطه سعيدا وان لم تكن رداءة الخط سعادة
واذا كان ذلك كذلك فقد يعرض للخط اسباب تمنع من صحته وفهمه والاسباب
المانعة من قراءة الخط وفهم ما تضمنه تكون من ثمانية اوجه احدها اسقاط الفاظ
من اثناء الكلام يصير الباقي بها مبتورا لا يعلم استخراجه ولا يفهم معناه وهذا
يكون اما من سهو الكاتب او من فساد نقله وهذا يسهل استنباطه على من كان
مرتاضا بذلك النوع فيستدل بحواشي الكلام لا سيما اذا قل لان الكلمة تستدعي
ما يليها ومعرفة المعنى يوضح عن الكلام المترجم عنه فاما من كان قليل الارتياض
بذلك النوع فانه يصعب عليه استنباط المعنى منه لا سيما اذا كان كثيرا لانه يحتاج
في فهم المعاني الى الفكر والروية فيما قد استخرجه بالكتبة واذا هو لم يعرف تمام
الكلام المترجم عن المعنى قصر فهمه عن ادراكه وضل فكره عن استنباطه
والوجه الثاني زيادة الفاظ في اثناء الكلام تشكل بها معرفة الصحيح عن الزايد
من معرفة السقيم الزايد فيصير الكل مشكلا وهذا لا يكاد يوجد كثيرا الا ان يقصد
الكاتب تعمية كلامه فيدخل في اثنايه ما يمنع من فهمه فيصير بذلك رمزا يعرف
بالمواضعة فاما ما وقع سهوا فقد يكون بالكلمة والكلمتين وذلك لا يمنع من فهمه
على المرتاض وغيره والوجه الثالث اسقاط حروف من اثناء الكلمة تمنع من استخراجها
على الصحة وقد يكون هذا تارة من السهو فيقل وتارة من ضعف الهجاء فيكثر والقول
فيه كالقول في الوجه الاول والوجه الرابع زيادة حروف في اثناء الكلمة تشكل
بها معرفة الصحيح من حروفها وهذا يكون تارة من سهو الكاتب فيقل ولا يمنع من استخراج

الصحيح ويكون تارة لتعمية ومواضعة يقصد بها الكاتب اخفاء غرضه فيكون
ويكون القول فيه كالقول في الوجه الثاني والوجه الخامس وصل الحرو[ف] [illegible]
الموصولة فيدعو ذلك الى الاشكال لان الكلمة يشتبه عليها وس[illegible]
من مشاركة غيرها فان كان ذلك من سهو قل وسهل استخراجه [illegible]
قلة معرفة بالخط او مشقا يسبق به اليد كثر وصعب استخرا[جه] [illegible]
ولذلك قال عمر رضي الله عنه شر الكتابة المشق كما ان شر التلاوة [illegible] والرضا صح
كان للتعمية والرمز لم يعرف الا بالمواضعة والوجه السادس تغيير الحروف عن اشكا[لها]
وابدالها باغيارها حتى يكتب الكاف على شكل الباء والصاد على شكل الراء وهذا يختص
رمزا اهل الزاجر يصعب الا على من فيه ذكاء وتقدر على استخراج المعمى والوجه المعمى صح
ضعف الخط عن تقويم الحروف على الاشكال الصحيحة واثباتها على الاوصاف الحقيقية الحقيقية صح
لا تكاد الحروف تتميز عن اغيارها حتى تصير العين الموصولة كالفاء والمفصولة [illegible]
فهذا يكون من رداءة الخط وضعف اليد وازالة ذلك تمكن بفضل المعاناة وشدة
التامل وان كان ذلك ربما انحرفت قرائنه واوهى معانيه وقد قيل الخط الحسن يزيد
الحق وضوحا والوجه الثامن اغفال النقط والاشكال التي تتميز بها الحروف المت[شاكلة] صح
وهذا اشد امرا واخفى حالا لان من كان يتميز بصحة الاستخراج ومعرفة الخط يتيسر واخف صح
يخف عليه معرفة الخط وفهم ما تضمنه مع اغفال النقط والشكل بل قد استقبح
ذلك في المكاتبات وراوه من تقصير فهم الكاتب او سوء ظنه بفهم المكاتب واستخفاف
له في مكاتبة الرؤسا اكثر حكى قدامة بن جعفر ان بعض كتاب الدواوين
حاسب عاملا له فشكى العامل به الى عبيد الله بن سليمان وكتب رقعة يذكر فيها الد[illegible]
لصحة دعواه ووضوح شكواه فوقع فيها عبيد الله بن سليمان هذا هذا ال[illegible]
من الهذيان فاخذها العامل وقراها فظن ان عبيد الله اراد هذا هذا اثباتا لصحة
دعواه وصدق قوله كما يقال في اثبات الشي هو هو فحمل الرقعة الى كاتب الديوان
واراه خط عبيد الله وقال له ان عبيد الله قد صدق قولي وصحح ما ذكرت فتحير
على الكاتب ذلك واطيف به على كتاب الدواوين فلم يقفوا على مراد عبيد الله [illegible]
اليه ليسئل عن مراده به فشكل عبيد الله الكلمة الثانية وكتب تحتها والله المس[تعان]

استغطاما

استغطاما عنه لتقصيرهم في استخراج مراده حتى احتاج الى ابانته بالشكل فهذه
[illegible] الاجابة في استقباحهم اعجام المكاتبات بالنقط والاشكال فاما غير المكاتبات
[من] سائر العلوم فلم يروه قبيحا بل استحسنوه لا سيما في كتب الادب التي يقصد بها
معرفة صيغة الالفاظ وكيفية مخارجها مثل كتب النحو واللغة والشعر الغريب
فالحاجة الى ضبطها بالشكل والاعجام اكثر وهي فيما سواها من العلوم اقل وايسر
وقد قال الثوري الخطوط المعجمة كالبرود المعلمة وقال بعض البلغاء اعجام الخط يمنع
من استعجامه وشكله يمنع من اشكاله وقال بعض الادباء رب علم لم تعجم فصوله فاستعجم
محصوله وكما استقبح الكتاب الشكل والاعجام في المكاتبات وان كان في كتب العلوم
مستحسنا فكذلك استحسنوا مشق الخط في المكاتبات وان كان في كتب العلوم
مستقبحا وسبب ذلك انهم لفرط ادلالهم بالصنعة وتقدمهم في الكتابة يكتفون بالاشارة
ويقتصرون على التلويح ويرون الحاجة الى استيفاء شروط الابانة تقصيرا ولفضل ما
ما يعتقدونه من التقدم بهذه الحال راوا ما يثبت عليه من سواد المداد اثرا جميلا
وعلى الفضل والتخصص دليلا حكي ان عبيد الله بن سليمان راى على بعض ثيابه اثر
صفرة فاخذ من مداد الدواة فطلاه به ثم قال المداد بنا احسن من الزعفران وانشد

انما الزعفران عطر العذارى ومداد الدوي عطر الرجال

فهذه جملة كافية في الابانة عن الاسباب المانعة من فهم الكلام ومعرفة معانيه
لفظا كان او خطا والله ولي التوفيق فينبغي لطالب العلم ان يكشف عن الاسباب المانعة
ان تعذر عليه فهم المعنى ليسهل عليه الوصول اليه ثم يكون من بعد ذلك سايسا لنفسه مدبرا تبعذر عليه
لها في حال تعلمه فان للنفس نفورا يفضي الى تقصير ونفورا يؤول الى سرف وقيادها
عسير ولها احوال ثلاث حال عدل وانصاف وحال غلو واسراف وحال تقصير واجحاف
فاما حال العدل والانصاف فهي ان تختلف قوى النفس من وجهين متقابلين طاعة مسعدة
وشفقة كافة فطاعتها تمنع من التقصير وشفقتها تصد عن السرف وهذه احمد
الاحوال لان ما منع من التقصير نام وما صد عن السرف مستديم والنمو اذا استدام
فاخلق به ان يستكمل وقال بعض الحكماء اياك ومفارقة الاعتدال فان المسرف
مثل المقصر في الخروج عن الحد واما حال الغلو والاسراف فهي ان تختص النفس بقوى

الطاعة وتعدم قوى الشفقة فيبعثها اختصاص الطاعة على افراغ الجهد وتفضي بها
افراغ الجهد الى عجز الكلال او يوديها عجز الكلال الى الترك والاهمال فتصير الزيادة نقصانا
والربح خسرانا وقد قال بعض الحكما طالب العلم وعامل البر كآكل الطعام ان اخذ منه قوتا عصمه
وان اسرف فيه ابشمه وربما كان فيه منيته وكالآخذ للادوية التي القصد منها شفا
ومجاوزة الحد فيها السم المميت واما حال التقصير والاجحاف فهي ان تختص النفس
بقوى الشفقة وتعدم قوى الطاعة فيدعوها الاشفاق الى المعصية وتمنعها المعصية
من الاجابة فلا تطلب شاردا ولا تقبل عايدا ولا تحفظ مستودعا ومن لم يطلب الشارد
ولم يقبل العايد ويحفظ المستودع فقد الموجود ولم يجد المفقود ومن فقد ما وجد
مصاب محروم ومن لم يجد ما فقد فهو خايب مغبون وقد قال بعض الحكما العجز
مع الواني والفوت مع التواني وقد تكون للنفس مع الاحوال الثلاثة حالتان مشتركتان
بتغليب احدى القوتين فتكون للنفس طاعة واشفاق واحدهما اغلب من الآخر فان
كانت الطاعة اغلب كانت الى التقصير المفضي به اقرب فاذا عرف من نفسه قدر طاقتها
وخبر منها كنه شفقتها ارتاض لنفسه لتثبت على احمد حالاتها وقد اشار الى ما وصفت
من حال النفس الفرزدق في قوله

لكل امري نفسان نفس كريمة ... واخرى يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسيك تشفع للندى ... اذا قل من احرارهن شفيعها

فاذا اهمل سياستها واغفل رياضتها ورام ان ياخذها بالعنف ويقهرها بالعسف
استشاطت نافرة ولجت معاندة فلم تنقد الى طاعة ولم تنفك عن معصية وقد قال
سابق البربري

اذا زجرت لجوجا زدته غلقا ... ولجت النفس منه في تماديها
فعد عليه اذا ما نفسه جمحت ... باللين منك فان اللين يثنيها

فان استصعب عليه قياد نفسه ودام منه نفور قلبه مع سياسته لها ومعاناة رياضتها
تركها ترك راحة ثم عاودها بعد الاستراحة فان اجابتها تسرع وطاعتها ترد
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال القلب يموت ويحيى ولو بعد حين وقال ا
بن مسعود رضي الله عنه للقلوب شهوة واقبال وفترة وادبار فاتوها من قبل شهوتها وا

تاتوها

العلما

يثنيها

تأتوها من قبل فترتها قال الشاعر

وما سمي الانسان الا لانسه ... ولا القلب الا انه يتقلب

فاما الشروط التي يتوفر بها علم الطالب وينتهي معها كمال الراغب مع ما يلاحظ
به من التوفيق ويمد به من المعونة فتسعة شروط احدها العقل الذي يدرك
به حقايق الامور والثاني الفطنة التي يتصور بها غوامض العلوم والثالث
الذكاء الذي يستقر به حفظ ما تصوره وفهم ما علمه والرابع الشهوة التي يدوم
بها الطلب ولا يسرع اليه الملل والخامس الاكتفاء بمادة تغنيه عن كلفة الطلب
والسادس الفراغ الذي يكون معه التوفر ويحصل به الاستكثار والسابع عدم
القواطع المذهلة من هموم واشغال وامراض والثامن طول العمر واتساع
المدة لينتهي بالاستكثار الى مراتب الكمال والتاسع الظفر بعالم سمح بعلمه
متان في تعليمه فاذا استكمل هذه الشروط التسعة فهو اسعد طالب وانجح
متعلم وقد قال الاسكندر يحتاج طالب العلم الى اربع مدة وجدة وقريحة
وشهوة وتمامها في الخامسة معلم ناصح وساذكر طرفا مما تادب به المتعلم
ويكون عليه العالم

اداب المتعلم

اعلم ان للمتعلم زمان تعلمه تملقا
وتذللا ان استعملهما غنم وان تركهما حرم لان التملق للعالم يظهر مكنون علمه
والتذلل له سبب لاستدامة صبره وباظهار مكنونه تكون الفايدة وباستدامة
صبره يكون الاكثار وقد روى معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
ليس من اخلاق المومن الملق الا في طلب العلم وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه
ذللت طالبا فعززت مطلوبا وقال بعض الحكما من لم يحتمل ذل التعلم ساعة بقي
في ذل الجهل ابدا وقال بعض حكماء الفرس اذا قعدت وانت صغير حيث تحب
قعدت وانت كبير حيث لا تحب ثم ليعرف له فضل علمه وليشكر له جميل فعله
فقد روت عايشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من وقر
عالما فقد وقر ربه عز وجل وقال علي رضي الله عنه لا يعرف فضل اهل الفضل
الا اهل الفضل وقال بعض الشعرا

ان المعلم والطبيب كلاهما ... لا ينصحان اذا هما لم يكرما

يسمح

اربعة

الملق

فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه ... واصبر لجهلك إن جفوت معلّما

ولا يمنعه من ذلك علوّ منزلته وإن كانت له، وإن كان العالم خاملاً فإن العلماء بعلمهم استحقوا التعظيم لا بالقدرة والمال. وأنشدني بعض أهل الأدب لأبي بكر بن دريد:

لا تحقرنّ عالماً وإن قصرت ... ألحاظه في عيون رامقه
وانظر إليه بعين ذي أدب ... مهذب الرأي في طرائقه
فالمسك بيناً تراه ممتهناً ... بفهر عطاره وساحقه
حتى تراه في عارضي ملك ... أو موضع التاج من مفارقه

وليكن مقتدياً بهم في رضى أخلاقهم متشبهاً بهم في جميع أفعالهم ليصير لها آلفاً وعليها ناشئاً ولما خالفها متجانباً. وقال النبي صلى الله عليه وسلم خيار شبابكم المتشبهون بشيوخكم وشرار شيوخكم المتشبهون بشبابكم. وروى ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من تشبه بقوم فهو منهم. وأنشدني بعض أهل الأدب لابن دريد:

العالم العاقل ابن نفسه ... أغناه جنس علمه عن جنسه
كن ابن من شئت وكن مؤدباً ... فإنما المرء بفضل حسه
ليس من تكرمه لغيره ... كمثل من تكرمه لنفسه

وليحذر المتعلم التبسط على من يعلمه وإن آنسه، والإدلال عليه وإن تقدمت صحبته. قيل لبعض الحكماء من أذل الناس قال عالم يجري عليه حكم جاهل. وكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم جارية من السبي فقال لها من أنت فقالت بنت الرجل الجواد حاتم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ارحموا عزيزاً ذل ارحموا غنياً افتقر ارحموا عالماً ضاع بين الجهال. ولا يظهر له الاستكفاء منه والاستغناء عنه فإن في ذلك كفراً لنعمته واستخفافاً بحقه. وربما وجد بعض المتعلمين قوة في نفسه لجودة ذكائه وحدة خاطره فقصد من يعلمه بالإعنات له والاعتراض عليه إزراء به وتبكيتاً له فيكون كمن تقدم فيه المثل السائر لأبي البطحاء:

أعلمه الرماية كل يوم ... فلما اشتد ساعده رماني

وهذا من مصائب العلماء وانعكاس حظوظهم أن يصيروا عند من علموه مستجهلين وعند من قدموه مسترذلين. وقال صالح بن عبد القدوس:

وإنّ عناءً أن تعلّم جاهلاً ... فيحسب جهلاً أنه منك أفهم
متى يبلغ البنيان يوماً تمامه ... إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

متى ينتهي

متى ينتهي عن سيئٍ من أتى به ... إذا لم يكن منه عليه تندّم

وينبغي له على قبول الشبهة منه ولا يدعوه ترك الإعنات له على التقليد فيما أخذ عنه فإنه ربما غلا بعض الأتباع في عالمهم حتى يروا أن قوله دليل وإن لم يستدل وأن اعتقاده حجة وإن لم يحتج فيفضي بهم الأمر إلى التسليم له فيما أخذوا عنه ويؤول بهم ذلك إلى التقصير فيما يصدر عنه لأنه يجتهد بحسب اجتهاد من يأخذ عنه فلا يبعد أن تبطل تلك المقالة إن انفردت أو يخرج أهلها عن أعداد العلماء فيما شاركت لأنه قد لا يرى لهم من يأخذ عنهم ما كانوا يرونه لمن أخذوا عنه فيطالبهم بما قصروا فيه فيضعفوا عن إثباته ويعجزوا عن نصرته فيذهبوا ضائعين ويصيروا عجزة مضعوفين. ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلاً يناظر في مجلس حفل وقد استدل الخصم عليه بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها أن قال هذه دلالة فاسدة ووجه فسادها أن شيخي لم يذكرها وما لم يذكره الشيخ فلا خير فيه فأمسك عنه المستدل تعجباً ولأن شيخه كان محتشماً وقد حضرت طائفة يرون فيه مثل ما راه هذا الجاهل ثم أقبل المستدل علي وقال لي والله لقد أفحمني بجهله وصار سائر الناس المبرئين من هذه الجهالة ما بين مستهزئ ومتعجب ومنهم من استعاذ بالله من جهله فهل رأيت كذلك عالماً أوغل في الجهل أو أدل على قلة العقل. وإذا كان المتعلم معتدل الرأي فيمن يأخذ عنه متوسط الاعتقاد فيمن يتعلم منه حتى لا يحمله الإعنات على اعتراض المتبكتين ولا يبعثه الغلو على تسليم المقلدين برئ المتعلم من المذمتين وسلم العالم من الهجنتين. وليس كثرة السؤال فيما التبس إعناتاً ولا قبول ما صح في النفس تقليداً. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال العلم خزائن ومفاتحه المسألة فسلوا رحمكم الله فإنما يؤجر في العلم ثلاثة القائل والمستمع والآخذ. وقال هلا سألوا إذ لم يعلموا إنما شفاء العي السؤال. فأمر صلى الله عليه وسلم بالسؤال وحث عليه ونهى أخرى عن السؤال وزجر عنه فقال صلى الله عليه وسلم أنهاكم عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال. وقال إياكم وكثرة السؤال فإنما هلك من قبلكم بكثرة

السوال وليس هذا مخالفا للاول وانما امر بالسوال من قصد به علم ما جهل ونهى عنه
من قصد به اعنات ما سمع واذا كان السوال في موضعه ازال الشكوك
ونفى الشبهة وقد قيل لابن عباس رضي الله عنه بم نلت هذا العلم فقال
بلسان سؤول وقلب عقول وروى نافع عن ابن عمر رضي الله عنه ان النبي
صلى الله عليه وسلم قال حسن السوال نصف العلم وانشد المبرد عن ابي
العنوى

وسل الفقيه تكن فقيها مثله ... لا خير في علم بغير تدبر
واذا تعسرت الامور فارجها ... وعليك بالامر الذي لم يعسر

فليأخذ المتعلم حظه ممن وجد طلبته عنده من نبيه وخامل ولا يطلب
الصيت وبعد الذكر باتباع اهل المنازل من العلما اذا كان النفع بغيرهم
اعم الا ان يستوي النفعان فيكون الاخذ عن من اشتهر ذكره وارتفع قدره
اولى لان الانتساب اليه اجمل والاخذ عنه اشهر وقد قال الشاعر

اذا انت لم يشهرك علمك لم تجد ... لعلمك مخلوقا من الناس يقبله
وان صانك العلم الذي قد حملته ... اتاك له من يجتنيه ويحمله

اذا قرب منك العلم فلا تطلب ما بعد واذا سهل عليك من وجه فلا
تطلب ما صعب واذا حمدت من خبرته فلا تطلب من لم تخبره فان العدول
عن القريب الى البعيد عنا وترك الاسهل بالاصعب بلا والانتقال عن المخبور
الى غيره خطر وقد قال علي رضي الله عنه عقبى الاخرق مضرة والمتعسف
لا تدوم له مسرة وقال بعض الحكماء القصد اسهل من التعسف والكف
اودع من التكلف وربما تتبعت نفس الانسان من بعد عنه استهانة بمن
قرب منه وطلب ما صعب احتقارا لما سهل عليه وانتقل الى من لم يخبره
مللا لمن خبره فلا يدرك محبوبا ولا يظفر بطايل وقد قالت العرب في امثالها
ان العالم كالحمة يأتيها البعدا ويزهد فيها القربا وانشدني بعض شيوخي
لمسيح بن حاتم

لا ترى عالما يحل بقوم ... فيحلوه غير دار الهوان
قل ما توجد السلامة والصحة ... مجموعين في انسان
فاذا حلتا مكانا سخيفا ... فهما في النفس معشوقتان

هذه

٢٥

هذه نكتة المنيفة بيت الله ... يسعى لحجها الثقلان
وترى ازهد البرية في الحج ... لها اهلها لقرب المكان

فصل

فاما ما يجب ان يكون عليه العلما من الاخلاق التي هي بهم اليق ولهم الزم
فالتواضع ومجانبة العجب لان التواضع عطوف والعجب منفر وهو بكل
احد قبيح وبالعلماء اقبح لان الناس بهم يقتدون وكثيرا ما يداخلهم الاعجاب
لتوحدهم بفضيلة العلم ولو انهم نظروا حق النظر وعملوا بموجب العلم
لكان التواضع بهم اولى ومجانبة العجب بهم احرى لان العجب نقص ينافي
الفضل لا سيما مع قول النبي صلى الله عليه وسلم ان العجب ليأكل الحسنات
كما تاكل النار الحطب فلا يفي ما ادركوا من فضيلة العلم بما اكتسبوا
من نقص العجب وقد روى عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم قليل الفقه خير من كثير العبادة وكفى بالمرء علما اذا عبد الله تعالى
وكفى بالمرء جهلا اذا اعجب برايه وقال عمر رضي الله عنه تعلموا العلم
وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تعلمون وليتواضع لكم
من تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلما فلا يقوم علمكم بجهلكم وقال
بعض السلف من تكبر بعلمه وترفع وضعه الله تعالى به ومن تواضع بعلمه
رفعه الله تعالى به وعلة اعجابهم انصراف نظرهم الى كثرة من دونهم
من الجهال وانصراف نظرهم عن من فوقهم من العلما فانه ليس متناه في العلم
الا ويجد من هو اعلم منه بشي اذ العلم اكثر من ان يحيط به بشر قال
الله تعالى نرفع درجات من نشا يعني في العلم وفوق كل ذي علم عليم قال
اهل التاويل يعني فوق كل عالم من هو اعلم منه حتى ينتهي ذلك الى الله تعالى
وقيل لبعض الحكما من يعرف كل العلم فقال كل الناس وقال الشعبي ما
رايت مثلي وما اشاء ان القى رجلا اعلم مني الا لقيته لم يذكر الشعبي هذا القول
تفضيلا لنفسه فيستقبح منه وانما ذكره تعظيما للعلم عن ان يحاط به
فينبغي لمن علم ان ينظر الى نفسه بتقصير ما قصر فيه ليسلم من عجب ما ادرك
منه فقد قيل في منثور الحكم اذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك من الجهال

ولكن انظر من فوقك من العلماء. وانشدني رجل لابن العميد

من شاء عيشا هنيا يستفيد به ... فواضل العيش ادبارا واقبالا

فلينظرن الى من فوقه ادبا ... ولينظرن الى من دونه مالا

وقلما تجد بالعلم معجبا وبما ادرك منه مفتخرا الا من كان فيه مقلا ومقصرا لانه يجهل قدره ويحسب انه قد نال بالدخول فيه اكثره فاما من كان فيه متوجها ومنه مستكثرا فهو يعلم من بعد غايته والعجز عن ادراك نهايته ما يصده عن العجب به. وقال الشعبي العلم ثلاثة اشبار فمن نال منه شبرا شمخ بانفه وظن انه ناله ومن نال الشبر الثاني صغرت اليه نفسه وعلم انه لم ينله واما الشبر الثالث فهيهات لا يناله احد ابدا. ومما انذرك به من حالي اني صنفت في البيوع كتابا جمعت له ما استطعت من كتب الناس واجهدت فيه نفسي وكددت فيه خاطري حتى اذا تهذب واستكمل وكدت اعجب به وتصورت انني اشد الناس اطلاعا بعلمه حضرني وانا في مجلسي اعرابيان فسالاني عن بيع عقداه في البادية على شروط تضمنت اربع مسائل لم اعرف لشيء منها جوابا فاطرقت مفكرا وبحالي وحالهما معتبرا فقالا اما عندك فيما سالناك جواب وانت زعيم هذه الجماعة فقلت لا فقالا ايها لك وانصرفا ثم اتيا من قد يتقدمه في العلم كثير من اصحابي فسالاه فاجابهما مسرعا بما اقنعهما فانصرفا عنه راضيين بجوابه حامدين لعلمه فبقيت مرتبكا واني لعلى ما كنت عليه في تلك المسائل الى وقتي فكان ذلك زاجر نصيحة ونذير عظة تذلل بهما قياد النفس وانخفض بهما جناح العجب توفيقا منحته ورشدا اوتيته. وحق على من ترك العجب بما يحسن ان يدع التكلف لما لا يحسن فقد نهى الناس عنهما واستعاذوا بالله منهما ومن اوضح ذلك بيانا استعاذة الجاحظ في كتاب البيان حيث يقول اللهم انا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ونعوذ بك من شر السلاطة والهذر كما نعوذ بك من العي والحصر ونحن نستعيذ بالله بمثل ما استعاذ به فليس لمن تكلف ما لا يحسن غاية ينتهي اليها ولا حد يقف عنده ومن كان تكلفه غير محدود فاخلق به ان يضل وان يضل. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال

من سيل

اطلاعا

من سيل فافتى بغير علم فقد ضل واضل. وقال بعض الحكماء من العلم ان لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم فحسبك جهلا من عقلك ان تنطق بما لا تفهم. ولقد احسن زرارة بن زيد حيث يقول

اذا ما انتهى علمي تناهيت عنده ... اطال فاملى او تناهى فاقصرا

ويخبرني عن غايب المرء فعله ... كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا

واذا لم يكن الى الاحاطة بالعلم سبيل فلا عار ان يجهل بعضه واذا لم يكن في جهل بعضه عار لم يقبح به ان يقول لا اعلم فيما ليس يعلم. وقد روي ان رجلا قال يا رسول الله اي البقاع خير واي البقاع شر فقال لا ادري حتى اسال جبريل عليه السلام. وقال علي رضي الله عنه احلى العلوم وابردها على القلب اذا سيل احدكم عما لا يعلم ان يقول الله اعلم فان العالم من عرف ان ما يعلم فيما لا يعلم قليل. وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه اذا ترك العالم قول لا ادري اصيبت مقاتله. وقال بعض العلماء هلك من لا ادري ترك. وقال بعض الحكماء ليس من فضيلة العلم الا علمي باني لست اعلم. وقال اخر لولا ان قولي لا اعلم سببا لان اعلم لقلت لا اعلم. وقال بعضهم من قال لا ادري علم فدرى ومن انتحل ما لا يدري اهمل فهوى. ولا ينبغي ان يستنكف وان صار في طبقة العلماء الافاضل ان يتعلم ما ليس عنده ليسلم من التكلف له فقد قال عيسى عليه السلام يا صاحب العلم تعلم من العلم ما جهلت وعلم الجهال ما علمت. وقال علي رضي الله عنه خمس خذوهن عني فلو ركبتم فيهن الفلك ما وجدتموهن لا عندي الا لا يرجون احد الا ربه ولا يخافن الا ذنبه ولا يستنكف ان يتعلم ما ليس عنده واذا سيل عما لا يعلم فليقل لا اعلم ومنزلة الصبر من الايمان بمنزلة الراس من الجسد. وقال ابن عباس رضي الله عنه لو كان احد مكتفيا من العلم لاكتفى موسى عليه السلام لما قال للخضر عليه السلام هل اتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا. وقيل للخليل بن احمد بم ادركت هذا العلم فقال كنت اذا لقيت عالما اخذت منه واعطيته. وقال بزرجمهر من العلم ان لا تحقر شيئا من العلم ومن العلم تفضيل جميع العلم. وقال المنصور لشريك انى لك هذا العلم قال لم ارغب عن قليل استفيده ولم ابخل بكثير افيده على ان

العلم يقتضي ما بقي منه ويستدعي ما تاخر عنه وليس للراغب فيه قناعة ببعضه
وروى عون بن عبد الله عن ابن مسعود رضي الله عنه انه قال منهومان لا يشبعان
طالب علم وطالب دنيا اما طالب العلم فانه يزداد للرحمن رضى ثم قرا انما يخشى الله
من عباده العلماء واما طالب الدنيا فانه يزداد طغيانا ثم قرا كلا ان الانسان ليطغى
ان راه استغنى وليكن مستقلا للفضيلة منه ليزداد منها مستكثرا للنقيصة
فيه لينتهي عنها ولا يقنع في العلم بما ادركه منه لان القناعة فيه زهد والزهد
فيه ترك والترك له جهل وقد قال بعض الحكما عليك بالعلم والاكثار منه فان
قليله اشبه شي بقليل الخير وكثيره اشبه شي بكثيره ولن يعيب الخير الا القلة
واما كثرته فانها امنية وقال بعض البلغا من فضل علمك استقلالك لعلمك
ومن كمال عقلك استظهارك على عقلك ولا ينبغي ان يجهل من نفسه مبلغ
علمها ولا ان يتجاوز بها قدر حقها ولان يكون بها مقصرا فيذعن بالانقياد
اولى من ان يكون بها مجاوزا فيكف عن الازدياد لان من جهل حال نفسه كان
لغيرها اجهل وقد قالت عايشه رضي الله عنها يا رسول الله متى يعرف الانسان
ربه قال اذا عرف نفسه وقد قسم الخليل بن احمد الناس فيما علموه او جهلوه اربعة
اقسام متقابلة لا يخلو احال الانسان منها فقال الرجال اربعة رجل يدري
ويدري انه يدري فذاك عالم فسلوه ورجل يدري ولا يدري انه يدري فذاك
ناس فذكروه ورجل لا يدري ويدري انه لا يدري فذاك مسترشد فعلموه
ورجل لا يدري ولا يدري انه لا يدري فذاك جاهل فارفضوه وانشد ابو القاسم
الاسدي

اذا كنت لا تدري ولم تك بالذي ... تسايل من يدري فكيف اذا تدري
جهلت ولم تعلم بانك جاهل ... فكن هكذا ارضا يطاك الذي يدري
سقط اذا جيت في كل الامور بغمة ... فمن لي بان تدري بانك لا تدري
ومن عجب الايام انك لا تدري ... وانك لا تدري بانك لا تدري

وليكن من شيمته العمل بعلمه وحث النفس على ان تاتمر بما يامر به ولا يكن ممن
قال الله تعالى فيه مثل الذين حملوا التورية ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا
فقد قال قتادة في قوله وانه لذو علم لما علمناه يعني انه لعامل بما علم وروى عن

النبي

النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ويل لاقماع القول ويل للمصرين يريد به الذين
يستمعون القول ولا يعملون به وروى عبد الله بن وهب عن سفيان ان الخضر
قال لموسى عليهما السلام يا ابن عمران تعلم العلم لتعمل به ولا تتعلم لتحدث به فيكون
عليك بوره ولغيرك نوره وقال علي رضي الله عنه انما زهد الناس في طلب
العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم وقال ابو الدردا اخوف ما اخاف اذا
وقفت بين يدي الله تعالى ان يقول قد علمت فماذا عملت اذ علمت وكان يقال خير
من القول فاعله وخير من الصواب قايله وخير من العلم حامله وقيل في منثور
الحكمة لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به وقال بعض العلما ثمرة العلم العمل به وثمرة
العمل به ان يوجر عليه وقال بعض الصلحاء العلم يهتف بالعمل فان اجابه والا
ارتحل وقال بعض الحكماء خير العلم ما نفع وخير القول ما ردع وقال بعض
الادبا ثمرة العلوم العمل بالمعلوم وقال بعض البلغاء من تمام العلم استعماله
ومن تمام العمل استقلاله فمن استعمل علمه لم يخل من رشاد ومن استقل
عمله لم يقصر عن مراد وقال ابو تمام الطائي

ولم يحمدوا من عالم غير عامل ... خلاقا ولا من عامل غير عالم
راوا طرقات العلم عوجا قطيعة ... وافظع عجز عندهم عجز حازم

ولانه لما كان علمه حجة على من اخذه عنه واقتبسه منه حتى يلزمه العمل
به والمصير اليه كان عليه احج وله الزم لان مرتبة العمل قبل مرتبة القول
كما ان مرتبة العلم قبل مرتبة العمل وقد قال ابو العتاهية

اسمع الى الاحكام تحملها الرواه اليك عنك ... واعلم هديت بانها حجج تكر اليك منك

وليجتنب ان يقول ما لا يفعل وان يامر بما لا ياتمر وان يسر غير ما يظهر ولا يجعل
قول الشاعر

اعمل بعلمي ولا تنظر الى عملي ... ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري

عذرا له في تقصيره بضره وانه ينفع غيره فان اعذار النفس تغرها وتحسن
لها مساويها وان من قال ما لا يفعل فقد مكر ومن امر بما لا ياتمر فقد خدع
ومن اسر غير ما يظهر فقد نافق وقال صلى الله عليه وسلم المكر والخديعة و
صاحبهما في النار على ان امره بما لا ياتمر مطرح وانكاره فيما لا ينكره من نفسه

مستقبح بل ربما كان ذلك سببا لاغراء المامور ان يترك ما امر به عنادا او يرتكب
ما نهي عنه كيادا حكي ان اعرابيا اتى ابن ابي ذيب يساله عن مسلة طلاق فافتاه
بطلاق امراته فقال انظر حسنا قال قد نظرت وقد بانت منك فولى الاعرابي وهو يقول

اتيت ابن ذيب ابتغي الفقه عنده ... فطلق حتى البت تبت انامله
اطلق في فتيا ابن ذيب حليلتي ... وعند ابن ذيب اهله وحلايله

فظن بجهله انه لا يلزمه الطلاق بقول من لم يلتزم الطلاق فما ظنك بقول يجب اشتراك
الامر والمامور فيه كيف يكون مقبولا منه وهو غير عامل به ولا قابل له وقال احمد بن يوسف

وعامل بالفجور يامر بالبر ... كهاد يخوض في الظلم
او كطبيب قد شفه سقم ... وهو يداوي من ذلك السقم
يا واعظ الناس غير متعظ ... ثوبك طهر اولا فلا تلم

وقال اخر

عود لسانك قلة اللفظ ... واحفظ كلامك اي ما حفظ
اياك ان تعظ الرجال وقد ... اصبحت محتاجا الى الوعظ

فاما الانقطاع عن العلم الى العمل او الانقطاع عن العمل الى العلم اذا عمل بموجب
العلم فقد حكي الزهري فيه ما يغني عن تكلف غيره وهو انه قال العلم افضل من
العمل به لمن جهل والعمل افضل من العلم لمن علم فاما فضل ما بين العلم والعبادة اذا
لم يخل بواجب ولم يقصر في فرض فقد روى جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال يبعث العالم والعابد فيقال للعابد ادخل الجنة ويقال للعالم اثبت حتى تشفع
للناس ومن اداب العلماء ان لا يبخلوا بتعليم ما يحسنون ولا يمتنعوا
من افادة ما يعلمون فان البخل به لوم وظلم والمنع منه حسد واثم وكيف يسوغ
لهم البخل بما منحوه جودا من غير بخل واوتوه عفوا من غير بذل ام كيف يجوز لهم
الشح بما ان بذلوه زاد ونما وان كتموه تناقص ووهى ولو استن بذلك من تقدمهم
لما وصل العلم اليهم ولانقرض عنهم بانقراضهم ولصاروا على مرور الايام جهالا وبتقلب
الاحوال وتناقصها ارذالا وقد قال الله تعالى واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا
الكتاب لتبيننه للناس ولا يكتمونه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا
تمنعوا العلم اهله فان في ذلك فساد دينكم والتباس بصايركم ثم قرا ان

الذين

الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب
اوليك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون وقال صلى الله عليه وسلم من كتم علما
الجمه الله تعالى يوم القيامة بلجام من نار وقال علي رضي الله عنه ما
اخذ الله العهد على اهل الجهل ان يتعلموا حتى اخذ العهد على اهل العلم
ان يعلموا وقال الحكماء اذا كان من قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل
فاحرى ان يكون من قواعدها بذل ما يزيده البذل وقال بعض العلما كما ان الاستفادة
نافلة للمتعلم كذلك الافادة فريضة على المعلم وقال اخر من كتم علما فكانه
به جاهل وقال خالد بن صفوان اني لافرح بافادتي المتعلم اكثر من فرحي
باستفادتي من المعلم ثم له بالتعليم نفعان احدهما ما يرجوه من ثواب
الله تعالى فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم التعليم صدقة فقال تصدقوا على
اخيكم بعلم يرشده وراي يسدده وروى ابن مسعود رضي الله عنه عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تعلموا وعلموا فان اجر العالم والمتعلم سواء
قيل وما اجرهما قال مائة مغفرة ومائة درجة في الجنة والنفع الثاني
زيادة العلم واتقان الحفظ فقد قال الخليل بن احمد اجعل تعليمك دراسة
لعلمك واجعل مناظرة المتعلم تنبيها على ما ليس عندك وقال ابن المعتز
في منثور الحكم النار لا ينقصها ما اخذ منها ولكن يخمدها ان لا تجد حطبا
كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه فاياك
والبخل بما تعلمه وقال بعض البلغاء علم علمك وتعلم علم غيرك فاذا انت قد علمت
ما جهلت وحفظت ما علمت واعلم ان المتعلم ضربان مستدعي وطالب فاما
المستدعي الى العلم فهو من استدعاه العالم الى التعليم لما ظهر له من حسن ذكائه
وبان له من قوة خاطره فاذا وافق استدعاء العالم شهوة المتعلم كان نتيجتها
درك النجباء وظفر السعداء لان العالم باستدعائه متوفر والمتعلم بشهوته
مستكثر واما الطالب للعلم لداع يدعوه وباعث يحدوه فان كان الداعي دينيا
وكان المتعلم فطنا ذكيا وجب على العالم ان يكون عليه مقبلا وعلى تعليمه متوفرا
لا يخفي عنه مكنونا ولا يطوي عنه مخزونا وان كان بليدا بعيد الفطنة فينبغي

ان لا يمنع من اليسير فيحرم ولا يجعل عليه الكثير فيظلم ولا يجعل بلادته ذريعة
لحرمانه فان الشهوة باعثة والصبر موثر وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال لا تمنعوا العلم اهله فتظلموا ولا تضعوه في غير اهله فتاثموا وقال بعض الحكماء
لا تمنعوا العلم احدا فان العلم امنع لجانبه فان لم يكن الداعي دينيا نظر فيه
فان كان مباحا كرجل دعاه الى طلب العلم حب النباهة وطلب الرياسة فالقول
فيه مقارب للقول في تعليم من قبل لان العلم يعطفه الى الدين في ثاني حال وان
لم يكن مبتدا به في اول حال وقد حكي عن الثوري انه قال تعلمنا العلم لغير الله فابى
ان يكون الا لله وقال عبد الله بن المبارك طلبنا العلم للدنيا فدلنا على ترك
الدنيا وان كان الداعي محظورا كرجل دعاه الى طلب العلم شر كامن ومكر
باطن يريد ان يستعملهما في شبه دينية وحيل فقهية لا يجد اهل السلامة
منهما مخلصا ولا عنهما مدفعا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم اهلك امتي رجلان
عالم فاجر وجاهل متعبد وقيل يا رسول الله اي الناس شر فقال العلماء اذا
فسدوا فينبغي للعالم اذا راى من هذه حاله ان يمنعه من طلبته ويصرفه عن
بغيته ولا يعينه على امضا مكره واعمال شره فقد روى انس بن مالك رضي
الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال واضع العلم في غير اهله كمقلد الخنازير
اللولو والجوهر والذهب وقال عيسى بن مريم عليه السلام لا تلقوا اللولو للخنزير
فالعلم افضل من اللولو ومن لا يستحقه شر من الخنزير وحكي ان تلميذا سال
عالما عن بعض العلوم فلم يفده فقيل له لم منعته فقال لكل تربة غرس
ولكل بنا اس وقال بعض البلغاء لكل ثوب لابس ولكل علم قابس وقال
بعض الادبا [illegible] لروضة توسطها خنزير وابك لعلم حواه شر شرير وينبغي
ان يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف بها مبلغ طاقته وقدر استحقاقه
ليعطيه قدر ما يحتمله بذكائه او يضعف عنه ببلادته فانه اروح للعالم وانجح
للمتعلم وقد [illegible] عن انس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ان لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا انا
لم اعلم ما لم ار فلا علمت ما رايت وقال عبد الله بن الزبير لا عاش بخير من لم ير برايه

ما لم ير بنفسه

عينه

ما لم ير بنفسه وقال ابن الرومي

الالمعي يرى باول رايه اخر الامر من وراء المغيب
لوذعي له فواد ذكي ما له في ذكائه من ضريب
لا يروي ولا يقلب كفا واكف الرجال في تقليب

واذا كان العالم في توسم المتعلمين بهذه الصفة وكان بقدر استحقاقهم
خبيرا لم يضع له عنا ولم تخب على يده صاحب وان لم يتوسمهم وخفيت عليه
احوالهم ومبلغ استحقاقهم كانوا واياه في عناء مكرر وتعب غير مجد لانه
لا يعدم ان يكون فيهم ذكي يحتاج الى الزيادة وبليد يحتاج الى التقليل
فيضجر الذكي ويعجز البليد ومتى تردد اصحابه بين ضجر وعجز ملوه وملهم
وقد روى عبد الله بن وهب عن سفيان قال قال الخضر لموسى عليهما السلام
يا طالب العلم ان القايل اقل ملالة من المستمع فلا تمل جلساءك اذا حدثتهم
يا موسى اعلم ان قلبك وعاء فانظر ما تحشو في وعائك وقال بعض الحكماء
خير العلماء من لا يقل ولا يمل وقال بعض العلماء كل علم كثر على السمع ولم
يطاوعه الفهم ازداد به القلب عمى وانما ينفع السمع للاذان اذا قوي فهم
القلوب من الابدان وربما كان لبعض الملوك رغبة في العلم لفضيلة نفسه
وكرم طبعه فلا يجعل ذلك ذريعة في الانبساط عنده والادلال عليه بل
يعطيه ما يستحقه بسلطانه وعلو يده فان للسلطان حق الطاعة والاعظام
وللعالم حق القبول والاكرام ثم لا ينبغي ان يبتديه الا بعد الاستدعاء ولا
يزيده الا على قدر الاكتفاء فربما احب بعض العلماء اظهار علمه للسلطان فاكثر
فصار ذلك ذريعة الى ملله ومفضيا الى بعده لان السلطان متقسم الافكار
مستوعب الزمان فليس له في العلم فراغ المنقطعين اليه ولا صبر المنفردين به
وقد حكي عن الاصمعي قال قال الرشيد يا عبد الملك انت اعلم منا ونحن اعقل
منك لا تعلمنا في ملا ولا تسرع الى تذكيرنا في خلا واتركنا حتى نبتديك
بالسوال فاذا بلغت في الجواب حق الاستحقاق فلا تزد الا ان نستدعي ذلك
منك انظر الى ما الطف في التاديب وانصف في التعليم وبلغ باوجز لفظ غاية التقويم

ولْيُخرج تعليمه مخرج المذاكرة والمحاضرة لا مخرج التعليم والإفادة لأن لتأخير
التعليم خجلة تقصر بمحل السلطان عنها وإن ظهر منه خطأ أو زلل في قول
أو عمل لم يجاهره بالرد وعرّض باستدراك زلله وإصلاح خلله حُكي أن
عبد الملك بن مروان قال للشعبي كم عطاك قال ألفين قال لحنت فقال لما ترك
أمير المؤمنين الإعراب كرهت أن أعرب كلامي عليه ثم لا يجعل اتباعه
فيما يجانب الدين ويضاد الحق موافقة لرأيه ومتابعة لهواه فربما زلت
أقدام العلماء في ذلك رغبة أو رهبة فضلوا وأضلوا قد روى الحسن البصري
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزال هذه الأمة تحت يد الله وفي
كنفه ما لم تمال قراؤها أمراءها ولم يزك صلحاؤها فجارها وما لم يمار أخيارها
أشرارها فإذا فعلوا ذلك رفع عنهم يده ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم
سوء العذاب وضربهم بالفاقة والفقر وملأ قلوبهم رعبا ومن آداب العلماء
نزاهة النفس عن شبه المكاسب والقناعة بالميسور عن كد المطالب فإن
شبه المكاسب إثم وكد الطلب ذل والأجر أجدر به من الإثم والعز أحق
به من الذل أنشدني بعض أهل الأدب لعلي بن عبد العزيز القاضي

يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ومن أكرمته عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمع صيرته لي سلما
وما كل برق لاح لي يستفزني ولا كل من في الأرض أرضاه منعما
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما
أنهنهها عن بعض ما لا يشينها مخافة أقوال العدا فيم أو لما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

على أن العلم عوض من كل لذة ومغن عن كل شهوة ومن كان صادق النية فيه لم تكن

له همة

له همة فيما يجد بدلا منه وقد قال بعض الحكماء من تفرد بالعلم لم توحشه خلوة
ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوة ومن آنسه قراءة القرآن لم توحشه مفارقة
الإخوان وقال بعض الحكماء لا سمير كالعلم ولا ظهير كالحلم ومن آدابهم
أن يقصدوا وجه الله تعالى بتعليم من علموا ويطلبوا ثوابه بإرشاد من أرشدوا
من غير أن يعتاضوا عليه عوضا ولا يلتمسوا عليه رزقا فقد قال الله تعالى
ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا قال أبو العالية لا تأخذوا عليه أجرا وهو مكتوب
في الكتاب الأول يا ابن آدم علّم مجانا كما علمت مجانا وقد روي عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال أجر المعلم كأجر الصائم القائم وحسب من هذا أجره
أن يلتمس أجرا ومن آدابهم نصح من علموا والرفق بهم وتسهيل السبيل
عليهم وبذل المجهود في رفدهم ومعونتهم فإن ذلك أعظم لأجرهم وأسنى
لذكرهم وأنشر لعلومهم وأرسخ لمعلومهم وقد روي عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يا علي لأن يهدي الله بك رجلا
خير لك مما طلعت عليه الشمس ومن آدابهم أن لا يعنفوا متعلما ولا يحقروا
ناشئا ولا يستصغروا مبتدئا فإن ذلك أدعى إليهم وأعطف عليهم وأثبت
لقلوبهم وأحث على الرغبة فيما لديهم وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال علموا ولا تعنفوا فإن المعلم خير من المعنف وقال صلى الله عليه وسلم
وقروا من تتعلمون منه ووقروا من تعلمونه ومن آدابهم أن لا يمنعوا
طالبا ولا ينفروا راغبا ولا يؤيسوا متعلما ففي ذلك من قطع الرغبة منهم والزهد
فيما لديهم واستمرار ذلك مفض إلى انقراض العلم بانقراضهم فقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه قالوا بلى
يا رسول الله قال من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤيسهم من روح الله
ولا يدع القرآن رغبة إلى ما سواه ألا لا خير في عبادة ليس فيها تفقه ولا علم
ليس فيه تفهم ولا قراءة ليس فيها تدبر فهذه جملة كافية والله ولي التوفيق

باب أدب الدين

إن الله سبحانه وتعالى إنما كلف خلقه متعبداته وألزمهم مفترضاته وابتعث إليهم

رسله وشرع لهم دينه لغير حاجة دعته الى تكليفهم ولا من ضرورة قادته الى
تعبدهم وانما قصد به نفعهم تفضلا منه عليهم كما تفضل بما لا يحصى عددا
من نعمه بل النعمة في ما تعبدهم به اعظم لان نفع ما سوى المتعبدات يختص
بالدنيا العاجلة ونفع المتعبدات يشتمل على نفع الدنيا والاخرة وما جمع نفع
الدنيا والاخرة كان اعظم نعمة واكثر تفضلا وجعل ما تعبدهم به ماخوذا
من عقل متبوع وشرع مسموع فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع والشرع
متبوع فيما لا يمنع منه العقل لان الشرع لا يرد بما يستحيل في العقل فلا يتبع
ما يمنع الشرع ولذلك وجب التكليف الى من كمل عقله فارسل رسوله
بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فبلغهم رسالته
والزمهم حجته وبين لهم شريعته وتلى عليهم كتابه فيما احله وحرمه واباحه
وحظره واستحبه وكرهه وامر به ونهى عنه وما وعد به من الثواب لمن
اطاعه واوعد به من العقاب لمن عصاه قال الله تعالى كما ارسلنا فيكم رسولا
منكم يتلوا عليكم اياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم
ما لم تكونوا تعلمون فكان وعده ترغيبا ووعيده ترهيبا لان الرغبة تبعث
على الطاعة والرهبة تكف عن المعصية والتكليف يجمع امرا بطاعة ونهيا
عن معصية فلذلك كان التكليف مقرونا بالرغبة والرهبة وكان ما تخلل
كتابه من قصص الامم السالفة واخبار القرون الخالية عظة واعتبارا تقوى
معهما الرغبة وتزداد بهما الرهبة فكان ذلك من لطفه بنا وتفضله علينا
فالحمد لله الذي نعمه لا تحصى وشكره لا يودى ثم جعل الى رسوله صلى الله
عليه وسلم بيان ما كان مجملا وتفسير ما كان مشكلا وتحقيق ما كان محتملا ليكون
له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ومنزلة التفويض اليه قال الله تعالى ٤٧
وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ثم جعل الى العلما
بعد رسوله صلى الله عليه وسلم استنباط ما نبه على معانيه واشار الى اصوله
ليتوصلوا بالاجتهاد فيه الى علم المراد به فيمتازوا بذلك عن غيرهم ويختصوا
بثواب اجتهادهم قال الله سبحانه يرفع الله الذين امنوا منكم والذين اوتوا العلم

يمنع منه العقل والعقل لا يبيح ما يمنع منه توجد

درجات وقال وما يعلم تاويله الا الله والراسخون في العلم فصار الكتاب
اصلا والسنة فرعا واستنباط العلما ايضاحا وكشفا قال النبي صلى الله عليه
وسلم القران اصل علم الشريعة نصه ودليله والحكمة بيان رسول
الله صلى الله عليه وسلم واجماع الامة حجة على من شذ عنها وكان
من رافته بخلقه وتفضله على عباده ان اقدرهم على ما كلفهم ورفع الحرج
عنهم فيما تعبدهم ليكونوا مع ما قد اعد لهم ناهضين بفعل الطاعات
ومجانبة المعاصي قال الله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها وقال
وما جعل عليكم في الدين من حرج وجعل ما كلفهم ثلاثة اقسام قسما امرهم
باعتقاده وقسما امرهم بفعله وقسما امرهم بالكف عنه ليكون اختلاف
جهات التكليف ابعث على قبوله واعون على فعله حكمة منه ولطفا
وجعل ما امرهم باعتقاده قسمين قسما اثباتا وقسما نفيا فالاثبات
اثبات توحيده وصفاته وبعثة رسله وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم
فيما جاء به والنفي نفي الصاحبة والولد والحاجة وجميع القبائح وهذان
القسمان هما اول ما كلفه العاقل وجعل ما امرهم بفعله ثلاثة اقسام
قسما على ابدانهم كالصلاة والصيام وقسما في اموالهم كالزكوات والكفارات
وقسما على ابدانهم وفي اموالهم كالحج والجهاد ليسهل عليهم فعله ويخف
عنهم اداوه نظرا منه لهم وتفضلا منه عليهم وجعل ما امرهم بالكف عنه
ثلاثة اقسام قسما لاحياء نفوسهم وصلاح ابدانهم كنهيه عن القتل
واكل الخبائث والسموم وشرب الخمور المودية الى فساد العقل وزواله
وقسما لائتلافهم وصلاح ذات بينهم كنهيه عن الغصب والغلبة والظلم
والسرف المفضي الى القطيعة والبغضا وقسما لحفظ انسابهم وتعظيم محارمهم
كنهيه عن الزنا ونكاح ذوات المحارم فكانت نعمته فيما حظره علينا
كنعمته فيما اباحه لنا وتفضله فيما كفنا عنه كتفضله فيما امرنا به
فهل يجد العاقل في روية مساغا ان يقصر فيما امر به وهو نعمة عليه او
يرى فسحة في ارتكاب ما نهي عنه وهو تفضل عليه وهل يكون من انعم

الا مذموما في العقل مع ما جاء من
عليه بنعمة فاهملها مع شدة فاقته اليها
وعيد السميع البصير ثم من لطفه بخلقه وتفضله على عباده ان جعل لهم
من جنس كل فريضة نفلا وجعل لهما من الثواب قسطا وندبهم اليه ندبا وجعل
لهم بالحسنة عشرا ليضاعف ثواب فاعله ويضع العقاب عن تاركه ومن
لطيف حكمته ان جعل لكل عبادة حالتين حال الكمال وحال الجواز رفقا منه
بخلقه لما سبق في علمه ان منهم العجل المبادر والبطيء المتثاقل ومن لا صبر
له على الاكمل ليكون ما اخل به من هيئات عبادته غير قادح في فرض (اداءهم)
ولا مانع من اجر فكان ذلك من نعمه علينا وحسن نظره لنا فكان اول
ما فرض بعد تصديق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم عبادات الابدان وقدمها
على ما يتعلق بالاموال لان النفوس على الاموال اشح وبما يتعلق بالابدان اسمح وذلك
الصلاة والصيام فقدم فرض الصلاة على الصيام لان الصلاة اسهل فعلا
وايسر عملا وجعلها مشتملة على خضوع له وابتهال اليه فالخضوع له
رهبة منه والابتهال اليه رغبة فيه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم
اذا قام احدكم الى صلاته فانما يناجي ربه فلينظر احدكم بما يناجيه وكان
علي رضي الله عنه كلما دخل عليه وقت الصلاة اصفر مرة واحمر اخرى
فقيل له في ذلك فقال اتتني الامانة التي عرضت على السموات والارض والجبال
فابين ان يحملنها واشفقن منها وحملتها انا ولا ادري ااسيء فيها ام احسن
ثم جعل لها شروطا لازمة من رفع حدث وازالة نجس ليستديم النظافة
للقاء ربه والطهارة لاداء فرضه ثم ضمنها تلاوة كتابه المنزل اليه ليدبر
ما فيه من اوامره ونواهيه ويختبر اعجاز الفاظه ومعانيه ثم علقها باوقات
راتبة وازمان مترادفة ليكون ترادف ازمانها وتتابع اوقاتها سببا
لاستدامة الخضوع له والابتهال اليه فلا تنقطع الرهبة منه ولا الرغبة فيه واذا
لم تنقطع الرغبة والرهبة استدام صلاح الخلق وبحسب قوة الرغبة والرهبة يكون
استيفاؤهما على الكمال او التقصير فيهما على الجواز قال النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة
مكيال فمن وفى وفي له ومن طفف فقد علمتم ما قال الله تعالى في المطففين

وقال

وقال صلى الله عليه وسلم من هانت عليه صلاته كان على الله اهون وانشدت
عن بعض الصلحاء
اقبل على صلاتك الخمس ... كم مصبح وعساه لا يمسي
واستقبل اليوم الجديد بتوبة ... تمحو ذنوب صنيعة الامس
فليفعلن بوجهك الغض البلى ... فعل الظلام بصورة الشمس

ثم فرض الله تعالى الصيام وقدمه على زكوات الاموال لتعلق الصيام
بالابدان فكان في ايجابه حثا على الفقرا واطعامهم وسد جوعاتهم لما
قد عاينوه من شدة المجاعة في صومهم وقد قيل ليوسف عليه السلام لم تجوع
وانت على خزائن الارض فقال اخاف ان اشبع فانسى الجايع ثم لما في الصوم
من قهر النفس واذلالها وكسر الشهوة المستولية عليها واشعار النفس ما
هي عليه من الحاجة الى يسير الطعام والشراب والمحتاج الى الشيء ذليل به
وبهذا احتج الله تعالى على من اتخذ عيسى وامه الاهين من دون الله فقال
ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا ياكلان
الطعام فجعل حاجتهما الى الطعام نقصا فيهما والنقص يمنع من ان يكونا الاهين
وقد وصف الحسن البصري في قصصه نقص الانسان بالطعام وغيره فقال
مسكين ابن ادم مكتوم الاجل مكتوم الامل مستور العلل يتكلم بلحم وينظر
بشحم ويسمع بعظم اسير جوعة وصريع شبعة تؤذيه البقة وتنتنه العرقة
وتقتله الشرقة لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياتا ولا نشورا فانظر
الى لطفه بنا فيما اوجبه من الصيام علينا كيف ايقظ العقول له وقد كانت
عنه غافلة او متغافلة ونفع النفوس به ولم تكن لولاه منتفعة ولا نافعة
ثم فرض زكوات الاموال وقدمها على فرض الحج لان في الحج مع انفاق المال
سفرا شاقا فكانت النفس الى الزكاة اسرع اجابة منها الى الحج فكان في
ايجابها مواساة للفقرا ومعونة لذوي الحاجات تكفهم عن التباغض وتمنعهم
عن التقاطع وتبعثهم على التواصل لان الامل وصول والراجي هايب واذا زال
الامل وانقطع الرجا واشتدت الحاجة وقعت البغضا واشتد الحسد فحدث
التقاطع بين ارباب الاموال والفقرا ووقعت العداوة بين ذوي الحاجات والاغنيا

حتى يفضي الى التغالب على الاموال والتغرير بالنفوس مع ما في اداء الزكوة
من تمرين النفس على السماحة المحمودة ومجانبة الشح المذموم لان السماحة تبعث
على اداء الحقوق والشح يصد عنها وما بعث على اداء الحقوق فاجدر به حمدا
وما صد عنه فاخلق به ذمًّا و قد روى ابو هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله
عليه وسلم قال شر ما اعطى العبد شح هالع وجبن خالع فسبحان من دبر ب
حكمته واخفى عن فطنتنا جزيل نعمته حتى استوجب من الشكر باخفايها اعظم
مما استوجبه بابدايها ثم فرض الحج فكان اكثر فروضه لانه يجمع عملا
على بدن وحقا في مال فجعل فرضه بعد استقرار فروض الابدان وفروض الا
ليكون استيناسهم بكل واحد من النوعين ذريعة الى تسهيل ما جمع النوعين
فكان في اجابته تذكير ليوم الحشر في مفارقة المال والاهل وخضوع العزيز
والذليل في الوقوف بين يدي الله تعالى واجتماع المطيع والعاصي في الرهبة
والرغبة اليه واقلاع اهل المعاصي عما اجترحوه وندم المذنبين على ما اسلفوه
فقل من حج الا واحدث توبة من ذنب واقلاعا عن معصية ولذلك قال النبي
صلى الله عليه وسلم من علامة الحجة المبرورة ان يكون صاحبها بعدها خيرا منه
قبلها وهذا صحيح لان الندم من الذنوب مانع من الاقدام عليها والتوبة منها
مكفرة لما سلف منها فاذا كف عما كان تقدم عليه انبا عن صحة توبته
التوبة يقتضي قبول حجه ثم نبه بما يعاني فيه من مشاق السفر المودي اليه
على موضع النعمة برفاهة الاقامة وانسة الاوطان ليحث على من سلب هذه
النعمة من ابناء السبيل ثم اعلم بمشاهدة حرمه الذي انشا منه دينه وبعث
رسوله ثم بمشاهدة دار الهجرة التي اعز الله تعالى بها اهل طاعته واذل بها
نبيه صلى الله عليه وسلم اهل معصيته حتى خضع له عظماء المتجبرين وتذلل
له زعماء المتغلبين انه لم ينتشر عن ذلك المكان المنقطع والاقوى بعد الفقر
البين حتى صار طبق الارض شرقا وغربا الا بمعجزة ظاهرة ونصر عزيز فاعتبر
الهمك الله الشكر ووفقك للتقوى انعامه عليك فيما كلفك واحسانه
اليك فيما تعبدك فقد وكلك الى فطرتك وادلك على بصيرتك لعدا
بها

٣٣

...آل الشعه... ...ركبوا سفينة في بحر فاقتسموا فاخذ كل واحد
...بعد بفاس فقالوا ما تصنع قال هو مكاني اصنع
...ك وهلكوا و روى ابو سعيد الخدري رضي
...وسلم انه قال انكر المنكر بيدك فان لم تستطع
...قلبك وذلك اضعف الايمان فان اراد الاقدام
...نظر فان لم يكن اظهار التنكير مما يتعلق باعزاز
الحق فلم يجب عليه النكير اذا اخشي بغالب الظن
...نكير ايضا وان كان في اظهار التنكير اعزاز دين
...حسن منه التكبير مع خشية الاضرار والتلف
...قد يحصل له بالتنكير وان استنضر وقتل
...به عليه وسلم ان افضل الاعمال كلمة حق عند
...قبل حصول الغرض قبح في العقل ان يتعرض لذلك
...ن اغرا بفعل المنكر ولجاجا في استكثار
...له والثانية ان يكون فعل المنكر من جماعة
...ربت ودعت اليه فقد اختلف الناس في
...لت طايفة من اصحاب الحديث واهل الاثار
...ان يكون كافا ممسكا وملازما لبيته
...لت طايفة اخرى ممن تقول بظهور بظهور
...لت الا ان يظهر المنتظر فيتولى انكاره بنفسه
...ة اخرى منهم الاصم لا يجوز للناس انكاره
...م الانكار معه و قال جمهور المتكلمين
...م على شروطه في وجود اعوان يصلحون
...سان الكف لان الواحد يقتل قبل بلوغ
...تعرض ان يتعرض له فهذا حكم ما اكد
من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يختلف

حتى يفضي الى التغالب على الاموال والتغـ
من تمرين النفس على السماحة المحمودة ومجانبـ
على اداء الحقوق والشح يصد عنها وما بعـ
وما صد عنه فاخلق به ذما و قد روى ابو
عليه وسلم قال شر ما اعطي العبد شح هالـ
حكمته واخفى عن فطنتنا جزيل نعمته حتى
بما استوجبه بابدايها ثم فرض الحج فكـ
على بدن وحقا في مال فجعل فرضه بعد ا
ليكون استيفاسهم بكل واحد من النوعين
فكان في اجابته تذكير ليوم الحشر في مـ
والذليل في الوقوف بين يدي الله تعالى
والرغبة اليه واقلاع اهل المعاصي عما
فقل من حج الا واحدث توبة من ذنب و
صلى الله عليه وسلم من علامة الحجة المـ
قبلها وهذا صحيح لان الندم من الذنوب
مكفرة لما سلف منها فاذا كف عما ك
التوبة يقتضي قبول حجه ثم نبه بما
على موضع النعمة برفاهة الاقامة وانـ
النعمة من ابناء السبيل ثم اعلم بمشا
رسوله ثم بمشاهدة دار الهجرة التي
نبيه صلى الله عليه وسلم اهل عصبة
له زعماء المتعصبين انه لم ينتشر عن
البين حتى صار طبق الارض شرقا وغـ
الهمك الله الشكر ووفقك للتقوى
اليك فيما تعبدك فقد وكلتك الى

صلى الله عليه وسلم ان قوما ركبوا سفينة في بحر فاقتسموا فاخذ كل واحد
منهم موضعا فنقر رجل منهم موضعه بفاس فقالوا ما تصنع قال هو مكاني اصنع
ما شئت فلم ياخذوا على يديه فهلك وهلكوا و روى ابو سعيد الخدري رضي
الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انكر المنكر بيدك فان لم تستطع
فبلسانك فان لم تستطع فبقلبك وذلك اضعف الايمان فان اراد الاقدام
على الانكار مع لحوق المضرة به نظر فان لم يكن اظهار النكير مما يتعلق باعزاز
دين الله تعالى ولا اظهار كلمة الحق فلم يجب عليه النكير اذا اخشى بغالب الظن
تلفا او ضررا ولم يحسن منه النكير ايضا وان كان في اظهار النكير اعزاز دين
الله تعالى واظهار لكلمة الحق حسن منه النكير مع خشية الاضرار والتلف
وان لم يجب عليه اذا كان الغرض قد يحصل له بالنكير وان استضر او قتل
وعلى هذا الوجه قال النبي صلى الله عليه وسلم ان افضل الاعمال كلمة حق عند
سلطان جائر فاما ان كان يقتل قبل حصول الغرض قبح في العقل ان يتعرض لذلك
وكذلك لو كان الانكار يزيد المنكر اغراء بفعل المنكر ولجاجا في استكثار
منه قبح في العقل انكاره و الحالة الثانية ان يكون فعل المنكر من جماعة
قد تظافرت عليه وعصبة قد تحزبت ودعت اليه فقد اختلف الناس في
وجوب انكاره على مذاهب شتى فقالت طائفة من اصحاب الحديث واهل الاثار
لا يجب انكاره والاولى بالانسان ان يكون زكيا ممسكا وملازما لبيته
وادعا غير منكر ولا مستنفر و قالت طائفة اخرى ممن يقول بظهور [illegible]
المنتظر لا يجب انكاره ولا التعرض له الا ان يظهر المنتظر فيتولى انكاره بنفسه
ويكونوا حينئذ اعوانه و قالت طائفة اخرى منهم الاصم لا يجوز للناس انكاره
الا ان يجتمعوا على امام عدل فيجب عليهم الانكار معه و قال جمهور المتكلمين
انكار ذلك واجب والدفع عنه لازم على شروطه في وجود اعوان يصلحون
له فاما مع فقدان الاعوان فعلى الانسان الكف لان الواحد يقتل قبل بلوغ
الغرض فيه وذلك قبيح في العقل ان يتعرض له فهذا حكم ما اكد
الله تعالى به اوامره واثبته زواجره من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يتعلق

من احوال الامرين به والناهين عنه ثم ليس يخلو احال الناس فيما امروا به ونهوا
عنه من فعل الطاعات واجتناب المعاصي من اربعة احوال فمنهم من يستجيب الى
فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصي وهي اكمل احوال الدين وافضل
صفات المتقين فهذا يستحق جزاء العاملين وثواب المطيعين وروى محمد بن
عبد الملك المدني عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم الذنب لا ينسى والبر لا يبلى والديان لا يموت فكن كما شئت كما تدين
تدان وقيل كل احد يحصد ما يزرع ويجزى بما يصنع ومنهم من يمتنع من فعل
الطاعات ويقدم على ارتكاب المعاصي وهي اخبث احوال المكلفين فهذا
يستحق عقاب اللاهي عن فعل ما امر به من طاعاته وعذاب المجترئ على ما
اقدم عليه من معاصيه وقد قال ابن شبرمة عجبت لمن يحتمي من الطيبات
مخافة الداء كيف لا يحتمي من المعاصي مخافة النار فاخذ ذلك بعض الشعرا فقال

جسمك قد افنيته بالحمى دهرا من البارد والحار
وكان اولى بك ان تحتمي من المعاصي حذر النار

وقال ابن صبارة انا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعات الله تعالى اهون من الصبر
على عذاب الله تعالى وقال آخر اصبروا عباد الله على عمل الاغنياء بكم عن ثوابه
واصبروا عن عمل لا صبر لكم على عقابه وقيل للفضيل بن عياض رضي الله
عنه فقال كيف يرضى عني ولم ارضه ومنهم من يستجيب الى فعل الطاعات
ويقدم على ارتكاب المعاصي فهذا يستحق عقاب المجترئ لانه تورط
بغلبة الشهوة على الاقدام على المعصية وان سلم من التقصير في فعل الطاعة
وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اقلعوا عن المعاصي قبل ان ياخذكم
الله تعالى فيدعكم هتا بتا الهت الكسر والبت القطع ولذلك قال
بعض العلما افضل الناس من لم تفسد الشهوة دينه ولم تزل الشبهة يقينه
قال حماد بن زيد عجبت لمن يحتمي الاطعمة لمضرتها كيف لا يجتنب الذنوب
لمعرتها وقال بعض الصلحاء اهل الذنوب مرضى القلوب وقيل للفضيل بن عياض
ما اعجب الاشيا فقال قلب عرف الله تعالى ثم عصاه وقال بعض الالباء يدل

بالطاعة العاصي

بالطاعة العاصي وينسى عظيم المعاصي وقال رجل لابن عباس ايما احب اليك
رجل قليل الذنوب قليل العمل او رجل كثير الذنوب كثير العمل فقال ابن عباس
رضي الله عنه لا اعدل بالسلامة شيا وقيل لبعض الزهاد ما تقول في صلاة الليل
فقال خف الله تعالى بالنهار ونم بالليل وسمع بعض الزهاد رجلا يقول القوم
اهلكهم النوم فقال بل اهلكهم اليقظة وقيل لابي هريرة رضي الله عنه ما التقوى
فقال اجزت في ارض فيها شوك قال نعم قال فكيف كنت تصنع قال كنت
اتوقى قال فتوق الخطايا وقال عبد الله بن المبارك رضي الله عنه

ايضمن لي فتى ترك المعاصي وارهنه الكفالة بالخلاص
اطاع الله قوم فاستراحوا ولم يتجرعوا غصص المعاصي

ومنهم من يمتنع من فعل الطاعات ويكف عن ارتكاب المعاصي فهذا يستحق عقاب
اللاهي عن دينه المنذر بقلة يقينه روى ابو ادريس الخولاني عن ابي ذر
الغفاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كانت صحف موسى
عليه السلام كلها عبرا عجبت لمن ايقن بالنار ثم هو يضحك وعجبت لمن ايقن
بالموت ثم هو يفرح وعجبت لمن ايقن بالقدر ثم هو ينصب وعجبت لمن راى الدنيا
وتقلبها باهلها ثم يطمين اليها وعجبت لمن ايقن بالحساب غدا ثم لا يعمل وقال
صلى الله عليه وسلم اجتهدوا في العمل فان قصر بكم ضعف فكفوا عن المعاصي
وهذا واضح المعنى لان الكف عن المعاصي ترك وهو اسهل وعمل الطاعات فعل
وهو اثقل ولذلك لم يبح الله تعالى ارتكاب معصية قط بعذر ولا بغير عذر
لانه ترك والترك لا يعجز المعذور عنه وقال بكر بن عبد الله رحمه الله ان كان
قويا فاعمل قوته في طاعة الله او كان ضعيفا فكف بضعفه عن معصية الله واعلم
ان اعمال الطاعات ومجانبة المعاصي اقتبن احداهما تكسب الوزر والاخرى
توهن الاجر فالتي تكسب الوزر الاعجاب بما سلف من عمله وقدم من طاعته لان
الاعجاب به يفضي الى حالتين مذمومتين احداهما ان المعجب بعمله ممتن والممتن به
على الله تعالى جاحد لنعمه قال عبد الله بن عبد الاعلى الشامي

العمر ينقص والذنوب تزيد وتقال عثرته الفتى فيعود

هل يستطيع جحود ذنبٍ واحدٍ رجلٌ جوارحه عليه شهود
والمرء يُسأل عن سنيه فيشتهي تنقيصها وعن الممات يحيد

قال ابن عباس رضي الله عنه اوحى الله تعالى الى نبي من انبيائه اما زهدك في الدنيا فقد استعجلت به الراحة واما انقطاعك اليّ فهو عزّ لك وهذا لك وبقي انا واما الثانية فان المعجب بعمله مدل والمدل مجترى والمجترى على الله تعالى عاصٍ قال مورق العجلي خير من العجب بالطاعة ان لا تاتي بطاعة وقال بعض السلف ضاحك معترف بذنبه خير من باكٍ مدلٍ على ربه وباكٍ نادمٌ على ذنبه خير من ضاحك معترف بلهوه واما الموهنة للاجر فالثقة بما اسلف والركون الى ما تقدم لان الثقة تؤول الى امرين سيئين احدهما انه يحدث اتكالا على ما مضى وتقصيرا فيما يستقبل ومن قصّر واتكل لم يرج اجرا ولم يؤد شكرا والثاني ان الواثق امن والامن من الله تعالى غير خايف ومن لم يخف الله تعالى هانت عليه اوامره وسهلت عليه زواجره وقال الفضيل بن عياض رهبة المرء من الله تعالى على قدر علمه بالله تعالى وقال مورق العجلي لان ابيت نايما واصبح نادما احب اليّ من ان ابيت قايما واصبح معجبا وقالت الحكماء ما بينك وبين ان لا يكون فيك خير الا ان ترى ان فيك خيرا وقيل لرابعة العدوية هل عملت عملا قط ترين انه يقبل منك فقالت ان كان شي يخوفني من ان يرد عليّ عملي وقال ابن السماك انا الله فيما مضى ما اعظم فيه الخطر وانا الله فيما بقي ما اقل فيه الحذر وحكي ان بعض الزهاد وقف على جمع فنادى باعلا صوته يا معشر الاغنيا لكم اقول استكثروا من الحسنات فان ذنوبكم كثيرة ويا معشر الفقرا لكم اقول اقلوا من الذنوب فان حسناتكم قليلة فينبغي ابدك الله ان لا تضيع صحة جسمك وفراغ وقتك بالتقصير في طاعة ربك والثقة بسالف عملك واجعل الاجتهاد غنيمة صحتك والعمل فرصة فراغك فليس كل الزمان مسعدا ولا ما فات مستدركا وللفراغ زيغ او ندم وللخلوة ميل او اسف وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الراحة للرجال غفلة وللنساء غلمة وقال بزرجمهر ان يكن الشغل مجهدة فان الفراغ مفسدة وقال بعض الحكما اياكم والخلوات فانها تفسد المعقول وتعقد المحلول وقال بعض البلغاء لا تمض

في غير

في غير منفعة ولا تضيع مالك في غير صنيعة فالعمر اقصر من ان ينفد في غير المنافع والمال اقل من ان يصرف في غير الصنايع والعاقل اجل من ان يفني ايامه فيما لا يعود عليه نفعه وخيره وينفق امواله فيما لا يحصل له ثوابه واجره وابلغ من ذلك قول عيسى عليه السلام البر ثلاثة المنطق والنظر والصمت فمن كان منطقه في غير ذكر جميل فقد لغا ومن كان نظره في غير اعتبار جليل فقد سها ومن كان صمته في غير فكر انيل فقد لها واعلم ان للانسان فيما كلفه من عباداته ثلاثة احوال احداها ان يستوفيها من غير تقصير فيها ولا زيادة عليها والثانية ان تقصر فيها والثالثة ان يزيد عليها فاما الحال الاولى وهي ان ياتي بها على حال الكمال من غير تقصير ولا زيادة تطوع عليها فهي اوسط الاحوال واعدلها لانه لم يكن منه تقصير فيه ولا تكثير فيعجز وقد روى سعيد بن ابي سعيد عن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال سددوا وقاربوا واستعينوا بالغدوة والروحة وشي من الدلجة وقال الشاعر

عليك باوساط الامور فانها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

والحال الثانية وهو ان يقصر فيها لا يخلو حال تقصيره من اربعة احوال احداهن ان يكون تقصيره لعذر اعجزه عنه او مرض اضعفه عن اداء ما كلف منه فهذا يخرج عن حكم المقصرين ويلحق باحوال العاملين لاستقرار الشرع على سقوط ما دخل تحت العجز وقد جاء الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما من عامل كان يعمل عملا فيقطعه عن ذلك العمل مرض الا وكل به من يكتب له ثواب عمله والحال الثانية ان يكون تقصيره اغترارا بالمسامحة فيه ورجاء العفو عنه فهذا مخدوع العقل مغرور بالجهل وقد جعل الظن ذخرا والرجا عدة فهو كمن قطع سفرا بغير زاد ظنا بانه سيجده في المفاوز الجرية فيفضي به الظن الى الهلكة وهلا كان الحذر اغلب عليه وقد ندب الله تعالى اليه حكي ان اسرائيل بن محمد القاضي قال لقيني مجنون كان يكون في الخرابات فقال يا اسرائيل خف الله تعالى خوفا يشغلك عن الرجا فان الرجا يشغلك عن الخوف وفر الى الله تعالى ولا تفر منه وقيل لمحمد بن واسع الا تتكي فقال تلك جلسة الامنين وحكي ان ابا حازم الاعرج اخبر سليمان بن

عبد الملك ابو عبد الله للمذنبين فقال سليمان واين رحمة الله قال قريب من المحسنين وقال ابن عباس رضي الله عنه ما انتفعت ولا اتعظت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل كتاب كتبه الي علي بن ابي طالب رضي الله عنه اما بعد فان الانسان يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فلا تكن بما نلت من دنياك فرحا ولا لما فاتك منها ترحا ولا تكن ممن يرجو الاخرة بغير عمل ويؤخر التوبة بطول الامل فكأن قد والسلام وقال محمود الوراق

اخاف على المحسن المتقي وارجو لذي الهفوات المسي

فذاك خوفي على محسن فكيف على الظالم المعتدي

على ان ذا الزيغ قد يستفيق ويستانف الزيغ قلب التقي

والحال الثالثة ان يكون تقصيره فيه ليستوفي ما اخل من توبة فيبدا بالسيئة في التقصير قبل الحسنة في الاستيفاء اغترارا بالاجل في امهاله ورجاء التلافي ما اسلف من تقصيره واخلاله فلا ينتهي به الامل الى غاية ولا يفضي به الى نهاية لان الامل في ثاني حال كهو في اول حال وقد قال صلى الله عليه وسلم من كان يامل ان يعيش غدا فانه يامل ان يعيش ابدا وهو صحيح لان لكل يوم غدا فاذا يفضي به الامل الى الفوت من غير درك ويؤديه الرجاء الى الاهمال من غير تلاف فيصير الامل خيبة والرجا ياسا وروى عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اول صلاح هذه الامة باليقين والزهد واول فسادها بالبخل والامل وقال الحسن البصري ما اطال احد الامل الا اساء العمل وقال رجل لبعض الزهاد بالبصرة الك حاجة ببغداد قال ما احب ان انبسط املي حتى تذهب الى بغداد وتجيء وقال بعض الحكما الجاهل يعتمد على امله والعاقل يعتمد على عمله والعارف يعتمد على ربه وجلاله وقال بعض البلغاء الامل كالسراب غر من راه وخاب من رجاه وقال محمد بن يزداد دخلت على المامون وكان يومئذ وزيره فرايته قائما وبيده رقعة فقال يا محمد اقراتها فقلت هي في يد امير المؤمنين قال فرمى بها الي فاذا فيها مكتوب

انك في دار لها مدة يقبل فيها عمل العامل

اما اما

أما ترى الموت محيطا بها يقطع فيها امل الامل

تعجل الذنب بما تشتهي وتامل التوبة من قابل

والموت ياتي بعد ذا بغتة ماذا بفعل الحازم العاقل

فلما قراتها قال المامون هذا من احكم شعر قراته وقال ابو حازم نحن لا نريد ان نموت حتى نتوب ونحن لا نتوب حتى نموت وقال بعض البلغا الامهال رائد الاهمال والحال الرابعة ان يكون تقصيره استثقالا للاستيفاء وزهدا في التمام واقتصارا على ما سنح وقلة اكتراث فيما بقي فهذا على ثلاثة اضرب احدها ان يكون ما اخل به وقصر فيه غير قادح في فرض ولا مانع من اجر عبادة كمن اقتصر من العبادة على فعل واجباتها واخل بمسنوناتها وهيئاتها وهذا مسيء فيما ترك اساءة من لا يستحق وعيدا ولا يستوجب عقابا لان اداء الواجب يسقط عنه العقاب واخلاله بالمسنون يمنع من كمال الثواب وقال الحكيم من تهاون بالدين هان ومن غالب الحق لان وقال الشاعر

ويصون ثوبته ويترك غيره لكلا يصونه

واحق ما صان الفتى ورعى امانته ودينه

والضرب الثاني ان يكون ما اخل به من مفروض عبادة واخل بعينها فهذا اسوأ حالا ممن تقدمه لما استحقه من الوعيد واستوجبه من العقاب والضرب الثالث ان يكون ما اخل به من مفروض عباداته وهو قادح فيما عمل منها كالعبادات التي ترتبط بعضها ببعض فيكون المقصر في بعضها تاركا لجميعها فلا يجتنب له بما عمل لاخلاله بما بقي وهذه اسوأ حال المقصرين والاحقة باحوال التاركين لانه قد تكلف ما لا يسقط فرضا ولا يؤدي حقا فقد ساوى التاركين في استحقاق الوعيد وزاد عليهم في تكلف ما لا يفيد فصار من الاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحيوة الدنيا وفي الاخرة ثم لعله لا يفطن لشانه ولا يشعر بخسرانه وقد خسر الدنيا والاخرة وهو يفطن لليسير من ماله ان مضى او انهمل وانشد بعضهم

ابني ان من الرجال بهيمة في صورة الرجل السميع المبصر

فطن بكل مصيبة في ماله واذا يصاب بدينه لم يشعر

واما الحال الثالثة وهو ان يزيد فيما كلف فهذا على ثلاثة اقسام احدها ان تكون
الزيادة رياء للناظرين وتصنعا للمخلوقين حتى يستعطف بها القلوب النافرة ويخدع
بها العقول الواهية فيتبهرج بالصلحاء وليس منهم ويتدلس في الاخيار وهو
ضدهم وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم للمرائي بعمله مثلا فقال المتشبع بما لا يملك
كلابس ثوبي زور يريد بالمتشبع بما لا يملك المتزين بما ليس فيه وقوله كلابس
ثوبي زور يعني الذي يلبس ثياب الصلحاء ويفعل افعال الصلحاء فهو برياءه محروم
الاجر مذموم الذكر لانه لم يقصد به وجه الله تعالى فيوجر عليه ولا يخفى رياؤه
على الناس فيحمد به وقد قال الله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا
ولا يشرك بعبادة ربه احدا قال جميع المفسرين لا يشرك بعبادة ربه مراءيا
لا يرائي بعمله احدا فجعل الرياء شركا لانه جعل ما يقصد به وجه الله تعالى
مقصودا به غير الله تعالى وقال الحسن البصري في قوله تعالى ولا تجهر بصلاتك
ولا تخافت بها قال لا تجهر بها رياء ولا تخافت بها حياء وكان سفيان
بن عيينة يتناول قول الله تعالى ان الله يامر بالعدل والاحسان قال العدل استواء
السريرة والعلانية في العمل لله تعالى والاحسان ان تكون سريرته احسن من
علانيته وينهى عن الفحشاء والمنكر ان تكون علانيته احسن من سريرته وكان علي
رضي الله عنه يقول العدل شهادة ان لا اله الا الله والاحسان الصبر على امره
ونهيه وطاعة الله في سره وجهره وايتاء ذي القربى صلة الارحام وينهى عن
الفحشاء يعني الزنا والمنكر القبائح والبغي الكبر والظلم وليس يخرج الرياء الا
من هذا التاويل ايضا لانه من جملة القبائح وقال صلى الله عليه وسلم اخوف
ما اخاف على امتي الرياء الظاهر والشهوة الخفية وقال صلى الله عليه وسلم اشد
الناس عذابا يوم القيامة من يرى ان فيه خيرا ولا خير فيه وقال علي رضي
الله عنه لا تعمل شيئا من الخير رياء ولا تتركه حياء وقال الحكيم كل حسنة
لم يرد بها وجه الله تعالى فعلتها قبح الرياء وثمرتها سوء الجزاء وقد يفضي الرياء
بصاحبه الى استهزاء الناس به كما حكي ان طاهر بن الحسين قال لابي عبد الله
المروزي منذ كم صرت الى العراق يا ابا عبد الله فقال دخلت العراق منذ عشرين

سنة

سنة وانا منذ ثلاثين سنة صائم فقال يا ابا عبد الله سالناك عن مسالة فاجبتنا
عن مسالتين وحكى الاصمعي ان اعرابيا صلى فاطال والى جانبه قوم فقالوا ما احسن
صلاتك فقال وانا مع ذلك صائم فانظر الى هذا الرياء فقبحه ما ادله
على سخف عقل صاحبه وربما ساعد الناس لظهور ريائه على الاستهزاء
بنفسه كالذي حكي ان زاهدا نظر الى رجل في وجهه سجادة كبيرة
واقفا على باب السلطان فقال مثل هذا الدرهم بين عينيك وانت هاهنا
فقال انه ضرب على غير السكة وهذا من اجوبة الخلاعة التي يدفع بها
تهجين المذمة ولقد استحسن الناس من الاشعث بن قيس قوله وقد خفف
صلاته مرة فقال له بعض اهل المسجد خففت صلاتك جدا فقال انه لم
يخالطها رياء ومر ابو امامة ببعض المساجد فاذا رجل يصلي ويبكي فقال له
انت انت لو كان هذا في بيتك فلم يرد لك منه حسنا لانه اتهمه بالرياء
ولعله كان بريئا منه فكيف من صار الرياء اغلب صفاته واشهر سماته
مع انه انم من هبوب النسيم بما حمل ولذلك قال ابن المبارك افضل الزهد
اخفاء الزهد كالذي حكي عن عمر رضي الله عنه انه احتشى على المنبر
بريح خرجت منه فقال ايها الناس اني قد ميلت بين ان اخافكم في الله تعالى
وبين ان اخاف الله تعالى فيكم فكان ان اخاف الله تعالى فيكم احب الي الا
واني قد فسوت وها انا ذا انزل لاعيد الوضوء فكان ذلك منه زجرا
لنفسه لتكف عن نزاعها الى مثله وقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب
القرظي عظني فقال لا ارضى نفسي لك لاني اجلس بين الفقير والغني فاميل على
الفقير واوسع للغني ولان طاعة الله تعالى في العمل لوجهه لا لغيره حكي
ان قوما ارادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتهوا الى راهب فقالوا قد ضللنا
فكيف الطريق قال هاهنا واوما الى السماء والقسم الثاني ان يفعل الزيادة
اقتداء بغيره وهذا تثمره مجالسة الاخيار الافاضل وتحدثه مكاثرة
الاذكياء الاماثل ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر
احدكم من يخالل فاذا كاثرهم الجليس وطاولهم الانيس احب ان يقتدي

[illegible]

بهم في اعمالهم ويتاسى بهم في اعمالهم ولا يرضى لنفسه ان تقصر عنهم ولا ان يكون في الخيس دونهم فتبعثه المنافسة على مساواتهم وربما دعته الحمية الى الزيادة عليهم والتكثر لهم فيصيروا سببا لسعادته وباعثا على استزادته والعرب تقول في امثالها لولا الوئام هلك الانام اي لولا ان الناس يرى بعضهم بعضا فيقتدي بهم في الخير هلكوا ولذلك قال بعض البلغاء من خير الاختيار صحبة الاخيار ومن شر الاختيار صحبة الاشرار لان للمصاحبة تاثيرا في اكتساب الاخلاق وقال الشاعر

رايت صلاح المرء يصلح اهله ... ويعديهم عند الفساد اذا فسد

يعظم في الدنيا بفضل صلاحه ... ويحفظ بعد الموت في الاهل والولد

وانشدني بعض اهل الادب لابي بكر الخوارزمي

لا تصحب الكسلان في حاجاته ... كم صالح بفساد اخر يفسد

عدوى البليد الى الجليد سريعة ... والجمر يوضع في الرماد فيخمد

وقد قيل الناس في الخير اربعة منهم من يفعله ابتداء ومنهم من يفعله اقتداء ومنهم من يتركه استحسانا ومنهم من يتركه حرمانا فمن فعله ابتداء فهو كريم ومن فعله اقتداء فهو حكيم ومن تركه استحسانا فهو ردي ومن تركه حرمانا فهو شقي والقسم الثالث ان يبعثه على الزيادة ابتداء من نفسه التماسا لثوابها ورغبة في الرفعة بها فهذا من نتايج النفس الزاكية ودواعي الرغبة الوافية الدالين على خلوص النية وصحة اليقين وذلك افضل احوال العاملين واعلى منازل العابدين وللزيادة حالتان احداهما ان يكون مقتصدا فيها وقادرا على الدوام عليها فهي افضل الحالتين واعلى المنزلتين عليها انقرض اخيار السلف وتبعهم فيها فضلاء الخلف وقد روت عايشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ايها الناس اكلفوا من العمل ما تطيقون فان الله لا يمل حتى تملوا من العمل وخير الاعمال ما ديم عليه والعرب تقول في امثالها القصد والدوام وانت السابق الجواد ولان من كان صحيح الرغبة في ثواب الله تعالى لم يكن له مسرح الا في طاعته قال عبد الله بن المبارك رحمه الله قلت لراهب متى عيدكم قال كل يوم لا نعصي الله تعالى فيه فهو يوم عيدنا وخرج بعض الزهاد في يوم عيد في هيئة رثة

فقيل له

فقيل له اتخرج في مثل هذا اليوم في مثل هذه الهيئة الرثة والناس يتزينون فقال ما يتزين لله تعالى بمثل طاعته والحالة الثانية ان يستكثر منها استكثار من لا ينهض بدوامها ولا يقدر على اتصالها فهذا ربما كان بالتقصير اشبه لان الاستكثار من الزيادة اذا كان يمنع من اداء اللازم فلا يكون الا تقصيرا لانه تطوع بزيادة احدثت نقصا وبنفل منع فرضا واما ان يعجز عن استدامة الزيادة ويمنع من ملازمة الاستكثار من غير اخلال بلازم ولا تقصير في فرض فهي اذا قصيرة المدى قليلة اللبث ولقليل العمل في طويل الزمان افضل عند الله من كثير العمل في قليل الزمان لان المستكثر من العمل في الزمان القصير قد يعمل زمانا ويترك زمانا فربما صار في زمان تركه لاهيا او ناسيا والمقلل في الزمان الطويل مستيقظ الافكار مستديم التذكار وقد روى ابو صالح عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان للاسلام شرة ولكل شرة فترة فمن سدد وقارب فارجوه ومن اشير اليه بالاصابع فلا تعدوه فجعل للاسلام شرة وهي الايغال في الاستكثار وجعل للشرة فترة وهي الاهمال بعد الاستكثار فلم يخل ما استكثر من ان تكون هذه الزيادة تقصيرا او اخلالا او اخيرا في واحد منهما واعلم ان الله تعالى جعل العمل حائلا بينك وعليك واكن قايد الله واليك ان الدنيا اذا وصلت تبعا تعويقه واذا فارقت فجعات محرقة وليس لوصلها دوام ولا من فراقها بد فرض نفسك على قطيعتها لتسلم من تباعتها وعلى فراقها لتامن من فجايعها فقد قيل المرء مقترض من عمره المنقرض ان العمر وان طال قصير والفراغ وان تم يسير انشدت لعلي بن محمد

اذا كملت للمرء ستون حجة ... فلم يحظ من ستين الا بسدسها

الم تر ان النصف بالليل حاصل ... وتذهب اوقات المقيل بخمسها

وتاخذ اوقات الهموم بحصة ... واوقات اوجاع تميت بمسها

فحاصل ما يبقى له سدس عمره ... اذا صدقته النفس في علم حدسها

فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اشرب قلبه حب الدنيا وركن اليها التاط

منها بشغل لا يبلغ غناه وامل لا يبلغ منتهاه وحرص لا يدرك مداه وقال عيسى عليه
السلام الدنيا لابليس مزرعة واهلها له حراث وقال علي رضي الله عنه مثل الدنيا
كمثل الحية لين مسها قاتل سمها فاعرض عما يعجبك فيها لقلة ما يصحبك منها
وضع عنك همومها لما ايقنت من فراقها وكن احذر ما تكون لها انس ما تكون بها
فان صاحبها كلما اطمأن منها الى سرور اشخصه عنها مكروه والى ايناس ازاله
عنها ايحاش وقال بعض الحكماء ان الدنيا لا تصفو لشارب ولا تفي لصاحب ولا
تخلو من فتنة ولا تخلي من محنة فاعرض عنها قبل ان تعرض عنك واستبدل بها
قبل ان تستبدل بك فان نعيمها يتنقل واحوالها تتبدل ولذاتها تفنى وتبعاتها
تبقى وقال بعض الحكماء انظر الى الدنيا نظر الزاهد المفارق ولا تأملها تأمل
العاشق الوامق وقال الشاعر

الا انما الدنيا كاحلام نائم … وما خير عيش لا يكون بدائم
تأمل اذا ما نلت بالامس لذة … فافنيتها هل انت الا كحالم
فمن غافل عنه وليس بغافل … ومن نائم عنه فليس بنائم

وقال صلى الله عليه وسلم من هوان الدنيا على الله تعالى انه لا يعصى الا فيها ولا
ينال ما عنده الا بتركها وروى سفيان ان الخضر قال لموسى عليهما السلام يا موسى
اعرض عن الدنيا وانبذها وراءك فانها ليست لك بدار ولا لك فيها محل قرار
وانما جعلت الدنيا للعباد ليتزودوا منها للمعاد وقال عيسى عليه السلام
الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها وقال علي رضي الله عنه في صفة الدنيا اولها
عناء واخرها فناء حلالها حساب وحرامها عقاب من صح فيها امن ومن
مرض فيها ندم ومن استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن من ساعدها
فاتته ومن قعد عنها اتته ومن نظر اليها اعمته ومن نظر بها بصرته
وقال بعض البلغاء ان الدنيا تقبل اقبال الطالب وتدبر ادبار الهارب وتصل
وصال الملول وتفارق فراق العجول فخيرها يسير وعيشها قصير واقبالها
خديعة وادبارها فجيعة ولذاتها فانية وتبعاتها باقية فاغتنم غفوة
الزمان وانتهز فرصة الامكان وخذ من نفسك لنفسك وتزود من يومك

لغدك

لغدك وقال وهب بن منبه مثل الدنيا والاخرة مثل رجل بين ضرتين ان ارضى احداهما
اسخطت الاخرى وقال عبد الحميد الدنيا منازل فراحل ونازل وقال بعض
الحكماء الدنيا اما نقمة نازلة او نعمة زائلة وقيل في منثور الحكمة على الدنيا
من الدنيا دليل وقال بعض الشعراء

تمتع من الايام ان كنت حازما … فانك منها بين ناه وآمر
اذا ابقت الدنيا على المرء دينه … فما فاته منها فليس بضائر
فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة … ولا وزن زف من جناح لطائر
فما رضي الدنيا ثوابا لمؤمن … ولا رضي الدنيا جزاء لكافر

وقال النبي صلى الله عليه وسلم الدنيا يومان يوم فرح ويوم هم وكلاهما زائل
عنك فدع ما يزول واتعبوا انفسكم في العمل لما لا يزول وقال عيسى عليه
السلام لا تنازعوا اهل الدنيا في دنياهم فينازعوكم في دينكم فلا دنياهم اصبتم
ولا على دينكم ابقيتم وقال علي رضي الله عنه لا تكن ممن يقول في الدنيا بقول
الزاهدين ويعمل فيها بعمل الراغبين ان اعطي منها لم يشبع وان منع منها
لم يقنع يعجز عن شكر ما اوتي ويبتغي الزيادة فيما بقي ينهى ولا ينتهي ويأمر
بما لا يأتي يحب الصالحين ولا يعمل بعملهم ويبغض الطالحين وهو منهم وقال
الحسن البصري رحمه الله الدنيا كلها غم فما كان فيها من سرور فهو ربح وقال
بعض البلغاء الدنيا كثيرة التغيير سريعة التنكير شديدة المكر دائمة الغدر فاقطع
اسباب الهوى عن قلبك واجعل ابعد املك بقية يومك وكن كانك ترى ثواب
عملك وقال بعض الحكماء الدنيا اما مصيبة موجعة واما منية مفجعة وقال الشاعر

كل دنيا فانها بعقب الخير شرها … هي ام تعق من نسلها من يبرها
كل نفس فانها تبتغي ما يضرها … والمنايا تسوقها والاماني تغرها
واذا استحلت الجنا اعقب الحلو مرها … ستثوى في ضريح عند ارض وحرها

فاذا رضت نفسك من هذه الحال بما وصفت اغتنمت منها ثلاث خلال احداهن
ان تكون اشفاق المحب وحذر الوامق فليس لمشفق ثقة ولا لحاذر راحة والثانية
ان تامن من الاغترار بملاهيها فتسلم من غائلة دواهيها فان الامن مغرور

اللاهي بها

والمغرور فيها مفتون والثالثة ان تستريح من تعب التشغي ونصب الكد فيها فان من
احب شيا طلبه ومن طلب شيا كدّ له والمكدود شقي وان ظفر ومحروم ان خاب
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يا كعب الناس غاديان فبايع نفسه
فمعتقها ومونق نفسه فموثقها وقال عيسى عليه السلام تعملون للدنيا وانتم ترزقون
فيها بغير عمل ولا تعملون للاخرة وانتم لا ترزقون فيها الا بالعمل وقال بعض البلغا
من نكد الدنيا لا تبقى على حالة ولا تخلو من استحالة تصلح جانبا بافساد جانب
وتسر صاحبا بمساءة صاحب فالكون فيها خطر والثقة بها غرر وقال بعض
الحكماء الدنيا مرتجعة الهبة والدهر حسود لا ياتي على شي الا غيره ولمن عاش حاجة
لا تنقضي ولما بلغ فروك من الدنيا افضل ما سمت اليه نفسه نبذها وقال هذا سرور
لولا انه غرور ونعيم لولا انه ذميم وملك لولا انه هلك وغنا لولا انه فنا وجسيم
لولا انه ذميم ومحمود لولا انه مفقود وغنا لولا انه منى وارتفاع لولا انه اتضاع وعلا
لولا انه بلا وحسن لولا انه حزن وهو يوم لو وثق له بغد وقال بعض الحكما قد
ملك الدنيا غير واحد من راغب وزاهد فلا الراغب فيها استبقت ولا للزاهد فيها
تخلفت وقال ابو العتاهية

هي الدار دار الاذى والقذى ودار الفناء ودار الغير
ولو نلتها بحذافيرها لمت ولم تقض منها الوطر
ايا من يؤمل طول الخلود وطول الخلود عليه ضرر
اذا ما كبرت وبان الشباب فلا خير في العيش بعد الكبر

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اللهم اني اعوذ بك من علم لا ينفع ونفس لا تشبع
وقلب لا يخشع وعين لا تدمع هل يتوقع احدكم الا غنا مطغيا او فقرا منسيا او مرضا
مفسدا او هرما مفندا او الدجال فهو شر غايب ينتظر او الساعة والساعة ادهى
وامر وحكي ان الله تعالى اوحى الى عيسى عليه السلام ان هب لي من قلبك الخشوع
ومن بدنك الخضوع ومن عينيك الدموع وادعني فاني قريب وقال عيسى عليه السلام
اوحى الله تعالى الى الدنيا من خدمني فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه وقال بعض
البلغا زد من طول املك في قصر عملك فان الدنيا ظل الغمام وحلم المنام فمن عرفها

ثم طلبها فقد اخطا الطريق وحرم التوفيق وقال بعض الحكما لا يومننك
اقبال الدنيا عليك من ادبارها عنك ولا دولة لك من ادالتها منك وقال اخر
ما مضى من الدنيا كما لم يكن وما قد بقي منها كما قد مضى وقيل لزاهد قد
خلعت الدنيا فكيف سخت نفسك عنها قال ايقنت اني اخرج منها كارها
فرايت ان ادعها طايعا وقيل لحرقة بنت النعمان ما لك لا تبكين فقالت
رايت لاهلي غضارة ولن تمتلي دار فرحا الا امتلات ترحا وقال ابن السماك
من جرعته الدنيا حلاوتها لميله اليها جرعته الاخرة مرارتها لتجافيه عنها
وقال بعض الحكما طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد
عطشا وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يتمثل بهذه الابيات

نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والاسى لك لازم
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى كما سر باللذات في النوم حالم
وتشغل فيما سوف تكره غبه كذلك في الدنيا تعيش البهايم

وسمع رجل رجلا يقول لصاحبه لا اراك الله مكروها فقال كانك دعوت
على صاحبك بالموت ان صاحبك ما صاحب الدنيا فلا بد ان يرى مكروها
وقال ابو العتاهية

ان الزمان وان الان لاهله لمخاشن بخطوبه المتحركات كانهن سواكن

والحالة الثالثة من احوال راغبيها ان تصرف نفسك عما [illegible] من
رغايبها واناتك من غراتها فتعلم ان العطية فيها مرتجعة والمنحة
فيها مستردة بعد ان يبقى عليك ما احتقبت من اوزار وصولها اليك
وحسرات خروجها عنك فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا
تزول قدما ابن ادم حتى يسيل عن ثلاث شبابه فيما ابلاه وعمره فيما
افناه وماله من اين اكتسبه وفيما انفقه وقال عيسى عليه السلام في المال
ثلاث خصال قالوا وما هي يا روح الله قال يكسبه من غير حله قالوا فان كسبه من
حله قال يضعه في غير حقه قالوا فان وضعه في حقه قال لا يشغله عن عبادة ربه
ودخل ابو حازم على بشر بن مروان فقال له يا ابا حازم ما المخرج مما نحن فيه قال

قال انظر ما عندك فلا تضعه الا في حقه وما ليس عندك فلا تاخذه الا بحقه قال ومن
يطيق هذا يا ابا حازم قال فمن اجل ذلك ملئت جهنم من الجنة والناس اجمعين
وعيّرت اليهود عيسى عليه السلام بالفقر فقال من الغنا دهيتم و دخل قوم منزل
عابد فلم يجد واشيا يقعدون عليه فقال لهم لو كانت دار مقام لاتخذنا لها اثاثا وقيل
لبعض الزهاد الا توصي قال بماذا اوصي والله ما للناس شي ولا لاحد عند ناس شي ولا الناس عند
احد شي انظر الى هذه الراحة كيف تعجلها والى السلامة كيف صار اليها ولذلك قيل
الفقر ملك ليس فيه محاسبة وقيل لعيسى عليه السلام لم لا تتزوج فقال انما يحب
التكاثر في دار البقا وقيل له لو دعوت الله ان يرزقك حمارا فقال انا اكرم على
الله من ان يجعلني خادم حمار وقيل لابي حازم ما مالك قال شيئان الرضى عن
الله والغنى عن الناس وقيل له انك لمسكين قال كيف اكون مسكينا ومولاي له
ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى وقال بعض الحكماء رب
مغبوط بمسرة هي داؤه ومرحوم من سقم هو شفاؤه وقال بعض الادباء الناس
اشتات ولكل جمع شتات وقال بعض البلغاء الزهد بصحة اليقين وصحة اليقين
بنور الدين فمن صح يقينه زهد في الثرا ومن قوي دينه ايقن بالجزاء فلا تغرنك
صحة نفسك وسلامة امسك فمدة العمر قليلة وصحة النفس مستحيلة وقال
بعض الشعراء

رب مغرور يعاش به عدمته كف مغترسه
وكذاك الدهر ماتمه اقرب الاشيا من عرسه

فاذا رضت نفسك من هذه الحالة بما وصفت اعتضت منها ثلاث خلال احدها
نصح نفسك وقد استسلمت اليك والنظر لها وقد اعتمدت عليك فانظر لها ولا
تنحرف عنها فان غاش نفسه مغبون والمنحرف عنها مافون والثانية الزهد فيما
ليس لك لتكفى تكلف طلبه وتسلم من تبعات كسبه والثالثة انتهاز الفرصة
في مالك ان تضعه في حقه وان تؤتيه لمستحقه ليكون لك ذخرا ولا يكون عليك وزرا
فقد روي ان رجلا قال يا رسول الله اني اكره الموت قال الك مال قال نعم قال قدم مالك
فان قلب المرء عند ماله وقالت عائشة رضي الله عنها ذبحنا شاة فتصدقنا بها
فقلت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بقي منها الا كتفها فقال كلها بقي الا كتفها ودخل

ان عبيد الله

ان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود باع دارا بثمانين الف درهم فقيل له لو
اتخذت لولدك من هذا المال ذخرا فقال انا اجعل هذا المال ذخرا لي عند الله واجعل
الله ذخرا لولدي وتصدق بها وعوتب سهل بن عبد الله المروزي في كثرة الصدقة
فقال لو ان رجلا اراد ان ينتقل من دار الى دار هل كان يبقي في الاولى شيئا وقال
سليمان بن عبد الملك لابي حازم ما بالنا نكره الموت قال لانكم اخربتم اخرتكم
وعمرتم دنياكم فكرهتم ان تنتقلوا من العمران الى الخراب وقيل لعبد الله بن
عمر ترك زيد بن خارجة مائة الف درهم فقال لكنها لا تتركه وقال الحسن
البصري ما انعم الله على عبد نعمة الا وعليه فيها تبعة الا سليمان عليه السلام
فان الله تعالى قال هذا عطاؤنا فامنن او امسك بغير حساب وقال ابو حازم
ان عوفينا من شر ما اعطينا لم يضرنا فقد ما زوي عنا وقال بعض السلف
قدموا بعضا ليكون لكم قرضا ولا تخلفوا كلا فيكون عليكم كلا وقال ابرهيم
نعم القوم السؤال يدقون ابوابكم يقولون هل توجهون الى الاخرة شيا وقال
سعيد بن المسيب مر بي صلة بن اشيم فما تمالكت ان نهضت اليه فقلت يا ابا
الصهبا ادع لي فقال رغبك الله فيما يبقى وزهدك فيما يفنى ووهب لك اليقين
الذي لا تسكن النفوس الا اليه ولا يعول في الدين الا عليه ولما ثقل عبد الملك
بن مروان في مرضه راى غسالا يلوي بيده ثوبا فقال وددت اني كنت غسالا لا
اعيش الا بما اكسبه يوما فيوما فبلغ ذلك ابا حازم فقال الحمد لله الذي جعلهم
يتمنون عند الموت ما نحن فيه ولا نتمنى عنده ما هم فيه وقال النبي صلى الله عليه
وسلم يقول ابن ادم مالي مالي وهل لك من مالك الا ما اكلت فافنيت او لبست
فابليت او تصدقت فامضيت وقال الشاعر

وما المال والاهلون الا ودايع ولا بد يوما ان ترد الودايع

وقال خالد بن صفوان بت ليلتي اتمنى فكسبت البحر الاخضر بالذهب الاحمر فاذا الذي
يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطمران وقال مورق العجلي يا ابن ادم في كل يوم تؤتى
رزقك وانت تحزن وينقص عمرك وانت لا تحزن تطلب ما يطغيك وعندك ما
يكفيك وقال ابو حازم انما بيني وبين الملوك يوم واحد اما امس فلا يجدون لذته وانا وهم

من غد

من غدٍ على وجل وانما هو اليوم فما عسى ان يكون وقال بعض السلف تعز عن الشي اذا منعته لقلة ما يصحبك اذا اعطيته وقال بعض الحكماء من ترك نصيبه من الدنيا استوفى حظه من الاخرة وقال اخر ترك التلبس بالدنيا قبل التشبث بها اهون من رفضها بعد ملابستها وقال اخر ليكن طلبك للدنيا اضطرارا وفكرتك في الامور اعتبارا وسعيك لمعادك ابتدارا وقال اخر الزاهد من لا يطلب المفقود حتى يفقد الموجود وقال اخر من امن بالاخرة لم يحرص على الدنيا ومن ايقن بالمجازاة لم يؤثر على الحسنى وقال اخر من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر وقال ابو العتاهية

أرى الدنيا لمن هي في يديه عذابا كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغر وتكرم كل من هانت عليه
اذا استغنيت عن شي فدعه وخذ ما انت محتاج اليه

حكي الاصمعي قال دخلت على الرشيد يوما وهو ينظر في كتاب ودموعه تسيل على خده فلما ابصرني قال ارايت ما كان مني قلت نعم يا امير المومنين قال اما انه لو كان لامر الدنيا ما رايت هذا ثم رمى بالقرطاس فاذا فيه شعر ابي العتاهية

هل انت معتبر بمن خربت منه غداة نوى دساكره
وبمن اذل الدهر مصرعه فتبرات منه عساكره
وبمن خلت منه اسرته وتعطلت منه منابره
اين الملوك وابن غيرهم صاروا مصيرا انت صايره
يا موثر الدنيا للذته والمستعد لمن يفاخره
نل ما بدا لك ان تنال من الدنيا فان الموت اخره

فقال الرشيد والله لكاني اطالب بهذا الشعر دون الناس فلم يلبث بعد الا يسيرا حتى مات

ثم الحالة الثالثة من احوال الدنيا ضدك لها ان تكشف لنفسك حال اجلك وتصرف عن غرور املك حتى لا يطول لك الامل املا قصيرا ولا ينسيك موتا ولا نشورا وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في خطبته ايها الناس ان الايام تطوى والاعمار تفنى والابدان في الثرى تبلى وان الليل والنهار يتراكضان تراكض البريد يقربان كل بعيد ويخلقان كل جديد وفي ذلك عباد الله ما الهى عن الشهوات ورغب

من الباقيات

٤٢

في الباقيات الصالحات وقال الشعبي كم من مستقبل يوما لم يستكمله ومنتظر غدا وليس من اجله ولو رايتم الاجل ومسيره لابغضتم الامل وغروره وقال رجل من الانصار للنبي صلى الله عليه وسلم من اكيس الناس قال اكثرهم للموت ذكرا واحسنهم له استعدادا اولئك الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الاخرة وقال عيسى عليه السلام كما تنامون كذلك تموتون وكما تستيقظون كذلك تبعثون وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه ايها الناس اتقوا الله الذي ان قلتم سمع وان اضمرتم علم وبادروا الموت الذي ان هربتم ادرككم وان اقمتم اخذكم وقال العلا بن المسيب ليس قبل الموت شي الا الموت اشد منه وليس بعد الموت شي الا الموت ايسر منه وقال بعض الحكماء ان للباقي بالماضي معتبرا وللاخر بالاول مزدجرا والسعيد لا يركن الى الخدع ولا يغتر بالطمع وقال بعض الصلحاء ان بقاءك الى فناء وفناءك الى بقاء فخذ من فنايك الذي لا يبقى لبقايك الذي لا يفنى وقال بعض العلماء اي عيش يطيب وليس للموت طبيب وقال بعض البلغا كل امرى يجري من عمره الى غاية تنتهي اليها مدة اجله وتنطوي عليها صحيفة عمله فخذ من نفسك لنفسك وقس يومك بامسك وكف عن سياتك وزد في حسناتك قبل ان تستوفي مدة الاجل وتقصر عن الزيادة في السعي والعمل وقال اخر اغتنم تنفس الاجل وامكان العمل واقطع ذكر المعاذير والعلل فانك في اجل محدود ونفس معدود وعمر غير ممدود وقيل في منثور الحكم من لم يتعرض للنوايب تعرضت له وقال ابو العتاهية

يا للمقابر لا تجيب اذا دعاهن الكئيب
حفر مسقفة عليهن الجنادل والكثيب
فيهن ولدان واطفال وشبان وشيب
كم من حبيب لم تكن نفسي بفرقته تطيب
غادرته في بعضهن مجدلا وهو الحبيب
وسلوت عنه وانما عهدي برؤيته قريب

ووعظ النبي صلى الله عليه وسلم رجلا فقال له اقلل من الدنيا تعش حرا واقلل من الذنوب يهن عليك الموت وانظر حيث تضع ولدك فان العرق دساس وقال الرشيد لابن السماك عظني واوجز قال اعلم انك اول خليفة يموت وعن اعرابي

رجلاً عن ابن له صغير فقال الحمد لله الذي نجاه مما هاهنا من الكدر وخلّصه مما بين
يديه من الغرر وقال بعض السلف من عمل لآخرته احرزها والدنيا ومن آثر الدنيا
حرمها والآخرة وقال بعض الحكماء الطبيب معذور اذا لم يدفع المحذور وقال بعض
الصلحاء اعمل عمل المرتحل فان حادي الموت يحدوك ليوم ليس يعدوك وقال علي
رضي الله عنه بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم

غررتَ جهولاً أمله يموت من جا أجله ... ومن دنا من حتفه لم تغن عنه حيله
وما بقاء آخر قد غاب عنه أوله ... والمرء لا يصحبه في القبر إلا عمله

وقال أبو العتاهية

لا تامن الموت في لحظ ولا نفس ... وإن تمنعت بالحجاب والحرس
ما بال دينك ترضى أن تدنسه ... وثوبك الدهر مغسول من الدنس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة ... لكل مدرع منا ومترس
ترجوا النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

وإذا رضت نفسك من هذه الحال بما وصفت اعتضت منها ثلاث خلال احداها
ان تكفى تسويف امل يرديك وتسويل محال يؤذيك فان تسويف الامل غرر
وتسويل المحال ضرر والثانية ان تستيقظ لآخرتك وتغتنم بقية اجلك بخير
عملك فان من قصر امله واستقبل اجله حسن عمله والثالثة ان يهون عليك
نزول ما لست عنه بمحيص ويسهل عليك حلول ما ليس لك الى دفعه سبيل
من تحقق امراً توطأ لحلوله وهان عليه عند نزوله روي عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال لابي ذر نبه بالتفكر قلبك وجاف عن النوم جنبك واتق الله
وقال عمر رضي الله عنه لابي ذر عظني فقال له ارض بالقوت وخف الفوت
صومك الدنيا وفطرك الموت وقال عمر بن عبد العزيز ما رأيت يقيناً لا شك
فيه اشبه بشك لا يقين فيه من يقين نحن فيه فلئن كنا مقرين انا لحمقى وان كنا
جاحدين انا لهلكى وقال الحسن البصري نهارك ضيفك فاحسن اليه فانك
ان احسنت اليه ارتحل بحمدك وان اسأت اليه ارتحل بذمك وكذلك ليلتك
وقال الجاحظ في كتاب البيان وجد مكتوباً في حجر ابن آدم لو رأيت يسير ما بقي
من اجلك لزهدت في طويل ما ترجو من املك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت

٢

من حرصك

من حرصك وحيلك وانما يلقاك غداً ندمك لو قد زلت بك قدمك واسلمك
اهلك وحشمك وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب ولما حضر
بشر بن منصور الموت فرح فقيل له أتفرح بالموت فقال أتجعلون قدومي
على خالق ارجوه كمقامي مع مخلوق اخافه وقيل لابي بكر رضي الله عنه
في مرضه الذي مات فيه لو ارسلت الى الطبيب فقال قد رآني قالوا فماذا
قال لك قال قال اني فعال لما اريد وقيل للربيع بن خثيم وقد اعتل ندعوا
لك بالطبيب فقال قد اردت ذلك فذكرت عاداً وثموداً واصحاب الرس
وقروناً بين ذلك كثيراً وعلمت انه كان فيهم الدواء والمداوي فهلكوا
جميعاً وسئل انوشروان متى يكون عيش الدنيا الذ فقال اذا كان الذي ينبغي
ان يعمله في حياته معمولاً وقال بعض الحكماء من ذكر المنية نسي الامنية وقال
بعض الادباء عن الموت لا تستقل فهو كريشة تستقل وقال بعض البلغاء
الامل حجاب الاجل وانشد بعض اهل الادب ما ذكر انه لعلي بن ابي طالب

فلو كنا اذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كل حي
ولكنا اذا متنا بعثنا ... ونسأل بعده عن كل شي

قال بعض الشعراء

ألا إنما الدنيا مقيل لراكب ... قضى وطراً من منزل ثم هجرا
وراح ولا يدري على ما قدومه ... ألا كل ما قدمت تلقى موفرا

روى سعيد بن مسعود ان ابا الدرداء رضي الله عنه قال يا رسول الله اوصني
قال النبي صلى الله عليه وسلم اكتسب طيباً واعمل صالحاً واسأل الله تعالى
رزق يوم بيوم واعدد نفسك من الموتى وكتب الربيع بن خثيم الى اخ له قدم
جهازك وافرغ من زادك وكن وصي نفسك والسلام وقال بعض السلف اصاب
الدنيا من حذرها واصابت الدنيا من امنها ومر محمد بن واسع بقوم فقيل هؤلاء
زهاد قال وما قدر الدنيا حتى يحمد من زهد فيها وقال بعض الحكماء السعيد
من اعتبر بامسه واستظهر لنفسه والشقي من جمع لغيره وبخل على نفسه وقال بعض
البلغاء لا تبت على غير وصية وان كنت من جسمك في صحة ومن عمرك في فسحة

فان الدهر خاين وكل ما هو كاين كاين وقال بعض الشعراء

من كان يعلم ان الموت مدركه والقبر مسكنه والبعث مخرجه
وانه بين جنات ستبهجه يوم القيامة او نار ستنضجه
فكل شي سوى التقوى به سمج فما اقام عليه منه اسمجه
ترى الذي اتخذ الدنيا له وطنا لم يدر ان المنايا سوف تزعجه

روى جعفر بن محمد بن علي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في خطبته ايها الناس ان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم وان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم وان المومن بين مخافتين اجل قد مضى ما يدري ما الله تعالى صانع فيه واجل قد بقي ما يدري ما الله تعالى قاض فيه فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لاخرته ومن الحياة قبل الموت فان الدنيا خلقت لكم وانتم خلقتم للاخرة والذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار الا الجنة او النار وقال الحسن البصري امس اجل واليوم عمل وغدا امل فاخذ ابو العتاهية هذا المعنى فنظمه شعرا فقال

ليس فيما مضى ولا في الذي لم يات من لذة لمستحليها
انما انت طول عمرك ما عمرت في الساعة التي انت فيها
فتنع النفس بالكفاف والا طلبت منك فوق ما يكفيها

وقيل لزاهد ما بالك تمشي على عصى ولست بكبير ولا مريض قال اني اعلم اني مسافر وانها دار بلغة وان العصا من الة السفر فنظمه بعض الشعراء

حملت العصا لا الضعف اوجب حملها علي ولا اني تحنيت من كبر
ولكنني الزمت نفسي حملها لاعلمها ان المقيم على سفر

وقال اخر ان الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما وقال بعض المتصوفة الدنيا ساعة فاجعلها طاعة وقال ذو القرنين رتعنا في الدنيا جاهلين وعشنا فيها غافلين واخرجنا منها كارهين وقال عبد الحميد المرء اسير عمر يسير وقيل في بعض المواعظ عجبت لمن خاف العقاب كيف لا يكف عن المعاصي وعجبت لمن رجا الثواب كيف لا يعمل وقال بعض الحكماء المسي ميت وان كان في دار الحياة والمحسن حي وان كان في دار الاموات وكل بالاثر يومه او غده وقال بعض السلف الله المستعان

على السنة

على السنة تصف وقلوب تعترف واعمال تخالف وقال اخر اعملوا الاخرتكم في هذه الايام التي تسير كانها تطير وقال اخر الموت قصاراك فخذ من دنياك لاخراك وقال اخر عباد الله الحذر الحذر فوالله لقد ستر كانه قد غفر ولقد امهل حتى كانه اهمل وقال اخر الايام صحايف اعمالكم فخلدوا فيها اجمل افعالكم وقيل في منثور الحكم اقبل نصح الشيب وان عجل وقيل ما طلعت شمس الا وعظت بامس وقال محمد بن بشير

مضى امسك الادنى شهيدا معدلا ويومك هذا بالفعال شهيد
فان تك بالامس اقترفت اساءة فثن باحسان وانت حميد
ولا ترج فعل الخير منك الى غد لعل غدا ياتي وانت فقيد
اذا ما المنايا اخطاتك وصادفت حميمك فاعلم انها ستعود
وان امرا ينجو من النار بعد ما تزود من اعمالها لسعيد

روى ابو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما رايت مثل الجنة نام طالبها وما رايت مثل النار نام هاربها وقال عيسى عليه السلام ان اولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين نظروا الى باطن الدنيا حين نظر الناس الى ظاهرها والى اجل الدنيا حين نظر الناس الى عاجلها فاماتوا منها ما خشوا ان يميت قلوبهم وتركوا منها ما علموا انه سيتركهم وقال عمر رضي الله عنه الناس طالبان فطالب يطلب الدنيا فارفضوها في نحره فانه ربما ادرك الذي يطلب منها فهلك بما اصاب منها وطالب يطلب الاخرة فاذا رايتم طالب الاخرة فنافسوه ودخل ابو الدرداء الشام فقال يا اهل الشام اسمعوا قول اخ ناصح فاجتمعوا عليه فقال ما لي اراكم تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تاكلون وتاملون ما لا تدركون ان الذين كانوا قبلكم بنوا مشيدا واملوا بعيدا وجمعوا كثيرا فاصبح املهم غرورا وجمعهم ثبورا ومساكنهم قبورا وقال ابو حازم ان الدنيا غرتنا اقواما فعملوا فيها بغير الحق ففاجاهم الموت فخلفوا ما لهم لمن لا يحمدهم وصاروا الى من لا يعذرهم وقد خلقنا بعدهم فينبغي لنا ان ننظر الذي كرهناه منهم فنجتنبه والذي غبطناه منهم فنستعمله ومر بعض الزهاد بباب ملك فقال باب جديد وموت عتيد ونزع شديد وسفر بعيد ومر بعض الزهاد برجل قد اجتمع عليه الناس فقالوا هذا مسكين سرق منه رجل جبة ومر به اخر فاعطاه جبة فقال الحمد لله ان سعيكم لشتى وقال بعض الحكماء ما انصف

عبيلنا بامه

من نفسه من ايقن بالحشر والحساب وزهد في الاخرة والثواب وقال اخر بطول
الامل تقسوا القلوب وباخلاص النية تقل الذنوب وقال اخر اياك والمنى فانها
من بضايع النوكا وتثبط عن الاخرة والاولي وقال اخر قصّر املك فالعمر قصير
واحسن سيرتك فالبر يسير وقال عبد الله بن المعتز

نسير الى الاجال في كل ساعة … وايامنا تطوى وهن مراحل
ولم ار مثل الموت حقا كانه … اذا ما تخطته الاماني باطل
وما اقبح التفريط في زمن الصبا … فكيف به والشيب في الراس شامل
ترحل من الدنيا بزاد من التقى … فعمرك ايام تعد قلايل

وكان عبد الملك بن مروان يتمثل بهذين البيتين

اعمل على مهل فانك ميت … واكدح لنفسك ايها الانسان
فكان ما قد كان لم يك اذ مضى … وكان ما هو كاين قد كان

ونظر سليمان بن عبد الملك يوما في المراة فاعجبه جمال صورته فقال انا الملك
الشاب وكان على راسه جارية له فقال لها وما تقولين انت فقالت له الجارية

انت نعم المتاع لو كنت تبقى … غير ان لا بقاء للانسان
ليس فيما بدا لنا منك عيب … كان في الناس غير انك فان

روى عبد العزيز بن عبد الصمد عن ابان عن انس قال خطبنا رسول الله صلى الله
عليه وسلم على ناقته الجدعا فقال ايها الناس كان الموت فيها على غيرنا كتب
وكان الحق فيها على غيرنا وجب وكان الذين نشيع من الاموات سفر عما
قليل الينا راجعون نبوئهم اجداثهم ونأكل تراثهم كانا مخلدون بعدهم قد
نسينا كل واعظة وامنا كل جايحة طوبى لمن زاد بنفسه وشغله عيب نفسه
عن عيب غيره وانفق من مال كسبه من غير معصية ورحم اهل الذل والمسكنة وخالط
اهل الفقه والحكمة طوبى لمن اذب نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته
طوبى لمن عمل بعلمه وانفق من فضل وامسك من قول ووسعته السنة ولم يعدها
الى بدعة روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال زوروا القبور تذكركم الاخرة
واغسلوا الموتى فانها معالجة الاجساد الخاوية وموعظة بالغة وحفر الربيع

خثيم

خثيم في داره قبرا فكان اذا وجد في قلبه قسوة جاء فاضطجع في القبر فمكث
فيه ما شا الله ثم يقول رب ارجعون لعلي اعمل صالحا فيما تركت ثم يرد على نفسه
فيقول قد ارجعتك يا ربيع فجد ثم يمكث على ذلك ما شا الله وقال ابو محمد الطفاوي
كفتك القبور مواعظ والامم السالفة مخبتر وقيل لبعض الزهاد ما ابلغ
العظات فقال النظر الى محل الاموات فاخذه ابو العتاهية فقال

وعظتك اجداث صمت … ونعتك ازمنة خفت
وتكلمت عن اوجه تبلى … وعن صور سكت
وارتك قبرك في القبور … وانت حي لم تمت
يا شامتا بمنيتي ان المنية لم تفت … ولربما انقلب الشمات فحل بالقوم الشمت

ووجد مكتوبا على قبر قهرنا من قهرنا فصرنا للناظرين عبرة وعلى اخر من امل
البقا وقد رأى مصارعنا فهو مغرور وقيل في منثور الحكم ما اكثر من يعرف
الحق ولا يطيعه وقال بعض العلما من لم يمت لم يفت وقال بعض الصلحا للناس
كل ميت عظة بحاله وعبرة بماله وقال بعض العلما من لم يتعظ بموت ولد لم يتعظ
بقول احد وقال بعض البلغا ما انقضت ساعة من امسك الا ببضعة من نفسك
فاخذ هذا المعنى ابو العتاهية فقال

ان مع اليوم فاعلمن غدا … فانظر بما ينقضي مجي غده
ما ارتد طرف امري بلذته … الا وشي يموت من جسده

ولما مات الاسكندر قال ارسطاطاليس لقد حركتنا بسكونك وقال بعض الحكما
كان الملك امس انطق منه اليوم وهو اليوم اوعظ منه امس فاخذ هذا المعنى ابو العتاهية
فقال

كفى حزنا بدفنك ثم اني … نفضت تراب قبرك عن يديا
وكانت في حياتك لي عظات … وانت اليوم اوعظ منك حيا

وقال بعض الحكما لو كان للخطايا ريح لافتضح الناس من كل عمل قبيح ولم يتجالسوا
فاخذ هذا المعنى ابو العتاهية فقال

احسن الله بنا ان الخطايا لا تفوح … فاذا المستور منا بين ثوبيه فضوح

وهذا كله ماخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم لو تكاشفتم ما تدافنتم
وكتب رجل الى ابي العتاهية يا ابا اسحاق اني واثق منك بودك فاعني بابيات

فأجابه أبو العتاهية

أطع الله بجهدك راغباً أو دون جهدك ... أعط مولاك الذي تطلب من طاعة عبدك

وقال بعض الحكماء من سرّه بنوه ساءته نفسه فأخذ هذا المعنى أبو العتاهية فقال

ابن ذي الابن كلما زاد منه سنّ عاماً زاد في فناء أبيه
ما بقاء الأب الملحّ عليه بدبيب البلى شباب بنيه

وفي معناه ما حُكي عن زر بن حبيش أنه عاش مائة وعشرين سنة فلما حضرته الوفاة أنشأ يقول

إذا الرجال ولدت أولادها وارتعشت من كبر أجسادها
وجعلت أسقامها تعتادها تلك زروع قد دنا حصادها

وكتب رجل إلى صالح بن عبد القدوس

الموت باب وكل الناس داخله فليت شعري بعد الباب ما الدار

فأجابه صالح

الدار جنة عدن إن عملت بما يرضي الإله وإن خالفت فالنار
هما محلان ما للناس غيرهما فانظر لنفسك ماذا أنت مختار

باب أدب الدنيا

إن الله تعالى لما قدّره قدرته وبالغ حكمته خلق الخلق بتدبيره وفطرهم بتقديره فكان من لطيف ما دبّر وبديع ما قدّر أن خلقهم محتاجين وفطرهم عاجزين ليكون بالغنى منفرداً وبالقدرة مختصاً حتى يشعرنا بقدرته أنه خالق ويعلمنا بتدبيره أنه رازق فنذعن بطاعته رغبة ورهبة ونقرّ بنقصنا عجزاً وفاقة ثم جعل الإنسان أكثر حاجة من جميع الحيوان لأن من الحيوان ما يستقل بنفسه عن جنسه والإنسان مطبوع على الافتقار إلى جنسه والاستعانة به صفة لازمة لطبعه وخلقة قائمة في جوهره ولذلك قال الله تعالى وخلق الإنسان ضعيفاً يعني عن الصبر عما هو إليه مفتقر واحتمال ما هو عنه عاجز ولما كان الإنسان أكثر حاجة من جميع الحيوان كان أظهر عجزاً لأن الحاجة إلى الشيء افتقار إليه والمفتقر إلى الشيء عاجز به وقد قال بعض الحكماء المتقدمين استغناؤك عن الشيء خير من استغنائك به وإنما خص الله تعالى الإنسان بكثرة الحاجة وظهور العجز نعمة عليه ولطفاً به ليكون ذل الحاجة ومهانة العجز يمنعان من طغيان الغنى وبغي القدرة لأن الطغيان مركوز في طبعه إذا استغنى والبغي مستولٍ عليه إذا قدر وقد أنبأ الله تعالى بذلك عنه فقال كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ثم ليكون أقوى الأمور شاهداً على نقصه وأوضحها دليلاً على عجزه أنشدني بعض الأدباء لابن الرومي

أعيّرتني بالنقص والنقص شامل ومن ذا الذي يُعطى الكمال فيكمل
وأشهد أني ناقص غير أنني إذا قيس بي قوم كثير تقللوا
تفاضل هذا الخلق بالفضل والحجا ففي أيّ هذين أنت فتفضل
ولو منح الله الكمال لخلقه لخلّدهم والله ما شاء يفعل

ولما خلق الله تعالى الإنسان بيّن الحاجة ظاهر العجز جعل لنيل حاجته أسباباً ولدفع عجزه حيلةً دلّه عليها بالعقل وأرشده إليها بالفطنة قال الله تعالى والذي قدّر فهدى قال مجاهد قدّر أحوال خلقه فهدى إلى سبيل الخير والشر وقال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى وهديناه النجدين يعني الطريقين طريق الخير وطريق الشر ثم لما كان العقل دالاً على أسباب ما تدعو الحاجة إليه جعل الله تعالى الإدراك والظفر موقوفين على ما قسم وقدّر كيلا يعتمد وأمن الأرزاق على عقولهم وفي العجز على فطنهم لتدوم لهم الرغبة والرهبة ويتبين لهم منه الغنى والقدرة وربما عزب هذا المعنى عمن ساء ظنه بخالقه حتى صار سبباً لضلاله كما قال بعض الشعراء

سبحان من أنزل الأشياء منزلها وصيّر الناس مرفوضاً ومرموقا
فعاقل فطن أعيت مذاهبه وجاهل خرق تلقاه مرزوقا
ذاك الذي ترك الألباب حائرة وصيّر العالم النحرير زنديقا

ولو حسن ظن العاقل في صحة نظره لعلم من علل المصالح ما صار به صديقاً لا زنديقاً لأن من علل المصالح ما هو ظاهر ومنها ما هو غامض ومنها ما هو مغيّب حكمة استأثر بها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم حسن الظن بالله من عبادة الله ثم إن الله تعالى جعل أسباب حاجته وحيل عجزه في الدنيا التي جعلها دار تكليف وعمل كما جعل الآخرة دار قرار وجزاء

فلزم لذلك ان يصرف الانسان الى دنياه حظا من عنايته لانه لا غناء له عن التزود
منها لاخرته ولا له بد من سد الخلة فيها عند حاجته وليس في هذا الفعل نقض
لما ذكرناه قبل من ترك فضولها و زجر النفس عن الرغبة فيها بل الراغب فيها
ملوم وطالب فضولها مذموم والرغبة انما تختص بما جاوز قدر الحاجة والفضول
انما ينطلق على قدر ما زاد على الكفاية وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه
وسلم فاذا فرغت فانصب والى ربك فارغب قال اهل التاويل يعني اذا فرغت
من امر دنياك فانصب في عبادة ربك وليس هذا القول منه ترغيبا لنبيه صلى
الله عليه وسلم فيها ولكن ندبه الى اخذ البلغة منها وعلى هذا المعنى قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم ليس خيركم من ترك الدنيا للاخرة ولا الاخرة للدنيا
ولكن خيركم من اخذ من هذه وهذه وقال صلى الله عليه وسلم نعم المطية الدنيا
فارتحلوا تبلغكم الاخرة وذم رجل الدنيا عند علي بن ابي طالب رضي الله عنه فقال
علي الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود
منها قال مقاتل ان ابرهيم عليه السلام قال يارب حتى متى اتردد في طلب الدنيا
فقيل له امسك عن هذا فليس طلب المعاش من طلب الدنيا وقال سفيان الثوري
مكتوب في التوراة اذا كان في البيت بر فتعبد واذا لم يكن فاطلب يا ابن ادم
حرك يدك يتسبب لك رزقك وقال بعض الحكماء ليس من الرغبة في الدنيا
اكتساب ما يصون العرض فيها وقال بعض الادباء ليس من الحرص اجتلاب
ما يقوت البدن وقال محمود الوراق

لا تتبع الدنيا وايامها ذما وان دارت بك الدائرة
من شرف الدنيا ومن فضلها ان بها تستدرك الاخرة

واذا قد لزم بما بيناه النظر في امور الدنيا فواجب سبر احوالها والكشف عن جهة انتظامها
واختلالها لنعلم اسباب صلاحها وفسادها ومواد عمرانها وخرابها فتنتفي
عن اهلها شبه الحيرة وتنجلي لهم اسباب الخيرة فيقصدوا الامور من ابوابها
ويعتمدوا الصلاح من قواعدها واسبابها ثم اعلم ان صلاح الدنيا معتبر من وجهين
اولهما ما تنتظم به امور جملتها والثاني ما يصلح به حال كل واحد من اهلها فهما شيئان

لا اصلاح

47

نيا وقال بعض الادباء ليس من الحرص اجتلاب ما يقوت البدن وقال محمود الوراق
لا تتبع الدنيا وايامها ذما وان دارت بك الدائرة
من شرف الدنيا ومن فضلها ان بها تستدرك الاخرة
واذا قد لزم بما بيناه النظر في امور الدنيا فوجب سبر احوالها والكشف
عن جهة انتظامها واختلالها لنعلم اسباب صلاحها وفسادها
ومواد عمرانها وخرابها لينتفي عن اهلها شبه الحيرة وتنجلي لهم
اسباب الخيرة فيقصدوا الامور من ابوابها ويعتمدوا الصلاح من قواعدها
واسبابها ثم اعلم ان صلاح الدنيا معتبر من وجهين اولهما ما ينتظم
به امور جملتها والثاني ما يصلح به حال كل واحد من اهلها فهما
شيئان لا صلاح لاحدهما الا بصاحبه لان من صلحت حاله مع فساد
الدنيا واختلال امورها لن يعدم ان يتعدى اليه فسادها ويقدح
فيه اختلالها لان منها يستمد ولها يستعد ومن فسدت حاله
مع صلاح الدنيا وانتظام امورها لم يجد لصلاحها لذة ولا لاستقامتها
اثرا لان الانسان دنيا نفسه فليس يرى الصلاح الا اذا صلحت
له ولا يجد الفساد الا اذا فسدت عليه لان نفسه اخص وحاله
امس فصار نظره الى ما يخصه مصروفا وفكره على ما يمسه موقوفا
واعلم ان الدنيا لم تكن قط لجميع اهلها مسعدة ولا عن كافة ذويها
معرضة لان اعراضها عن جميعهم عطب واسعادها لكافتهم فساد
لائتلافهم بالاختلاف والتباين واتفاقهم بالمساعدة والتعاون
فاذا تساوى جميعهم لم يجد احدهم الى الاستعانة بغيره سبيلا وبهم
من الحاجة والعجز ما وصفناه فيذهبوا حينئذ ضيعة ويهلكوا عجزا
واذا تباينوا واختلفوا صاروا مؤتلفين بالمعاونة متواصلين
بالحاجة لان ذا الحاجة وصول والمحتاج اليه موصول وقد قال الله تعالى

ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك قال الحسين مختلفين في الرزق فهذا غني وهذا فقير
ولذلك خلقهم يعني بالغنا والفقر وقال الله تعالى والله فضل بعضكم على بعض في الرزق
غير ان الدنيا اذا صلحت كان اسعادها موفوراً واغراضها ميسوراً لانها اذا سمحت
منت واودعت واذا استردت رفقت وابقت واذا فسدت الدنيا كان اسعادها
مكراً واعراضها نفوراً لانها اذا سمحت كدرت واتعبت واذا استردت استاصلت
واجحفت ومع هذا فصلاح الدنيا مصلح لساير اهلها لوفور اماناتهم وظهور دياناتهم
وفسادها مفسد لسراير اهلها لقلة اماناتهم وضعف دياناتهم وقد وجد ذلك
في شاهد الحال تجربة وعرفاً كما يقتضيه دليل الحال تعليلاً وكشفاً فلا شي
انفع من صلاحها كما انه لا شي اضر من فسادها لان ما به تقوى ديانات الناس
وتتوفر اماناتهم فلا شي احق به نفعاً كما ان ما به تضعف دياناتهم وتذهب
اماناتهم فلا شي اجدر به ضراً وانشد لابي بكر بن دريد

الناس مثل زمانهم ... قد الحذا على مثاله
ورجال دهرك مثل ... دهرك في تقلبه وحاله
وكذا اذا فسد الزمان ... جرى الفساد على رجاله

فاذا قد بلغ بنا القول الى ذلك فنحن نبدا بذكر ما تصلح به الدنيا ثم
نتلوه بوصف ما تصلح به حال الانسان فيها واعلم ان ما به تصلح الدنيا
حتى تصير احوالها منتظمة وامورها ملتئمة ستة اشيا هي قواعدها
وان تفرعت وهي دين متبع وسلطان قاهر وعدل شامل وامن عام
وخصب دار وامل فسيح فاما القاعدة الاولى وهي الدين المتبع فلانه يصرف
النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب عن ارادتها حتى يصير قاهراً للسراير
زاجراً للضماير رقيباً على النفوس في خلواتها نصوحاً لها في ملماتها وهذه
الامور لا يوصل اليها الا بالدين ولا يصلح الناس الا عليها فكان الدين
اقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها واجدى الامور نفعاً في انتظامها

الاختلاف ... اخر الاجلها

اولها ما تنتظم به امور جملتها والثاني ما يصلح به حال كل واحد من اهلها فهما شيئان

لاصلاح

وسلامة ما ولاه لكم تخل الله خلقه منذ فطرهم عقلا من تكليف شرعي واعتقاد
ديني ينقادون لحكمه فلا تختلف بهم الآرا ويستسلمون لامره فلا تتفرق
فيهم الاهوا وانما اختلف العلما في العقل والشرع هل جا مجيا واحدا او سبق العقل
ثم تبعه الشرع فقالت طايفة جا العقل والشرع معا مجيا واحدا لم يسبق احدهما صاحبه
وقالت طايفة اخرى بل سبق العقل ثم تعقبه الشرع لان بكمال العقل يستدل
على صحة الشرع وقد قال الله تعالى ايحسب الانسان ان يترك سدى وذلك
لا يوجد منه الا عند كمال العقل فثبت ان الدين من اقوى القواعد في صلاح
الدنيا وهو الفرد الاوحد في صلاح الاخرة وما كان به صلاح الدنيا والاخرة فحقيق
بالعاقل ان يكون به متمسكا وعليه محافظا وقد قال بعض الحكما الادب الادب
ادبان ادب شريعة وادب سياسة فادب الشريعة ما ادى الفرض وادب
السياسة ما عمر الارض وكلاهما يرجع في العرف الى العدل الذي به سلامة السلطان
وعمارة البلدان لان من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ومن خرب الارض فقد ظلم غيره
وقال سعيد بن حميد ∴ اصحة ابدا نافعة ∴ حتى يصح الدين والخلق ∴
واما القاعدة الثانية فهي سلطان قاهر تتالف برهبته الاهوا المختلفة وتجتمع
بهيبته القلوب المتفرقة وتنكف بسطوته الايدي المتغالبة وتنقمع من خوفه
النفوس المتعادية لان في طباع الناس من حب المغالبة على ما اثروه والقهر لمن عاندوه
ما لا ينكفون عنه الا بمانع قوي ورادع ملي وقد اوضح المتنبي ذلك حيث يقول شعر ∴

∴ لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى ∴ حتى يراق على جوانبه الدم ∴

∴ والظلم من شيم النفوس فان تجد ∴ ذا عفة فلعله لا يظلم ∴

وهذه العلة المانعة من الظلم لا تخلو من احد اربعة اشيا اما عقل زاجر او دين حاجز
او سلطان رادع او عجز صاد واذا تاملتها لم تجد لها خامسا يقترن بها ورهبة السلطان
ابلغها لان العقل والدين ربما كانا مضعوفين او بدواعي الهوى مغلوبين فتكون
رهبة السلطان اشد زجرا واقوى ردعا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم

لانه اذا كان ذا خير احبهم واحبوه وان كان ذا شر ابغضهم وابغضوه

لاصلاح

انه قال السلطان ظل الله في الارض ياوي اليه كل مظلوم وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال ان الله ليزع بالسلطان اكثر مما يزع بالقران وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم
ان لله حراسا في السما وحراسا في الارض فحراسه في السما الملايكة وحراسه في الارض
الذين يقبضون ارزاقهم يذبون عن الناس وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال الامام الجاير خير من الفتنة وكل لا خير فيه وفي بعض الشر خيار
وقال عبد الله بن مسعود السلطان يفسد وما يصلح الله به اكثر فان عدل
فله الاجر وعليكم الشكر وان جار فعليه الوزر وعليكم الصبر وروى ابو هريرة
قال سبت العجم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى عن ذلك وقال لا تسبوها
فانها عمرت بلاد الله فعاش فيها عباد الله وقال بعض البلغا السلطان في
نفسه امام متبوع وفي سيرته دين مشروع فان ظلم لم يعدل احد في حكم وان عدل
لم يجسر احد على ظلم وقال بعض العلما ان اقرب الدعوات من الاجابة دعوة السلطان
العادل الصالح واولى الحسنات بالاجر والثواب امره ونهيه في وجوه المصالح
فمن اثار السلطان في احوال الدنيا وما ينتظم به امورها ثم لما في السلطان من
حراسة الدين والذب عنه ودفع الاهوا منه وحراسة التبديل فيه وزجر
من شذ عنه بارتداد او بغي فيه بعناد او سعى فيه بفساد وهذه امور ان لم
تنحسم عن الدين بسلطان قوي ورعاية وافية تسرع فيه تبديل ذوي الاهوا
وتحريف ذوي الارا فليس دين زال عن سلطانه الا تبدلت احكامه وطمست
اعلامه وكان لكل زعيم فيه بدعة ولكل عصر فيه وهاية اثر كما ان السلطان ان
لم يكن على دين تجتمع به القلوب حتى يرى اهل الطاعة فيه فرضا والتناصر
عليه حتما لم يكن للسلطان لبث ولا لايامه صفو وكان سلطان قهر ومفسد دهر
ومن هذين الوجهين وجب اقامة امام يكون سلطان الوقت وزعيم الامة ليكون
الدين محروسا بسلطانه والسلطان جاريا على سنن الدين واحكامه وقد قال
عبد الله بن المعتز الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى واختلف الناس

لانه اذا كان خيرا احبهم واحبوه وان كان شريرا ابغضهم وابغضوه

لاصلاح

هل وجب ذلك بالشرع او بالعقل فقالت طايفة وجب بالعقل لانه معلوما
من حال العقلا الحتاج فيه المفزع الى زعيم مندوب للنظر في مصالحهم وذهب
آخرون الى وجوبه بالشرع لان المقصود بالامام القيام بامور شرعية
كاقامة الحدود واستيفا الحقوق وقد كان يجوز الاستغنا عنهما بان لا
يرد التعبد بهما فبان انه يجوز الاستغنا عما لا يراد الا لهما اولى وعلى هذا اختلفوا
في وجوب بعثة الانبيا عليهم الصلاة والسلام فمن قال بوجوب ذلك بالعقل
قال بوجوب بعثة الانبيا ومن قال بوجوب ذلك بالشرع منع وجوب بعثة
الانبيا لانه لما كان المقصود ببعثهم تعريف المصالح الشرعية وكان يجوز
من المكلفين ان لا تكون هذه الامور مصلحة لهم فلم يجب بعثة الانبيا اليهم فاما
اقامة امامين او ثلاثة في عصر واحد وبلد واحد فلا يجوز اجماعا فاما في
بلدان شتى وامصار متباعدة فقد ذهبت طايفة شاذة الى جواز ذلك
لان الامام مندوب الى ذلك للمصالح فاذا كان اثنين في بلدين او ناحيتين كان
كل واحد اقوم بما في يده واضبط لما يليه ولانه لما جاز بعثة نبيين في عصر واحد
ولم يود ذلك الى ابطال النبوة كانت الامامة اولى ولا يودي ذلك الى ابطال
الامامة وذهب الجمهور الى ان اقامة امامين في عصر واحد لا يجوز شرعا
لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا بويع الاميران فاقتلوا احدهما
وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ان وليتم ابا بكر تجدوه قويا في دين
الله ضعيفا في بدنه وان وليتم عمر تجدوه قويا في دين الله قويا في بدنه وان
وليتم عليا تجدوه هاديا مهديا فتبين بظاهر هذا القول ان اقامة جميعهم في
وقت واحد لا يصح ولو صح لاشار اليه ونبه عليه والذي يلزم سلطان
الامة من امورها سبعة اشيا احدها حفظ الدين من تبديل فيه والحث
على العمل به من غير اهمال الثاني حراسة البيضة والذب عن الامة من عدو
في دين او باغي نفس او مال والثالث عمارة البلدان باعتماد مصالحها

وتهذيب

ونبه عليه والذي يلزم سلطان الامة من امورها سبعة اشيا احدها حفظ
الدين من تبديل فيه والحث على العمل به من غير اهمال له والثاني حراسة
البيضة والذب عن الامة من عدو في دين او باغي نفس او مال والثالث
عمارة البلدان باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها وسالكها والرابع
تقدير ما يتولاه من الاموال بسنن الدين من غير تحريف في اخذها وعطاياها
والخامس معاناة المظالم والاحكام بالسوية بين اهلها واعتماد النصفة
في فصلها السادس اقامة الحدود على مستحقها من غير تجاوز فيها
ولا تقصير عنها السابع اختيار خلفايه في الامور ان يكونوا من اهل
الكفاية فيها والامانة عليها فاذا فعل من افضى اليه سلطان الامة ما
ذكرنا من هذه الاشيا السبعة كان موديا لحق الله فيهم مستوجبا لطاعتهم
وخلوص نياتهم مستحقا لصدق ميلهم ومحبتهم وان قصر عنها ولم يعد حقها
وواجبها كان بها مواخذا وعليها معاقبا ثم هو من الرعية على استبطان
معصية ومقت يتربصون الفرصة باظهارهما ويتوقعون الدوائر باعلانهما
وقد قال الله تعالى قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم او من
تحت ارجلكم او يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم باس بعض فيه تاويلان احدهما
ان العذاب الذي من فوقهم امرا السو والذي من تحتهم عبيد السو وهذا
قول ابن عباس رضي الله عنه والثاني ان العذاب الذي من فوقهم الرجم والذي من
تحت ارجلهم الخسف وهذا قول مجاهد وسعيد بن جبير وفي قوله تعالى
او يلبسكم شيعا تاويلان احدهما انه الاهوا المختلفة وهذا قول ابن عباس
رضي الله عنه والثاني انه الفتن والاختلاط وهذا قول مجاهد وروي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما من امير على عشرة الا وهو يجي يوم القيامة
مغلولة يداه الى عنقه حتى يكون عمله هو الذي يطلقه او يوبقه وروي عن
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير ايمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وشر
ايمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم وهذا صحيح
لانه اذا كان ذا خير احبهم واحبوه وان كان ذا شر ابغضهم وابغضوه

تقول

تسرون

لاصلاح

وكتب عمر بن الخطاب الى سعد بن ابي وقاص رضي الله عنهما ان الله تعالى اذا احب
عبدًا حبّبه الى خلقه فاعرف منزلتك من الله تعالى بمنزلتك من الناس واعلم
ان ما لك عند الله مثل ما لله تعالى عندك فكان هذا موضحًا للمعنى ما ذكرنا
واصل هذا ان خشية الله تعالى تبعث على طاعته في خلقه وطاعتهُ في
خلقه تبعثهم على محبته فلذلك كانت محبتهم دليلًا على خيره وخشيته
وبغضهم دليلًا على شره وقلة مراقبته وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه
لبعض خلفايه اوصيك ان تخشى الله تعالى في الناس ولا تخشى الناس في الله
وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لبعض جلسايه اني اخاف الله تعالى فيما
تقلدت فقال لست اخاف عليك ان تخاف وانما اخاف عليك ان لا تخاف وهذا
واضح لان الخايف من الله تعالى مامون الحيف كالذي روى عن عمر بن الخطاب
رضي الله عنه انه قال لابن مريم السلولي وكان الذي قتل اخاه زيدًا والله
اني لا احبك حتى تحب الارض الدم قال فيمنعني ذلك حقًا قال لا قال فلا ضير
انما ياسى على الحب النسا وقال عبد الرحمن بن محمد قال اصدق طلحة بن عبيد
الله ام كلثوم بنت ابي بكر الصديق مايةَ الف درهم وهو اول من اصدق هذا
القدر فمرّ بالمال على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال ما هذا قالوا صداق ام
كلثوم بنت ابي بكر الصديق قال ادخلوه بيت المال فاخبر طلحة رضي الله عنه
وقيل له كلمه فقال ما انا بفاعل لين كان عمر رضي الله عنه يرى له فيه حقًا لا
يرده بكلامي وان كان لا يرى له فيه حقًا ليردّنه قال فلما اصبح عمر رضي الله
عنه امر بالمال فدفع الى ام كلثوم وحكي ان الرشيد حبس ابا العتاهية فكتب
على حايط الحبس ٥٥ اما والله ان الظلم لومٌ وما زال المسيءُ هو الظلوم ٥٥ ٥
٥٥ الى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم ٥٥ ٥
فاخبر الرشيد بذلك فبكى بكاءً شديدًا ودعا ابا العتاهية فاستحله ووهبه
الف دينار واطلقه واما القاعدة الثالثة فهي عدل شامل يدعو الى
الالفة ويبعث على الطاعة وتعمر به الارض وتنمى به الاموال ويكثر معه النسل
ويامن به السلطان فقد قال المرزبان لعمر رضي الله عنه حين راه وقد نام متبذلا

عدلت

عدلت فامنت فنمت وليس شي اسرع في خراب الارض ولا افسد لضماير الخلق من الجور
لانه ليس يقف على حدٍ ولا ينتهي الى غاية ولكل جزءٍ منه قسطٌ من الفساد حتى
يستكمل وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال بيس الزاد الى
المعاد العدوان على العباد وقال النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث منجيات
وثلاث مهلكات فاما المنجيات فالعدل في الغضب والرضا وخشية الله
في السر والعلانية والقصد في الغنا والفقر واما المهلكات فشح مطاع
وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وروى ان الاسكندر قال لحكماء الهند
وقد راى قلة الشرايع بها لم صارت سنن بلادكم قليلة قالوا لاعطايِنا
الحق من انفسنا ولعدل ملوكنا فينا فقال لهم ايهما افضل العدل ام الشجاعة
قالوا اذا استعمل العدل استغني عن الشجاعة وقال بعض الحكما العدل
والانصاف تكون مدة الايتلاف وقال بعض البلغاء ان العدل ميزان الله
الذي وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه في ميزانه ولا تعارضه في سلطانه
واستعن على العدل بخلتين قلة الطمع وكثرة الورع واذا كان العدل
من احدى قواعد الدنيا التي لا انتظام لها الا به ولا صلاح فيها الا معه
وجب ان يبدا بعدل الانسان في نفسه ثم بعدله في غيره فاما عدله
في نفسه فيكون بحملها على المصالح وكفها عن القبايح ثم بالوقوف في احوالها
على اعدل الامرين من تجاوز او تقصير فان التجاوز بها جورٌ والتقصير فيها
ظلم ومن ظلم نفسه فهو لغيره اظلم ومن جار عليها فهو على غيره اجور وقال
بعض البلغاء من توانى في نفسه ضاع واما عدله مع غيره فقد ينقسم حال
الانسان مع غيره ثلاثة اقسام فالقسم الاول عدل الانسان فيمن دونه كالسلطان
مع رعيته والرييس مع صحابته فعدله فيهم يكون باربعة اشيا باتباع الميسور
وحذف المعسور وترك التسلط بالقوة وابتغاء الحق في الميسور فان اتباع
الميسور ادوم وحذف المعسور اسلم وترك التسلط اعطف على المحبة وابتغاء
الحق ابعث على النصرة وهذه امور ان لم تسلم للزعيم المدبر كان الفساد بنظره
اكثر والاختلال بتدبيره اظهر روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اشد

الناس عذابا يوم القيامة من اشركه الله في سلطانه فجار في حكمه و قال بعض
الحكما الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم و قال بعض الادبا ليس للجائر
جار ولا تعمر له دار و قال بعض البلغاء اقرب الاشيا صرعة الظلوم وانفذ
السهام دعوة المظلوم و قال بعض حكما الملوك العجب من ملك استفسد
رعيته وهو يعلم ان عزه في طاعتهم و قال اردشير بن بابك اذا رغب
الملك عن العدل رغبت الرعية عن الطاعة و عوتب انوشروان على ترك
عقاب المذنبين فقال هم المرضى ونحن الاطبا فاذا المرض داووهم بالعفو
لهم و القسم الثاني عدل الانسان مع من فوقه كالرعية مع سلطانها
والصحابة مع رئيسها فقد يكون بثلاثة اشيا باخلاص الطاعة وبذل النصرة
وصدق الولا فان اخلاص الطاعة اجمع للشمل وبذل النصرة ادفع للوهن
وصدق الولا انفى لسوء الظن وهذه امور ان لم تجتمع في المرعي تسلط
عليه من كان يدفع عنه واحتاج الى اتقا من كان يتقي عنه وفي هذا اخل نظام
وفساد التئام كما قال البحتري شعر متى احوجت ذا كرم تخطى اليك ببعض اخلاق
اللئام شعر وفي استمرار هذا اخل نظام جامع وفساد صلاح شامل و قد قال
انوشروان اطع من فوقك يطعك من دونك و قال بعض الحكما الظلم مسلبة
النعم والبغي مجلبة النقم و قال بعض البلغاء ان الله تعالى لا يرضى عن خلقه الا
بتادية حقه وتادية حقه شكر النعمة ونصح الامة وحسن الصنيعة
ولزوم الشريعة و القسم الثالث عدل الانسان مع اكفائه وقد يكون بثلاثة
بترك الاستطالة ومجانبة الادلال وكف الاذى لان ترك الاستطالة الف و
الادلال اعطف وكف الاذى انصف وهذه امور ان لم تخلص في الاكفا اسرع
تقاطع الاعدا ففسدوا وافسدوا و قد روى عمر بن عبد العزيز عن ابن عباس
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا انبئكم بشرار الناس قالوا بلى يا رسول
الله قال من اكل وحده ومنع رفده وجلد عبده ثم قال الا انبئكم بشر من ذلك
قالوا بلى يا رسول الله قال من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره ثم قال الا انبئكم بشر من
ذلك قالوا بلى يا رسول الله قال من يبغض الناس ويبغضونه روي ان عيسى عليه

السلام

السلام قام خطيبا في بني اسرائيل فقال يا بني اسرائيل لا تتكلموا بالحكمة عند الجهال
فتظلموها ولا تمنعوها اهلها فتظلموهم ولا تكافئوا ظالما فيبطل فضلكم يا بني
اسرائيل الامور ثلاثة امر تبين رشده فاتبعوه وامر تبين غيه فاجتنبوه
وامر اختلف فيه فردوه الى الله تعالى وهذا الحديث جامع لاداب العدل في
الاحوال كلها و قد قال بعض الحكما عقل لا يداري به الكل بعمل تام
و قال بعض الشعراء شعر ما دمت حيا فدار الناس كلهم فانما انت في دار المداراة
وقد يتعلق بهذه الطبقات امور خاصة يكون عدلهم فيها بالتوسط في حالتي
التقصير والسرف لان العدل ماخوذ من الاعتدال فما جاوز الاعتدال فهو
خروج عن العدل و قد قالت الحكما الفضائل مراتب متوسطة بين خلتين ناقصتين
وافعال الخير توسط بين رذيلتين فالحكمة واسطة بين الشر والجهالة
و الشجاعة واسطة بين التهور والجبن و العفة واسطة بين الشره وضعف
الشهوة و السكينة واسطة بين السخط وضعف الغضب و الغيرة واسطة
بين الحسد وسوء العادة و الظرف واسطة بين الخلاعة والفدامة
و التواضع واسطة بين الكبر ودناءة النفس و السخا واسطة بين التقتير
والتبذير و الحلم واسطة بين افراط الغضب وعدمه و المودة واسطة
بين الخلابة وسوء الخلق و الحيا واسطة بين الوقاحة والحصر و الوقار واسطة
بين الهزء والسخافة و اذا كان ما خرج عن الاعتدال الى ما ليس باعتدال
خروجا عن العدل الى ما ليس بعدل لكان ما خرج عن الاولى الى ما ليس باولى
خروجا عن العدل الى ما ليس بعدل و قد قال بعض البلغا السلطان السوء
يخيف البري ويصطنع الدني والبلد السوء يجمع السفل ويورث العلل والولد
السوء يشين السلف ويهدم الشرف والجار السوء يفشي السر ويهتك
الستر فجعل هذه الاشيا بخروجها عن الاولى الى ما ليس باولى خروجا عن
العدل الى ما ليس بعدل و لست تجد فسادا الا وسببه الخروج فيه عن
حال العدل الى ما ليس بعدل من حالتي الزيادة والنقصان فاذا لا شي انفع من العدل
كما انه لا شي اضر مما ليس بعدل و اما القاعدة الرابعة فهي امر عام

تطمئن اليه النفوس وتنتشر فيه الهمم ويسكن فيه البري ويانس به الضعيف
فليس لخائف راحة ولا لحاذر طمانينة وقد قال بعض الحكما الامن اهنا عيش
والعدل اقوى جيش لان الخوف يقبض الناس عن مصالحهم ويحجزهم عن تصرفهم
ويكفهم عن اسباب المواد التي بها قوام اودهم وانتظام جملتهم وليس كان
الامن من نتايج العدل والخوف من نتايج ما ليس بعدل فقد يكون الخوف تارة
بمقاصد الادميين الخارجة عن العدل وقد يكون تارة باسباب حادثة عن
غير مقاصد الادميين فلا يكون خارجا عن حال العدل فمن اجل ذلك لم يكن ما
يسبق من حال العدل مقنعا عن ان يكون الامن في انتظام الدنيا قاعدة كالعدل
فاذا كان ذلك كذلك فالامن المطلق ما عم والخوف قد يتنوع تارة و
اخرى متنوعة بان يكون تارة على النفس وتارة على الاهل وتارة على المال
وعمومه ان يستوعب جميع الاحوال ولكل واحد من انواعه حظ من الوهن
ونصيب من الحزن وقد يختلف باختلاف اسبابه ويتفاضل بتباين جهاته
ويكون بحسب اختلاف الرغبة فيما خيف عليه فمن اجل ذلك لم يجز ان يصف
حال كل واحد من انواعه بمقدار من الوهن ونصيب من الحزن لا سيما والخائف
على الشي مختص الهم به منصرف الفكر عن غيره فهو يظن الا خائف الا اياه و
عن قدر النعمة بالامن فيما سواه فصار كالمريض الذي هو بمرضه متشاغل
وعما سواه غافل ولعل ما صرف عنه اعظم مما ابتلي به وانما يتوكل بالادنى
وان جل ما مضى حكي ان رجلا قال لاعرابي ما اشد وجع الضرس
فقال الاعرابي كل دا اشد دا وكذلك من عمه الامن كمن استولت عليه
العافية فهو لا يعرف قدر النعمة بعافيته حتى يصاب وقال بعض الحكما
انما يعرف قدر النعمة بمقاساة ضدها اخذ ذلك ابو تمام الطائي فقال

والحادثات وان اصابك بوسها • فهو الذي انباك كيف نعيمها

فالاولى بالعاقل ان يتذكر عند مرضه وخوفه قدر النعمة فيما سوى ذلك من
عافيته وامنه وما انصرف عنه مما هو اشد من مرضه وخوفه ليستبدل
بالشكوى شكرا وبالجزع صبرا فيكون فرحا مسرورا حكي ان يعقوب

قال يوسف

نقول — والعادل — قيام — نشرون — رغبة

قال ليوسف عليهما السلام حين لقيه اي شي كان خبرك بعدي قال لا تسلني عما فعل
بي اخوتي سلني عما صنعه بي ربي وقد قال الشاعر

لا تنس في الصحة ايام السقم • فان عقبى تارك الحزم الندم

واما القاعدة الخامسة فهي خصب دار تتسع به الاحوال ويشترك
فيه ذوو الاكثار والاقلال فيقل في الناس الحسد وينتفي عنهم تباغض العدم
وتتسع النفوس في التوسع وتكثر المواساة والتواصل وذلك من اقوى
الدواعي لصلاح الدنيا وانتظام احوالها لان الخصب يؤول الى الغنا والغنا
يحدث الامانة والسخا كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى ابي موسى
الاشعري لا تستقضين الا ذا حسب ومال فان ذا الحسب يخاف العواقب وذا
المال لا يرغب في مال غيره وقال بعض السلف اني وجدت خير الدنيا والاخرة
في خصلتين وشر الدنيا والاخرة في خصلتين فخير الدنيا والاخرة في التقى
والغنا وشر الدنيا والاخرة في الفجور والفقر وقال بعض الشعراء

ولم ار بعد الدين خيرا من الغنا • ولم ار بعد الكفر شرا من الفقر

وبحسب الغنى يكون اقلال البخيل واعطاؤه واكثار الجواد وسخاؤه كما قال
دعبل

لئن كنت لا تولي يدا دون امرة • فلست بمول نائلا اخر الدهر
واي انا لم يفض عند مليه • واي بخيل لم ينل ساعة الوفر

واذا كان الخصب يحدث من اسباب الصلاح كما وصفت كان الجدب يحدث من
اسباب الفساد ما ضادها وكما ان صلاح الخصب عام وما عم به الصلاح ان وجد
وعدم به الفساد ان فقد فاحرى ان يكون من قواعد الصلاح ودواعي الاستقامة
والخصب يكون من وجهين خصب في المكاسب وخصب في المواد فاما خصب
المكاسب فقد يتفرع من خصب المواد وهو من نتايج الامن المقترن به واما خصب
المواد فقد يتفرع عن اسباب الاهية وهو من نتايج العدل المقترن بها
واما القاعدة السادسة فهو امل فسيح يبعث على اقتنا ما يقصر العمر
عن استيعابه ويحث على انشا ما ليس يؤمل في بلوغه بحياة اربابه ولولا ان الثاني
يرتفق بما انشاه الاول حتى يصير به مستغنيا لافتقر اهل كل عصر الى انشا ما

ادرك

يحتاجون اليه من منازل السكنى واراضي الحرث وفي ذلك وضوح لدليل من الاعواز وتعذر الامكان ما لا خفاء به ولذلك ما ارفق الله خلقه باتساع الامل حتى عمر به الدنيا فعم صلاحها وصارت تنتقل بعمرانها من قوم الى قوم فيتم الثاني ما ابقاه الاول من عمارتها ويرمم الثالث ما احدثه الثاني من شعثها فتكون احوالها على الاعصار ملتئمة وامورها على مرور الدهر منتظمة ولو قصرت الامال لما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى ضرورة وقته ولكانت تنتقل الى من بعده خرابا لا يجد فيها بلغة ولا يدرك منها حاجة ثم تنتقل الى من بعد باسوا حال من ذلك حتى لا ينمى فيها نبت ولا يمكن فيها لبث وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الامل رحمة من الله تعالى لامتي ولولا الامل ما غرس غارس شجرا ولا ارضعت ام ولدا وقال الشاعر

للنفوس وان كانت على وجل من المنية امال تقويها

فالمرء يبسطها والدهر يقبضها والنفس تنشرها والموت يطويها

فاما حال الامل في امر الاخرة فهو من اقوى الاسباب في الغفلة عنها وقلة الاهتمام بها وقد افصح لبيد بن ربيعة مع اعرابيته بما بين به حال الامل في الامرين فقال

واكذب النفس اذا حدثتها ان صدق النفس يزري بالامل

غير ان لا تكذبنها في التقى واخزها بالبر لله الاجل

وفرق ما بين الامل والاماني ان الامل ما تقيد باسباب والاماني ما تجردت عنها فهذه القواعد الست التي بها تصلح احوال الدنيا وتنتظم امور جملتها فان كملت فيها كمل صلاحها وبعيد ان يكون امر الدنيا تاما كاملا وان يكون صلاحها عاما شاملا لانها موضوعة على التغيير والفنا ومنشاة على التغير والانقضاء سمعت بعض العلماء رجلا يقول قبح الله الدنيا قال اذا تستوي لانها تقلوه وقال بعض الشعراء

ومن عادة الايام ان خطوبها اذا اسر منها جانب ساء جانب

وما اعرف الايام الا ذميمة ولا الدهر الا وهو للثار طالب

وبحسب ما اختل من قواعدها يكون اختلالها وفسادها

فصل فاما ما يصلح به حال الانسان فيها فثلاثة اشيا هي قواعد امره ونظام حاله وهي نفس مطيعة

الي رشدها

الى رشدها منتهية عن غيها والفة جامعة تنعطف القلوب عليها ويندفع المكروه بها ومادة كافية تسكن نفسه اليها ويستقيم اوده بها فاما القاعدة الاولى التي هي نفس مطيعة فلانها اذا اطاعته ملكها واذا عصته ملكته ولم يملكها ومن لم يملك نفسه فهو بان لا يملك غيرها احرى ومن عصته نفسه كان بمعصية غيرها اولى وقال بعض الحكما لا ينبغي للعاقل ان يطلب طاعة غيره وطاعة نفسه ممتنعة عليه وقال الشاعر

اتطمع ان يطيعك قلب سعدى وتزعم ان قلبك قد عصاكا

وطاعة نفسه تكون من وجهين احدهما نصح والثاني انقياد فاما النصح فهو ان ينظر الامور بحقائقها فيرى الرشد رشدا ويستحسنه ويرى الغي غيا ويستقبحه وهذا يكون من صدق النفس اذا سلمت من دواعي الهوى ولذلك قيل من فكر ابصر واما الانقياد فهو ان تسرع الى الرشد اذا امرها وتنتهي عن الغي اذا زجرها وهذا يكون من قبول النفس اذا كفيت منازعة الشهوات قال الله تعالى ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا عظيما وللنفس ادابا هي من تمام طاعتها وكمال مصلحتها وقد افردنا لها من هذا الكتاب بابا واقتصرنا في هذا الموضع على ما اقتضاه الترتيب واستدعاه التقريب

واما القاعدة الثانية التي هي الالفة الجامعة فلان الانسان مقصود بالاذية محسود بالنعمة فاذا لم يكن الفا مالوفا تخطفته ايدي حاسديه وتحكمت فيه اهواء اعاديه فلم تسلم له نعمة ولم تصف له مدة واذا كان الفا مالوفا انتصر بالالفة على اعاديه وامتنع بهم من حساده فسلمت نعمته منهم وصفت مدته عنهم وان كان صفو الزمان عسيرا وسلمه خطيرا وقد روى ابن جريج عن عطاء عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المومن الف مالوف ولا خير فيمن لا يالف ولا يولف وخير الناس انفعهم للناس وقال صلى الله عليه وسلم ان الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا يرضى لكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيا وان تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وان تناصحوا من ولاه الله امركم ويكره لكم قيل وقال وكثرة السوال واضاعة المال وكل ذلك حث منه على الالفة

والعرب تقول في امثالها من قلّ ذلّ وقال قيس بن عاصم

إنّ القداح اذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حنق وبطش أيّد

عزّت فلم تكسر وان هي بددت فالوهن والتكسير للمتبدد

واذا كانت الالفة بما ابنت تجمع الشمل وتمنع الذل اقتضت الحال ذكر اسبابها واسباب الالفة خمس وهي الدين والنسب والمصاهرة والمودة والبر

فاما الدين وهو الاول من اسباب الالفة فلانه يبعث على التناصر ويمنع من التقاطع والتدابر وبمثل ذلك وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه فروى الزهري عن انس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا ولا يحل لمسلم ان يهجر اخاه فوق ثلاث ليال وهذا وان كان اجتماعهم في الدين يقتضيه فهو على وجه التحذير من تذكر تراث الجاهلية واحن الضلالة فقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم والعرب اشد الناس تقاطعا وتعاديا واكثرهم اختلافا وتمايزا حتى ان بني الاب الواحد كانوا يتفرقون احزابا مختلفة فيتشتت بينهم التحزب والافتراق احقاد الاعداء واحن البعداء وكانت الانصار اشدهم تقاطعا وتعاديا وكان بين الاوس والخزرج من الاختلاف والتباين اكثر من غيرهم الى ان اسلموا فذهبت احنهم وانقطعت عداوتهم وصاروا بالاسلام اخوانا متواصلين وبالفة الدين اعوانا متناصرين قال الله تعالى واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا يعني اعداء في الجاهلية فالف بين قلوبهم بالاسلام وقال تعالى ان الذين امنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا يعني حبا وعلى حسب التالف على الدين تكون العداوة فيه اذا اختلف باهله فان الانسان قد يقطع في الدين من كان به برا وعليه مشفقا هذا ابو عبيدة بن الجراح وقد كانت له المنزلة العالية في الفضل والاثر المشهور في الاسلام قتل اباه يوم بدر واتى برأسه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم طاعة لله ولرسوله حين بقي على ضلاله وانهمك في طغيانه فلم يعطفه عليه رحم ولا كفه عنه اشفاق وهو من ابر الابناء تغليبا للدين

بيان عن

من تذكر

فيتشتت

اخوانا

على النسب

على النسب وطاعة الله تعالى على طاعة الاب وفيه انزل الله تعالى لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا اباءهم او ابناءهم او اخوانهم او عشيرتهم وقد يختلف اهل الدين على مذاهب شتى وآراء مختلفة فيحدث بين المختلفين فيه من العداوة والتباين مثل ما يحدث بين المختلفين في الاديان وعلة ذلك ان الدين والاجتماع على العقد الواحد فيه لما كان من اقوى اسباب الالفة كان الاختلاف فيه من اقوى اسباب الفرقة واذا اتفقا اهل الاديان المختلفة والمذاهب المتباينة ولم يكن احد الفريقين اعلى يدا واكثر عددا كانت العداوة بينهم اقوى والاحن فيهم اعظم لانه ينضم الى عداوة الاختلاف تحاسد الاكفاء وتفاخر النظراء واما النسب وهو الثاني من اسباب الالفة فان تعاطف الارحام وحمية القرابة يبعثان على التناصر والالفة ويمنعان من التخاذل والفرقة انفة من استعلاء الاباعد على الاقارب وتوقيا من تسلط الغرباء الاجانب وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الرحم اذا تماست تعاطفت ولذلك حفظت العرب انسابها لما امتنعت عن سلطان يقهرها وكف الاذى عنها لتكون به متظافرة على من ناواها متناصرة على من شاقها وعاداها حتى بلغت بالفة الانساب وتناصرها عز القوي الابر وتحكمت فيه تحكم المتسلط المتشطط وقد اعذر نبي الله لوط عليه السلام بفرط ضلله على نفسه حين عدم عشيرة تنصره فقال لمن بعث اليه لو ان لي بكم قوة او اوي الى ركن شديد يعني الى عشيرة مانعة فروى ابو سلمة عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رحم الله لوطا لقد كان ياوي الى ركن شديد يعني ربه سبحانه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فما بعث الله بعده من نبي الا في ثروة من قومه وقال وهب رضي الله عنه لقد وجدت الرسل عليهم الصلاة والسلام على لوط وقالوا ان ركنك لشديد وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا يترك المرء مفرحا حتى يضم الى قبيلة يكون منها قال الرياشي المفرح الذي لا ينتمي الى قبيلة يكون منها كان اذا جنى منه

وتنافس

استيلاء

تماست

على الالفة وكف عن الفرقة ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم من كثر سواد
واذا كان النسب بهذه المنزلة من الالفة فقد تعرض له عوارض يمنع منها
وتبعث على الفرقة المنافية لها فاذا قد لزم ان نصف حال الانساب
وما يعرض فيها من الاسباب وجملة الاسباب قد تنقسم ثلاثة اقسام قسم
والدون وقسم مولودون وقسم مناسبون ولكل صنف منهم منزلة من البر والصلة
وعارض يطرأ فيبعث على العقوق والقطيعة فاما الوالدون فهم الاباء
والامهات والاجداد والجدات وهم موسومون مع سلامة احوالهم بخلقين
احدهما لازم بالطبع والثاني حادث باكتساب فاما ما كان لازما بالطبع فهو الحذر
والاشفاق وذلك لا ينتقل عن الوالد بحال وقد قال صلى الله عليه وسلم لكل
شي ثمرة وثمرة القلب الولد وقال صلى الله عليه وسلم الولد مبخلة مجبنة مجهلة
محزنة فاخبر ان الحذر عليه يحدث هذه الاوصاف ويحدث هذه الاخلاق
وقد كره قوم طلب الولد كراهية لهذه الحال التي لا يقدر على دفعها عن
نفسه للزومها طبعا وحدوثها حتما قيل ليحيى بن زكريا ما بالك تكره
الولد فقال ما لي وللولد ان عاش كدني وان مات هدني وقيل لعيسى عليه السلام
الا تتزوج فقال انما يحب التكثير في دار البقا واما ما كان حادثا باكتساب
فهي المحبة التي تنمي مع الاوقات وتتغير مع تغير الحالات وقد روي عن النبي صلى
الله عليه وسلم انه قال الولد الوط يعني ان حبه يلتصق بنياط القلب فان انصرف
الوالد عن حب ولده فليس ذلك لبغضه منه ولكن لسلوة حدثت من عقوق او تقصير
مع بقاء الحذر والاشفاق الذي لا يزول عنه ولا ينتقل منه على ان الله تعالى رضي
الاباء للابناء فحذرهم فتنتهم ولم يوصهم بهم ولم يرض الابناء للاباء فاوصاهم بهم وان
شر الابناء من دعاه التقصير الى العقوق وشر الاباء من دعاه البر الى الافراط
والامهات اكثر اشفاقا واوفر حبا لما باشرن من الولادة وعانين من التربية وانهن
ارق قلوبا والين نفوسا وبحسب ذلك وجب ان يكون التعطف من الابناء عليهن اكثر
والتحنن عليهن اوفر جزاء لفعلهن وكفاء لحقهن وان كان الله سبحانه قد اشرك بينهما
في البر وجمع بينهما في الوصية فقال تعالى ووصينا الانسان بوالديه حسنا وروي ان

رجلاً

رجلا اتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان لي اما انا مطيتها
اقعدها على ظهري ولا اصرف عنها وجهي وارد عليها كسبي فهل جزيتها
قال لا ولا زفرة واحدة قال ولم قال لانها كانت تخدمك وهي تحب حياتك
وانت تخدمها وانت تحب موتها وقال الحسن البصري حق الوالد اعظم
وحق الوالدة الزم وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انهاكم
عن عقوق الامهات ووأد البنات ومنع وهات وروى خالد بن معدان عن
المقدام قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يوصيكم بامهاتكم
ثم يوصيكم بامهاتكم ثم يوصيكم بامهاتكم ثم يوصيكم بابائكم ثم يوصيكم بالاقرب
فالاقرب واما المولودون فهم الاولاد واولاد الاولاد والعرب تسمي
ولد الولد الصفوة وهم مختصون مع سلامة احوالهم بخلقين احدهما لازم والاخر
مستقل فاما اللازم فهو الانفة للاباء من تهضم او خمول والالفة في الابناء
في مقابلة الاشفاق في الاباء وقد لحظ ابو تمام الطائي هذا المعنى في شعره
فقال ** فاصبحت يلقاني الزمان من اجله باعظام مولود واشفاق والد
واما المستقل فهو الادلال وهو اول حال الولد والادلال في الابناء في مقابلة
المحبة في الاباء لان المحبة بالاباء اخص والادلال بالابناء امس وقد روي عن
عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال قلت يا رسول الله ما بالنا نرق على اولادنا
ولا يرقون علينا قال لانا ولدناهم ولم يلدونا ثم ان الادلال في الابناء قد ينتقل
في الكبر الى احد امرين اما الى البر والاعظام واما الى الجفا والعقوق فان كان
الولد رشيدا او كان الوالد برا عطوفا صار الادلال برا واعظاما وقد روى
الزهري عن عامر بن شرحبيل ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لجرير بن عبد الله
ان حق الوالد على الولد ان يخشع له عند الغضب ويؤثره على نفسه عند
المسغبة والنصب فليس المكافي لهم كالواصل ولكن الواصل من اذا قطعت
رحمه وصلها وان كان الولد عاقا او كان الوالد جافيا صار الادلال
قطيعة وعقوقا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله امرءا
اعان ولده على بره وبشر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمولود فقال ريحانة

اشبهما بهم عن قريب ولد بار او عدو ضار وقد قيل في منثور الحكم العقوق ثكل من
لم يثكل وقال بعض الحكماء ولدك ريحانتك سبعا وخادمك سبعا ووزيرك
سبعا ثم صديق او عدو **واما المناسبون** فهم من عدا الاباء والابناء ممن
يرجع بتعصيب او رحم والذي يختصون به الحمية الباعثة على النصرة وهي
ادنى رتبة من الانفة لان الانفة تمنع من التهضم والخمول معا والحمية تمنع
من التهضم وليس لها في كراهة الخمول نصيب الا ان يقترن بها ما يبعث
على الانفة وحمية المناسبين انما تدعوا الى النصرة على البعداء الاجانب
وهي معرضة لحسد الاداني والاقارب موكولة الى منافسة الصاحب بالصاحب موكدة
فان تحرست بالتواصل والتلاطف تاكدت اسبابها واقترن بحمية النسب مصافاة
المودة وذلك اوكد اسباب الالفة وقد قيل لبعض قريش اي ما احب اليك
اخوك ام صديقك فقال اخي اذا كان صديقا وقال مسلمة بن عبد الملك
العيش في ثلاث سعة المنزل وكثرة الخدم وموافقة الاهل وقال بعض
الحكماء البعيد قريب بمودته والقريب بعيد بعداوته واذا اهملت الحال
بين المناسبين ثقة بلحمة النسب واعتمادا على حمية القرابة غلب عليها منافسة الحسد
او منازعة التنافس فصارت المناسبة عداوة والقرابة تباعدا وقال الكندي
في بعض رسائله الاب رب والولد كمد والاخ فخ والعم غم والخال وبال والاقارب
عقارب وقال عبد الله بن المعتز لحومهم لحمي وهم ياكلونه وما داهيات المرء الا اقاربه
ومن اجل ذلك امر الله تعالى بصلة الارحام واثنى على واصليها فقال تعالى
والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب قال
المفسرون هي الرحم التي امر الله تعالى بوصلها ويخشون ربهم في قطعها ويخافون
سوء الحساب في المعاقبة عليها وقد روى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى انا الرحمن وهي الرحم اشتققت لها
من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته وقال صلى الله عليه وسلم صلة
الرحم منماة للعدد مثراة للمال محبة في الاهل منساة في الاجل وقال بعض الحكماء
صلوا ارحامكم بالحقوق ولا تحقوها بالعقوق وقال بعض البلغاء صلوا ارحامكم فانها

لا تبلى

لا تبلى عليها اصولكم ولا تهتضم عليها فروعكم وقال بعض الادباء من لم يصلح
لاهله لم يصلح لك ومن لم يذب عنهم لم يذب عنك وقال بعض الفصحاء من وصل
رحمه وصله الله ورحمه ومن اجار جاره اعانه الله واجاره وقال محمد
بن عبد الله الازدي رحمة الله تعالى عليه

وحسبك من ذل وسوء صنيعة ... مناواة ذي القربى وان قيل قاطع
ولكن اواسيه وانسى ذنوبه ... لترجعه يوما اليك الرواجع

وقال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه

ولا يستوي في الحكم عبدان واصل ... وعبد لارحام القرابة قاطع

واما المصاهرة وهي الثالثة من اسباب الالفة فلانها استحداث
مواصلة وتمازج مناسبة صدرا عن رغبة واختيار وانعقدا عن خبرة
وايثار فاجتمع فيها اسباب الالفة ومواد المصاهرة قال الله تعالى ومن
اياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة
ورحمة يعني بالمودة المحبة وبالرحمة الحنو والشفقة وهما من اوكد
اسباب الالفة وفيها تاويل اخر قاله الحسن البصري ان المودة النكاح
والرحمة الولد وقال تعالى والله جعل لكم من انفسكم ازواجا وجعل لكم
من ازواجكم بنين وحفدة واختلف المفسرون في الحفدة فقال عبد الله
بن مسعود رضي الله عنه هم اختان الرجل على بناته وقال عبد الله بن
عباس رضي الله عنه هم ولد الرجل وولد ولده وحكي عنه انهم بنو امراة
الرجل من امراة غيره وسموا حفدة لتحفيفهم في الخدمة وسرعتهم في العمل
ومنه قولهم في القنوت واليك نسعى ونحفد اي نسرع الى العمل بطاعتك
ولم تزل العرب تجتذب البعداء وتتالف الاعداء بالمصاهرة حتى يرجع النافر
مؤانسا ويصير العدو مواليا ويصير الصهر بين الاثنين الفة بين القبيلتين
وموالاة بين العشيرتين حكي عن خالد بن يزيد بن معاوية انه قال كان ابغض
خلق الله الي آل الزبير حتى تزوجت فيهم رملة فصاروا احب خلق الله
الي وفيهم يقول

احب بني العوام من اجل اختهم ... ومن اجلها احببت اخوالها كلبا

فان تسلمي اسلم وان تتنصري يخط رجال بين اعينهم صلبا

ولذلك قيل المرء على دين زوجته لما يستنزله الميل اليها من المتابعة ويجتذبه
به الميل لها من الموافقة فلا يجد الى المخالفة سبيلا ولا الى المباينة والمشاقة
طريقا واذا كانت المصاهرة للنكاح بهذه المنزلة من الالفة فقد ينبغي لعقدها
احد خمسة اوجه المال والجمال والدين والالفة والتعفف وقد روى سعيد
بن ابي سعيد عن ابيه عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تنكح المراة
لاربعة لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها فعليك بذات الدين تربت يداك
فان كان عقد النكاح لاجل المال وكان اقوى الدواعي اليه فالمال اذا هو المنكوح
فان اقترن بذلك احد الاسباب الباعثة على الايتلاف جاز ان يثبت العقد
وتدوم الالفة فان تجرد عن غيره من الاسباب وعري عما سواه من المواد
فاخلق بالعقد ان ينحل وبالالفة ان تزول لاسيما اذا غلب الطمع وقل
الوفاء لان المال ان وصل اليه فقد تنقضي بسبب الالفة به وقد قيل من
ودك لشيء ولى مع انقضائه وان اعوز الوصول اليه وتعذرت القدرة
عليه اعقب ذلك استهانة الاياس بعد شدة الامل فحدثت منه عداوة الخائب
بعد استحكام الطمع فصارت الوصلة فرقة والالفة عداوة وقد قيل من ودك
طمعا فيك ابغضك اذا ايس منك وقال عبد الحميد من اعظمك لاستقلالك
استقلك عند اقلالك وان كان العقد رغبة في الجمال فذلك ادوم للالفة
من المال لان الجمال صفة لازمة والمال صفة زائلة ولذلك قيل حسن الصورة
اول السعادة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اعظم النساء بركة
احسنهن وجها واقلهن مهرا فان سلمت الحال من الادلال المفضي الى
الملال استدامت الالفة واستحكمت الوصلة وقد كانوا يكرهون الجمال
البارع الا لما يحدث عنه من شدة الادلال وقد قيل في بسطة الادلال
قبضة الاذلال واما ما يخاف عليه من محق الرغبة وبلوى المنازعة وقد
حكي ان رجلا شاور حكيما في التزويج فقال له افعل واياك والجمال البارع
فانه مرعى انق قال الرجل وكيف ذاك قال كما قال الاول

ولن تصادف

ولن تصادف مرعى ممرعا ابدا الا وجدت به اثار ماكول

واما ما يخافه اللبيب من شرة الصبوة وتوقاه الحازم من عواقب الفتنة
فقد قال بعض الحكماء اياك ومخالطة النساء فان لحظ المراة سهم ولفظها
سم ورأى بعض الحكماء صيادا يكلم امراة فقال يا صياد احذر ان تصاد
قال سليمان بن داود عليهما السلام لابنه امش وراء الاسد ولا تمش
وراء المراة وسمع عمر بن الخطاب امراة تنشد تقول

ان النساء رياحين خلقن لكم وكلكم يشتهي شم الرياحين فقال عمر
ان النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

وان كان العقد رغبة في الدين فهو اوثق العقود حالا وادومها الفة
واحمدها بدءا وعاقبة لان طالب الدين متبع له ومن اتبع الدين انقاد
له فاستقامت حاله وامن زلله ولذلك قال النبي صلى الله عليه
وسلم فاظفر بذات الدين تربت يداك وفيه تاويلان احدهما تربت يداك
ان لم تظفر بذات الدين والثاني انها كلمة تذكر للمبالغة ولا يراد بها
شر كقولهم ما اشجعه قاتله الله وان كان العقد رغبة في الالفة فهذا
قد يكون على احد وجهين اما ان يقصد به المكاثرة باجتماع الفريقين والمظافرة
بتناصر الفئتين واما ان يقصد به تالف اعداء مستطيلين استكفافا
لعاديتهم وتسكينا لصولتهم وهذان الوجهان قد يكونان في الاماثل واهل
المنازل ودواعي الوجه الاول هو الرغبة ودواعي الوجه الثاني هو الرهبة
وهما سببان في غير المتناكحين فان استدام السبب دامت الالفة وان زال
السبب بزوال الرغبة والرهبة خيف زوال الالفة الا ان ينضم اليها احد
الاسباب الباعثة عليها والمقربة لها وان كان العقد رغبة في التعفف
فهو الوجه الحقيقي المبتغى بعقد النكاح وما سواه فاسباب متعلقة عليه
او مضافة اليه روي انه لما نزل قوله تعالى يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي
خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها قال النبي صلى الله عليه وسلم خلق
الرجل من التراب وخلقت المراة من الرجل فهمتها في الرجل وروي

عطية بن بشر عن عطاف بن وداعة الهلالي ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال له يا عطاف الك زوجة قال لا قال فانت اذاً من اخوان الشياطين ان
كنت من رهبان النصارى فالحق بهم وان كنت منا فمن سنتنا النكاح فكان هذا
القول منه حثاً على التعفف عن الفساد وباعثاً على طلب المكاثرة بالاولاد
ولهذا المعنى كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للقفال من غزوهم اذا
افضيتم الى نسائكم فالكيس الكيس يعني في طلب الولد فلزم حينئذ في عقد
التعفف بحكم الاختيار فيه والتماس الادوم من دواعيه وهي نوعان
نوع يمكن حصر شروطه ونوع لا يمكن لاختلاف اسبابه وتغاير شروطه
فاما الشروط المحصورة فيه فثلاثة شروط احدها الدين المفضي الى الستر
والعفاف والمودي الى القناعة والكفاف قال ابو هريرة رضي الله عنه
لا يفرك مومن مومنة ان كره منها خلقاً رضي خلقاً وخطب رجل بن
عبد الله بن عباس رضي الله عنه يتيمة كانت عنده فقال لا ارضاها لك
فقال ولم وفي دارك نشأت قال انها تتشرف قال لا ابالي قال لا لا ارضاها
لها و في معنى هذا قول بعض الحكماء من رضي بصحبة من لا خير فيه لم يرض بصحبته من
فيه خير و الشرط الثاني العقل الباعث على حسن التقدير الامر وصواب
التدبير فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال العقل حيث كان الف
مالوف و قال صلى الله عليه وسلم عليكم بالودود الولود ولا تنكحوا الحمقا
فان صحبتها بلاء وولدها الى ضياع و قال اوس بن زيد لهم النساء اربع فمنهن
معمع لها شيئها اجمع و منهن تبع تضر ولا تنفع و منهن صدع تفرق ولا تجمع
و منهن غيث وقع ببلد فامرع و الشرط الثالث الاكفاء الذي ينتفي بهم العار
ويحصل بهم الاستكثار فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تخيروا
لنطفكم ولا تضعوها الا في الاكفاء و قال اكثم بن صيفي لولده يا بني لا
يحملنكم جمال النساء عن صراحة النسب فان المناكح اللئيمة مدرجة
للشرف والكريمة مدرجة للشرف و قال ابو الاسود الدؤلي لبنيه قد احسنت
اليكم صغاراً وكباراً وقبل ان تولدوا قالوا وكيف احسنت الينا قبل ان نولد

يفرك اي يبغض

تشترف

مقمع

قال اختروا

قال اخترت لكم من الامهات من لا تسبون بها وانشد الرياشي

فاول احساني اليكم تخيري لماجدة الاعراق باد عفافها

و قد ينضم الى هذه الشروط من صفات الذات واحوال النفس ما يلزم
التحرز منه لبعد الخير منه وقلة الرشد فيه فان اوائل كوامن الاخلاق
بادية في الصور والاشكال كالذي روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال لزيد بن حارثة اتزوجت يا زيد قال لا قال تزوج تستعفف مع عفتك
ولا تتزوج من النساء خمساً قال وما هن يا رسول الله قال لا تتزوج شهبرة
ولا لهبرة ولا نهبرة ولا هيدرة ولا لفوتا قال يا رسول الله لا اعرف مما قلت
شيئا قال فاما الشهبرة فالزرقاء البذية و اما اللهبرة فالطويلة المهزولة
واما النهبرة فالعجوز المدبرة و اما الهيدرة فالقصيرة الذميمة و اما اللفوت
فذات الولد من غيرك و قال شيخ من بني سليم لابنه يا بني اياك والرقوب
الغضوب القطوب فالرقوب التي تراقب موته فتاخذ ماله و اوصى بعض
الاعراب ابناءه في التزويج فقال اياك والحنانة والمنانة والانانة فالحنانة
التي تحن الى زوج كان لها و المنانة التي تمن على زوجها بمالها و الانانة
التي تئن كسلاً وتمارضاً و قال اوس بن زيد لهم النساء اربع فمنهن مقمع لها
شيئها اجمع ومنهن تبع تضر ولا تنفع ومنهن صدع تفرق ولا تجمع ومنهن
غيث وقع ببلد فامرع و قال الشاعر

اري صاحب النسوان يحسب انها سواء وبون بينهن بعيد
فمنهن جنات تفيء ظلالها ومنهن نيران لهن وقود

وانشد ابو العيناء عن ابي زيد

ان النساء كاشجار نبتن معاً فيهن مر وبعض المر ماكول
ان النساء وان صورن من ذهب فيهن من هفوات الجهل تخييل
ان النساء متى ينهين عن خلق فانه واجب لا بد مفعول
فما وعدنك من شر وفين به وما وعدنك من خير فممطول

و اما النوع الاخر فهو ما لا يمكن حصر شروطه لانه قد يختلف باختلاف الاحوال

وتشتغل بشغل الاشتان والازمان ولانه لا يستغني فيه عن موافقة النفس ومتابعة الشهوة ليكون ادوم لحال الالفة وامد لاسباب الوصلة فان الراي المعلول لا يبقى على حاله والميل المدخول لا يبقى على دخله ولا بد ان ينتقل الى احدى حالتين اما الى الزيادة والكمال واما الى النقصان والزوال حكي ان رجلا قال لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه اني احبك واحب معاوية فقال علي اما الان فانت اعور فاما ان تبرا واما ان تعمى و اذا كان كذلك فلا بد من كشف السبب الباعث على هذا النوع لانه لا يخلو من ثلاثة احوال احدها ان يكون بطلب الولد فالاحمد فيه التماس الحداثة والبكارة فانهما اخص بالولادة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عليكم بالابكار فانهن اعذب افواها وانتق ارحاما وارضى باليسير ومعنى قوله انتق ارحاما اي اكثر اولادا وقال معاذ بن جبل عليكم بالابكار فانهن اكثر حبا واقل خبا وهذه الحالة هي اولى الاحوال الثلاث لان النكاح موضوع لها والشرع وارد بها وقد قال صلى الله عليه وسلم سوداء ولود خير من حسناء عاقر والعرب تقول من لم يلد فلا ولد وكانوا يختارون لمثل هذه الحال انكاح البعداء الاجانب ويرون ذلك اجنب للولد وابهى لخلقه ويجتنبون انكاح الاهل والاقارب ويرون ذلك مضرا بخلق الولد بعيدا من نجابته وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اغتربوا لا تضووا وقال عمر بن الخطاب يا بني السايب قد اضويتم فانكحوا في الغرايب قال الشاعر

تجاورت بنت العم وهي حبيبة مخافة ان تضوى علي سليلي

وكان حكماء المتقدمين يرون ان انجب الاولاد خلقا وخلقا من كانت سن امه ما بين العشرين والثلاثين وسن ابيه ما بين الثلاثين والخمسين والعرب تقول ان ولد الغيرى لا ينجب وان انجب النساء الفروك لان الرجل يغلبها على الشبه لزهدها في الرجل وقالوا ان الرجل اذا اكره المراة وهي مذعورة ثم اذكرت انجبت و الحالة الثانية ان يكون المقصود به القيام بما تتولاه النساء من تدبير المنازل فهذا وان كان مختصا بمعاناة النساء فليست الزوجات الزم حالا في الزوجات لانه قد يجوز ان يعانيه غيرهن من النساء ولذلك قيل المراة ريحانة وليست

بقهرمانة

بقهرمانة وليس في هذا القصد تاثير في دين ولا قدح في مروة والاحمد في هذا التماس ذوي الاسنان والحنكة ممن قد خبر امر المنازل وعرف عادة الرجال فانهن اقوم بهذه الحال والحالة الثالثة ان يكون المقصود بهن الاستمتاع وهي اذم الاحوال الثلاثة واوهنها للمروة لانه انقاد فيه لاخلاق البهيمية وتابع شهوات البهيمة وقد قال الحارث بن النضر الاسدي شر النكاح نكاح الغلمة الا ان يفعل ذلك لكسر الشهوة وقهرها للاضعاف لها عند الغلمة او تسكين النفس عند المنازعة حتى لا تطمح له عين لريبة ولا تنازعه نفس الى فجور فلا يلحقه في ذلك ذم ولا يناله وصم وهو بالحمد احدر وبالنشاحق ولو تنزه في مثل هذه الحال عن استبدال الحراير الى الاماء كان ابلغ في صيانته واكمل في مروته وهذه حال تقف على شهوات النفوس لا يمكن ان يرجح فيها اولى الامور ثم هي اخطر الاحوال بالمنكوحة لان الشهوات غاية متناهية يزول بزوالها ما كان متعلقا بها فتصير الشهوة في الابتداء كراهة في الانتهاء ولذلك كرهت العرب البنات ووادتهن اشفاقا عليهن وحمية لهن من ان يتبذلهن اللئام بمثل هذه الحالة وكان من يعد من قتل البنات لرقة او محبة كان موتهن احب اليه وآثر عنده خطبت الى عقيل بن علفة ابنته الجرباء فقال

اني وان سيق الي المهر الف وعبدان وذود عشر احب اصهاري الي القبر

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر

لكل ابي بنت براعي شؤونها ثلاثة اصهار اذا ذكر الصهر
فبعل يراعيها وخدر يكنها وقبر يواريها وخيرهم القبر

فصل في مواخاة الاخوان

واما المواخاة بالمودة وهي الرابع من اسباب الالفة فلانها تكسب صفاء صافيا وتحدث وفاء وافيا وهما عمدتا الالفة لان اصل الالفة الصفاء ونتيجتها الوفاء ولذلك آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اصحابه لتزيد الفتهم وتقوى نصرتهم وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال عليكم باخوان الصدق فانهم زينة في

الرخا وعصمة في البلا. وروى ابو الزبير عن سهل بن سعد الساعدي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال المرء كثير باخيه ولا خير في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقا الاخوان جلا الاحزان. وقال خالد بن صفوان ان اعجز الناس من قصر في طلب الاخوان واعجز منه من ضيع من ظفر به منهم. وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه لابنه الحسن يا بني الغريب من ليس له حبيب. وقال ابن المعتز من اتخذ اخوانا كانوا له اعوانا. وقيل لبعض الحكما ما العيش فقال اقبال الزمان وعز السلطان وكثرة الاخوان. وقال بعض الادبا افضل الذخاير اخ وفي. وقيل حلية المرء كثرة اخوانه. وقال بعض البلغا صديق مساعد عضد وساعد. قال بعض الشعرا

هموم رجال في امور كثيرة ... وهمي من الدنيا صديق مساعد

نكون كروح بين جسمين قسمت ... فجسماهما جسمان والروح واحد

وقيل انما سمي الصديق صديقا لصدقه والعدو عدوا لعدوه عليك. وقال ثعلب انما سمي الخليل خليلا لان محبته تخلل القلب فلا تدع فيه خللا الا ملاته. وانشد قول بشار

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبه سمي الخليل خليلا

والمواخاة في الناس تكون من وجهين احدهما اخوة مكتسبة بالاتفاق الجاري مجرى الاضطرار والثاني مكتسبة بالقصد والاختيار. فاما المكتسبة بالاتفاق فهي اوكدها لانها تنعقد عن اسباب تقود اليها. والمكتسبة بالقصد تنعقد لها اسباب تنقاد اليها وما كان جاريا بالطبع فهو الزم مما هو حادث بالقصد. ونحن نبدا بالوجه الاول المكتسب بالاتفاق ثم نعقبه بالوجه الثاني المكتسب بالقصد. اما المكتسب بالاتفاق فله اسباب يبتدي منها ثم ينتقل في غاية احواله المحدودة الى مراتب سبع ربما استكملهن وربما وقف على بعضهن ولكل مرتبة في ذلك حكم خاص وسبب موجب كما قال الشاعر

ما هوى الا له سبب ... يبتدي منه وينشعب

فاول اسباب الاخا التجانس في حال يجتمعان فيها وياتلفان بها فان قوي التجانس

قوي

قصر — الناس حبيب — فرقا — تقود — من يبتدي

قوي الايتلاف به وان ضعف كان ضعيفا به ما لم تحدث علة اخرى يقوى بها الايتلاف. وانما كان كذلك لان الايتلاف بالتشاكل والتشاكل بالتجانس فاذا عدم التجانس من وجه انتفى التشاكل من كل وجه ومع انتفا التشاكل يعدم الايتلاف فثبت ان التجانس وان تنوع اصل الاخا وقاعدة الايتلاف. وقد روى يحيى بن سعيد عن عمرة عن عايشة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ايتلف وما تناكر منها اختلف. وهذا واضح وهي بالتجانس متعارفة وبفقده متناكرة. وقد قيل في منثور الحكم الاضداد لا تتفق والاشكال لا تفترق. وقال بعض الحكما حسن تشاكل الاخوان يبعث التواصل. ولبعضهم

فلا تحتقر نفسي وانت خليلها ... فكل امرى يصبو الى من يجانس

وقال الشاعر

فقلت اخي قالوا اخ من قرابة ... فقلت لهم ان الشكول اقارب

نسيبي في رايي وعزمي وهمتي ... وان فرقتنا في الاصول المناسب

ثم يحدث التجانس المواصلة بين المتجانسين وهي المرتبة الثانية من رتب المواخاة وسبب المواصلة بينهما وجود الاتفاق لان عدم الاتفاق منفر. وقد قال الشاعر

الناس ان وافقتهم عذبوا ... اولا فان جناهم مر

كم من رياض لا انيس بها ... تركت لان طريقها وعر

ثم يحدث عن المواصلة رتبة ثالثة وهي المؤانسة وسببها الانبساط ثم تحدث عن المؤانسة رتبة رابعة وهي المصافاة وسببها خلوص النية ثم تحدث من المصافاة رتبة خامسة وهي المودة وسببها الثقة وهذه الرتبة ادنى الكمال في احوال الاخا وما قبلها اسباب تقود اليها فان اقترن بها المعاضدة فهي الصداقة ثم تحدث عن المودة رتبة سادسة وهي المحبة وسببها الاستحسان فان كان الاستحسان لفضايل النفس حدثت منه رتبة سابعة وهي الاعظام وان كان الاستحسان للصورة والحركات حدثت منه رتبة ثامنة وهي العشق وسببه الطمع. وقد قال المامون

اول العشق نواد وولع ... ثم يزداد اذا زاد الطمع

يبعث — فربو — مزاح

كل من هوا وان غالت به رتبة الملك لمن هوي تبع

هذه الرتبة هي اخر الرتب المحدودة وليس لما جاوزها رتبة مقدرة ولا حال
محدودة لانها قد تؤول الى ممازجة النفوس وان تميزت ذواتها وتفضي الى مخالطة
الارواح وان تفارقت اجسادها وهذه حالة لا يمكن حصر غايتها ولا الوقوف
عند نهايتها وقد قال الكندي الصديق انسان هو انت الا انه غيرك ومثل
هذا القول يحكى عن ابي بكر الصديق رضي الله عنه في عمر حين اقطع طلحة بن عبيد
الله رضي الله عنهما ارضا فكتب له بها كتابا واشهد فيه ناسا منهم عمر فاتى طلحة
بكتابه الى عمر رضي الله عنه ليختمه فامتنع عليه فرجع طلحة مغضبا الى ابي بكر
رضي الله عنه وقال والله ما ادري انت الخليفة ام عمر فقال بل عمر لكنه
انا واما المكتسبة بالقصد فلا بد لها من داع يبعث عليها وذلك من وجهين
رغبة وفاقة فاما الرغبة فهو ان يظهر من الانسان فضايل تبعث على اخايه
ويتوسم بجميل يدعوا الى اصطفايه وهذه الحالة اقوى من التي بعدها لظهور
الصفات المطلوبة من غير تكليف لطلبها وانما يخاف عليها من الاغترار
بالتصنع لها فليس كل من اظهر الخير كان من اهله ولا كل من تخلق بالحسنى
كان من طبعه والمتكلف للشي مناف له الا ان يدوم عليه مستحسنا له في
العقل او متدينا به في الشرع فيصير متطبعا به لا مطبوعا عليه لانه قد تقدم
من قول الحكما ليس في الطبع ان يكون ما ليس في الطبع ثم اقول في المعتذر
ان يكون اخلاق الفاضل كاملة في الطبع وانما الاغلب ان يكون بعض فضايله
بالطبع وبعضها بالتطبع الجاري بالعادة مجرى الطبع حتى يصير ما تطبع به في
العادة اغلب مما كان مطبوعا عليه اذا خالف العادة ولذلك قيل العادة
طبع ثان وقال ابن الرومي

واعلم بان الناس من طينة يصدق في الثلب لها الثالب
لولا علاج الناس اخلاقهم اذا لفاح الحما اللازب

واما الفاقة فهو ان يفتقر الانسان لوحشة انفراده ومهانة وحدته الى اصطفا
من يانس بمواخاته ويثق بنصرته وموالاته وقد قالت الحكما من لم يرغب في

ثلاث

ثلاث بلي بست من لم يرغب في الاخوان بلي بالعداوة والاذلال ومن لم يرغب في
السلامة بلي بالشدايد والامتهان ومن لم يرغب في المعروف بلي بالندامة
والخسران ولعمري اخوان الصدق من انفس الذخاير وافضل العدد لانهم
شفا النفوس واولياء النوايب وقد قالت الحكما رب صديق اود من
شفيق وقيل لمعاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه اي الناس احب اليك
قال الصديق يحببني الى الناس وقال الشاعر

لمودة ثبتت بحبك محكما خير من الرحم القريب الكاشح

وقال اخر يخونك ذو القربى مرارا وربما وفى لك عند العهد من لا تناسبه

فاذا عزم على اصطفا الاخوان سبر احوالهم قبل اخايهم وكشف عن اخلاقهم
قبل اصطفايهم لما تقدم من قول بعض الحكما اسبر تخبر ولا تبعثه
الوحدة على الاقدام قبل الخبرة ولا حسن الظن على الاغترار بالتصنع فان
الملق مصايد العقول والنفاق تدليس الفطن وهما سجية المتصنع وليس
فيمن يكون النفاق والملق بعض سجاياه خير يرجى ولا فلاح يومل ولاجل
ذلك قالت الحكما اعرف الرجل من فعله لا من كلامه واعرف محبته من عينه
لا من لسانه وقال خالد بن صفوان انا خفيف على اخواني لاني لم استعملهم
النفاق ولا قصرت بهم عن الاستحقاق وقد قال حماد عجرد

لم ترا اخ لك لست تنكره ما دمت من دنياك في يسر
يصنع لك في مودته يلقاك بالترحيب والبشر
فاذا عدا والدهر ذو غير دهر عليك عدا مع الدهر
فارفض باجمال مودة من يقلي المقل ويعشق المثري
وعليك من حالاه واحدة في العسر اما كنت واليسر

على ان الانسان موسوم بسيما من قارب ومنسوب اليه افاعيل من صاحب
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من احب وقال علي بن ابي طالب رضي
الله عنه الصاحب مناسب وقال عبد الله بن مسعود ما من شي ادل على شي
ولا الدخان على النار من الصاحب على الصاحب وقال بعض الحكما اعرف

اخال باخيه فبلكه وقال بعض الادبا يظن بالمرء ما ظن بقرينه وقال عدي بن زيد — خ بكل قرين يقتدي

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فان القرين بالمقارن يقتدي

فلزم من هذا الوجه ايضا ان يتحرز من دخلا السوء ويجانب صحبة اهل الريب
ليكون موفور العرض سليم الغيب فلا يلام بملامة غيره وهذا قبل التثبت والا — خ التثبت
ومداومة الاختبار والابتلا تبعد الا بالمغرور وقد ضرب ذو الرمة مثلا لمن
فمن حسن ظاهره وخبث باطنه فقال

المر ان الماء يجتنب طعمه وان كان لون الماء ابيض صافيا

ونظر بعض الحكما الى رجل سوء حسن الوجه فقال اما البيت فحسن واما الساكن
فردي فاخذ حطيئة هذا المعنى فقال

وبيتما ابن الساير فيه منزل عامر وعقل خراب

وانشدني بعض اهل العلم

لا تركنن الى ذي منظر حسن فرب رايقة قد ساء مخبرها
ما كل اصفر دينار تعرفه صفر العقارب ارداها وانكرها

ثم قد تقدم من قول الحكما من لم يقدم الامتحان قبل الثقة والثقة قبل الانس
اثمرت مودته ندما وقال بعض البلغا مصارمة قبل اختبار افضل من مواخاة
على اغترار وقال بعض الادبا لا تثق بالصديق قبل الخبرة ولا توقع بالعدو قبل
القدرة وقال بعض الشعرا

لا تمدحن امرءا حتى تجربه ولا تذمنه من غير تجريب — تحمدن
فحمدك المرء ما لم تبله خطأ وذمك المرء بعد الحمد تكذيب

واذ قد لزم من هذين الوجهين سبر الاخوان قبل اخائهم وخبرة اخلاقهم قبل
اصطفائهم فالخصال المعتبرة من اخائهم بعد المجانسة التي هي اصل الاتفاق — نظر هن اصطفار
اربع خصال الخصلة الاولى عقل موفور يهدي الى مراشد الامور فان الحمق
لا تثبت معه مودة ولا تدوم لصاحبه استقامة وقد روي عن النبي — خ حال
صلى الله عليه وسلم انه قال البذاء لؤم وصحبة الاحمق شوم وقال بعض الحكما
عداوة العاقل اقل ضررا من مودة الاحمق لان الاحمق ربما ضر وهو يقدر

انه ينفع

انه ينفع والعاقل لا يتجاوز الحد في مضرته فمضرته لها حد يقف به عليه العقل
ومضرة الجاهل ليست بذات حد والمحدود اقل ضررا من غير المحدود — خ بما هو غير محدود
وقال المنصور للمسيب بن زهير ما ملاك العقل فقال مجالسة العقلا
وقال بعض البلغا من الجهل صحبة ذوي الجهل ومن المحال مجادلة ذوي المحال — خ مجادله
وقال بعض الادبا من اشار عليك باصطناع جاهل او عاجز لم يخل ان
يكون صديقا جاهلا او عدوا عاقلا لانه يشير بما يضر بك ويحتال فيما يضع
منك وقال بعض الشعرا

اذا ما كنت متخذا خليلا فلا تثقن بكل اخي اخاء
فان خيرت بينهم فالصق باهل العقل منهم والحياء
فان العقل ليس له اذا ما تفاضلت الفضائل من كفاء

والخصلة الثانية الدين الواقف بصاحبه على الخيرات فان تارك الدين
عدو لنفسه فكيف ترجى منه مودة غيره قال بعض الحكما اصطف
من الاخوان ذا الدين والحسب والراي والادب فانه رد لك عند
حاجتك ويد عند نائبتك وانس عند وحشتك وزين عند عافيتك
وقال حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه

اخلاء الرجال هم كثير ولكن في البلاء هم قليل — خ الرخا
فلا تغررك خلة من تواخي فما لك عند نائبة خليل
وكل اخ يقول انا وفي ولكن ليس يفعل ما يقول — خ أدبه
سوى خل له حسب ودين فذاك لما يقول هو الفعول

وقال اخر من لم يكن لله خلته فخليله منه على خطر — في الله

والخصلة الثالثة ان يكون محمود الاخلاق مرضي الافعال مؤثرا للخير امرا
به كارها للشر ناهيا عنه فان مودة الشرير تكسب الاعداء وتفسد الاخلاق
ولا خير في مودة تجلب عداوة وتورث مذمة وملامة فان المتبوع تابع صاحبه — خ الشر
وقال عبد الله بن المعتز اخوان السوء كشجر النار يحرق بعضه بعضا والمتبع
تابع ملاحه وقال بعض الحكما مخالطة الاشرار خطر والصبر والصبر على

صحبتهم كركوب البحر الذي من سلم ببدنه من التلف فيه لم يسلم بقلبه من الحذر منه
وقال بعض البلغا صحبة الاشرار تورث سو الظن بالاخيار وقال بعض البلغا
ان من خير الاختيار صحبة الاخيار ومن شر الاختيار صحبة الاشرار وقال
بعض الشعراء وهو سراقة البارقي

مجالسة السفيه سفاه راي ومن عقل مجالسة الحليم
فانك والقرين معا سوا كما قد الاديم من الاديم

والخصلة الرابعة ان يكون من كل واحد منهما ميل الى صاحبه ورغبة في
مواخاته فان ذلك اوكد لحال المواخاة وامد لاسباب المصافاة اذ ليس كل
مطلوب اليه طالب ولا كل مرغوب اليه راغب ومن طلب مودة ممتنع عليه
ورغب في زاهد فيه كان معنى خايبا كما قال البحتري

وطلبت منك مودة لم اعطها ان المعنى طالب لا يظفر

وقال العباس بن الاحنف

فان كان لا يدنيك الا شفاعة فلا خير في ود يكون بشافع
واقسم ما تركي عتابك عن قلى ولكن لعلمي انه غير نافع
واني اذا لم الزم الصبر طايعا فلا بد منه مكرها غير طايع

وقيل لبعض الحكما اي شي من افعال الناس يشبه افعال الاله سبحانه وتعالى
فقال الاحسان الى الناس وان كنت تشاغلا فمن لم تحرم فلا الوم مالم يلجا اليه
مضطر اذ القيام بالكل معوز والتكفل بالجميع متعذر فهذا حكم المواخاة
فاذا استكملت هذه في انسان وجب اخاوه وتعين اصطفاوه وبحسب الو...
فيه يجب ان يكون الميل اليه والثقة به وبحسب ما يرى من غلبة احد الامرين
يجعله مستعملا في الخلق الغالب عليه فان الاخوان على طبقات مختلفة واحوال
متشعبة ولكل واحد منهم حالة يختص بها في المشاركة وشيمة ينفرد بها في
الموازرة والمظافرة وليس تتفق احوال جميعهم على حد واحد لان التباين في
الناس غالب واختلافهم في الشيم ظاهر وقد قال بعض الحكما الرجال كـ...
شرابه واحد وثمره مختلف فاخذ هذا المعنى منصور بن اسماعيل الفقيه فقال

بنوادم

بنو ادم كالنبت ونبت الارض الوان فمنه شجر الصندل والكافور والبان
ومنه شجر افضل ما يحمل قطران

ومن رام اخوانا تتفق احوال
جميعهم رام امرا متعذرا بل لو اتفقوا لكان ربما وقع به خلل في نظامه
اذ ليس الواحد من الاخوان يمكن الاستغنا به في كل حال ولا
المجبولون على الخلق الواحد يمكن ان يتصرفوا في جميع الاعمال وانما
بالاختلاف يكون الايتلاف وقد قال بعض الحكما الناس لبسة من لم يعاشر
من لم يجد من معاشرته بدا وقال المامون الاخوان ثلاث طبقات طبقة
كالغذا لا يستغنى عنه وطبقة كالدوا يحتاج اليه احيانا وطبقة كالدا لا
يحتاج اليه ابدا ولعمري ان الناس كما وصفهم وليس من كان منهم
كالدا من الاخوان المعدودين بل هم من الاعدا المحذورين وانما يداجون
بالمودة استكفافا لشرهم وتحرزا من مكاشفتهم قد دخلوا في اعداد
الاخوان بالمظاهرة والمساترة وهم من الاعدا عند المكاشفة والمجاهرة
وقال بعض الحكما مثل العدو الضاحك اليك كالحنظلة الخضرة اوراقها
القاتلة مذاقها وقد قيل في حكم الفرس لا تغترن بمقاربة العدو فانه
كالما ان اطيل اسخانه بالنار لم يمنع من اطفايها وقال يزيد بن الحكم الثقفي

تكاشرني كرها كانك ناصح وعينك تبدي ان صدرك لي دوي
لسانك معسول ونفسك علقم وشرك مبسوط وخيرك ملتوي
فليت كفافا كان خيرك كله وشرك عني ما ارتوى الما مرتوي

فاذا خرج من كان كالدا من عداد الاخوان فالاخوان هم الصنفان الاخران
من كان منهم كالغذا او كالدوا لان الغذا قوام النفس وحياتها والدوا علاجها
وصلاحها وافضلهما من كان كالغذا لان الحاجة اليه اعم واذا تميز الاخوان
وجب ان ينزل كل واحد منهم حيث تنزلت به احواله اليه واستقرت به
خلاله وخصاله عليه فمن قويت اسبابه قويت الثقة به وبحسب الثقة به
يكون الركون اليه والتعويل عليه قال الشاعر

ما انت بالسبب الضعيف وانما نجح الامور بقوة الاسباب

فاليوم جاجتنا اليك وانما يدعى الطبيب لشدة الاوصاب

وقد اختلف مذاهب الناس في اتخاذ الاخوان فمنهم من يرى ان الاستكثار منهم اولى ليكونوا اقوى منعة وبدا واوفر تحننا وتوددا واكثر تعاونا وتفقدا وقيل لبعض الحكما ما العيش فقال اقبال الزمان وعز السلطان وكثرة الاخوان وقد قيل حلية المرء كثرة اخوانه ومنهم من يرى ان الاقلال منهم اولى لانه اذا اثقالا وكلفا واقل تنازعا وخلفا وقد قال الاسكندر المستكثر من الاخوان من غير اختيار كالمستوقر من الحجارة والمقل من الاخوان المختبر لهم كالذي يتخير الجوهر قال عمرو بن العاص رضي الله عنه من كثر اخوانه كثر غرماوه قال ابرهيم بن العباس مثل الاخوان كالنار قليلها متاع وكثيرها بوار ولقد احسن ابن الرومي في هذا المعنى ونبه على العلة حيث يقول

عدوك من صديقك مستفاد ❊ فلا تستكثرن من الصحاب
فان الدا اكثر ما تراه ❊ يكون من الطعام او الشراب
فدع عنك الكثير فكم كثير ❊ يعاف وكم قليل مستطاب
فما اللجج الملاح بمرويات ❊ ويلقى الري في النطف العذاب

وقال بعض البلغا ليكون غرضك في اتخاذ الاخوان والاخلا واصطناع النصحا العدة لا تكثير العدة وتحصيل النفع لا تحصيل الجمع فواحد يحصل المراد خير من الف تكثر الاعداد واذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الاخوة واسباب المودة كان وفور العقل وظهور الفضل يقتضي من حال صاحبه قلة اخوانه لانه يروم مثله ويطلب شكله وامثاله من ذوي العقل والفضل اقل من اضدادهم من ذوي النقص والحمق لان الخيار في كل جنس هو الاقل فلذلك ما قل اخوان اهل الفضل لقلة وجودهم وكثرة اخوان ذوي النقص وقد قال الله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون فقل لهذا التعليل اخوان اهل الفضل لقلتهم وكثر اخوان ذوي النقص والجهل لكثرتهم وقال بعض الحكما المرء حيث يجعل نفسه ان رفعها ارتفعت وان قصر بها اتضعت وقال في ذلك الشاعر

لكل

لكل امرئ شكل من الناس مثله ❊ فاكثرهم شكلا اقلهم عقلا
وكل اناس يالفون بشكلهم ❊ فاكثرهم عقلا اقلهم شكلا
لان الكثير العقل ليس بواجد ❊ له في طريق حين يسلكه مثلا
وكل سفيه طايش ان فقدته ❊ وجدت له في كل ناحية عدلا

واذا كان الامر على ما وصفنا فقد ينقسم احوال من دخل في عداد الاخوان اربعة اقسام منهم من يعين ويستعين ومنهم من لا يعين ولا يستعين ومنهم من يستعين ولا يعين ومنهم من يعين ولا يستعين فاما المعين المستعين فهو معاوض منصف يودي ما عليه ويستوفي ما له فهو كالمقرض يسعف عند الحاجة ويسترد عند الاستغنا فهو مشكور في معونته ومعذور في استعانته وهذه اعدل احوال الاخوان واما من لا يعين ولا يستعين فهو متارك قد منع خيره وقمع شره فلا هو صديق يرجى ولا عدو يخشى قد قال المغيرة بن شعبة التارك للاخوان متروك ومن كان كذلك فهو كالصورة الممثلة يروعك حسنها ويخونك نفعها فلا هو مشكور لمنع خيره ولا هو مذموم لقمع شره وان كان بالذم اجدر وقد قال الشاعر

واسوا ايام الفتى يوم لا يرى ❊ له احد يزري عليه وينكر (غير)

ان فساد الوقت وتغير اهله يوجب شكر من كان شره مقطوعا وان كان خيره ممنوعا كما قال المتنبي

انا لفي زمن ترك القبيح به ❊ من اكثر الناس احسان واجمال

اما من يستعين ولا يعين فهو لئيم كل ومهين مستذل قد قطع عنه الرغبة وبسط فيه الرهبة فلا خيره يرجى ولا شره يومن وحسبك مهانة من رجل يستثقل عند اقلاله ويستقل عند استقلاله فليس لمثله في الاخاء حظ ولا في الوداد نصيب وهو ممن جعله المامون من داء الاخوان لا من دوايهم ومن سمهم لا من غذايهم قال بعض الحكماء شر ما في الكريم ان يمنعك خيره وخير ما في اللئيم ان يكف عنك شره وقال ابن الرومي

عذرنا النخل في ابداء شوك ❊ تردّ به الانامل عن جناه
فما للعوسج الملعون ابدا ❊ لنا شوكا بلا ثمر نراه

اما من يعين ولا يستعين فهو كريم الطبع مشكور الصنع قد حاز فضيلتي الابتداء

والاكفا فلا تراه مستثقلا في نايبة ولا قاعدًا عن نهضة في معونة فهذا اشرف الاخوان نفسًا واكرمهم طبعًا فينبغي لمن اوجده الزمان مثله وقل ان يكون له مثل لانه البر الكريم والدر اليتيم ان يثني عليه خنصره ويعض عليه ناجذه ويكون به اشد ضنًا منه بنفايس امواله وسني ذخايره لان نفع الاخوان عام ونفع الاموال خاص وما كان اعم نفعًا فهو بالادخار احق وقد قال القائل

يمضي اخوك فلا تلقى له خلفًا   والمال بعد ذهاب المال يكتسب

وقال اخر

لكل شي عدمته عوض   وما لفقد الصديق من عوض

ثم لا ينبغي ان يزهد فيه لخلق او خلقين ينكرهما منه اذا ارضى ساير اخلاقه وحمد اكثر شيمه لان اليسير مغفور والكمال معوز قد قال الكندي كيف تريد من صديقك خلقًا واحدًا وهو ذو طبايع اربع مع ان نفس الانسان التي هي اخص النفوس به ومدبرة باختياره وارادته لا تعطيه قيادها في كل ما تريد ولا تجيبه الى طاعته في كل ما يحب فكيف بنفس غيره وحسبك ان يكون لك من اخيك اكثره قد قال ابو الدردا معاتبة الاخ خير من فقده ومن لك باخيك كله فاخذ الشعرا بهذا المعنى فقال ابو العتاهية

اخي من لك من بني الدنيا بكل اخيك من لك   فاستبق بعضك لا يملك كل من اعطيته

وقال ابو تمام الطائي ما غبن المغبون مثل عقله من لك يومًا باخيك كله وقال بعض الحكما طلب الانصاف من قلة الانصاف وقال بعض البلغا لا يزهدنك في رجل حمدت سيرته وارتضيت وتيرته وعرفت فضله ورضيت عقله عيب خفي تحيط به كثرة فضايله او ذنب صغير تستغفر له قوة وسايله فانك لن تجد ما بقيت مهذبًا ولا يكون فيه عيب ولا يقع منه ذنب فاعتبر بنفسك بعد ان لا تراها بعين الرضا ولا تجري فيها على حكم الهوى فان في اعتبارك بها واختبارك لها ما يوسك مما يطلب ويعطفك على من يذنب وقال الشاعر في معنى ذلك هذا البيت

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها   كفى المرء نبلا ان تعد معايبه

ولست بمستبق اخا لا تلمه   على شعث اي الرجال المهذب — النابغة

وليس ينقص هذا القول ما وصفنا من اختيار واختبار الخصال الاربع فيه لان ما اعوز معفو عنه وهذا ينبغي ان لا يوحشه فترة يجدها منه ولا ان يسي به الظن في هفوة يكون منه ما لم يتحقق تغيره ولم يتيقن حيلته تنكره وليصرف ذلك الى فترات النفوس واستراحات الخواطر فان الانسان قد يفتر عن مراعاة نفسه التي هي اخص النفوس به ولا يكون ذلك من عداوة لها ولا ملل منها وقد قيل في منثور الحكم لا يفسدك الظن عن صديق قد اصلحك اليقين له وقال جعفر بن محمد لابنه يا بني من غضب من اخوانك عليك ثلاث مرات فلم يقل فيك سوا فاتخذه لنفسك خلًا وقال الحسن بن وهب من حقوق المودة اخذ عفو الاخوان والاغضا عن تقصير ان كان وقد روي عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه في قوله سبحانه وتعالى فاصفح الصفح الجميل قال الرضى بغير عتاب وقال ابن الرومي هذين البيتين في هذا المعنى وهما

الناس في الدنيا ولا بد من قذى   يلم بعين او يكدر مشربا

ومن قلة الانصاف انك تبتغي   المهذب في الدنيا ولست مهذبا

وقال بعض الشعرا

تواصلنا على الايام باق   ولكن هجرنا مطر الربيع

يروعك صوبه لكن تراه   على علاته داني النزوع

معاذ الله ان يلفى غضابا   سوى هجر المطاع على المطيع

وانشدني الازدي

لا يويسنك من صديق نبوة   ينبو الفتا وهو الجواد الخضرم

فاذا نبا فاستبقه وتانه   حتى يفي به الطباع الاكرم

واما الملوك فهو السريع التغير الوشيك التنكر فوداده خطر واخاوه غرر لانه لا يبقى على حالة ولا يخلو من استحالة وقال ابن الرومي الشاعر في معنى

اذا انت عاتبت الملوك فانما   تخط في صحف من الما احرفا

وهبه ارعوى بعد العتاب الم تكن   مودته طبعًا فصارت تكلفا

وهم نوعان منهم من يكون مَلَله استراحة ثم يعود الي المعهود من اخايه
وهذا اسلم المللين واقرب الرجلين يسامح في وقت استراحته
وحين فترته ليرجع الي الحسني ويؤوب الي الاخاء وان نعدم المثل بما نظم
الشاعر حيث يقول

وقالوا يعود الما في النهر بعد ما عفت منه اثار وجفت مشارعه
فقلت الي ان يرجع الما عائدًا وتعشب جنباه يموت ضفا دعه

لكن لا يطرح حقه بالتوهم ولا تسقط حرمته بالظنون وقد قال الشاعر

اذا ما جاك عهد اخيك يومًا وحاد عن الطريق المستقيم
فلا تعجل بلومك واستدمه فان اخا الحفاظ المستديم
فان تك زلة منه والا فلا تبعد عن الخلق الكريم

ومنهم من يكون ملله تركًا واطراحًا ولا يراجع اخاء ولا ودًا ولا يتذكر حفاظًا
ولا عهدًا كما قال الاشجع بن عمر السلمي الشاعر في هذا المعني

اني رايت لها مواصلة كالسم يقرعه علي الشهد
فاذا احزت بعهد ذمتها لعب الصدود بركل العهد

وهذا ادم الرجلين حالًا لا مودته من وساوس الخطرات وعوارض الشهوات
وليس الا الاستدراك للحال معه بالاقلاع قبل الخلطة او حسن المتاركة
بعد الورطة كما قال العباس بن الاحنف في معني ذلك وهو هذان البيتان

تداركت نفسي نعوتها ونعضها قبل اما لها
وما طابت النفس عن سلوة ولكن حملت عليها لها

وما مثل من هذه حاله الا كما قال ابرهيم بن هرمه في هذا المعني

فانك واطراحك وصل سلمي لاخرى من مودتها نكوب
كثاقبة لحلي مستعار لاذنيها فشانهما الثقوب
فادت حلي جارتها اليها وقد بقيت باذنيها ندوب

فاذا صفت طهرت فيه عنده اخلاق من سبره وتمهدت لديه احوال من
خبره واقدم علي اصطفايه اخا وعلي اتخاذه خدنا لزمته حينيذ حقوقه

ودحب عليه حرماته وقد قال عمر بن مسعدة العبودية عبودية الاخا
لا عبودية الرق وقال بعض الحكما من جادلك بمودته فقد جعلك عديل
نفسه فاول حقوقه اعتقاد مودته ثم ايناسه بالانبساط اليه في غير
محرم ثم نصحه في السر والعلانية ثم تخفيف الاثقال عنه ثم معاونته
فيما ينوبه من حادثة او ينا له من نكبة فان موافقته في الظاهر نفاق
وتركه في الشدة لوم وقد روي عن النبي صلي الله عليه وسلم انه قال
خير اصحابك المعين لك علي دهرك وشرهم من سعي لك بسوق يومه وقيل
يا رسول الله اي الاصحاب خير قال الذي اذا ذكرت اعانك واذا
نسيت ذكرك وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه خير اصحابك من واساك
وخير منه من كفاك وكان ابو هريرة رضي الله تعالي عنه يقول اللهم اني اعوذ
بك ممن لا يلتمس خالص مودتي الا بموافقة شهوتي وممن يساعدني علي سرور
ساعتي ولا يفكر في حوادث غدي وقال بعض البلغا عقود العاقل محلولة
وعهوده مدخولة وقال بعض البلغا ما ودك من اهمل ودك ولا احبك
من ابغض حبك وقال بعض الشعرا هذا البيت في معني ذلك

وكل اخ عند الهوينا ملاطف ولكنما الاخوان عند الحقايق

وقال صالح بن عبد القدوس

شر الاخلا من كانت مودته مع الزمان اذا ما خاف او رغبا
اذا وترت امرا فاحذر عداوته من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
ان العدو وان ابدي مسالمة اذا راي منك يومًا فرصة وثبا

وينبغي ان يتوقي الافراط في محبته فان الافراط داع الي التقصير ولان
يكون الحال بينهما نامية اولي من ان يكون متناهية وقد روي ابن سيرين
عن ابي هريرة رضي الله تعالي عنهما ان رسول الله صلي الله عليه وسلم
قال احبب حبيبك هونا ما عسي ان يكون بغيضك يوما ما وابغض بغيضك
هونا ما عسي ان يكون حبيبك يومًا ما وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالي عنه
لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا وقال ابو الاسود الدولي في معني ذلك

ولن معدنًا للخير واصفح عن الاذي فانك راءٍ ما عملت وسامع
واحبب اذا احببت حبا مقاربا فانك لا تدري متى انت نازع
وابغض اذا ما ابغضت غير مباين فانك لا تدري متى انت راجع

وقال عدي بن زيد
لا تامنن من مبغض قرب داره ولا من محب ان يمل بعد

وانما يلزم من حق الاخا بذل المجهود في النصح والتناسي في رعاية ما بينهما من الحق فليس في ذلك افراط وان تناسي ولا مجاوزة حد وان كثر واو في الكل البعض واستوي حالاهما في المغيب والمشهد ولان يكون مغيبهما افضل من مشهدها اولي فان فضل المشهد علي المغيب لوم وفضل المغيب علي المشهد كرم واستواؤهما احتياط وقال الشاعر في معني ذلك

علي لاخواني رقيب من الصفا تبيد الليالي وهو ليس يبيد
يذكرنيهم في مغيب ومشهد فسيان منهم غايب وشهيد
واني لاستحيي اخي ان اره قريبا وان احجوه وهو بعيد

وهكذا يقصد التوسط في زيارته وغشيانه غير مقلل ولا مكثر فان تقليل الزيارة داعية الهجران وكثرتها سبب الملال وقال صلي الله عليه وسلم يا ابا هريرة زر غبا تزدد حبا وقال لبيد

توقف عن زيارة كل يوم اذا اكثرت ملك من ترود

وقال الاخر

عليك باقلال الزيارة انها اذا كثرت كانت الي الهجر مسلكا
الم تر ان الغيث يسام دايما ويسئل بالايدي اذا هو امسكا

وقال الاخر

اقلل زيارتك الصديق ولا تطل هجرانه فيلج في هجرانه
ان الصديق يلج في غشيانه لصديقه فيمل من غشيانه
حتي يراه بعد طول مسرة بمكانه متثاقلا بمكانه
واذا توانى عن صيانة نفسه رجل تنقص واستخف بشانه

ويكسب ذلك ان يكون مقللا في عتابه فان كثرة العتاب سبب للقطيعة واطراح جميعه دليل علي قلة الاكتراث بامر الصديق وقد قيل علة

المعاد

المعادات قلة المبالات بل يتوسط حالتي تركه وعتابه فان ذلك ادوم لاخايهما واحفظ لصفايهما فيسامح بالمتاركة ويستصلح بالمعاتبة فان المسامحة والاستصلاح اذا اجتمعا لم يلبث معهما نفور ولم يبق معهما وجد وقد قال بعض الحكما لا تكثر معاتبة اخوانك فيهون عليهم سخطك وقال منصور النمري بيتا واحدا في هذا المعني وهو

اقلل عتاب من استربت بوده ليست تنال مودة بعتاب

وقال بشار

اذا كنت في كل الامور معاتبا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحدا او صل اخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه
وان انت لم تشرب مرارا علي القذي ظمئت واي الناس تصفو مشاربه

ثم من حق الاخوان ان تغفر هفوتهم وتستر زلتهم لان من رام بريا من الهفوات سليما من الزلات رام امرا معوزا واقترح وصفا معجزا وقد قالت الحكماي عالم لا يهفو وصارم لا ينبو وجواد لا يكبو وقالوا من حاول صديقا ياًمن زلته ويدوم اغتباطه به كان كضال الطريق الذي لا يزداد لنفسه اتعابا الا ازداد من مكانه بعدا وقيل لخالد بن صفوان اي اخوانك احب اليك قال من غفر زللي وقطع عللي وبلغني املي وقال بعض الشعرا هذا البيت في هذا المعني

ما كدت افحص عن اخي ثقة الا ذممت عواقب الفحص

وانشد الربيع للامام الشافعي رحمة الله تعالي عليه

احب من الاخوان كل مواتي وكل غضيض الطرف عن عثراتي
يوافقني في كل امر اريده ويحفظني حيا وبعد مماتي
فمن لي بهذا ليت اني اصبته فقاسمته مالي من الحسنات
تصفحت اخواني فكان اقلهم علي كثرة الاخوان اهل ثقاتي

وانشد ثعلب

اذا انت لم تستقبل الامر لم تجد بكفيك في ادباره متعلقا
اذا انت لم تترك اخاك لزلة اذا زلها اوشكتما ان تفرقا

وحكي الاصمعي عن بعض الاعراب انه قال تناس مساوي الاخوان يدم لك

ودهم ووصى بعض الادبا اخا له فقال كن للود حافظا وان لم تجد محافظا
وللخل واصلا وان لم تجد مواصلا وقال رجل من اباد ليزيد بن المهلب هذه
الابيات في معنى هذا
اذا لم تجاوز عن اخ عند ذلة فلست غدا عن عثرتي متجاوزا
فكيف يرجيك البعيد لنفعه اذا كان عن مولاك خيرك عاجزا
طلبت اخا كلفته فوق وسعه وهل كانت الاخلاق الا غرائزا
وقال ابو مسعود كاتب الرضا كنا في مجلس الرضا فشكى رجل اخا ه
فانشا الرضا يقول هذه الابيات
اعذر اخاك على ذنوبه واستر وغط على عيوبه واصبر على سفه السفيه وللزمان
على خطوبه
ودع الجواب تفضلا وكل الظلوم الى حسيبه واعلم بان الحلم عند الغيظ احسن
من ذنوبه
وقالت بنت عبد الله بن مطيع لزوجها طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري
وكان اجود قريش في زمانه ما رايت قوما الام من اخوانك قال لها مه ولم قلت
ذلك قالت اراهم اذا ايسرت لزموك واذا اعسرت تركوك قال هذا والله
من كرمهم ياتوننا في حال القوة بنا عليهم ويتركوننا في حال الضعف بنا عنهم
انظر كيف تاول بكرمه هذا التاويل حتى جعل قبيح فعلهم حسنا وظاهر
غدرهم وفا وهذا محض الكرم ولباب الفضل وبمثل هذا يلزم ذوي الفضل
ان يتاولوا هفوات اخوانهم وقال الشاعر
اذا ما بدت من صاحب لك زلة فكن انت محتالا لزلته عذرا
احب الفتى ينفي الفواحش سمعه كان به عن كل فاحشة وقرا
اذا شئت ان تدعى كريما معظما حليما ظريفا ماجدا فطنا حرا ه والداعي سقط
الى هذا التاويل شيئان التغافل الحادث عن الفطنة والتالف الصادر
عن الوفا وقد قال اكثم بن صيفي من شدد نفر ومن تراخى تالف والشرف
في التغافل وقال شبيب بن شيبة الاديب العاقل هو الفطن المتغافل

وقال بعض الحكما وجدت اكثر امور الدنيا لا تجوز الا بالتغافل وقال
الطاي هذا البيت في هذا المعنى
ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي ه
ولابي العينا هيه
ان في صحة الاخا من الناس وفي خلة الوفا القلة ه فالبس الناس
ما استطعت على النقص والاّ لم يستقم لك خله ه عش وحيدا ان كنت
لا تقبل العذر وان كنت لا تجاوز زلة ه من اب واحد وام خلقنا
غير انا في المال اولاد علة ه ومما ينبع هذا الفضل تالف الاعدا بما
يثنيهم عن البغضة ويعطفهم على المحبة وذلك قد يكون بصنوف من البر
ويختلف بحسب اختلاف الاحوال فان ذلك من سمات الفضل وشروط
السودد فانه ما احد يعدم عدوا ولا يفقد حاسدا وبحسب وفور النعمة
كثرة الاعدا والحسد كما قال البحتري
ولن تستبين الدهر موقع نعمة اذا انت لم تدلل عليها بحاسد ه فان
اغفل تالف الاعدا مع وفور النعم وظهور الحسد توالى عليه من مكر حليمهم
وبادرة سفيههم ما يصير به النعمة غراما والدعة ملاما روي ابن المسيب
عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم راس العقل بعد الايمان بالله تعالى التودد الى الناس وقال سليمان
بن داود عليهما الصلاة والسلام لابنه لا تستكثر ان يكون لك الف
صديق فالالف قليل ولا يستقل ان يكون لك عدو واحد فالواحد كثير
فنظم ابن الرومي الشاعر هذا المعنى فقال بيتين وهما
تكثر من الاخوان ما استطعت فانهم بطون اذا استنجدتهم وظهور ه
وليس كثيرا الف خل وصاحب وان عدوا واحدا لكثير ه
وقيل لعبد الملك بن مروان ما الذي اكدت في ملكك هذا قال مودات
الرجال وقال بعض الحكما من علامة الاقبال اصطناع الرجال وقال
بعض البلغا من استصلح عدوه زاد في عدده ومن استفسد صديقه نقص من

عدوه وقال بعض الادبا العجب ممن يطرح عاقلا كافيا لما يضمر من عداوته
ويصطنع عاجزا جاهلا لما يظهر من محبته وهو يقدر على استصلاح
من يعاديه بحسن صنايعه واياديه وقال عبد الله بن الزبير رضي الله
تعالى عنهما ثلاثة ابيات جامعة لكل ما قالته العرب وهي للافوه الاودي

بلوت الناس قرنا بعد قرن ... فلم ار غير ختال وقال
وذقت مرارة الاشيا جميعا ... فما طعم امر من السوال
ولم ار في الخطوب اشد هولا ... واصعب من معادات الرجال

وقال التنوخي القاضي رحمه الله تعالى ابياتا في هذا المعنى وهي

الق العدو بوجه لا قطوب به ... يكاد يقطر من ما البشاشات
فاحزم الناس من يلقى اعاديه ... في جسم حقد وثوب من مودات
الرفق يمن وخير القول اصدقه ... وكثرة المزح مفتاح العداوات

وانشدت الربيع للشافعي رحمة الله تعالى عليهما هذه الابيات في هذا المعنى

لما عفوت ولم احقد على احد ... ارحت نفسي من هم العداوات
اني احيي عدوي عند رويته ... لادفع الشر عني بالتحيات
واظهر البشر للانسان ابغضه ... كانه قد ملا قلبي مسرات
ولست اسلم ممن لست اعرفه ... فكيف اسلم من اهل المودات
الناس دا دوا الناس تركهم ... وفي الجفا لهم قطع الاخوات
فخالق الناس واصبر ما بقيت لهم ... اصم ابكم اعمى ذا تقيات

وليس وان كان بتالف الاعدا مامورا والى مقاربتهم مندوبا ينبغي ان لا
يكون اليهم راكنا وبهم واثقا بل يكون منهم على حذر ومن مكرهم على تحرز
فان العداوة اذا استحكمت في الطباع صار طبعا لا يستحيل وجبلة
لا تزول وانما يستكف بالتالف اظهارها ويستدفع به اضرارها كالنار
يستدفع بالما احراقها ويستفاد به انضاجها وان كانت محرقة بطبع لا
يزول وجوهر لا يتغير وقد قال الشاعر في هذا المعنى هذين البيتين وهما

واذا عجزت عن العدو فداره ... وامزح له ان المزاح وفاق

فالنار بالما

فالنار بالما الذي هو ضدها تعطي النضاج وطبعها الاحراق ٥ فصل
في البذل والمواساة واما البذل فهو اكد سبب من اسباب الالفة وهو اكاس
من اسباب الالفة فلانه يوصل القلوب الطافا ويثنيها محبة وانعطافا
ولذلك ندب الله تعالى الى التعاون به وقرنه بالتقوى له فقال تعالى وتعاونوا
على البر والتقوى لان في التقوى رضا الله تعالى وفي البر رضا الناس ومن جمع
بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته وروى
الاعمش عن خيثمة عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول جبلت القلوب على حب من احسن اليها وجبلت القلوب
على بغض من اسا اليها وحكي ان الله تعالى اوحى الى داود عليه السلام يا داود
ذكر عبادي احساني اليهم ليحبوني فان عبادي لا يحبون الا من احسن اليهم
وانشدني ابو الحسن بن ابي الحارث الهاشمي هذا البيت في هذا المعنى وهو

هذا الناس كلهم عيال الله تحت ظلاله ... واحبهم طرا اليه ابرهم بعياله

والبر نوعان صلة ومعروف فاما الصلة فهي التبرع ببذل المال في جهات
محمودة بغير عوض مطلوب وهذا يبعث عليه سماحة النفس وسخاوها
ويمنع منه شحها وإباوها قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فاوليك هم
المفلحون وروى محمد بن ابرهيم التيمي عن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنه عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال السخي قريب من الله قريب من الجنة
قريب من الناس بعيد من النار والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد
من الناس قريب من النار وقال صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم دفع
الله تعالى عن ابيك العذاب الشديد بسخا نفسه وبلغه صلى الله عليه وسلم
عن الزبير امساك فجذب عمامته اليه وقال يا زبير انا رسول الله اليك والى
غيرك يقول الله تعالى انفق انفق عليك ولا توك فاوك عليك وروى ابو الدردا
رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم غربت
فيه شمسه الا وملكان يناديان اللهم اعط منفقا خلفا وممسكا تلفا
وانزل في ذلك القران فقال عز من قايل فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى

فصل في البر وهو اسم الاسم

فسنيسره للحسنى وكذب بالحسنى فسنيسره
للعسرى قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه يعني من اعطى فيما امر واتقى فيما
نهى وصدق بالحسنى يعني بالخلف من عطاياه وعندها قال ابن عباس رضي
الله تعالى عنه سادة الناس في الدنيا الاسخيا وفي الاخرة الاتقيا وقيل
في منثور الحكم الجود حارس الاعراض وقال بعض الادبا من جاد ساد ومن
اضعف ناد وقال بعض البلغا جود الرجل يحببه الى اضداده وبخله يبغضه
الى اولاده وقال بعض الفصحا خير الاموال ما استرق حرا وخير الاعمال
ما استحق شكرا وقال صالح بن عبد القدوس هذين البيتين في هذا المعنى وهو

ويظهر عيب المرء في الناس بخله ويستره عنهم جميعا سخاوه
تغط باثواب السخا فانني ارى كل عيب فالسخا غطاوه

وحد السخا بذل ما يحتاج اليه عند الحاجة وان يوصل الى مستحقه بقدر
الطاقة وتدبير ذلك مستصعب ولعل بعض من يحب ان ينسب الى الكرم
ينكر حد السخا ويجعل تعذير العطية نوعا من البخل وان الجود بذل
الموجود وهذا تكلف يفضي الى الجهل بحدود الفضايل ولو كان حد الجود
بذل الموجود لما كان للسرف موضعا ولا للتبذير موقعا وقد ورد الكتاب
بذمهما وجات السنة بالنهي عنها واذا كان السخا محدودا فمن وقف على
حده سمي سخيا كريما وللحمد مستحقا ومن قصر عنه كان بخيلا وللذم
مستوجبا قال الله تعالى ولا يحسبن الذين يبخلون بما اتاهم الله من فضله
هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة وقال
صلى الله عليه وسلم اقسم الله تعالى بعزته لا يجاوره بخيل وروي عنه
صلى الله عليه وسلم قال طعام الجواد دوا وطعام البخيل دا وسمع رسول
الله صلى الله عليه وسلم رجلا يقول الشحيح اعذر من الظالم فقال
لعن الله الشحيح ولعن الظالم وقال بعض الحكما البخل جلباب المسكنة
وقال بعض الادبا البخيل ليس له خليل وقال بعض البلغا البخيل خازن
نعمته وخازن ورثته وقال بعض الشعرا في معنى ذلك ٥

اذا كنت

اذا كنت جامعا المال ممسكا فانت عليه خازن وامين
تؤديه مذموما الى غير حامد فيأكله عفوا وانت دفين

وتظاهر بعض ذوي النبا بحب الثنا مع امساك فيه فقال بعض الشعرا
فيه هذين البيتين ٥ اراك تومل حسن الثنا ولم يرزق الله ذاك البخيلا
وكيف يسود اخو بطنة يمن كثيرا ويعطي قليلا ٥ وقد يتبنا في حب الثنا
وحب المال لان حب الثنا يبعث على البذل وحب المال يمنع منه فان ظهرا
كان احدهما حب الثنا كاذبا وقال بعض الشعرا هذه الابيات في معنى
ذلك ٥ جمعت امرين ضاع الحزم بينهما تيه الملوك واخلاق المماليك

اردت شكرا بلا بر ولا صلة لقد سلكت طريقا غير مسلوك
طننت عرضك لم يقرع بقارعة وما اراك على حال بمتروك
لئن سبقت الى مال حظيت به لما سبقت الى شي سوى النوك

وقد يحدث عن البخل من الاخلاق المذمومة وان كان ذريعة الى كل مذمة اربعة
اخلاق ناهيك بها ذما وهي الحرص والشره وسو الظن ومنع الحقوق
فاما الحرص فهو شدة الكدح والاسراف في الطلب واما الشره فهو استقلال
الكفاية والاستكثار لغير حاجة وهذا فرق ما بين الحرص والشره
وقد روي عن العلا بن جرير عن ابيه عن سالم بن مسروق قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا تجربه من العيش ما يكفيه لم يجد
ما عاش ما يغنيه وقال بعض الحكما الشره من غرايز اللوم واما سو الظن
فهو عدم الثقة بمن هو لها اهل فان كانت بالخالق كانت شكا يوول
الى ضلال وان كانت بالمخلوق كانت استخانة يصير بها مغتابا
وخوانا لان ظن الانسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه فان وجد
فيها خيرا ظنه في غيره وان راى منها سوا اعتقده في الناس وقد قيل
في المثل كل انا ينضح بما فيه فان قيل قد تقدم من قول الحكما ان من الحزم
سو الظن قيل تاويله قلة الاسترسال اليهم لا اعتقاد السو فيهم
واما منع الحقوق فان نفس البخيل لا تسمح بفراق محبوبها ولا تنقاد الى ترك

مطلوبها فلا تدعن بحق ولا تجيب الي انصاف واذا ال البخل الي ما وصف
من هذه الاخلاق المذمومه والشيم الليمه لم خير مرجو ولا صلاح
ما مول وقد روي عن النبي صلي الله عليه وسلم انه قال للانصار من سيدكم
قالوا الجد بن قيس علي بخل فيه فقال صلي الله عليه وسلم اي دا ادوي
من البخل قالوا وكيف ذاك يا رسول الله فقال ان قوما نزلوا بساحل
فكرهوا لبخلهم نزول الاضياف بهم فقالوا ليبعد الرجال منا عن النسا
حتي يعتذر الرجال الي الاضياف ببعد النسا ويعتذر النسا ببعد
الرجال ففعلوا وطال ذلك عليهم فاشتغل الرجال بالرجال والنسا
بالنسا فاما من زاد علي حد السخا فهو مسرف ومبذر وهو بالذم جدير
قال الله تعالي ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين وقال النبي صلي الله
عليه وسلم ما عال مقتصد وقال المامون لا خير في السرف ولا سرف
في الخير وقال بعض الحكما صديق الرجل قصده وسرفه عدوه وقال
بعض الحكما لا كثير مع اسراف ولا قليل مع احتراف واعلم ان السرف
والتبذير قد يفترق معناهما فالسرف هو الجهل بمقدار الحقوق والتبذير
هو الجهل بمواقع الحقوق وكلاهما مذموم وذم التبذير اعظم لان المسرف
مخطي في الزيادة والمبذر مخطي في الجميع ومن جهل مواقع الحقوق ومقاديرها
بماله واخطاها فهو كمن جهلها بفعاله فتعداها وكانه مبذر من قد يضع
الشي في غير موضعه فهذا قد يعدل عن موضعه لان المال اقل من ان
يوضع في كل موضع من حق وغير حق وقد قال معاوية في كل سرف فان ابدا
حق مضيع وقال بعض الحكما الخطا في اعطا ما لا ينبغي ومنع ما ينبغي
واحد وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالي الحلال لا يحتمل السرف
وليس يتم السخا ببذل ما في يده حتي تسخو نفسه عما بيد غيره فلا
يميل الي طلب ولا يكف عن بذل وقد حكي ان الله تعالي اوحي الي ابرهيم
عليه الصلاة والسلام اتدري لما اتخذتك خليلا قال لا يا رب
قال لاني رايتك تحب ان تعطي ولا تحب ان تاخذ وروي سهل بن سعد

الساعدي

الساعدي رضي الله تعالي عنه قال اتي رجل الي النبي صلي الله عليه
وسلم فقال يا رسول الله اخبرني بعمل يحبني الله عليه ويحبني الناس
فقال ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في ايدي الناس يحبك الناس
وقال ايوب السختياني رضي الله تعالي عنه لا ينبل الرجل حتي يكون فيه
خصلتان العفة عن اموال الناس والتجاوز عنهم وقيل لسفيان رضي الله
تعالي عنه ما الزهد في الدنيا قال الزهد في الناس وكتب كسري الي ابنه
هرمز يا بني استقلل الكثير مما تعطي واستكثر القليل مما تاخذ
فان قرة عيون الكرام في الاعطا وسرور اللئام في الاخذ ولا تعد
الشحيح امينا ولا الكذاب حرا فانه لا عفة مع الشح ولا مروة مع الكذب
وقال بعض الحكما السخا سخاوتان فاشرفهما سخاوتك عما بيد غيرك وقال
بعض البلغا السخا ان تكون بمالك متبرعا وعن مال غيرك متورعا وقال
بعض الصلحا الجود غاية الزهد والزهد غاية الجود وقال بعض الشعرا
في معني ذلك

اذا لم تكن نفس الشريف شريفة ولو كان ذا قدر فليس له شرف

والبذل علي وجهين احدهما ما ابتدا به الانسان من غير سوال والثاني
ما لم عن طلب وسوال فاما المبتدي به فهو اطيبهما سخا واشرفهما عطا
سيل علي بن ابي طالب رضي الله تعالي عنه عن السخا فقال هو ما كان منه
ابتدا فاما ما كان عن مسيله فحيا وكرم وقد قال التمر من صنع السخا حسن
العطيه واللوم سو التغافل وقال بعض الحكما اجل النوال ما وصل قبل
السوال وقال بعض الشعرا هذين البيتين في ذلك المعني وهما

ومن خلا من ماله ومن المروة غير حال ه اعطاك قبل سواله وكفاك مكروه السوال

وهذا النوع من النيل قد يكون لاحد تسعة اسباب فالسبب الاول
ان يري خلة يقدر علي سدها وفاقة يمكن من ازالتها فلا يدعه الكرم او
الدين والتدين الا ان يكون زعيم صلاحها وكفيل نجاحها رغبة في الاجر
ان تدين وفي السكران تكرم وقال ابو العتاهية

ما الناس الا آلة معملة للخير والشر جميعا تفعله

والسبب الثاني ان يرى في ماله فضلا عن حاجته في بره زيادة عن كفايته فيرى انتهاز الفرصة لها بوضعها حيث يكون له ذخرا معدا وغنما مستجدا وقد قال الحسن البصري رحمه الله تعالى ما اضعف من كلفك اجلاله ومنعك ماله وقيل لهند بنت الحسن من اعظم الناس في عينك قالت من كانت لي اليه حاجة وقال الشاعر في ذلك

وما ضاع مال ورث الحمد اهله ولكن اموال البخيل تضيع

والسبب الثالث ان يكون لتعريض يبته عليه لفطنته واشارة يستدل عليها بكرمه ولا يدعه الكرم ان يتغفل ولا الحيا ان يتكلف كالذي حكي ان رجلا ساير بعض الولاة فقال ما اهزل برذونك فقال يده مع ايدينا وصلا انظر كيف التفي بهذا التعريض الذي بلغ ما لا يبلغه صريح السوال ولذلك قال اكثم بن صيفي السخا حسن الفطنة واللوم سو التغافل وحكي ان عبد الله بن سليمان لما تقلد وزارة المعتضد كتب اليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر

ابا دهرنا اسعافنا في نفوسنا واسعفنا فيمن نحب ونكرم

فقلت له نعماك فيهم اتمها ودع امرنا ان المهم المقدم

فقال عبد الله ما احسن ما شكى امره بين اضعاف مدحه وقضا حاجته ولذلك قال بعض الشعرا هذا البيت الذي يدل في هذا المعنى وهو هذا

ومن لا يري من نفسه مذ لها اذا طلب المستنجزين تقبلا

والسبب الرابع ذلك رعاية ليد او جزا على صنيعة فيري تاديه الحق عليه طوعا اما انفة واما شكرا كيلا يكون من اسر الامتنان طليقا ومن رق الاحسان عتيقا فقد قال بعض الحكما الاحسان رق والمكافات عتق قال ابو العتاهية رحمه الله تعالى في معنى ذلك

وليست ايادي الناس عندي غنيمة ورب يد عندي اشد من الاسر

والسبب الخامس ان تؤثر الاذعان بتقديمه والاقرار بتعظيمه توطيدا لرياسة هو لها محب وعلى طلبها مثابر وقد قال الشاعر هذا البيت المفرد

في هذا المعنى وهو هذا

حب الرياسة دا لا دوا له وقل ما تجد الراضين بالقسم

فتستصعب عليه اجابة النفوس له طوعا الا بالاستعطاف وادعانها الا بالرغبة والاسعاف وقال بعض الادبا بالاحسان يرتبط الانسان وقد قال بعض البلغا من بذل ماله ادرك امله وقال بعض الشعرا هذا البيت المفرد في هذا المعنى وهو هذا

ارجوا ان تسود ولا تعني وكيف يسود ذو الدعة البخيل

والسبب السادس ان يستدفع به سطوة الاعدا ويستكف به نفار الخصما ليصيروا له بعد الخصومة اعوانا وبعد العداوة اخوانا اما الصيانة عرضا والحراسة مجد وقد قال ابو تمام الطائي هذين البيتين في هذا المعنى وهما

فلم يجتمع شرق وغرب لقاصد ولا المجد في كف امري والدراهم

ولم ار كالمعروف تدعى حقوقه مغارم في الاقوال وهي مغانم

وقال بعض الادبا من عظمت مرافقه اعظم مرافقه والسبب السابع ان ترب له سالف صنيعة اولاها وتراعي به قديم نعمة اسداها لان فتي ما اولاه او يضاع ما اسداه فان مقطوع البر ضايع ومهمل الاحسان ضال وقد قال الشاعر

وسمت امرا بالعرف ثم اطرحته ومن افضل الاشيا رب الصنايع

وقال محمد بن داود الاصبهاني هذا البيت المفرد في هذا المعنى وهو هذا

بدات بنعما اوجبت لي حرمة عليك فعد بالفضل والعود احمد

والسبب الثامن المحبة التي يوثرها المحبوب على ماله فلا يضن عليه بموجود ولا ينفس عليه بمطلوب للذة التي هي عنده احظى والى نفسه اشهى لان النفس الى محبوبها اشوق والى مماثلتها اسبق وقال الشاعر هذا البيت المفرد في معنى ذلك وهو هذا

وما ذرتكم عمدا ولكن ذا الهوى الى حيث يهوي القلب تهوي به الرجل

وهذا وان دخل في اقسام العطا فخارج من حد السخا وهكذا الخامس

والسادس من هذه الاسباب وانما ذكرناها لدخولها تحت اقسام العطا
والسبب التاسع وليس تسبب ان يفعل ذلك لغير ما سبب وانما هي سجيه
قد فطر عليها وشيمه قد طبع بها فلا يميز بين مستحق ومحروم ولا يفرق بين
محمود ومذموم كما قال بشار
ليس يعطيك للرجا ولا الخوف ولكن يلذ طعم العطا ه وقد اختلف
اختلف الناس في مثل هذا هل يكون منسوبا الى السخا فيحمد ام خارج
عنه فيذم فقال قوم هذا هو السخي طبعا والجواد كرما وهو احق من كان
به محمودا واليه منسوبا قالوا والتمييز شطر البخل والبذل بسبب
الجا ضرورة وقال ابو تمام في معنى ذلك من غير ما سبب مدحي لها سببا
للمجتدي حرا بلا سبب وقال الحسن بن سهل اذا لم اعط الا المستحق
فكاني اعطيت غريما وقال الشرف في السرف فقيل له لا خير في السرف
فقال ولا سرف في الخير وقال الفضل بن سهل العجب لمن يرجو من فوقه كيف
يحرم من دونه وقال بشار في معنى ذلك
وما الناس الا صاحباك فمنهم سخي ومغلول اليدين من البخل ه
سماح يدا ما امكنتك فانها تقل وتثري والعواذل في شغل
وقال اخرون هذا خارج من السخا المحمود الى السرف والتبذير المذموم
لان العطا اذا كان لغير سبب كان المنع ايضا لغير سبب لان المال يقل
عن الحقوق ويقصر عن الواجبات فاذا اعطى غير المستحق فقد منع مستحقا
وما ناله من الذم بمنع المستحق اكثر مما ناله من الحمد باعطاء غير المستحق وحسبك
ذما لمن كانت افعاله تصدر من غير تمييز وتوجد لغير علة وقد قال
الله سبحانه وتعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط
فتقعد ملوما محسورا فنهى عن بسطها سرفا كما نهى عن قبضها بخلا فدل
على استواء الامرين ذما وعلى تقاربهما لوما وقال الشاعر هذين البيتين
في هذا المعنى وهما
وكان المال ياتينا فكنا نبذره وليس لنا عقول ه
فلما

فلما ان تولى المال عنا عقلنا حين ليس لنا فضول ه قالوا ولان
العطا والمنع اذا كانا لغير علة افضيا الى ذم الممنوع وقلة شكر
المعطي اما الممنوع فلانه قد فضل عليه من ساواه واما المعطي فلانه
وجد ذلك اتفاقا وربما امل بالاتفاق اضعافا فصار ذلك مفضيا
الى اجتلاب الذم واحباط الشكر وليس فيما افضى الى واحد منهما خير
يرجى وهو جدير ان يكون شوم يتقى ولمثل هذا قيل منع الجميع ارضى للجميع
وعطا يكون المنع ارضى منه خسران مبين فاما اذا كان البذل والعطا
عن سوال وطلب فشروطه معتبرة من وجهين احدهما في السايل
والثاني في المسول فاما ما كان معتبرا في السايل فثلاثة شروط الشرط
الاول ان يكون السوال لسبب والطلب لموجب فان كان للضرورة
ارتفع عنه الجرح وسقط عنه اللوم وقد قال بعض الحكما الضرورة توقح
الصورة وقال بعض الشعرا هذين البيتين في معنى ذلك
الا قبح الله الضرورة انها تكلف اعلى الخلق ادنى الخلايق
ولله حد الاختبار فانه يبين فضل السبق من غير سابق — الاختيار
وقال الكميت ه اذا لم يكن الا الاسنة مركب فلا راي للمضطر الا ركوبها
فان ارتفعت الضرورة ودعت الحاجة فيما هو اولى الامرين ان يكون
ولكن جاز ان لا يلوم فالنفس المسامحة تقل الحاجة وتسمح في الطلب — المسامحة
وتراعي ما استقام به الحال وانتظم به الامر ولربما تدله بذله وتجوز
وهن وتناول صاحبها قول البحتري
ه وربما كان مكروه الامور الى محبوبها سببا ما مثله سبب ه والنفس
الشريفة تطلب الصيانة وتراعي النزاهة وتحتمل من الضر ما احتملت
ومن الشدة ما اطاقت ليبقى تجملها ويدوم تصاونها كما قال الشاعر
وقد يكتسي المرء خز الثياب ومن تحتها حلة مضنية — دونها حالة
كما يكتسي خده حمرة وعلتها ورم في الريه ه ولا يرى ان
يتدنس بمطالب الشوم ومطامع اللوم فان البهايم الوحشية ما يابى ذلك

ويانف منه وقال الشاعر هذا البيت المفرد في معنى ذلك وهو

وليس الليث من جوع بغادٍ على جيف تطيف بها كلابُهْ

فكيف بالانسان الفاضل الذي هو اكرم الحيوان جنسا واشرفه نفسا هل يحسن به ان

يري لوحشي البهائم عليه فضلا وقد قال الشاعر في معنى ذلك

على كل حالٍ ياكل المرء زادهُ على البوس والضرا والحدثان والفضل

ومما قيل لبعض الزهاد لو سالت جارك لاعطاك فقال والله ما اسال

الدنيا من يملكها فكيف من لا يملكها ووصف بعض الشعرا قوما فقال

اذا افتقروا عضوا على الصبر حسبة وان ايسروا عادوا سراعا الى الفقر

فاما من يسال من غير ضرورة مست ولا حاجة دعت فذلك صريح

اللوم ومحض الدناة وقلما تجد مثله ملحوظا او تجده الا محظوظا لان

الحرمان قاده الى اضيق الارزاق واللوم ساقه الى اخبث المطاعم فلم

يبق لوجهه ما الا اراقه ولا ذل الا اذاقه قال عبد الصمد بن المعذل

لابي تمام الطاي هذه الابيات في معنى ذلك

انت بين اثنتين تبرز للناس وكلتاهما بوجه مذال

لست تنفك طالبا لوصالٍ من حبيب او طالبا لنوال

اي ما لحر وجهك يبقي بين ذل الهوي وذل السوال

ولو استقبح العار وانف من الذل لوجد غير السوال مكسبا يؤونه

ولقدر على ما يقله ويصونه وقد قال الشاعر

لا تطلبن معيشة بتذلل فلعلها تاتيك رزقك المقدور

واعلم بانك اخذ كل الذي لك في الكتاب محبر مسطور

والشرط الثاني من شروط السوال ان يضيق الزمان عن ارجايه ويقصر

الوقت عن ابطايه فلا يجد لنفسه فسحة ولا في التمادي مهلة فيصير من

المعذورين وداخلا في عداد المضطرين فاما والوقت متسع والزمان

ممتد فتعجيل السوال لوم وقنوط وقال الشاعر هذين البيتين في هذا

المعنى وهما اني لي اغضا الجفون على القذا يقيني الاعسر الا مفرج

الا ربما ضاق الفضا باهله وامكن من بين الاسنة مخرج

والشرط الثالث اختيار المسول لمن يكون موجوا الاجابه مامول النجح

اما لحرمة السايل او لكرم في المسول فان سال ليئما لا يراعي حرمة

ولا يوالي مكرمة فهو في اختياره ملوم وفي سواله محروم وقد قال بعض

الحكما المخذول من كانت له الى اللئام حاجة وقال بعض البلغا اذل

من اللئيم سايله واقل من البخيل نايله وقال بعض الشعرا

من كان يامل ان ساقط نيلا سنيا فلقد رجا ان تجتني من عوسج رطبا

واما الشروط المعتبرة في المسول فثلاثة فالشرط الاول ان يكتفي

بالتعريض ولا يلجا الى السوال الصريح ليصون السايل عن ذل الطلب

فان الحال ناطقة والتعريض كافٍ وقد قال الشاعر

اقول وستر الدجا مسبل كما قال حين شكا الضفدع

كلامي لمن قلته صاير وفي الصمت حتفي فما اصنع

وربما فهم المسول الاشارة ممن كان مفقود الحيا فوجهه من غير بواب

له بواب والشرط الثاني ان يتلقي بالبشر والترحيب ويقابل بالطلاقة

والتقريب ليكون مشكورا ان اعطي ومعذورا ان منع وقد قال بعض

الحكما الق صاحب الحاجة بالبشر فان عدمت شكره لم تعدم عذره

وحكي ابن لنكك ان ابا بكر بن دريد قصد بعض الوزرا في حاجة فلم

يقضها وظهر له منه ضجر فقال هذه الابيات في هذا المعنى وهي

لا يدخلنك ضجرة من سايلٍ فلخير دهرك ان تري مسولا

لا تجبهن بالرد وجه مومل فبقا عزك ان تري مامولا

تلقى الكريم فتستدل ببشره وتري العبوس على اللئيم دليلا

واعلم بانك عن قليل صاير خبرا فكن خبرا يروق جميلا

والشرط الثالث ان يصدق الامل فيه ويحقق الظن به ثم اعتبار حاله

وحال سايله فانهما لا يخلوان من اربعة احوال فالحالة الاولي ان يكون

السايل مستوجبا والمسول متمكنا فالاجابة هاهنا يستحق لوما وملزمه

مروة وليس الي الرد سبيل الا لمن استولي عليه البخل وهان عليه
الدم كما قال عبد الرحمن بن حسان
اني رايت من المكارم حسبكم ان تلبسوا خز الثياب وتشبعوا
فاذا تذكرت المكارم مرة في مجلس انتم به تتقنعوا
ونعوذ بالله ممن حرم ثروة ماله ومنع حسن حاله ان يكون مستودعا في
صنيع مشكور وبر مدخور وقيل للبخيل لم حسبت مالك قال للنوايب
قبل قد نزلت بك وقال بعض الشعرا
ما لك من مالك الا الذي قدمت فابذل طايعا مالكا
تقول اعمالي ولو فتشوا رايت اعمالك اعمى لكا
ثم قد اسقط حق نفسه ودفع اسباب شكره فصار بان لاحق له مذموما كمشكور
وما ثوما كماجور وقال ابو العتاهية في هذا المعنى
جزي البخيل علي صالحة اذلم يثقل مره ظهري اعلي وبرمء عن يده يدي
فعلت ويره قدره فدري ما فاتني خير امرى وضعت عني يداه مونة
الشكر ووذقت من جدواه عاقبة ان لا يضيق بشكره صدري
فاذا لم يكن الي الرد في مثل هذا الحال سبيل نظر فان كان التاخير
مضرا اعجل بذله وبر وقطع مطله وكانت اجابته فعلا وقوله عملا وقد
قالت الحكما من مروة المطلوب اليه ان لا يلجا الي الالحاح عليه وقال محمد
بن حازم هذين البيتين في هذا المعنى وهما
ومنتظر سوالك بالعطايا واشرف من عطاياه السوال
اذا لم ياتك المعروف طوعا فدعه فالتنزه عنه مال
ولئن كان في الوقت مهلة وفي التاخير فسحة فقد اختلفت مذاهب الفضلا
فيها فذهب بعضهم الي ان الاولي تعجيل الوعد قولا ثم يتعقبه الانجاز فعلا
ليكون السايل مسرورا بعاجل الوعد ثم باجل الانجاز وقد يكون المسول
موسوما بالكرم ملحوظا بالوفا وروي عن النبي صلي الله عليه وسلم انه قال
العدة عطية وقال الفضل بن سهل لرجل ساله حاجة اعدك

اليوم واحبوك غدا بالانجاز لتذوق حلاوة الامل واتزين انا بثوب الوفا
ووعد يحيى بن خالد رجلا بحاجة ساله اياها فقيل له تعد وانت
قادر فقال ان الحاجة اذا لم يتقدمها وعد ينتظر صاحبها نجاحها لم تجد
سرورها لان الوعد طعم والانجاز طعام وليس من جاه الطعام كمن تجد
رايحته ويتطعمه فدع الحاجة تختمر بالوعد ليكون لها طعم عند المصطنع اليه
وقال بعض البلغا اذا احسنت القول فاحسن العمل ليجتمع لك مزيه
اللسان وثمرة الاحسان ولا تقل ما لا تفعل فانك لا تخلوا في ذلك من
ذنب تكتسبه او عجز تلتزمه ومنهم من ذهب الي ان تعجيل البذل فعلا
من غير وعد اولي وتقدمه من غير ترقب ولا انتظار اهنى وانما يقدم
الوعد واحد من رجلين اما معوز ينتظر جدة واما شحيح يروض نفسه
توطية وليس للوعد في غيرهما بين الحالتين وجه يصح ولا راي يتضح
مع ما يعتري الليل والنهار ويتقلب به الحال من ايسار واعسار وقال
بعض الشعرا يا ايها الملك المقدم امره شرقا وغربا امنن بختم صحيفتي ما
دام هذا الطين رطبا واعلم بان جفافه مما يعيد السهل صعبا وقالوا
ولان في الرجوع من توقي الانكسار وتوقع الوعد من مرارة الانتظار
وفي العودة اليه من بذلة الاقتضا وذلة الاجتدا ما يكدر بره ويوهن
شكره وقد قال الشاعر هذين البيتين في هذا المعني
ان الحوايج ربما ازري بها عند الذي تقضي له تطويلها
فاذا اضمنت لصاحب لك حاجة فاعلم بان تمامها تعجيلها
والحالة الثانية ان يكون السايل غير مستوجب والمسول غير متمكن
ففي الرد فسحة وفي المنع عذر غير انه يلين عند الرد لينا ينفي الذم ويظهر
عذرا يدفع عنه اللوم فليس كل مقل يعرف ولا كل معذور ينصف وقد قال
ابو العتاهية رحمه الله تصف الناس
يا رب ان الناس لا ينصفونني فكيف وان انصفتهم ظلموني
فان كان لي شي تصدوا لاخذه وان جيت ابغي شيهم منعوني

فان نالهم بذلي فلا يشكرونني ولرانا لم ابذل لهم شتموني
وان طرقتني نكبة فكهوا بها وان صحبتني نعمة حسدوني
سامنع قلبي ان يحن اليهم واحجب عنهم ناظري وجفوني
واقطع ايامي بيوم سهولة اقضي لها عمري ويوم حزوني
الا ان اصفى العيش ما طاب غبه وما نلته في لذة وسكون

والحالة الثالثة ان يكون السايل مستوجبا والمسول غير متمكن فياتي بالحمل على النفس ما امكن من يسير يسد خلته ويدفع مذمة او يوضح من اعذار المعوزين وتوجع المتالمين ما يجعله من المنع معذورًا وبالتوجع مشكورًا كما قال ابو النصر العتبي في معنى ذلك

والله يعلم اني لست ذا بخل ولست ملتمسًا في البخل لي عللا
لكن طاقة مثلي غير خافية والنمل يعذر في القدر الذي حملا

وربما حسر بحدوث العجز بعد تقدم القدرة على قوت الصنيعة وزوال العادة حتى صار ايضا حسدًا وازيد كمدًا كما قال الشاعر هد بن البيتين في هذا المعنى

وكنت كباز الجو قص جناحه يرى حسرات كلما طار طاير
يرى طايرات الجو يخفقن حوله فيذكر اذ ريش الجناحين وافر

والحالة الرابعة ان يكون السايل غير مستوجب والمسول متمكنا وعلى البذل قادرًا فينظر فان خاف بالرد قدح عرض او قبح هجا فحض كان الى البذل مندوبًا صيانة لا جودًا فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما وقى المرء عرضه به فهو صدقة وان امن ذلك وسلم منه فمن الناس من غلب المسئلة وامر بالبذل لئلا يقابل الرجا بالخيبة والامل بالاياس لما فيه من اعتياد الرد واستسهال المنع وكان اعتياد البذل مفض الى السخا كذلك اعتياد المنع مفض الى الشح وانشد الاصمعي عن الكساي

ذاتك في الكتاب وجدت لا تحرمة عليك فلا تخل

فالادري

فالادري اذا اعطيت مالا اكثر من سماحك ام تفل
اذا حضر الشتا فانت شمس وان حضر المصيف فانت ظل

ومن الناس من اعتبر الاسباب وغلب حال السايل وندب الى المنع اذا كان العطا بغير حق ليقوى على الحقوق اذا عرضت ولا يعجز عنها اذا لزمت وتعينت وقال بعض الشعرا

لا تجد بالعطا في غير حق ليس في منع غير ذي الحق بخل
انما الجود ان تجود على من هو للجود والندى منك اهل

فاما من اجاب السوال ووعد بالبذل والنوال فقد صار بوعده مرهونا وكان وفاوه بالوعد مقرونا ولا اعتبار باستحقاق السايل بعد الوعد ولا سبيل الى مراجعة نفسه بالرد فيستوجب مع ذم المنع لوم المخلف ومقت الغادر وهجنة الكذوب ثم لا سبيل الى مطله بعد الوعد لما في المطل من تكدير الصنع ومحق الشكر والعرب تقول في امثالها المطل احد المنعين واليأس احد النجحين وقال بشار بن برد في ذلك

اظلت علينا منك يوما غمامة اضات لنا برقا وابطا رشاشها
فلا غيمها يجلي فييأس طامع ولا غيثها ياتي فتروى عطاشها

ثم اذا انجز وعده واوفى عهده لم يتبع نفسه ما اعطى وسر اذ كانت يده العليا وقد قال صلى الله عليه وسلم اليد العليا خير من اليد السفلى وقال الشاعر

فانك لا تدري اذا جا سايل أأنت بما تعطيه ام هو اسعد
عسى سايل ذو حاجة ان منعته من اليوم سولا ان يكون له غد

ولكن من سروره اذا كانت الارزاق مقدرة ان تكون على يده جارية من جهته واصله لا تنتقل عنه بمنع ولا تتحول عنه باياس حكي ان رجلا شكا كثرة عياله الى بعض الزهاد رحمه الله تعالى لرجل كان ياتيه على دابة ففقد الدابة فقال ما فعل برذونك قال اشتدت على مؤنته فبعته فقال افتراه خلف رزقه عندك وقال ابن الرومي

وقال ابن سيرين لرجل كان ياتيه فقال انظر من كان منعم ليس عليك الا...

ان الله عمر عالك من عمي بر نعيه وعمر مايك تما
ان الله بالبرية لطفا سبق الامهات والا با

ثم ليكن غالب عطاياه لله تعالى واكثر قصده ابتغا ما عند الله كالذي حكاه ابو بكر عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ان اعرابيا اتاه فقال يا عمر الخير جزيت الجنة اكس بنياتي وامهنه وكن لنا من الزمان جنة اقسم بالله لتفعلنه اذا ابا حفص لاذهبنه قال فاذا ذهبت يكون ماذا قال الاعرابي جواب ذلك يكون عن حالي لتسألنه يوم تكون الاعطيات هنه وهو قف المسؤول بينهنه اما الى نار واما جنه فبكى عمر رضي الله تعالى عنه حتى اخضلت لحيته ثم قال يا غلام اعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لغيره اما والله لا املك غيره واذا كان العطا على هذا الوجه خلا من طلب جزا وشكر وعري عن امتنان ونشر كان ذلك اشرف للباذل واهنا للقابل فاما المعطي اذا التمس بعطايه الجزا وطلب به الشكر والثنا كان خارجا بعطايه عن حكم السخا لانه ان طلب به الشكر والثنا كان صاحب سمعة ورياء وفي هذا من الذم ما ياتي في السخا ولو طلب به الجزا كان تاجرا مربحا لا يستحق حمدا ولا مدحا وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنه في تاويل قوله تعالى ولا تمنن تستكثر انه الذي يعطي عطيه يلتمس بها افضل منها وكان الحسن البصري رضي الله تعالى عنه يقول في تاويل ذلك لا تمنن بعملك تستكثر على ربك وقال ابو العتاهيه رحمه الله في معنى ذلك هذين البيتين

وليست يد اوليتها بغنيمة اذا انت تبغي ان تجر لها شكرا
غنا المرء ما يكفيه من سد خلة فان رام شيا عاد ذاك الغنا فقرا

واعلم ان الكريم يجتدي بالكرامة واللطف واللئيم يجتدي بالمهانة والعنف ولا يجود الا عنفا ولا خوفا كما قال الشاعر في هذا المعنى هذا البيت المفرد

را يتك مثل الجوز يمنع لبه صحيحا ويعطي خيره حين يكسر

واحذر ان يكون المهانه الى احتدايك طريقا والخوف الى اعطايك سبيلا فتجر عليك سفه الطغام وامتهان اللئام وليكن جودك كرما ورغبا لا لوما

ودهبا

ودهبا كيلا يكون مع الوصية كما قال الشاعر وهو العباس بن الاحنف في هذا المعنى

اكرم منكم بما اقول وقد قال به العاشقون من عشقوا
صرت كاني ذباله نصبت تضي للناس وهي تحترق

واما النوع الثاني من البر فهو المعروف ويتنوع ايضا نوعين قول وعمل فاما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول وهذا يبعث عليه حسن الخلق ورقة الطبع ويجب ان يكون محدودا كالسخا فانه ان اسرف فيه كان ملقا مذموما وان توسطه واقتصد فيه كان معروفا وبرا محمودا وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنه في تاويل قوله تعالى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا انها الكلام الطيب وكان سعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه يقول انها الصلوات الخمس وعن مالك رضي الله تعالى عنه انه قال هي قول العبد سبحان الله والحمد لله والله اكبر ولا اله الا الله وروي ابو سعيد عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال انكم لن تسعوا الناس باموالكم فليسعهم منكم بسط الوجوه وحسن الخلق وروي ان النبي صلى الله عليه وسلم انشد عنده قول الاعرابي الحسيني

جنى ذوي الاضغان تسب قلوبهم تحببك الادنى فقد يرقع النغل
فان دحسوا بالمكر فاعف تكرما وان خنسوا عنك الحديث فلا تسل
فان الذي يوذيك منه سماعه وان الذي قالوا وراك لم يقل

فقال النبي صلى الله عليه وسلم ان من الشعر لحكما وان من البيان لسحرا وقيل للعتابي انك تلقى العامة ببشر وتقريب قال دفع ضغينة بايسر مؤنة واكتساب اخوان بايسر مبذول وقيل في منثور الحكم من قل حياؤه قل احباؤه وقال بعض الشعرا في معنى ذلك بيتا

بني ان البر شي هين وجه طليق وكلام لين

وانشد بعضهم في ذلك

المرء لا يعرف مقداره مالم بن للناس افعاله وكل من لم يعني بسره

واما العمل فهو بذل الجاه والاسعاد بالنفس والمعونة في النايبه وهذا
يبعث عليه حب الخير للناس وايثار الصلاح لهم وليس في هذه الامور
سرف ولا لغايتها حد بخلاف النوع الاول لانها وان كثرت فهي افعال
خير تعود بنفعين نفع علي فاعلها في اكتساب الاجر وجميل الذكر ونفع علي
المعان بها في التخفيف عنه والمساعدة له روي محمد بن المنكدر عن جابر
بن عبد الله رضي الله تعالي عنهما ان النبي صلي الله عليه وسلم قال كل معروف
صدقة وقال صلي الله عليه وسلم صنايع المعروف تقي مصارع السوء
وقال صلي الله عليه وسلم المعروف كاسمه واول من يدخل الجنة يوم
القيامه المعروف واهله وقال علي بن ابي طالب رضي الله تعالي عنه لا يزهدنك
في المعروف كفر من كفره فقد يشكر الشاكر باضعاف جحود الكافر وقال
الحطيئة ٥ من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
وانشد الراشي
يد المعروف غنم حيث كانت تحملها كفور او شكور
ففي شكر الشكور لها جزا وعند الله ما كفر الكفور ٥ فينبغي لمن
قدر علي اسدا المعروف ان يعجله حذر فواته ويبادر به خيفة عجزه ويعلم
انه من فرص زمانه وغنايم امكانه ولا يهمله بعد القدرة عليه فكم واثق بالقدرة
زالت عنه ومن يهمل المعروف خاب منه وكم واثق بقدرته فاتت فاعقبت
ندما ومعول علي مكنة زالت فاورثت خجلا كما قال الشاعر
ما زلت اسمع كم من واثق خجل حتي ابتليت فكنت الواثق الخجلا
ولو فطن لنوايب دهره وتحفظ من عواقب مكره لكانت مغانمه مذخوره
ومغارمه مجبورة وقد روي عن النبي صلي الله عليه وسلم انه قال من فتح
عليه باب من الخير فلينتهزه فانه لا يدري متي يغلق عليه وقال صلي الله
عليه وسلم لكل شي ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح وقيل لانوشروان
ما اعظم المصايب عندكم قال ان تقدر علي المعروف فلا تصطنعه حتي
يفوت وقال عبد الحميد من اخر الفرصة عن وقتها فليكن علي ثقة

كفوتها

من فوتها وقال حكيم خير البر ما وافق وقت الحاجة وقال بعض الشعرا
في معني ذلك ٥ اذا هبت رياحك فاغتنمها فان لكل عاصفة سكون
ولا تغفل عن الاحسان فيها فما تدري السكون متي يكون
وحكي ان بعض زوار ابي العباس مطل راغبا اليه في عمل يستكفيه اياه
فكتب اليه بعد طول المطل به هذه الابيات
اما يدعوك طول الصبر مني الي استيناف منفعتي وشغلي
وعلمك ان ذا السلطان غاد علي خطرين من موت وعزل
وانك ان تركت قضا حقي الي وقت التفرغ والتخلي
ستصبح نادما اسفا حقيرا علي فوت الصنيعة عند مثلي ٥ وكتب
بعض ذوي الحجاب الي وال قصر في رعاية حرمته هذين البيتين في شرح
حاله اعلي الصراط تريد رعية حرمتي ام في الحساب تمن بالانعام
للنفع في الدنيا اريد فانتبه لحوايجي من رقدة النوام
وكتب ابو علي البصير الي بعض الوزرا وقد اعتذر اليه بكثرة الاشغال
هذين البيتين ٥ لنا كل يوم نوبة قد تنوبنا وليس لنا رزق ولا عند نا فضل
فان تعتذر بالشغل عنا فانما تناط بك الامال ما اتصل الشغل
واعلم ان للمعروف شروطا لا يتم الا بها ولا يكمل الا معها فمن ذلك ستره عن
اذاعة يستطيل لها واخفاوه من اشاعة يستذل بها فقد قال بعض الحكما
اذا اصطنعت المعروف فاستره واذا اصطنع اليك فانشره وقال
دعبل الخزاعي في هذا المعني
اذا انتقموا اعلنوا امرهم وان انعموا انعموا باكتتام
يقوم القعود اذا اقبلوا وتقعد هيبتهم بالقيام ٥ علي ان ستر
المعروف من اقوي اسباب ظهوره وابلغ دواعي نشره لما جبلت عليه
النفوس من اظهار ما اخفي واعلان ما كتم وقد قال سهل بن هارون
هذين البيتين في هذا المعني وهما
خل اذا جيته يوما لتسله اعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا

يخفي صنايعه والله يظهرها ان الجميل اذا اخفيته ظهرا ● ومن
شروط المعروف تصغيره عن ان تراه مستكبرا وتقليله عن ان يكون مستكثرا
ليلا يصير مذلا بطرا او مستطيلا اشرا قال العباس بن عبد المطلب لا
يتم المعروف الا بثلاث خصال تعجيله وتصغيره وستره فاذا عجلته هنيته
واذا صغرته عظمته واذا سترته اتممته وقال بعض الشعرا
هذين البيتين في ذلك
زاد معروفك عندي عظما انه عندك مستور حقير
وتناسيت كان لم تاته وهو عند الناس مشهور خطير ● ومن شروط
المعروف مجانبة الامتنان به وترك الاعجاب بفعله لما فيهما من هدم
الصنيعة وتعطيل الشكر ومحق الاجر قال النبي صلى الله عليه وسلم اياكم
والامتنان بالمعروف فانه يبطل الشكر ويمحق الاجر ثم تلا لا تبطلوا صدقاتكم
بالمن والاذى وسمع ابن سيرين رجلا يقول لرجل فعلت اليك وفعلت فقال
ابن سيرين اسكت فلا خير في المعروف اذا احصي وقال بعض الحكما المن
مفسدة الصنيعة وقال بعض الادبا كدر معروفا امتنان وضيع حسنا
امتهان وقال بعض البلغا من من بمعروفه سقط شكره ومن اعجب بعمله حبط
اجره وقال بعض الفصحا قوة المنن من ضعف المنن وقال بعض الشعرا
افسدت بالمن ما اسديت من حسن ليس الكريم اذا اسدى بمنان ● وقال
ابو نواس لا تحملن لمن يمن من الانام عليك منه ● واختر لنفسك حظها واصبر
فان الصبر جنه ● منن الرجال على القلوب اشد من وقع الاسنه ● ومن
شروط المعروف ان لا يحتقر منه شيا وان قليلا نزرا اذا كان الكثير
معوزا وكنت عنه عاجزا فان من حقر يسيره منعه العجز كثيره فاتسع عنه
وفعل قليل الخير اكثر من تركه وقال صلى الله عليه وسلم لا تمنعن من
معروف صغيره وقال عبد الله بن جعفر لا يستحي من القليل فان البخل
اقل منه ولا تجبن عن الكثير فانك اكثر منه وقال الشاعر
افعل الخير ما استطعت وان كان يسيرا فلن تحيط بكله

ومتى تفعل الكثير من الخير اذا كنت تاركا لاقله ● على ان المعروف
ما لا كلفة على موليه ولا مشقة على مسديه وانما هو جاه يبسط به
الادنى ويرتفق به التابع وقال الشاعر هذا البيت في هذا المعنى
● طل الغني ينفع من دونه وماله في طله حظ ●
واعلم انك لن تستطيع ان توسع جميع الناس معروفك ولا ان توليهم
احسانك فاعتمد بذلك اهل الفضل منهم والحفاظ واقصد به ذوي
الرعاية والوداد ليكون معروفك فيهم ناميا وصنيعك لديهم زاكيا فقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا ينفع المعروف الا عند ذي
حسب ودين وقال صلى الله عليه وسلم اذا اراد الله تعالى بعبد
خيرا اجعل صنايعه في اهل الحفاظ وقال حسان بن ثابت هذين
البيتين في هذا المعنى
ان الصنيعة لا تكون صنيعة حتى يصاب بها طريق المصنع
فاذا صنعت صنيعة فاعمل بها لله او لذوي القرابة او دع ● وقيل
في منثور الحكم لا خير في معروف الى غير عروف وقد ضرب به الشاعر مثلا
فقال كحمار السوء ان اشبعته رمح الناس وان جاع نهق ● وقال بعض الحكما
على قدر المغارس يكون اجتنا الغارس واخذه بعض الشعرا فقال
لعمرك ما المعروف في غير اهله وفي اهله الا كبعض الودايع ●
فمستودع ضاع الذي كان عنده ومستودع ما عنده غير ضايع
● ومزرعة طابت واضعف نبتها ومزرعة اكدت على كل زارع ● فاما من
اسدي اليه المعروف واصطنع اليه الاحسان فقد صار باسر المعروف موثوقا
وفي ملكة الاحسان مربوبا ولزمه ان كان من اهل المكافاه ان يكافي عليها
فان لم يكن من اهلها ان يقابل المعروف بنشره ويقابل الفاعل بشكره روي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اودع معروفا فلينشره فان نشره فقد شكره
وان كتمه فقد كفره وروي الزهري عن عروة عن عايشه رضي الله تعالى عنها
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه دخل عليها وهي تتمثل بهذين البيتين ● ●

ارفع ضعيفك لا يحربك ضعفه يوما فيدركه الحوادث قد نما
يجزيك او يثني عليك وان من اثني عليك بما فعلت فقد جزا
فقال النبي صلى الله عليه وسلم ردي على قول اليهودي قاتله الله لقد اتاني جبريل برساله من ربي تعالى ايما عبد صنع لاخيه صنيعة فلم يجد له جزا الا الدعا والثنا فقد كافاه وقيل في منثور الحكم الشكر قيد النعم قال عبد الحميد من لم يشكر الانعام فاعدده من الانعام وقيل في منثور الحكم قيمة كل نعمة شكرها وقال بعض الحكما كفر النعم من امارات البطر واسباب الغير وقال بعض الفصحا الكريم شكور او مشكور واللييم كفور او ملوم وقال بعض البلغا لا زوال للنعمة مع الشكر ولا بقا لها مع الكفر وقال بعض الادبا شكر الاله بطول الثنا وشكر الولاة بصدق الولا وشكر بحسن الجزا وشكر من دونك بسبب العطا وقال بعض الشعرا هذين البيتين في هذا المعنى

فلو كان يستغني عن الشكر ماجد لعزة قدر او علو مكان
لما امر الله العباد بشكره فقال اشكروا لي ايها الثقلان

فان شكر معروف من احسن اليه ونشر او فضال من انعم عليه فقد ادى حق النعمة وقضى موجب الصنيعة ولم يبق عليه الا استدامة ذلك ائتما ما للشكر ليكون للمزيد مستحقا ولمتابعة الاحسان مستوجبا حكى ان الحجاج بن يوسف اتي بقوم من الخوارج وكان فيهم صديق له فامر بقتلهم الا ذلك الصديق فانه عفا عنه واطلقه ووصله فرجع الرجل الى القطري وكان من اصحابه فقال له عد الى قتال عدو الله الحجاج فقال هيهات غل يدا مطلقها واسترق رقبة معتقها وانشا يقول

اقاتل الحجاج في سلطانه بيد تقر بانها مولاته
اني اذا لاخا الدناه والذي شهدت باقبح فعله غدراته
ماذا اقول اذا مررت ازاه في الصف واحتجت له فعلاته
اقول جار علي لا اني اذا لاخو من جارت عليه ولاته

وتحدث

وتحدث الاقوام ان صنايعا غرست لديك فحنظلت نخلاته
وقيل في منثور الحكم المعروف رق والمكافاه عتق ومن اشكر الناس الذي يقول

لا اشكرنك معروفا هممت به ان اهتمامك بالمعروف معروف
ولا الومك ان لم يمضه قدر فالشي بالقدر المصروف مصروف

وهذا النوع من الشكر في وصول بره وابتدا عرفه ولا ارى لمن حسن به ظن شاكر ان يخلف حسن ظنه فيه فيكون كما قال الغساني في هذا المعنى

قد اورقت فيك امالي بوعدك لي وليس يورق الامال لي ثمره

وقد يكون تارة من فرط شكر الراجي وحسن مكافاه الامل فلا يرضى لنفسه الا بتعجيل الحق واسلاف الشكر وليس لمن صادف لمعروفه معدنا زاكيا ومغرسا ناميا ان يعوق نفسه غنما ولا يحرمها ربحا فهذا وجه ثان وقد يكون تارة اذنها للمامول وحبا للمسول وحسب ما اسلف من الشكر يكون الذم عند الاياس قال بعض الحكما المتقدمين من شكرك على معروف لم تسده اليه فعاجله بالبر والا انعكس فصار ذما وقال ابن الرومي الشاعر هذه الابيات في معنى ذلك وهي هذه

وما الحقد الا توام الشكر في الفتا وبعض السجايا ينتسبن الى بعض
فحيث ترى حقدا على ذي اساة فثم ترى شكرا على حسن القرض
اذا الارض ادت ريع ما انت زارع من البذر فيها فهي ناهيك من ارض

فاما من ستر معروف النعم ولم يشكر على ما اولي من نعم فقد كفر النعمة وجحد الصنيعة واتى من ذم الخلايق وسو الطرايق بما يستوجب قبح الرد وسوء المنع وقد روى ابو هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا يشكر الله من لا يشكر الناس وقال بعض الادبا من لم يشكر لمنعمه استحق قطع النعم وقال بعض الفصحا من كفر نعم المفيد استوجب حرمان المزيد وقال بعض البلغا من انكر الصنيعة استوجب قبح القطيعة وانشدني بعض الادبا ما ذكر انه لعلي بن ابي طالب كرم الله تعالى وجهه ورضي عنه وهو هذه الابيات في هذا المعنى

من جاور النعمة بالشكر لم يخش على النعمة مغتالها
لو شكروا النعمة دامت لهم مقالة الله التي قالها
لئن شكرتم لازيدنكم لكنما كفرهم غالها
والكفر بالنعمة يدعو الى زوالها والشكر ابقى لها

وفصل في المكاسب واما القاعدة الثالثة وهي المادة الكافية لان
حاجة الانسان لازمة لا يعرى منها بشر قال الله تعالى وما جعلناهم جسدا
لا ياكلون الطعام وما كانوا خالدين فاذا عدم المادة التي هي قوام نفسه
لم تدم له حياة ولم تستقم له دنيا واذا تعذر شيء منها عليه لحقه من الوهن
في نفسه والاختلال في دنياه بقدر ما تعذر من المادة عليه لان الشيء
القائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله ثم لما كانت المواد مطلوبة لحاجة
الكافة اليها اعوزت بغير طلب وعدمت بغير سبب واسباب المواد مختلفة
وجهات المكاسب متشعبة ليكون اختلاف اسبابها علة للائتلاف بها
وتشعب جهاتها توسعة لطلابها كيلا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتيموا
او يشتركوا في جهة واحدة فلا يكتفوا ثم هداهم اليها بعقولهم وارشدهم اليها
بطباعهم حتى لا يتكلفوا ابتلاءهم في المعايش المختلفة فيعجزوا ولا يعانوا
بتقدير موادهم المكاسب المتشعبة فيتحلوا حكمة منه سبحانه وتعالى اطلعها
على عواقب الامور وقد انبا في كتابه بقول من اخبر عنه في قوله تعالى الذي
اعطى كل شيء خلقه ثم هدى فاختلف المفسرون في تاويل ذلك فقال
قتادة اعطى كل شيء ما يصلحه ثم هداه له وقال مجاهد اعطى كل شيء صورته
ثم هداه لمعيشته وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنه اعطى كل شيء زوجه
ثم هداه لنكاحه وقال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا يعني معايشهم
متى يزرعون ومتى يغرسون وهم عن الاخرة هم غافلون وقال تعالى وقدر
فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين قال عكرمة قدر في كل بلدة منها
ما لم يجعله في الاخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد الى بلد وقال
الحسن البصري رضي الله تعالى عنه وعبد الرحمن بن زيد قدر ارزاق

اهلها

زادتهم

اهلها سواء للسائلين الزيادة في ارزاقهم واقواتهم ثم ان الله تعالى جعل لهم
مع ما هداهم اليه من مكاسبهم وارشدهم اليه من معايشهم دينا يكون لهم
حكما وشرعا يكون عليهم قيما ليصلوا الى موادهم بتقدير ويطلبوا اسباب
مكاسبهم بتدبير حتى لا ينفردوا بارائهم فيتغالبوا ويستولى عليهم اهواؤهم
فيتقاطعوا قال الله تعالى ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض
ومن فيهن قال المفسرون الحق في هذا الموضع هو الله سبحانه وتعالى فلاجل
ذلك لم يجعل المواد مطلوبة بالالهام حتى جعل العقل هاديا اليها والدين قاضيا
عليها لتتم السعادة وتعم المصلحة ثم انه جلت قدرته جعل سد حاجتهم وتوصلهم
الى منافعهم من وجهين مادة وكسب اما المادة فهي حادثة عن اقتناء اصول
نامية بذواتها وهي شيئان نبت نام وحيوان متناسل قال الله تعالى وانه
هو اغنى واقنى قال ابو صالح اغنى خلقه بالمال واقنى جعل لهم قنية هي اصول
الاموال واما الكسب فيكون بالافعال الموصلة الى المادة والتصرف المؤدي
الى الحاجة وذلك من وجهين احدهما تقلب في تجارة والثاني تصرف في صناعة
وهذان الوجهان هما فرع لوجهي المادة فصارت اسباب المواد المالوفة وجهات
المكاسب المعروفة من اربعة اوجه نماء زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة
وكسب صناعة وقد حكى الحسن بن رجاء نحو ذلك عن المامون رحمه الله تعالى
قال سمعته يقول معايش الناس على اربعة اقسام زراعة وصناعة وتجارة
وامارة فمن خرج عنها كان كلا عليها واذ قد تقررت اسباب المواد فما دلنا
نستصف حال كل واحد منها بقول موجز فاما الاول من اسبابها وهو
الزراعة فهي مادة اهل الحضر وسكان الامصار والمدن والاستمداد بها
اعم نفعا واوفر فرعا ولذلك ضرب الله تعالى بها المثل فقال مثل الذين ينفقون
اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة
والله يضاعف لمن يشاء وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عين
ساهرة لعين نائمة وقال صلى الله عليه وسلم نعم العمة لكم النخلة تشرب
من عين خرارة وتغرس في ارض خوارة وقال صلى الله عليه وسلم في النخل

موادهم

هن الراسخات في الوحل المطعمات في المحل وقال بعض السلف خير المال
عين خرارة في ارض خوارة تسهر اذا نمت وتشهد اذا غبت وتكون
عقبى اذا مت وروى هشام بن عروة عن ابيه عن عايشة رضي الله عنها
قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم التمسوا الرزق في خبايا الارض
يعني الزرع وقال المعتضد رايت عليا رضي الله تعالى عنه في المنام فناولني
مسحاة وقال لي خذها فانها مفاتيح خزاين الارض وقال كسرى للموبذ
ما قيمة تاجي هذا فاطرق ساعة ثم قال ما اعرف له قيمة الا ان يكون مطر
نيسان فانه يصلح من معايش الرعية ما يكون قيمته مثل مقدار تاج الملك
ولقي عبد الله بن عبد الملك ابن شهاب الزهري فقال له دلني على مال اعالجه
فانشا ابن شهاب يقول هذين البيتين في معنى ذلك ٥ ٥ ٥
تتبع خبايا الارض وادع مليكها لعلك يوما ان تجاب فترزقا
فيؤتيك مالا واسعا ذا مثابة اذا ما مياه الارض قلت تدفقا ٥ وقد اختلف
الناس في تفضيل الزرع والشجر بما ليس يتسع كتابنا هذا لبسط القول
فيه غير ان من فضل الزرع فلقرب مداه ووفور جدواه ومن فضل الشجر
فلثبوت اصله وتوالي ثمره واما الثاني من اسبابها وهو نتاج الحيوان
فهو مادة اهل الفلوات وسكان الخيام لانهم لما لم يستقر بهم دار ولم تضمهم
امصار افتقروا الى الاموال المنتقلة معهم وما لا ينقطع نماه بالظعن والرحلة
فاقتنوا الحيوان لانه يستقل في النقلة بنفسه ويستغني في العلوفة برعيه
ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتناوه على اهل الخيام ايسر لقلة مونته وتسهيل
الكلفة به وكانت جدواه عليهم اكثر لوفور نسله واقتنات رسله الهاما من الله
تعالى لخلقه في تعديل المصالح فيهم وارشادا لعباده في قسمة المنافع بينهم ٥
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير المال مهرة مامورة او سكة
مابورة معنى قوله صلى الله عليه وسلم مهرة مامورة اي كثيرة النسل ومنه
ما تاول الحسن وقتادة قوله تعالى امرنا مترفيها ففسقوا فيها اي اكثرنا عددهم
واما السكة المابورة فهي النخل الموقرة الحمل وروي عن النبي صلى الله عليه

وسلم انه قال في الغنم سمنها معاش وصوفها رياش وروي عن ابي ظبيان
قال قال لي عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ما مالك يا ابا ظبيان
قال قلت عطاي الفان قال اتخذ هذا الحرث والسابيا قبل ان يليك
غلمة من قريش لا تعد العطا معهم مالا اتخذت غنما ابتغي نسلها ورسلها
وانها لا تنمي فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم ما الوانها قالت سود فقال
عفري وهذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم في مناكح الادميين اغتربوا
لا تضووا واما الثالث من اسبابها وهو التجارة فهي فرع لمادتي الزرع
والنتاج وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تسعة اعشار
الرزق في التجارة والجزء الباقي في السابيا وهي نوعان تقلب في الحضر
من غير نقلة ولا سفر وهذا تربص واحتكار وقد رغب عنه اولوا الاقدار
وزهد فيه ذووا الاخطار والثاني تقلب المال بالاسفار ونقله الى الامصار
فهذا اليق باهل المروة واعم جدوى ومنفعة غير انه اكثر خطرا واعظم
غررا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان المسافر
وماله لعلى قلت الا ما وقى الله تعالى يعني على خطر وقيل في التوراة يا ابن
ادم احدث سفرا احدث لك رزقا واما الرابع من اسبابها وهو الصناعة
فقد تتعلق بما مضى من الاسباب الثلاثة وتنقسم اقساما ثلاثة صناعة
فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين فكر وعمل لان الناس الاذ للصناعات
فاشرفهم نفسا متهيئ لاشرفها جنسا كما ان ارذلهم نفسا متهيئ لارذلها
جنسا لان الطبع يبعث على ما لاومه وينزعوا الى ما جانسه حكي ان الاسكندر
لما اراد الخروج الى اقاصي الارض قال لارسطاطاليس اخرج معي قال
قد نحل جسمي وضعف عن الحركة فلا تزعجني قال فما اصنع في عمالي خاصة قال
انظر من كان له عبيد فاحسن سياستهم فوله الجند ومن كانت له
ضيعة فاحسن تدبيرها فوله الخراج فنبهه باعتبار الطبع على ما اغناه
عن طلب التجربة واشرف الصناعات صناعة الفكر وارذلها صناعة
العمل لان العمل نتيجة الفكر وهو مدبره واما صناعة الفكر فقد تنقسم

القلت الهلاك

قسمين احدهما ما دفع عن التدبيرات الصادرة عن نتاج الارا الصحيحة
كسياسة الناس وتدبير البلاد وقد افردنا للسياسة كتابا خصصنا
فيه من جملها ما ليس يحتمل هذا الكتاب زيادة عليها والثاني ما دفع
المعلومات الحادثة عن الافكار النظرية وقد مضي في العلم من كتابنا هذا
باب اغني ما فيه عن زيادة قول فيه واما صناعة العمل فقد تنقسم قسمين
عمل صناعي وعمل بدني فالعمل الصناعي اعلاها رتبة لانه يحتاج الي
معاطاة في تعلمه ومعاناة في تصوره فصار اخذا بنسبة من المعلومات
الفكرية والاخر فاما هو صناعة لدوا له مهنة وهي الصناعة التي تعتمر
عليها النفوس الرذله وتقف عليها الطباع السو اجاسيه كما قال
المتم بن صيفي لكل ساقطة لاقطة وقال المتلمس ولا يقيم علي خسف يسام
به الا الاذلان عير السو والوتد هذا علي الخسف مربوط برمته وذا يشج
فلا ياوي له احد واما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد ينقسم
قسمين ايضا احدهما ان تكون صناعة الفكر اغلب والعمل تبعا كالكتابة
والثاني ان يكون صناعة العمل اغلب والفكر تبعا لها كالبنا فاعلاهما رتبة
ما كان صناعة الفكر اغلب عليها والعمل تبعا لها وهذه احوال الخلق التي
ركبهم الله تعالي عليها في ارتياد موادهم ووكلهم الي فطرهم في طلب الكسا
وفرق بين هممهم في التماسها ليكون ذلك سببا لالفتهم فسبحان من تفرد
فينا بلطيف حكمته واظهر لفطننا غرايب قدرته واذ قد وضح القول في اسبا
المواد وجهات المكاسب فليس يخلو حال الانسان فيها من ثلاثة امور
احدها ان يطلب قدر كفايته ويلتمس قوت حاجته من غير ان يتعدي
الي زيادة عليها او يقتصر علي نقصان منها وهذه احد احوال الطالبين
واعدل مراتب المقتصدين وقد روي قتادة عن رسول الله صلي الله
عليه وسلم انه قال اوحي الله الي كلمات فدخلن في اذني ووقرن
في قلبي من اعطي فضل ماله فهو خير له ومن امسك فهو شر له ولا يلام الله
علي كفاف وروي حميد عن معاوية بن حيدة قال قلت يا رسول الله ما يكفيني

لسياسة النفس

الاهل

ريح

من الدنيا قال

من الدنيا قال ما سد جوعتك وستر عورتك فان كان دار فذاك
وان كان حمار فبخ بخ فلق من خبز وجر من ما وانت مسؤل عما فوق الازار
وقد حكي عن ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد في قوله تعالي اذ جعل
فيكم انبيا وجعلكم ملوكا ان كل من ملك بيتا وزوجة وخادما فهو ملك
وروي زيد بن اسلم رضي الله تعالي عنه قال قال رسول الله صلي الله
عليه وسلم من كان له بيت وخادم فهو ملك وهو في المعني صحيح لانه
بالزوجة والخادم مطاع في امره وفي الدار محجوب الا عن اذنه وليس
علي من طلب قدر الكفاية ولم يتجاوز تبعات الزيادة الا توخي الحلال
منه واجمال الطلب فيه ومجانبة الشبهة الممازجة له فقد روي
نافع عن ابن عمر رضي الله تعالي عنهم اجمعين قال قال رسول الله صلي
الله عليه وسلم الحلال بين والحرام بين فدع ما يريبك الا ما لا يريبك
فلن تجد فقد شي تركته لله تعالي وسيل رسول الله صلي الله عليه
وسلم عن الزهد فقال اما انه ليس باضاعة المال ولا تحريم الحلال
ولكن ان تكون بما بيد الله اوثق منك بما في يدك وان يكون ثواب المصيبة
ارجح عندك من بقايها وقال ابن المبارك رحمه الله تعالي كتب عمر بن عبد
العزيز
رضي الله تعالي عنه الي الجراح بن عبد الله الحكمي ان استطعت ان تدع
مما احل الله لك ما يكون حاجزا بينك وبين الحرام فافعل فانه من استوعب
الحلال كله تاقت نفسه الي الحرام وقد اختلف اهل التاويل في قوله تعالي
فان له معيشة ضنكا فقال عكرمة يعني كسبا حراما وقال ابن عباس
رضي الله تعالي عنه هو انفاق من لا يوقن بالخلف وقال يحيي بن معاذ
رضي الله تعالي عنه الدرهم عقرب فان احسنت رقيتها والا فلا تاخذها
وقيل من قل توقيه كثرت مساويه وقال بعض البلغا خير الاموال
ما اخذته من الحلال وصرفته في النوال وشر الاموال ما اخذته
من الحرام وصرفته في الاثام وكان الاوزاعي الفقيه رحمه الله تعالي
يتمثل كثيرا بهذه الابيات

المال يفقد حله وحرامه يوما ويبقى بعده آثامه
ليس التقي بمتق لإلهه حتى يطيب شرابه وطعامه
ويطيب ما يجني ويكسب اهله ويطيب من لفظ الحديث كلامه

حكي عن ابن مغنم السلمي انه قال الناس ثلاثة اصناف اغنيا وفقرا واوساط فالفقرا موتى الا من اغناه الله تعالى بعز القناعة والاغنيا سكارى الا من عصمه الله تعالى بتوقع الغير واكثر الخير مع اكثر الاوساط واكثر الشر مع اكثر الفقرا والاغنيا لسخف الفقر وبطر الغنى والحال الثانية ان يقصر عن طلب كفايته ويزهد في التماس مادته وهذا الحال قد يكون على ثلاثة اوجه فيكون تارة كسلا وتارة توكلا وتارة زهدا وتقنعا فان كان تقصيره لكسل فقد حرم ثروة النشاط ومسرة الاغتباط فلن يعدم ان يكون كلا مقصيا او ضائعا شقيا وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كاد الحسد يغلب القدر وكاد الفقر يكون كفرا وقال بزرجمهر ان كان شي فوق الحياة فالصحة وان كان شي مثلها فالغنى وان كان شي فوق الموت فالمرض وان كان شي مثله فالفقر وقيل في منثور الحكم القبر خير من الفقر ووجد في نيل مصر مكتوب على حجر عقبى الصبر نجاح وغنى وردى الفقر من نسج الكسل وقال بعض الشعرا

اعوذ بك اللهم من بطر الغنى ومن نكبة البلوى ومن ذلة الفقر
ومن امل عندي في كل شارق ويرجعني منه بحظ يد صفر
اذا لم تدنسني الذنوب بعارها فلست ابالي ما تشعث من امري

وان كان تقصيره لتوكل فذلك عجز قد اعذر به نفسه وترك حزم قد غير اسمه لان الله تعالى امر بالتوكل عند انقطاع الحيل والتسليم الى القضا بعد الاعذار وقد روى معمر عن ايوب عن ابي قلابة قال ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل فذكر فيه خير فقالوا يا رسول الله خرج معنا حاجا فكنا اذا نزلنا منزلا لم يزل يصلي حتى نرتحل فاذا ارتحلنا لم يزل يذكر الله تعالى حتى ينزل فقال صلى الله عليه وسلم فمن كان يكفيه علف ناقته

وصنيع

وصنيع طعامه قالوا كلنا يا رسول الله قال فكلكم خير منه وقال بعض الحكما ليس من توكل العبد المؤمن اضاعته للحزم ولا من الحزم اضاعة نصيبه من التوكل وان كان تقصيره لزهد وتقنع فهذه حالة من علم من نفسه تبعات الغنى والثروة وخاف عليها بوائق الهوى والقدرة فاثر الفقر على الغنى وزجر النفس عن ركوب الهوى وقد روى ابو الدردا رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم طلعت فيه شمسه الا وبجنبتيها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله تعالى كلهم الا الثقلين يا ايها الناس هلموا الى ربكم ان ما قل وكفى خير مما كثر والهى وروى زيد بن علي بن الحسين عن ابيه عن جده رضي الله تعالى عنهم اجمعين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظار الفرج من الله تعالى عبادة ومن رضي بالقليل من الرزق رضي الله تعالى عنه بالقليل من العمل وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه انه قال من فضل الفقر انك لا تجد احدا يعصي الله تعالى ليفتقر وانشد محمود الوراق فقال هذه الابيات في هذا المعنى وهي هذه

يا عائب الفقر الا تزدجر عيب الغنى اكثر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله على الغنى لو صح منك النظر
انك تعصي لتنال الغنى وليس تعصي الله كي تفتقر

وقال ابن المقفع رحمه الله تعالى هذين البيتين في معنى ذلك وهما هذان

دليلك ان الفقر خير من الغنى وان قليل المال خير من المثري
لقاؤك مخلوقا عصى الله بالغنى ولم تر مخلوقا عصى الله بالفقر

وهذه الحال انما تصح لمن نصح نفسه فاطاعته وصدقها فاجابته حتى لان قيادها وهان عنادها وعلم ان من لم يقتنع بالقليل لم يقتنع بالكثير كما كتب الحسن البصري الى عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنهما يا اخي من استغنى بالله اكتفى ومن انقطع الى غيره تعنى ومن كان من قليل الدنيا لا يشبع لم يغنه منها الكثير ما يجمع فعليك منها بالكفاف والزم

نفسك العفاف واياك وجمع الفضول فانه حسابه يطول وقال بعض
الحكما هيهات منك الغنا ان لم يقنعك ما حويت فاما من عزفت نفسه عن
قبول نصحه وجمحت به عن قناعة زهده فليس الي اكراهها سبيل ولا
الي الحمل عليها وجه الا بالرياضة والمرون وان يستنزلها عن اليسير
الذي لا ينفر منه فاذا استقرت عليه استنزلها الي ما هو اقل منه
لينتهي بالتدريج الي الغاية المطلوبة ويستقر بالرياضة والمرون علي
الحال المحبوبة فقد تقدم قول الحكما ان الكل يسهل بالمرون فهذا
حكم ما في الحال الثانية من التقصير عن طلب الكفاية واما الحال
الثالثة فهو ان يقنع بالكفاية ويطلب الزيادة والكثرة فقد يدعو الي
ذلك اربعة اشيا احدها منازعة الشهوات التي لا تنال الا بزيادة
المال وكثرة المادة فاذا نازعته الشهوة طلب من المال ما يوصله اليها
فليس للشهوات حد متناه فيصير ذلك ذريعة الي ما يطلبه من الزيادة
غير متناه ومن لم يتناه طلبه استدام كده وتعبه ومن استدام به الكد
والتعب لم يف التذاذه بنيل شهواته لما يعانيه من استدامة كده واتعابه
مع ما قد لزمه من ذم الانقياد لمغالبة الشهوات والتعرض لاكتساب
التبعات حتي يصير كالبهيمة التي قد انصرف طلبها الي ما تدعوا اليه
شهوتها فلا ينزجر عنه بعقل ولا تنفك منه بقناعة وقد روي علي بن ابي
طالب رضي الله تعالي عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم انه قال من اراد الله
به خيرا حال بينه وبين شهوته وهمته وبين قلبه واذا اراد الله به شرا
وكله الي نفسه وقال الشاعر ٥ ٥ ٥
واذا اعطيت بطنك همته ٥ وفرجك نالا منتهي الذم اجمعا ٥ والسبب
الثاني ان يطلب الزياده ويلتمس الكثرة ليصرفها في وجوه الخير ويتقرب
بها في جهات البر ويصطنع بها المعروف ويغيث بها الملهوف فهذا اعذر
وهو بالحمد احري واجدر اذا انصرفت عنه تبعات المطالب وتوقي ٥
شبهات المكاسب واحسن التدبير حالتي فايدته وافادته علي تقد

لتطرق بها من | بالكرم

الزمان وتعذر الامكان فان المال الة للمكارم وعون علي الدين ومتالف
للاخوان ومن فقده من ابنا الدنيا قلت الرغبة فيه والرهبة منه ولم
تكن منهم بموضع رهبه ولا رغبة استهان الناس به وقد روي عبد الله
ابن بريدة عن ابيه قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم ان احساب
اهل الدنيا هذا المال وقال مجاهد الخير في القران كله المال قوله تعالي
وانه لحب الخير لشديد يعني المال واحببت حب الخير عن ذكر ربي يعني المال
وقال تعالي فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا يعني مالا وقال شعيب عليه الصلاة
والسلام اني اراكم بخير يعني الغنا والمال وانما سمي الله تعالي المال خيرا
اذا كان في الخير مصروفا لان ما ادي الي الخير فهو في نفسه خير وقد
اختلف اهل التاويل في قوله تعالي ومنهم من يقول ربنا اتنا في الدنيا حسنة
وفي الاخره حسنة فقال السدي وعبد الرحمن بن زيد الحسنة في
الدنيا المال وفي الاخرة الجنة وقال عبد الله بن عباس رضي الله تعالي
عنه الدنانير والدراهم خواتيم الله في الارض لا تؤكل ولا تشرب حتي
تصيب منها فاذا اصبت منها قضيت حاجتك وقال قيس بن سعد
اللهم ارزقني حمدا ومجدا فانه لا حمد الا بفعال ولا مجد الا بمال وقيل
لابي الزناد لم تحب الدراهم وهي تدنيك من الدنيا قال هي وان ادنتني منها
فقد صانتني عنها وقال بعض الحكما من اصلح ماله فقد صان الاكرمين وهما
الدين والعرض وقيل في منثور الحكم من استغني كرم علي اهله ومر رجل
من ارباب الاموال ببعض الحكما فتحرك له واكرمه فقيل له بعد ذلك اكانت
لك اليه حاجة قال لا ولكن رايت ذا المال مهيبا وسال رجل محمد بن عمير
بن عطارد وعتاب بن ورقا في عشر ديات فقال محمد علي دية وقال
عتاب علي الباقي فقال محمد نعم العون اليسار علي المجد وكان يقال الدراهم
مراهم لانها تداوي كل جرح ويطيب بها كل ملح وقيل في منثور الحكم الفقر
مخذلة والغنا مجدلة والبوس مذلة والسوال مبذلة وقال الاحنف
ابن قيس
فلو مد سروي بمال كثير لجدت وكنت له باذلا ٥ فان المروة

يقال للحسن البصري وسفيان الثوري [illegible]

صح | مذله

لا تستطاع اذا لم يكن ما لها فاضلا ٥ وقال ابن الحلاج هذين البيتين في
هذا المعنى ٥ رزقت لبا ولم ارزق مروته وما المروة الا كثرة المال
اذا اردت مساماة تباعدني عما نوته باسمي رقة الحال

وقال اوس بن حجر

٥ اقيم بدار اكرم ما دام حزمها واحري اذا حالت بان اتحولا ٥
فاني وجدت الناس الا اقلهم خفاف العهود يكثرون التنقلا ٥
٥ بني ام ذي المال الكثير يرونه وان كان عبدا اسود اللون مجملا ٥
٥ وهم لمقل المال اولاد علة وان كان محضا في العشيرة مخولا ٥ وقال

ابو بشر الضرير

كفى حزنا اني اروح واغتدي وما لي من مال اصون به عرضي ٥
واكثر ما القى الصديق مرحبا وذلك لا يغني الصديق ولا يرضي ٥
وقال اخره اجلك قوم حين صرت الى الغنا وكل غني في العيون جليل ٥
وليس الغنا الا غنا زين الفتى عشية يقري او غداة ينيل ٥

وقد اختلف الناس في تفضيل الغنا والفقر مع اتفاقهم ان ما احوج من
الفقر مكروه وما ابطر من الغنا مذموم فذهب قوم الى تفضيل الغنا
على الفقر لان الغني مقتدر والفقير عاجز والقدرة افضل من العجز
وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة وذهب اخرون الى تفضيل
الفقر على الغنا لان الفقير تارك والغني ملابس وترك الدنيا افضل من ملابستها
وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة وذهب اخرون الى تفضيل
التوسط بين الامرين بان يخرج عن حد الفقر الى ادنى مراتب الغنا
ليصل الى فضيلة الامرين ويسلم من مذمة الحالين وهذا من يرى
تفضيل الاعتدال وان خيار الامور اوسطها وقد مضى من شواهد
كل طريق في موضعه ما اغنى عن اعادته والسبب الثالث ان يطلب
الزيادة ويقتني الاموال ليدخرها لولده ويخلفها على ورثته مع شدة
ضنه على نفسه وكفه عن صرف ذلك في حقه اشفاقا عليهم من كدح

الطلب

الطلب وسوء المنقلب فهذا شقي بجمعها ماخوذ بوزرها قد استحق اللوم واستوجب
الذم من وجوه لا تخفى على ذي لب منها سوء ظنه بخالقه في انه لا يرزقهم
الا من جهته وقد قيل القنوط صاحبه وفي حسن الظن بالله تعالى راحة
القلوب وقال عبد الحميد كيف تبقي على حالتك والدهر جاد في احالتك
ومنها الثقة ببقاء ذلك على ولده مع نوايب الزمان ومصايبه ومحنه وقد قيل
الدهر حسود لا ياتي على شيء الا غيره وقيل في منثور الحكم المال ملول
وقال بعض الحكما الدنيا ان بقيت لك لم تبق لها ومنها ما حرم من منافع
ماله وسلب من وفور حاله وقد قيل انما لك ما لك او للوارث او للجايحة
فلا تكن الاخير احسن الثلاثة اشقى الثلاثة اطرح كواذب اما لك ولن ورث
مالك ومنها ما لحقه من شقا جمعه وناله من عنا كده حتى صار ساعيا
محروما وجا هذا مذموما وقد قيل رب مغبوط بمسرة هي داوه ومرحوم
من سقم هو شفاوه وقال الشاعر

ومن كلفته النفس فوق كفافها فما ينقضي حتى الممات عناوه ٥ ومنها ما
يواخذ به من وزره واثامه ويحاسب به من تبعاته واجرامه كما حكي
ان هشام بن عبد الملك لما ثقل في مرضه بكى عليه ولده فقال لهم جاد لكم
هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكا وترك لكم ما كسب وتركتم عليه
ما اكتسب ما اسوا منقلب حال هشام ان لم يغفر الله له فاخذ هذا المعنى

محمود الوراق فقال ٥

٥ تمتع بمالك قبل الممات والا فلا مال ان انت متا ٥
٥ شقيت به ثم خلفته لغيرك بعدا وسحقا ومقتا ٥
٥ فجادوا عليك بزور البكا وجدت عليهم بما قد جمعتا ٥
٥ وارهنتهم كل ما في يديك وخلوك رهنا بما قد كسبتا ٥

وقد روي عن العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه انه جا الى النبي
صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ولني فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم يا عباس يا عم النبي قليل يكفيك خير من كثير يرديك يا عباس

يا عم النبي نفسٌ تحيها خير من امارةٍ لا تحصيها يا عباس يا عم النبي ان الامارة اولها ندامة واوسطها ملامه واخرها خزيٌ يوم القيامة فقال يا رسول الله الامن عدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف يعدلون مع الاقارب وقال رجل للحسن البصري رضي الله تعالى عنه اني اخاف الموت واكرهه فقال انك خلفت مالك ولو قدمته لسرك اللحاق به وقيل في منثور الحكم لتركة مال الميت تعزي ورثته عنه فاخذ هذا المعنى ابن الرومي الشاعر فقال في معنى ذلك وزاد عليه

بقيت مالك ميراثا لوارثه   فليت شعري ما بقى لك المال
القوم بعدك في حال تسرهم   فكيف بعدهم حالت بك الحال
ملوا البكا فلا يبكيك من احد   واستحكم القول في الميراث والقال
ولتهم عنك دنيا اقبلت لهم   وادبرت عنك والايام احوال

والسبب الرابع ان يجمع المال ويطلب المكاثرة استحلا لجمعه وشغفا باحتجانه فهذا اسوا الناس حالا فيه واشدهم حرمانا له وقد توجهت اليه سائر الملاوم حتى صار وبالا عليه ومذما لمعن مثله قال الله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة قال النبي صلى الله عليه وسلم تبا للذهب تبا للفضة قال فشق ذلك على اصحابه صلى الله عليه وسلم وقالوا فاي مال نتخذ فقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه انا اعلم لكم ذلك فقال يا رسول الله ان اصحابك قد شق عليهم وقالوا اي المال نتخذ فقال لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة مومنة تعين احدكم على دينه وروى شهر بن حوشب عن ابي امامة رضي الله تعالى عنه قال مات رجل من اهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال النبي صلى الله عليه وسلم كية ثم مات اخر فوجد في مئزره ديناران فقال النبي صلى الله عليه وسلم كيتان وانما ذكر ذلك فيهما وان كان قد مات على عهده من ترك اموالا جمة واحوالا ضخمة فلم يكن منهم فيهم ما كان في هذين لانهما تظاهرا بالقناعة واحتجبا ما ليس بهما حاجة اليه فصار ما احتجباه وزرا

ثم مات اخر فوجد في مئزره ديناران فقال صلى الله عليه وسلم كيتان

عليها

عليها وعقابا لهما وقد قال الشاعر هذين البيتين في ذلك المعنى وهما هذان

اذا انت ذا مال ولم تك ذا ندى   فانت اذا والمقترون سواء
على ان في الاموال يوما تباعة   على اهلها والمقترون براء

منفقا

وانشدت عن الربيع للشافعي رحمة الله تعالى عليه هذه الابيات في هذا المعنى وهي

ان الذي رزق اليسار فلم يصب   حمدا ولا اجرا لغير موفق
والجد يدني كل شيء شاسع   والجد يفتح كل باب مغلق
واحق خلق الله بالهم الذي   ذو همة يبلى بعيش ضيق
ومن الدليل على القضا وكونه   بوس اللبيب وطيب عيش الاحمق

الاخرق

وانه من بلي بالجمع والاستكثار ومني بالامساك والادخار حتى انصرف عن رشده بغوي وانحرف عن سنن قصده بهوى ان يستولي عليه حب المال وبعد الامل فيبعثه حب المال على الحرص في طلبه ويدعوه بعد الامل على الشح به والحرص والشح اصلا كل ذم وسببا كل لوم لان الشح يمنع من ادا الحقوق ويبعث على القطيعة والعقوق ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم شر ما اعطي العبد شح هالع وجبن خالع وقال بعض الحكما الغني البخيل كالقوي الجبان واما الحرص فيسلب فضايل النفس لاستيلائه عليها ويمنع من التوفر على العبادة لتشاغله عنها ويبعث على التورط في الشبهات لقلة تحرزه منها وهذه ثلاث خلال هن جامعات الرذايل وسالبات الفضايل مع ان الحريص لا يستزيد بحرصه زيادة على رزقه سوى اذلال نفسه واسخاط خالقه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الحريص الجاهد والمقتنع الزاهد يستوفيان رزقهما غير منتقص منه شيئا فعلام التهافت في النار وقال بعض الحكما الحرص مفسدة للدين والمروة والله ما عرفت من وصف رجل حرصا فرايت ان فيه مصطنعا وقال اخر الحريص اسير مهانة لا يفك اسره وقال بعض البلغا المقادير الغالبة لا تنال بالمغالبة والارزاق المكتوبة لا تنال بالشدة والمطالبة

اجلهما

وجه

المطالبه

فذلل للمقادير نفسك واعلم بانك غير نائل بالحرص الا حظك وقال بعض
الادبا حظ ادركه غير طالبه ودر احرزه غير جالبه وانشدني بعض اهل
الادب لمحمد بن حازم هذين البيتين في هذا المعنى

يا اسير الطمع الكاذب في غل الهوان ٥ ان عز الياس خير لك من ذل الاماني
سامح الدهر اذا عز وخذ صفو الزمان ٥ ربما اعدم ذو الحرص واجدى ذو التواني

وليس للحريص غاية مقصودة يقف عندها ولا نهاية محدودة يقنع بها لانه
ان وصل بالحرص الى امل اغراه ذلك بزيادة الحرص والامل وان لم يصل
راي اضاعة العنا لوما والصبر عليه حزما وصار لما اسلف من رجائه
اقوى نفسا وابسط املا روي عن النبي صلى الله عليه وسلم يشيب ابن ادم
وتبقى منه خصلتان الحرص والامل وقيل للمسيح عليه الصلاة والسلام
ما بال المشايخ احرص على الدنيا من الشباب قال لانهم ذاقوا من طعم
الدنيا ما لم يذقه الشباب ولو صدق الحريص نفسه واستنصح عقله لعلم
ان من تمام السعادة وحسن التوفيق الرضا بالقضا والقناعة بالقسم
وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اقتصدوا في الطلب فان
ما رزقتموه اشد طلبا لكم منكم له وما حرمتموه فلن تنالوه ولو حرصتم
وروي ان جبريل عليه السلام هبط على النبي صلى الله عليه وسلم فقال
الله تعالى يقرا عليك السلام ويقول لك اقرا بسم الله الرحمن الرحيم لا
تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم
فيه ورزق ربك خير وابقى فامر النبي صلى الله عليه وسلم مناديا فنادى
من لم يتادب باداب الله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات
وقيل مكتوب في بعض الكتب ردوا ابصاركم عليكم فان لكم فيها شغلا
وقال مجاهد في تاويل قوله تعالى فلنحيينه حياة طيبة قال بالقناعة
وقال اكثم بن صيفي من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنا والثروة وقال
بعض السلف قد يخيب الجاهد الساعي ويظفر الوادع الهادي فاخذه

البحتري فقال

لم الق معتمدا على استحقاقه في الحظ اما ناقصا او زائدا

وعجبت للمكدود يحرم ناصبا ٥ وعجبت للمجدود يغنم قاعدا
ما خط من حزم الارادة وادعى ٥ حظ الذي عدم الارادة جاهلا

وقال بعض الحكما من قنع كان غنيا وان كان مقترا ومن لم يقنع كان
فقيرا وان كان مكثرا وقال بعض البلغا اذا طلبت العز فاطلبه بالطاعة
واذا طلبت الغنا فاطلبه بالقناعة فمن اطاع الله عز نصره ومن لزم القناعة
زال فقره وقال بعض الادبا القناعة عز المعسر والصدقة حرز الموسر

وقال بعض الشعرا

اني ارى من له قنوع يدركه ما نال او تمنى والرزق ياتي بلا عنا وربما فات
من تعنى

والقناعة تكون على ثلاثة اقسام اوجه فالوجه الاول ان يقنع بالبلغة
من دنياه ويصرف عن نفسه التعرض لما سواه وهذا اعلى منازل اهل القناعة
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا شئت ان تحيى غنيا
فلا تكن في حالة الا رضيت بما دونها وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى
ازهد الناس من لم تتجاوز رغبته من الدنيا بلغته وقال بعض الحكما
الرضا بالكفاف يودي الى العفاف وقال بعض الادبا دب ضيق افضل
من سعة وعنا خير من دعة وانشدني بعض اهل الادب وذكروا انه

لعلي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه

افادتني القناعة اي عز ٥ واي غنا اعز من القناعة
فصيرها لنفسك راس مال ٥ وصير بعدها التقوى بضاعة
تحز ربحين عزا بعد ذل ٥ وتنعم في الجنان بصبر ساعة

والوجه الثاني ان تنتهي به القناعة الى الكفاف ويحذف الفضول الزائدة
وهذا اوسط احوال المقتنع روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
ما من عبد الا بينه وبين رزقه حجاب فان قنع واقتصد اتاه رزقه وان
هتك الحجاب لم يزد في رزقه وقال بعض الحكما طلب ما فوق الكفاف
اسراف وقال بعض البلغا من رضي بالمقدور قنع بالميسور وقال البحتري

مَطلبُ الاكثر في الدنيا وقد تبلغ الحاجة منها بالاقلِ ٥
٥ وانشد لابرهيم بن المدبر ٥
ان القناعة والعفاف ليبعثان على الغنى ٥
فاذا صبرت عن الغنى فاشكر فقد نلت المنى ٥

والوجه الثالث ان تنتهي به القناعة الى التوقف على ما سنح فلا يكره ما اتاه وان كان كثيرًا ولا يطلب ما تعذر وان كان يسيرًا وهذه الحال ادنى كل مكان وباقٍ ذكره على ايام الزمان وقيل شبه العالم الشريف العديم الادب بالبنيان الخراب الذي كل ما علا سمكه كان اشد لوحشته وبالنهر اليابس الذي كل ما كان اعرض واعمق كان اشد لوعورته وبالارض الجديبة المعطلة التي كل ما طال خرابها ازداد نباتها غير المنتفع به التفافًا وصار للهوام مسكنًا وقال ابن المقفع ما نحن الى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب باحوج منا الى الادب الذي هو لقاح عقولنا فان الحبة المدفونة في الثرى لا تقدر ان تطلع زهرتها ونضارتها الا بالما الذي يعود اليها من مستودعها وحكى الاصمعي ان اعرابيًا قال لابنه يا بني الادب دعامة ايد الله تعالى بها الالباب وحلية زين الله بها عواطل الاحساب فالعاقل لا يستغني وان صحت غريزته عن الادب المخرج زهرته كما لا تستغني الارض وان عذبت تربتها عن الما المخرج ثمرتها وقال حكيم الادب صورة العقل فصور عقلك كيف شئت وقال اخر العقل بلا ادب كالشجر العاقر ومع الادب كالشجر المثمر وقيل الادب احد المتصدين وقال بعض البلغا الفضل بالعقل والادب لا بالاصل والنسب لان من سا ادبه ضاع نسبه ومن قل عقله ضاع اصله وقال بعض الادبا ذك قلبك بالادب كما تذكي النار بالحطب فاتخذ الادب غنمًا والحرص عليه حتمًا يرتجيك راغب وتخف صولتك راهب ويؤمل نفعك ويرتجى عدلك وقال بعض العلما الادب وسيلة الى كل فضيلة وذريعة الى كل شريعة وقال بعض الفصحا حسن الادب يستر قبيح النسب وقال بعض الشعرا

ما خلق الله مثل العقول ولا اكتسب الناس مثل الادب ٥
وما كرم المر الا التقى ولا حسب المر الا النسب ٥
وفي العلم زين لاهل الحجا وافة ذي العلم طيش الغضب ٥
وانشد الاصمعي
ان يكن العقل مولودًا فلست ارى ذا العقل مستغنيا عن حادث الادب
اني رايتهما كالما مختلطا بالترب تظهر عنه زهرة العشب
وكل من اخطاته في موالده غريزة العقل حاكى البهم في النسب

والتادب يلزم من وجهين احدهما ما لزم الوالد للولد في صغره والثاني ما لزم الانسان في نفسه عند كبره ونشوه فاما التادب اللازم للاب فهو ان ياخذ ولده بمبادي الاداب ليانس بها وينشا عليها فيسهل عليه قبولها عند الكبر لاستينا سه بمباديها في الصغر لان نشو الصغير على الشي يجعله متطبعًا به ومن اغفل في الصغر كان تاديبه في الكبر عسيرًا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما نحل والد ولده نحلة افضل من ادب حسن يفيده اياه او جهل قبيح يكفه عنه ويمنعه منه وقال بعض الحكما بادروا بتادب الاطفال قبل تراكم الاشغال وتفرق البال وقال بعض الشعرا
ان الغصون اذا قومتها اعتدلت ولا يلين اذا قومته الخشب
قد ينفع الادب الاحداث في مهل وليس ينفع بعد الشيبة الادب ٥ وقال اخر
ينشا الصغير على ما كان والده ان العروق عليها ينبت الشجر ٥
واما الادب اللازم للانسان عند نشوه وكبره فادبان ادب مواضعة واصطلاح وادب رياضة واستصلاح فاما ادب المواضعة والاصطلاح فيوخذ تقليدًا على ما استقر عليه اصطلاح العقلا واتفق عليه استحسان الادبا وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل مستنبط ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل موجب كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب واتفاقهم على هيئات اللباس حتى ان الانسان الان اذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مجانبا للادب مستوجبا للذم لان فراق المالوف في العادة ومجانبة

ماصار متفقا عليه منازل أهل القناعة لانها مشتركة بين رغبة ورهبة
اما الرغبة فلانه لا يكره الزيادة على الكفاف اذا سنحت واما الرهبة
فلانه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة اذا تعذرت وفي مثله قال
ذو النون رحمه الله تعالى من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة وقد
روي الحسن بن علي عن ابيه عن جده رضي الله تعالى عنهم قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم الدنيا دول فما كان منها لك اتاك على ضعفك وما
كان منها عليك لم تدفعه بقوتك ومن انقطع رجاؤه مما فات استراح بدنه
ومن رضي بما قسم الله تعالى قرت عينه وقال ابو حازم الاعرج وجدت الدنيا
شيئين شيئا هو لي لن اعجله قبل اجله ولو طلبته بقوة السموات والارض
وشيئا هو لغيري وذلك مما لم انله فيما مضى ولا انا له فيما بقي يمنع الذي لي
من غيري كما يمنع الذي لغيري مني ففي اي هذين افني عمري واهلك نفسي
وقال ابو تمام الطائي

لا تاخذني بالزمان فليس يبقى ... ولست على الزمان كفيلا
من زاحف الايام ثم عبا لها ... غير القناعة لم يزل مغلولا
من كان مرعى عزمه وهمومه ... روض الاماني لم يزل مهزولا
لو جار سلطان القنوع وحكمه ... في الخلق ما كان القليل قليلا
الرزق لا تكمد عليه فانه ... ياتي ولم تبعث عليه رسولا

وانشدني بعض اهل الادب لابن الرومي

جرى قلم القضاء بما يكون ... فسيان التحرك والسكون
جنون منك ان تسعى لرزق ... ويرزق في غشاوته الجنين

ونحن نسال الله الكريم مسؤول وافضل مامول ان يحسن لنا التوفيق
فيما منح ويصرف عنا الرغبة فيما منع استغناء عن تبعات الثروة وموبقات
الشهوة وروي شريك بن ابي نمر عن ابن ابي الجزع عن اعمامه واجداده عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير امتي الذين لم يعطوا حتى يبطروا
ولم يقتر عليهم حتى يسالوا وقال ابو تمام الطائي رحمه الله تعالى

[illegible]

عندي من الايام ما لو انه ... اضحى بشارب مرقد ما غمضا
لا تطلبن الرزق بعد شماسه ... فترومه سبعا اذا ما غيضا
ما عوض الصبر امرؤ الا راى ... ما فاته دون الذي قد عوضا

باب ادب النفس ان النفوس مجبولة على شيم مهملة
واخلاق مرسلة لا يستغني محمودها عن التاديب ولا يكتفي بالمرضي منها
عن التهذيب لان لمحمودها اضدادا مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة
غالبة فان اغفل تاديبها تفويضا الى العقل او توكلا على ان ينقاد الى الاحسن
بالطبع اعدمه التفويض درك المجتهدين واعقبه التوكل ندم الخائبين
فصار من الادب عاطلا وفي صورة الجهل داخلا لان الادب
مكتسب بالتجربة ومستحسن بالعادة ولكل قوم مواضعة وكل ذلك لا
ينال بتوقيف العقل ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة
ويستفاد بالدربة والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قيما وزكي الطبع اليه
مسلما ولو كان العقل مغنيا عن الادب لكان انبياء الله عن ادبه مستغنين
وبعقولهم مستكفين وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وقيل لعيسى عليه الصلاة والسلام من ادبك
فقال ما ادبني احد رايت جهل الجاهل فاجتنبته وقال علي رضي الله
تعالى عنه ان الله تعالى جعل مكارم الاخلاق ومحاسنها وصلا بينه
وبينكم فحسب الرجل ان يتصل من الله تعالى بخلق منها وقال
اردشير حسبك من فضل الادب انه ممدوح بكل لسان ومتزين
به في كل مكان وباق ذكره على مر ايام الزمان
والمواضعة مفض الى استحقاق الذم بالعقل ما لم تكن علة ظاهرة
لمخالفته ومعنى حادث وقد كان جائزا في العقل ان يوضع ذلك على
غير ما اتفقوا عليه فيرونه حسنا ويرون ما سواه قبيحا فصار هذا
مساويا لما وجب بالعقل من حيث توجه الذم على تاركه ومخالفه
من حيث انه كان جائزا في العقل ان يوضع على خلافه واما ادب الرياضة
والاستصلاح فهو ما كان محمولا على حال لا يجوز في العقل ان يكون بخلافها
وقال ابن المقفع ما نحن الى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب
باحوج منا الى الادب الذي هو لقاح عقولنا
زين الله بها عواطل الاحساب ... فالعاقل لا يستغني وان صحت غريزته عن الادب المخرج زهرته
لا بالاصل والنسب لان من ساء ادبه ضاع نسبه ومن قل عقله ضل اصله وقال بعض الادباء ذك قلبك

[illegible]

ولا يختلف العقلاء في صلاحها وفسادها وما كان كذلك فتعليله
بالعقل مستنبط وصحته بالدليل مرتبط وللنفوس على ما تاتي من
ذلك شاهد ألهمها الله تعالى ارشادا لها قال الله تعالى فألهمها فجو
رها وتقواها قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بين لها ما تاتي من الخير
وتذر من الشر وسنذكر تعليل كل شيء في موضعه فانه اولى به واوفق
فاول مقدمات ادب الرياضة والاستصلاح ان لا يسبق الى حسن الظن
بنفسه فيخفى عنه مذموم شيمه ومساوي اخلاقه لان النفوس بالشهوات
آمرة وعن الرشد زاجرة كذلك قال الله سبحانه وتعالى ان النفس لامارة
بالسوء وقال النبي صلى الله عليه وسلم اعدى عدو لك نفسك التي بين
جنبيك ثم اهلك ثم عيالك ودعت اعرابية لرجل فقالت كبت الله كل عدو
لك الا نفسك فاخذه بعض الشعرا فقال

قلبي الى ما ضرني داعي ... يكثر اسقامي واوجاعي
كيف احتراسي من عدوي اذا ... كان عدوي بين اضلاعي

واذا كانت النفس كذلك فحسن الظن بها ذريعة الى تحكمها وداع الى سلاطتها
وافساد الاخلاق بها واذا صرف عنها حسن الظن بها وتوسمها بما هي
عليه من التسويف والمكر فاز بطاعتها وانحاز عن معصيتها وقد قال
عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه العاجز من عجز عن سياسة نفسه
وقال حكيم من ساس نفسه ساد ناسه واما سوء الظن بها فقد اختلف
الناس فيه فمنهم من كرهه لما فيه من اتهام طاعتها ورد مناصحتها فان النفس
وان كان لها مكر يردي فلها نصح يهدي فلما كان حسن الظن بها يعمي عن
مساويها كان سوء الظن بها يعمي عن محاسنها ومن عمي عن محاسن نفسه كان
كمن عمي عن مساويها فلم ينف عنها قبيحها ولم يهد اليها حسنها وقد قال
الجاحظ في كتاب البيان يجب ان يكون في التهمة لنفسه معتدلا وفي
حسن الظن بها مقتصدا فانه ان تجاوز مقدار الحق في التهمة ظلمها واودعها
ذلة المطلوبين وان تجاوز بها الحق في مقدار حسن الظن اودعها تهاون

الامنين ولكل شيء من ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار من
الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل وقال الاحنف بن قيس من ظلم
نفسه كان لغيره اظلم ومن هدم دينه كان لمجده اهدم وذهب قوم الى
ان سوء الظن بها ابلغ في صلاحها واوفر في اجتهادها لان للنفس جورا
لا ينفك الا بالسخط عليها وغرورا لا ينكشف الا بالتهمة لها لانها محبوبة تجود
ادلالا وتغر مكرا فان لم يسئ الظن بها غلب عليه جورها وعمه عليه
غرورها فصار بميسورها قانعا وبالشبه من افعالها راضيا وقد
قال الحكما من رضي عن نفسه سخط عليه الناس وقال كشاجم الشاعر

لم ارض عن نفسي مخافة سخطها ... ورضى الفتى عن نفسه اغضابها
ولو انني عنها رضيت لقصرت ... عما تريد بمثله آدابها
وتبينت آثار ذاك فاكثرت ... عذلي عليه وطال فيه عتابها

واستحسن قول ابي تمام الطائي

ويسئ بالاحسان ظنا لا كمن ... هو بابنه وبشعره مفتون

لم يروا اساءة ظنه بالاحسان ذما ولا استقلال عمله لوما بل راوا ذلك
ابلغ في العقل وابعث على الازدياد واذا عرف من نفسه ما تجن وتصور
منها ما تكن ولم يطاوعها فيما تحب اذا كان غيا ولا صرف عنها ما تكره اذا كان
رشدا فقد ملكها بعد ان كان في ملكها وغلبها بعد ان كان في غلبتها وقد
روى ابو حازم عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم الشديد من غلب نفسه وقال عون بن عبد الله اذا
عصتك نفسك فيما كرهت فلا تطعها فيما احببت ولا يغرنك ثناء من جهل امرك
وقال بعض البلغا من قوي على نفسه تناهى في القوة ومن صبر
عن شهوته بالغ في المروءة فحينئذ ياخذ نفسه عند معرفتها بما اكتسبت خيرها
ما اجتنت بتقويم عوجها واصلاح فاسدها وقد روي عن عايشة رضي
الله عنها انها قالت يا رسول الله متى يعرف الانسان ربه قال اذا عرف
نفسه ثم يراعي منها ما اصلح واستقام من زيغ يحدث عن اغفال او ميل

الفضل

يكون عن اهمال ليتم له الصلاح وتستديم له الاستقامة فان المغفل بعد المعاناة ضايع والمهمل بعد المراعاة ذايع وسنذكر من احوال ادب الرياضة والاستصلاح فصولا تحتوي على ما يلزم مراعاته من الاخلاق وتجب معاناته من الاداب وهي ستة فصول متفرعة فالفصل الاول منها مجانبة الكبر والاعجاب لانهما يسلبان الفضايل ويكسبان الرذايل وليس لمن استوليا عليه اصغا لنصح ولا قبول لتاديب لان الكبر يكون بالمنزلة والعجب يكون بالفضيلة فالمتكبر يجل نفسه عن رتبة المتعلمين والمعجب يستكثر فضله عن استزادة المتادبين فلذلك وجب تقديم القول فيهما بابانة ما يكسبانه من ذم ويوجبانه من لوم فنقول اما الكبر فيكسب المقت ويثير الحقد ٥ ويوغر صدور الاخوان وحسبك بذلك سوءا عن استقصاء ذمه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمه العباس رضي الله تعالى عنه انهاك عن الشرك بالله والكبر فان الله تعالى يحتجب منهما وقال اردشير بن بابك ما الكبر الا فضل حمق لم يدر صاحبه اين يذهب به فصرفه الى الكبر وما اشبه ما قال بالحق وحكي ان مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر الى المهلب بن ابي صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشي الخيلا فقال له يا ابا عبد الله ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله فقال له المهلب او ما تعرفني قال بلى اعرفك اولك نطفة مذرة واخرك جيفة قذرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة فاخذ ابن عون هذا الكلام فنظمه شعرا فقال

عجبت من معجب بصورته ... وكان بالامس نطفة مذرة
وفي غد بعد حسن صورته ... يصير في اللحد جيفة قذرة
وهو على تيهه ونخوته ... ما بين ثوبيه يحمل العذرة ٥

وقال اخر

فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ... ولكن كبرا ان يقال به كبر ٥

وقد كان المهلب افضل من ان يجزع نفسه بهذا الجواب ولكنها زلة من زلات الاسترسال وخطيئة من خطايا الادلال فاما الحمق الصريح والجهل القبيح فهو ما حكي ان نافع بن جبير بن مطعم جلس في حلقة العلا بن عبد الرحمن

الحرقي

الحرقي وهو يقري الناس فلما فرغ قال اتدرون لم جلست اليكم قالوا جلست لتسمع قال لا ولكني اردت ان اتواضع لله بالجلوس اليكم فهل يرجى من مثل هذا فضل او ينجع فيه عذل وقد قال ابن المعتز لما عرف اهل النقص حالهم عند ذوي الكمال استعانوا بالكبر ٥ ليعظم صغيرا ويرفع حقيرا وليس بفاعل واما الاعجاب فيخفي ٥ المحاسن ويظهر المساوي ويكسب المذام ويصد عن الفضايل وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وقال علي رضي الله تعالى عنه الاعجاب ضد الصواب وآفة الالباب وقال بزرجمهر النعمة التي لا يحسد صاحبها عليها التواضع والبلا الذي لا يرحم منه صاحبه العجب وقال بعض الحكما عجب المرء بنفسه احد حساد عقله وليس لما ينتجه الكبر من المقت حد ولما ينتهي اليه العجب من الجهل غاية حتى انه ليطمس من المحاسن ما انتشر ويسلب من الفضايل ما اشتهر وناهيك بسيئة تحبط كل حسنة وبمذمة تهدم كل فضيلة مع ما يثيره من حنق ويكسبه من حقد حكي عمر بن حصين قال قيل للحجاج كيف وجدت منزلك بالعراق قال خير منزل لو كان الله سبحانه وتعالى بلغني اربعة فتقربت اليه بدمايهم قيل ومن هم قال مالك بن مسمع ولي سجستان فاتاه الناس فاعطاهم الاموال فلما عزل دخل مسجد البصرة فبسط الناس له ارديتهم فمشى عليها وقال لرجل يماشيه لمثل هذا فليعمل العاملون وعبيد الله بن زياد بن طيبان التيمي خوف اهل البصرة امر فخطب خطبة اوجز فيها فتنادى الناس من اعراض المسجد اكثر الله فينا مثلك فقال لقد كلفتم الله شططا ومعبد بن زرارة كان ذات يوم جالسا في المسجد فمرت به امراة فقالت يا ابا عبد الله اين الطريق الى موضع كذا فقال يا هنتاه مثلي يكون من عبيد الله وابو سمال الاسدي اضل راحلته فالتمسها الناس حتى وجدوها فقالوا له قد رد الله تعالى وصل فقال ان يميني يمين مصر فانظر الى هولا كيف افضى

راحلتك

بهم العجب الى حمق صاروا به نكالا في الاولين ومثلا في الاخرين ولو تصور
المعجب والمتكبر ما جبل عليه وفطر من جبلته وبلي به من مهنته لخفض جناح
نفسه واستبدل لينا من عتوه وسكونا من نفوره وقال الاحنف بن قيس
عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر وقد وصف بعض الشعرا
الانسان فقال

يا مظهر الكبر اعجابا بصورته ... انظر خلاك فان النتن تثريب
لو فكر الناس فيما في بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
هل في ابن ادم مثل الراس مكرمة ... وهو بخمس من الاقذار مضروب
انف يسيل واذن ريحها سهك ... والعين مرمصة والثغر ملعوب
يا ابن التراب وماكول التراب غدا ... اقصر فانك ماكول ومشروب

واحق من كان للتكبر مجانبا وللاعجاب مباينا من جل في دنياه قدره
وعظم فيها خطره لانه قد يستقل بعالي همته كل كثير ويستصغر منها كل
كبير وقد قال محمد بن علي لا ينبغي للشريف ان يرى لشي من الدنيا لنفسه
خطرا فيكون بها تابها وقال ابن السماك لعيسى بن موسى تواضعك في شرفك
اشرف لك من شرفك وكان يقال اسمان متضادان لمعنى واحد التواضع
والشرف وللكبر اسباب فمن اقوى اسبابه علو اليد ونفوذ الامر وقلة
الاخلاط حكي ان قوما مشوا خلف علي رضي الله تعالى عنه فقال ابعدوا
عني خفق نعالكم فانها مفسدة لقلوب نوكى الرجال ومشوا خلف ابن مسعود
رضي الله تعالى عنه فقال ارجعوا فانها ذلة للتابع وفتنة للمتبوع وروي
قيس بن ابي حازم ان رجلا اتى النبي صلى الله عليه وسلم فاصابته رعدة
فقال النبي صلى الله عليه وسلم هون عليك فانما انا ابن امراة كانت تاكل
القديد وانما قال ذلك حسما لمواد الكبر وقطعا لذرايع الاعجاب
وكسرا لاشر النفس وتذليلا لسطوة الاستعلا ومثل ذلك ما روي
عن عمر رضي الله تعالى عنه انه نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس صعد
المنبر فحمد الله تعالى واثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم

ثم قال ايها الناس

غنم / ارعى

ثم قال ايها الناس لقد رايتني على حالات لي من بني مخزوم فيقبض لي
لي القبضة من التمر والزبيب فاظل اليوم واي يوم فقال له عبد الرحمن
بن عوف رضي الله تعالى عنه والله يا امير المومنين ما زدت على ان قصرت
بنفسك فقال له عمر رضي الله تعالى عنه ويحك يا ابن عوف اني خلوت بنفسي
فحدثتني نفسي فقالت انت امير المومنين فمن ذا افضل منك فاردت
ان اعرفها نفسها وللاعجاب اسباب فمن اقوى اسبابه كثرة مديح المتقربين
واطرا المتملقين الذين قد جعلوا النفاق مادة وكسبا والتملق خديعة
ولعبا فاذا وجدوه مقبولا في العقول الضعيفة اغروا اربابها باعتقاد
كذبهم وجعلوا ذلك ذريعة الى الاستهزا بهم وقد روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه سمع رجلا يزكي رجلا فقال له قطعت مطاه لو سمعها
ما افلح بعدها وقال عمر رضي الله تعالى عنه المدح ذبح وقال ابن المقفع
قابل المدح كمادح نفسه وقال بعض الحكما من رضي ان يمدح بما ليس فيه
فقد امكن الساخر منه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
اياكم والتمادح فانه الذبح ان كان احدكم مادحا اخاه فليقل احسبه
ولا ازكي على الله احدا وقيل فيما انزل الله تعالى من الكتب السابقة
عجبت لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح وعجبت لمن قيل فيه الشر
وهو فيه كيف يغضب قال بعض الشعرا

يا جاهلا غره افراط مادحه ... لا يغلبن جهل من اطراك علمك بك
اثنى وقال بلا علم احاط به ... وانت اعلم بالمحصول من ريبك

وهذا امر ينبغي للعاقل ان يضبط نفسه عن ان تستفزها ويمنعها من
تصديق المدح لها فان للنفس ميلا الى حب الثنا وسماع المدح وقد قال
الشاعر

يهوى الثنا مبرز ومقصر ... حب الثنا طبيعة الانسان

فاذا سامح نفسه في هذه الصبوة وتابعها على هذه الشهوة تشاغل بها عن
الفضايل الممدوحة ولهي بها عن المحاسن الممنوحة وصار الظاهر من مدحه

كذباً والباطن من ذمه صدقاً وعند تقابلهما يكون الصدق الزم الامرين
وهذه خدعة لا يرتضيها عاقل ولا ينخدع بها مميز ولتعلم ان المغري
بالمدح يسرف مع القبول ويكف مع الاباء فلا يغلبه حسن الظن على تصديق
مدح هو اعرف بحقيقته ولتكن تهمة المادح اغلب عليه فقل مدح كان
جميعه صدقاً وقل ثنا كان كله حقاً ولذلك كره اهل الفضل ان يطلقوا
السنتهم بالثنا والمدح تحرزاً من التجوز فيه وتنزهاً عن التملق به وقد
روى مكحول قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكونوا عيابين
ولا تكونوا لعانين ولا متمادحين ولا متماوتين وحكى الاصمعي ان ابا بكر
الصديق رضي الله تعالى عنه كان اذا مدح قال اللهم انت اعلم بي من
نفسي وانا اعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيراً مما يحسبون واغفر لي ما لا
يعلمون ولا تواخذني بما يقولون وقال بعض الشعرا

اذا المرء لم يمدح بحسن فعاله ... فمادحه يهذي وان كان مفصحا

وربما آل حب المدح بصاحبه الى ان يصير مادح نفسه اما لتوهمه
ان الناس قد غفلوا عن فضله واخلوا بحقه واما ليخدعهم بتدليس
نفسه فيعتقد والزور قوله حق متبع وصدق مستمع واما ليتلذذ بسماع
الثنا ويسر نفسه بالمدح والاطرا كما يتغنى لنفسه طرباً اذا لم يسمع صوتاً
مطرباً ولا غنى ممتعاً ولاي ذلك كان فهو الجهل الصريح والنقص الفاضح
وقال بعض الشعرا

وما شرف ان يمدح المرء نفسه ... ولكن اعمالاً تذم وتمدح
ولا كل حين يصدق المرء ظنه ... ولا كل اصحاب التجارة تربح
ولا كل من ترجوا لغيبك حافظاً ... ولا كل من ضم الوديعة يصلح

وينبغي للعاقل ان يسترشد اخوانه لصدق الذين هم اصفيا القلوب
ومرايا المحاسن والعيوب على ما ينبهونه عليه من مساويه التي صرفه
حسن الظن عنها فانهم امكن نظراً واسلم فكراً ويجعل ما ينبهونه عليه
من مساويه عوضاً عن تصديق المدح فيه وقد روى انس بن مالك رضي الله
تعالى

تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المومن مراة المومن اذا
راى فيه عيباً اصلحه وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول رحم الله
امرا اهدى الينا مساوتنا وقيل لبعض الحكما اتحب ان يهدي اليك
عيوبك قال نعم من ناصح ومما يقارب معنى هذا القول ما روي عن عمر
بن الخطاب رضي الله تعالى عنه انه قال لابن عباس رضي الله تعالى عنهما
من ترى ان نوليه حمص فقال رجلاً صحيحاً منك صحيحاً لك قال فكن انت
ذلك الرجل قال لا ينتفع بي مع سوء ظني بك وسوء ظنك بي وقد قيل
في منثور الحكم من اظهر عيب نفسه فقد زكاها فاذا اقطع اسباب
الكبر وحسم مواد العجب اعتاض بالكبر تواضعاً وبالعجب توددا
وذلك من اوكد اسباب الكرامة واقوى مواد النعم وابلغ شافع
القلوب يعطفها الى المحبة ويثنيها عن البغضة وقال بعض الحكما من
بري من ثلاث نال ثلاثاً من بري من الشره نال العز ومن بري من
البخل نال الشرف ومن بري من الكبر نال الكرامة وقال مصعب
بن الزبير التواضع مصايد الشرف وقيل في منثور الحكم من دام تواضعه
كثر صديقه وقد تحدث المنازل والولايات لقوم اخلاقاً مذمومة يظهرها
سوء طباعهم ولاخرين فضائل محمودة يبعث عليها زكي شيمهم لان
لتقلب الاحوال سكرة تظهر من الاخلاق مكنونها ومن الاسرار مخزونها
ولا سيما اذا هجمت من غير تدريج وطرقت من غير تاهب وقد قال بعض
الحكما في تقلب الاحوال تعرف جواهر الرجال وقال الفضل بن سهل
من كانت ولايته فوق قدره تكبر لها ومن كانت ولايته دون قدره
تواضع لها وقال بعض البلغا الناس في الولاية رجلان رجل يجل عن
العمل بفضله ومروته ورجل يجل بالعمل لنقصه ودناءته فمن جل
عن عمله ازداد به تواضعاً وبشراً ومن جل عنه عمله تلبس به تجبرا
وكبرا الفصل الثاني في حسن الخلق روي عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال ان الله تعالى اختار لكم الاسلام ديناً فاكرموه بحسن
الخلق

ح بعيوبنا

ح الغنى

ح لا قولهم

والسخا فانه لا يجمل الا بهما وقال الاحنف بن قيس الا اخبركم بادوا الدا
قالوا بلى قال الخلق الدني واللسان البدي وقال بعض الحكما من سا
خلقه ضاق رزقه وعلة هذا القول ظاهرة وقال بعض البلغا الحسن
الخلق من نفسه في راحة والناس منه في سلامة والسي الخلق الناس منه
في بلا وهو من نفسه في عنا وقال بعض الحكما عاشر اهلك باحسن
اخلاقك فان الثوا فيهم قليل وقال بعض الشعرا

اذا لم تتسع اخلاق قوم … يضيق بهم الفسيح من البلاد
اذا ما المرء لم يخلق لبيبا … فليس اللب عن قدم الولاد

فاذا حسنت اخلاق الانسان كثر مصافوه وقل معادوه فتسهلت عليه
الامور الصعاب وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال حسن الخلق
وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الاعمار وقال بعض الحكما في سعة
الاخلاق كنوز الارزاق وسبب ذلك ما ذكرناه من كثرة الاصفيا المسعدين
وقلة الاعدا المجحفين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم احبكم الي احاسنكم
اخلاقا الموطون اكنافا الذين يألفون ويؤلفون ومن حسن الخلق ان يكون
سهل العريكة لين الجانب طلق الوجه قليل النفور طيب الكلمة وقد نعت
النبي صلى الله عليه وسلم هذه الاوصاف فقال اهل الجنة كل لين سهل
طليق ولما ذكرناه من هذه الاوصاف حدود مقدرة ومواضع مستحقة
كما قال الشاعر

اصفوا واكدر احيانا لمختبري … وليس مستحسنا صفو بلا كدر

وليس يريد الكثير الذي هو البذا وشراسة الاخلاق فان ذلك ذم
لا يستحسن وعيب لا يرتضى وانما نريد الكف والانقباض في ذم يلزم به
المساعد ويذم فيه الموافق واذا كانت لمحاسن الاخلاق حدود مقدرة
ومواضع مستحقة فان تجاوز بها الحد صارت ملقا وان عدل بها عن مواضعها
صارت نفاقا والملق ذل والنفاق لوم وليس لمن وسم بهما ود مبرور ولا
اثر مشكور وقد روى حكيم عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شر الناس ذو الوجهين الذي ياتي
هولا بوجه وهولا بوجه وروي لا ينبغي لذي الوجهين ان يكون عند الله
وجيها وقال سعيد بن ابي عروبة لان يكون لي نصف وجه ونصف لسان
على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المخبر احب الي من ان اكون ذا وجهين وذا
لسانين وذا قولين مختلفين وقال الشاعر

خل النفاق لاهله … وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك ان ترى … الا عدوا او صديقا

وقال ابرهيم بن محمد

وكم من صديق وده بلسانه … خؤون بظهر الغيب لا يتذمم
يضاحكني عجبا اذا ما لقيته … ويصدفني منه اذا غبت اسهم
كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهدا … وفي غيبه ان غاب صاب وعلقم

وربما تغير حسن الخلق والوطا الى الشراسة والبذا لاسباب عارضة
وامور طارية تجعل اللين خشونة والوطا غلظة والطلاقة عبوسا
فمن اسباب ذلك الولاية التي قد تحدث في الاخلاق تغيرا وعلى الخلطا
تنكرا اما من لوم طبع واما من ضيق صدر وقد قيل من تاه في ولايته
ذل في عزلته وقيل ذل العزل يضحك من تيه الولاية ومنها العزل ويضيق
فقد يسوء به الخلق ويضيق به الصدر اما لشدة اسف او لقلة صبر
حكى جميل الطويل ان عمار بن ياسر رحمه الله تعالى ورضي عنه عزل
عن ولايته فاشتد عليه ذلك وقال اني وجدتها حلوة الرضاع مرة
الفطام ومنها الغنا فقد تتغير به اخلاق اللئيم بطرا وتسوء طرايقه
اشرا ولذلك قيل من نال استطال وانشد الرياشي

غضبان يعلم ان المال ساق له … ما لم يسقه له دين ولا خلق
فمن يكن عن كرام الناس يسألني … فاكرم الناس من كانت له ورق

وقال بعض الشعرا

فان تكن الدنيا انالتك ثروة … فاصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الاثرا عنك خلايقا … من اللوم كانت تحت ثوب من الفقر

وبحسب ما افسده الغنا كذلك يصلحه الفقر كتب قتيبة بن مسلم

الي الحجاج ان اهل الشام قد التاثوا علي فكتب اليه ان اقطع عنهم الارزاق ففعل فساءت حالهم واجتمعوا اليه فقالوا اقلنا فكتب الي الحجاج فيهم فكتب اليه ان كنت انست منهم رشدا فاجر عليهم ما كنت تجري واعلم ان الفقر جند الله الاكبر يذل به كل جبار عنيد متكبر وقد روي عن النبي صلي الله عليه وسلم انه قال لولا ان الله تعالي اذل ابن ادم بثلاث ما طاطا راسه لشي الفقر والمرض والموت ومنها الفقر فقد يتغير به الخلق اما انفة من ذل الاستكانة واما اسفا علي فايت الغنا ولذلك قال النبي صلي الله عليه وسلم كاد الفقر ان يكون كفرا وكاد الحسد ان يغلب القدر

وقال ابو تمام الطاي في معنى ذلك

واعجب حالات ابن ادم خلقه   يضل اذا فكرت في كنهه الفكر
فيفرح بالشي القليل بقاوه   ويجزع مما صار وهو له ذخر

وربما تسلي عن هذه الحال بالاماني ولن تقل صدقها فقد قيل قل ما تصدق الامنية لكن قد يعتاض بها سلوة من هم ومسرة ترجي وقد قال ابو العتاهية

حرك مناك اذا اغتممت   فانهن مراوح

وقال اخر

اذا تمنيت بت الليل مغتبطا   ان المني راس اموال المفاليس

ومنها الهموم التي تذهل اللب وتشغل القلب فلا يتسع لاحتمال ولا يقوي علي صبر فقد قيل الهم كالسم وقال بعض الادبا الحزن كالدا المخزون في فواد المحزون

وقال بعض الشعرا

همومك بالعيش مقرونة   فما يقطع العيش الا بهم
اذا تم امر دنا نقصه   توقع زوالا اذا قيل تم
اذا انت في نعمة فارعها   فان المعاصي تزيل النعم
حلاوة دنياك مسمومة   فما تاكل الشهد الا بسم
فكم قد دببت في مهلة   فلم يعلم الناس حتي هجم

ومنها الامراض التي يتغير بها الطبع كما يتغير بها الجسم فلا تبقي الاخلاق علي اعتدال ولا يقدر معها علي احتمال وقد قال المتنبي

آلة المرء صحة وشباب   فاذا وليا عن المرء ولي
ابدا تسترد ما تهب الدنيا   فيا ليت جودها كان بخلا

ومنها علو السن وحدوث الهرم لتاثيره في آلة الجسد كذلك يكون تاثيره في اخلاق النفس وكما يضعف الجسد عن احتمال ما كان يطيقه من الاثقال فكذلك تعجز النفس عن احتمال ما كانت تصبر عليه من مخالفة الوفاق ومضض الشقاق وكذلك ما ضاهاه قال منصور النمري في معني ذلك

ما كنت اوفي شبابي كنه غرته   حتي مضي فاذا الدنيا له تبع
اصبحت لم تطعمي ثكل الشباب ولم   تشجي بغصته فالعذر لا يقع
ما كان اقصر ايام الشباب وما   ابقي حلاوة ذكراه التي تدع
ما واجه الشيب من عين وان رمقت   الا له نبوة عنه ومرتدع
قد كدت تقضي علي فوت الشباب اسي   لولا يعزيك ان الشيب منقطع

وهذه سبعة اسباب ان احدثت سو الخلق كان عاما وهاهنا شي خاص وقد يحدث سو الخلق خاص وهو البغض الذي تنفر منه النفس فيحدث نفورا عن المبغض فيوول الي سو خلق يخصه دون غيره فاذا كان سو الخلق حادثا بسبب كان زواله مقرونا بزوال ذلك السبب ثم بالضد

الفصل الثالث في الحيا ان الخير والشر معان كامنة تعرف بسمات داله كما قالت العرب في امثالها تخبر عن مجهوله مراته وكما قال عمر بن سلم الشاعر

لا تسال المر عن خلايقه   في وجهه شاهد من الخبر

فسمة الخير الدعه والحيا وسمة الشر القحة والبذا وكفي بالحيا خيرا ان يكون علي الخير دليلا وكفي بالقحة والبذا شرا ان يكون الي الشر سبيلا وقد روي حسان بن عطية عن ابي امامة رضي الله تعالي عنه قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم الحيا والعي شعبتان من الايمان والبذا والبيان شعبتان من النفاق ويشبه ان يكون العي في معني الصمت والبيان في معني الشادق كما جا في الحديث ان ابغضكم الي

الفصل الث

الثمار دون المتفيهقون المتشدقون وروى ابو سلمة عن ابي هريرة رضي
الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الحيا من الايمان
والايمان في الجنة والبذا من الجفا والجفا في النار وقال بعض الحكما من
كساه الحيا ثوبه لم ير الناس عيبه وقال بعض البلغا حياة الوجه بحيايه
كما ان حياة الغرس بمايه وقال بعض العلما يا عجبا كيف لا تستحيي من كثرة
ما لا يستحيي وتتقي من طول ما لا يبقى وقال صالح بن عبد القدوس
اذا قل ما الوجه قل حياوه ولا خير في وجه اذا قل ماوه
حياك فاحفظه عليك فانما يدل على فعل الكريم حياوه وليس
لمن سلب الحيا صاد عن قبيح ولا زاجر عن محظور فهو يقدم على ما شا
ويأتي ما هوي وبذلك جا الخبر روى شعبة عن منصور بن ربعي عن ابي
مسعود البدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انما ادرك الناس
من كلام النبوة الاولى يا ابن ادم اذا لم تستحي فاصنع ما شيت وليس
هذا القول اغرا منه بفعل المعاصي عند قلة الحيا كما توهمه بعض من جهل
معاني الكلام ومواضعات الخطاب وفي مثل الخبر قول الشاعر
اذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحي فاصنع ما تشا
فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا اذا ذهب الحيا واختلف اهل
العلم في معنى الخبر فقال ابو بكر محمد بن علي الشاشي في اصول الفقه معنى هذا
الخبر ان من لم يستحي دعاه ترك الحيا الى ان يعمل ما شا لا يردعه عنه
رادع فليستحي المرء فان الحيا يردعه وسمعت من يحكي عن ابي بكر الرازي من
اصحاب ابي حنيفة رضي الله تعالى عنه ان المعنى فيه اذا عرضت عليك
افعالك التي هممت بفعلها فلم تستحي منها لحسنها وجمالها فاصنع ما شيت منها
فجعل الحيا حكما على افعاله وكلا القولين حسن والاول اشبه لان الكلام
خرج من النبي صلى الله عليه وسلم مخرج الذم لا مخرج الامر لكن قد جا
الحديث بما يضاهي القول الثاني وهو قوله صلى الله عليه وسلم ما احببت
ان تسمعه اذناك فاته وما كرهت ان تسمعه اذناك فاجتنبه ويجوز ان

يحمل هذا

يحمل هذا الحديث على المعنى الصريح فيه ويكون التاويل الاول في الحديث
المتقدم اصح اذ ليس يلزم ان تكون احاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم
كلها متفقة المعاني بل اختلاف معانيها ادخل في الحكمة وابلغ في النصاحة
اذا لم يضاد بعضها بعضا واعلم ان الحيا في الانسان قد يكون من ثلاثة
اوجه احدها حياوه من الله تعالى والثاني حياوه من الناس والثالث
حياوه من نفسه فاما حياوه من الله سبحانه وتعالى فيكون بامتثال
اوامره والكف عن زواجره روى ابن مسعود رضي الله تعالى عنه
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال استحيوا من الله تعالى حق الحيا
قيل يا رسول الله وكيف نستحيي من الله عز وجل حق الحيا قال
من حفظ الراس وما حوى والبطن وما وعى وترك زينة الحياة
الدنيا وذكر الموت والبلى فقد استحيى من الله حق الحيا وهذا الحديث
من ابلغ الوصايا قال اقضى القضاة رحمه الله تعالى رايت رسول
الله صلى الله عليه وسلم في المنام ذات ليلة فقلت يا رسول الله اوصني
فقال استحي من الله حق الحيا ثم قال تغير الناس قلت وكيف ذلك
يا رسول الله قال كنت انظر الى الصبي فارى في وجهه البشر والحيا
وانا انظر اليه اليوم فلا ارى ذلك في وجهه ثم تكلم بعد ذلك بوصايا
وعظات تصورتها واذهلني السرور عن حفظها ووددت اني لو حفظتها
فلم يبق صلى الله عليه وسلم قبلا الوصية بالحيا من الله تعالى وجعل
ما سلبه الصبي من البشر والحيا سببا لتغير الناس وخص الصبي
لان ما ياتيه بالطبع من غير تكلف فصلى الله عليه وسلم من هادي
امة تابع انذارها وقطع اعذارها واوصل تاديبها وحفظ تهذيبها
وجعل لكل عصر حظا من زواجره ونصيبا من اوامره اعان الله
على قبولها بالعمل وعلى استدامتها بالتوفيق وقد روى علقمة بن علاثة
قال يا رسول الله عظني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم استحي
من الله استحياءك من ذي الهيبة من قومك وهذا النوع من الحيا يكون

من قوة الدين وصحة اليقين ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم قلة الحيا
كفر يعني من الله تعالى لما فيه من مخالفة اوامره وقال النبي صلى الله عليه
وسلم الحيا نظام الايمان فاذا انحل نظام الشي تبدد ما فيه وتفرق واما
حياوه من الناس فيكون بكف الاذا وترك المجاهرة بالقبيح وروي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من تقوى الله تعالى اتقا الناس وروي
ان حذيفة اتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب عن الطريق عن الناس
وقال لا خير فيمن لا يستحي من الناس وقال بشار بن برد

ولقد اصرف الفواد عن الشي حيا وحبه في الفواد [في الهامش: السواد]
امسك النفس بالعفاف وامسي ذاكرا في غد حديث الاعادي

وهذا النوع من الحيا قد يكون من كمال المروة وحب الثنا ولذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم من القى جلباب الحيا فليس له غيبة يعني
والله تعالى اعلم لقلة مروته وظهور شهرته وروي الحسن عن ابي هريرة
رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من مروة
الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه والفه وجليسه وقال
حكيم من شرايط المروة ان تتعفف عن الحرام وتتلطف عن الاثام وتنصف
في الحكم وتكف عن الظلم فلا تطمع فيما لا يستحق ولا تستطيل على من تسترق
ولا تعين قويا على ضعيف ولا توثر دنيا على شريف ولا تسر ما يعقب
الوزر والاثم ولا تفعل ما يقبح الذكر والاسم قال الشاعر

ورب قبيحة ما حال بيني وبين ركوبها الا الحيا
اذا رزق الفتى وجها وقاحا تقلب في الامور كما يشا

وقال اخر

اذا لم تصن عرضا ولم تخش خالقا وتستحي مخلوقا فما شيت فاصنع

واما حياوه من نفسه فيكون بالعفة وصيانة الخلوات وقال
بعض الحكما ليكن استحياوك من نفسك اكثر من استحياك من غيرك
وقال بعض الادبا من عمل في السر عملا يستحي منه في العلانية
فليس لنفسه عنده قدر ودعا قوم رجلا كان يالف عشيرتهم فلم

يجبهم

يجبهم وقال اني دخلت البارحة في الاربعين وانا استحي من سني نفسي وقال
بعض الشعرا

فسرى كاعلاني وتلك خليقتي وظلمة ليلي مثل ضوء نهاريا

وهذا النوع من الحيا قد يكون من فضيلة النفس وحسن السريرة فمتى كمل
حيا الانسان من وجوهه الثلاثة فقد كملت فيه اسباب الخير وانتفت
عنه اسباب الشر وصار بالفضل مشهورا وبالجميل مذكورا وقال
بعض الشعرا

واني ليثنيني عن الجهل والخنا وعن شتم ذي القربى خلايق اربع
حيا واسلام وتقوى وانني كريم ومثلي من يضر وينفع

ولن
اخل باحد وجوه الحيا لحقه من النقص باخلاله بقدر ما كان يلحقه من
الفضل بكماله وقد قال الرياشي يقال ان ابا بكر الصديق رضي الله تعالى
كان يتمثل بهذا الشعر

وحاجة دون اخرى قد سنحت لها جعلتها للتي اخفيت عنوانا
اني كاني ارى من لا حيا له ولا امانة وسط القوم عريانا

الفصل الرابع في الحلم والغضب روى محمد بن حارث الهلالي ان جبريل [في الهامش: حرث]
عليه السلام نزل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد اني اتيتك بمكارم
الاخلاق كلها في الدنيا والاخرة خذ العفو وامر بالعرف واعرض عن الجاهلين
وروى سفيان بن عيينة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه
السلام حين نزلت عليه هذه الاية خذ العفو وامر بالعرف يا جبريل ما [في الهامش: جاء]
هذا قال لا ادري حتى اسال العالم ثم عاد جبريل عليه السلام وقال
يا محمد ان ربك يامرك ان تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك
وروى هشام عن الحسن ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ايعجز احدكم
ان يكون كابي ضمضم كان اذا خرج من منزله قال اللهم اني قد تصدقت
بعرضي على عبادك وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى
يحب الحليم الحيي ويبغض الفاحش البذي وقال علي رضي الله تعالى عنه

من حلم ساد ومن تفهم ازداد وقال بعض الحكما من غرس شجرة الحلم اجتني
ثمرة السلم وقال بعض البلغا ما ذبّ عن الاعراض كالصفح والاعراض
وقال بعض الشعراء

احب مكارم الاخلاق جهدي واكره ان اعيب وان اعابا
واصفح عن سباب الناس حلما وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ومن حقر الرجال فلن يهابا

فالحلم من اشرف الاخلاق واحقها بذوي الالباب لما فيه من سلامة
العرض وراحة الجسد واجتلاب الحمد وقد قال علي بن ابي طالب رضي
الله تعالى عنه اول عوض الحليم عن حلمه ان الناس انصاره وحد
الحلم ضبط النفس عن هيجان الغضب وهذا يكون لباعث وسبب
فاسباب الحلم الباعثة علي ضبط النفس عشرة احدها الرحمة للجهال
وذلك من خير يوافق رقة وقد قيل في منثور الحكم من اوكد اسباب
الحلم رحمة الجهال وقال ابو الدردا لرجل اسمعه كلاما يا هذا لا تغرقن
في سبنا ودع للصلح موضعا فانا لا نكافي من عصى الله تعالى فينا باكثر من ان
نطيع الله فيه وشتم رجل الشعبي فقال ان كنت كما قلت فغفر الله لي
وان لم اكن كما قلت فغفر الله لك واغتاضت عايشة رضي الله تعالى عنها
علي خادم لها ثم رجعت الي نفسها فقالت لله در التقوي ما تركت لذي غيظ
شفا وقسم معاوية رضي الله عنه قطفا فاعطي شيخا من اهل دمشق قطيفة
فلم تعجبه فحلف ان يضرب بها راس معاوية فاتاه فاخبره فقال له معاوية
اوف بنذرك وليرفق الشيخ بالشيخ والثاني من اسبابه القدرة علي الانتصار
وذلك يكون من سعة الصدر وحسن الثقة وقد روي عن النبي صلي الله
عليه وسلم انه قال اذا قدرت علي عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة
عليه وقال بعض الحكما ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعا من
السطوة وقال بعض العلما احسن المكارم عفو المقتدر وجود المفتقر
والثالث من اسبابه الترفع عن السباب وذلك من شرف النفس وعلو

الهمة

الهمة كما قالت العرب شرف النفس ان تحمل المكاره كما تحمل المكارم وقد
قيل ان الله تعالي سمي يحيي عليه الصلاة والسلام سيدا لحلمه وقال
الشاعر

لن يبلغ المجد اقوام وان كرموا حتى يذلوا وان عزوا لاقوام
ويشتموا فترى الالوان كاسفة لا صفح ذل ولكن صفح احلام

والرابع من اسبابه الاستهانة بالسباب وذلك يكون علي ضرب من الكبر
والاعجاب كما حكي عن مصعب بن الزبير انه لما ولي العراق جلس يوما
لعطا الجند وامر مناديه فنادي اين عمرو بن جرموز وهو الذي قتل اباه
الزبير فقيل له ايها الامير انه قد باعد في الارض فقال او ظن الجاهل
اني اقيده بابي عبد الله فليظهر امنا وليأخذ عطاه كله موفرا فعد الناس
ذلك من مستحسن الكبر ومثل ذلك قول بعض الزعما في شعره

اوكلما طن الذباب طردته ان الذباب اذا علي لكريم

وال...
رجل من سب الاحنف وهو لا يجيبه فقال والله ما منعه من جوابي الا
هواني عليه وفي مثله يقول الشاعر

نجا بك لومك منجي الذباب حمته مقاديره ان ينالا

واسمع رجل ابن هبيرة فاعرض عنه فقال له الرجل اياك اعني فقال وعنك
اعرض وفي مثله يقول الشاعر

فاذهب فانت طليق عرضك انه عرض عززت به وانت ذليل

وقال عمرو بن علي اذا نطق السفيه فلا تجبه فخير من اجابته السكوت
سكت عن السفيه فظن اني عييت عن الجواب وما عييت والخامس
من اسبابه الاستحيا من جزا الجواب وهذا يكون من صيانة النفس وكمال
المروة وقال بعض الحكما احتمال السفيه ايسر من التحلي بصورته والاغضا
عن الجاهل خير من مشاكلته وقال بعض الادبا ما افحش حليم
ولا اوحش كريم وقال لقيط بن زرارة وقد قيل لبني سعد ما لي

وما لكم ترقون مني ما استطعم واعتق
أعزكم اني باحسن شيمة بصر واني بالفواحش احرق
فانك قد فاحشتني فغلبتني هنيئا مريئا انت بالفحش احذق

والسادس من اسبابه التفضل على الساب وهذا يكون من الكرم وحسن التالف كما قيل للاسكندر ان فلانا وفلانا ينتقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهما فقال هما بعد العقوبة اعذر في تنقصي وثلبي وكان هذا تفضلا منه وتالفا وحكي عن الاحنف بن قيس انه قال ما عاداني احد قط الا اخذت في امره باحدى ثلاث خصال ان كان اعلى مني عرفت له قدره وان كان دوني رفعت قدري عنه وان كان نظيري تفضلت عليه فاخذه الخليل فنظمه شعرا فقال وقيل انه لمحمود الوراق

سالزم نفسي الصفح عن كل مذنب وان عظمت منه علي الجرائم
فما الناس الا واحد من ثلاثة شريف ومشروف ومثل مقاوم
فاما الذي فوقي فاعرف قدره واتبع فيه الحق والحق لازم
واما الذي دوني فاحلم دائبا اصون به عرضي وان لام لائم
واما الذي مثلي فان زل او هفا تفضلت ان الفضل بالعفو حاكم

والسابع من اسبابه استحقاق الساب وقطع السباب وهذا يكون من الحزم كما حكي ان رجلا قال لضرار بن القعقاع والله لو قلت واحدة لسمعت عشرا فقال والله لو قلت عشرا لم تسمع واحدة وحكي ان علي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه قال لعامر بن مرة الزهري من احمق الناس قال من ظن انه اعقل الناس قال صدقت قال فمن اعقل الناس قال من لم يتجاوز الصمت في عقوبة الجهال وقال الشعبي رضي الله تعالى عنه ما ادركت امي فابرها ولكن لا اسب احدا فيسبها وقال بعض الحكماء اعراضك صون اعراضك

وقال بعض الشعرا

وفي الحلم ردع للسفيه عن الاذا وفي الخرق اغرا فلا تك اخرقا
فتندم اذ لا ينفعك ندامة كما ندم المغبون لما تفرقا

وقال آخر

قل ما بدا لك من زور ومن كذب حلمي اصم واذني غير صما

والثامن من اسبابه الخوف من العقوبة على الجواب وهذا يكون من ضعف النفس وربما اوجبه الراي واقتضاه الحزم وقد قيل في منثور الحكم الحلم حجاب الآفات

وقال الشاعر

ارفق اذا خفت من ذي هفوة خرقا ليس الحليم كمن في امره خرق

والتاسع من اسبابه الرعاية ليد سالفة او حرمة لازمة وهذا يكون من الوفا وحسن العهد وقيل في منثور الحكم اكرم الشيم ارعاها للذمم

وقال الشاعر

ان الوفا على الكرام فريضة واللوم مقرون بذي الاخلاق
وترى الكريم لمن يعاشر منصفا وترى اللئيم مجانب الانصاف

والعاشر من اسبابه المكر وتوقع الفرص الخفية وهذا يكون من الدها وقد قيل في منثور الحكم من ظهر غضبه قل كيده وقال بعض الادبا غضب الجاهل في قوله وغضب العاقل في فعله وقال بعض الحكما اذا سكت عن الجاهل فقد اوسعته جوابا واوجعته عقابا وقال اياس بن قتادة

تعاقب ايدينا ويحلم راينا ونشتم بالافعال لا بالتكلم
وللكف عن شتم اللئيم تكرما اضر به من شتمه حين يشتم

فهذه عشرة اسباب تدعوا الى الحلم وبعض الاسباب افضل من بعض وليس اذا كان بعض اسبابه مفضولا ما يقتضي ان يكون نتيجته من الحلم مذموما وانما الاولى بالانسان ان يدعوه الى الحلم افضل اسبابه وان كان الحلم كله فضلا فان عري عن احد هذه الاسباب كان ذلا ولم يكن حلما لانا قد ذكرنا في حد الحلم انه ضبط النفس عن هيجان الغضب واذا فقد الغضب بسماع ما يغضب كان ذلك من ذل النفس وقلة الحمية ولذلك قالت الحكما ثلاثة لا يعرفون الا في ثلاثة مواطن لا يعرف الجواد الا في العسرة والشجاع الا في الحرب والحليم الا في الغضب وقال الشاعر

وقال

ليست الاحلام في حال الرضا   انما الاحلام في حال الغضب

وقال اخر

من يدعي الحلم اغضبه لتعرفه   لا يعرف الحلم الا ساعة الغضب

وانشد النابغة الجعدي بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا خير في حلم اذا لم تكن له   بوادر تحمي صفوه ان تكدرا

ولا خير في جهل اذا لم يكن له   حليم اذا ما اورد الامر اصدرا

فلم ينكر عليه قوله ومن فقد الغضب في الاشيا المغضبة حتى استوت حالتاه
قبل الاغضاب وبعده فقد عدم من فضايل النفس الشجاعة والانفة
والحمية والغيرة والدفاع والاخذ بالثار لانها خصال مركبة من الغضب والعزة والامتناع
واذا عدمها الانسان هان بها ولم يكن لباقي فضايله في النفس موضعا ولا لوفور
حلمه في القلوب موقعا وقد قال المنصور اذا كان الحلم مفسدة كان العفو
معجزة وقال بعض الحكما العفو يفسد من اللييم بقدر اصلاحه من الكريم
وقال عمرو بن العاص اكرموا سفهاكم فانهم يكفونكم العار والشنار وقال
مصعب بن الزبير ما قل سفها قوم الا ذلوا وقال ابو تمام الطايي شعر

والحرب تركب راسها في مشهد   عدل السفيه به بالف حليم

وليس هذا القول اغرا بتحكم الغضب والانقياد له عند حدوث ما يغضب فيكتسب
بالانقياد للغضب من الرذايل اكثر مما يسلبه عدم الغضب من الفضايل
ولكن اذا ثار به الغضب عند هجوم ما يغضبه كف سورته بحزمه واطفا
ثايرته بحلمه وكل من استحق المقابلة الى غيره فلن يعدم منه مكافيا كما لم
يعدم محسن مجازيا والعرب تقول دخل بيتنا ما خرج منه اي ان خرج
منه خير دخله خير وان خرج منه شر دخله شر وانشد ابن دريد
رحمه الله تعالى عن ابي حاتم

اذا امن الجهال جهلك مرة   فعرضك للجهال غنم من الغنم

فعم عليه الحلم والجهل والقه   بمنزلة بين العداوة والسلم

ولا تنقض عرض السفيه وداره   بحلم فان اعيا عليك فبالصرم

اذا انت

104

اذا انت جازيت السفيه كما جرى   فانت سفيه مثله غير ذي حلم

فيرجوك تارات ويخشاك تارة   وياخذ فيما بين ذلك بالحزم

فان لم تجد بدا من الحزم فاستعن   عليه بجهال فذاك من العزم

وهذه من احكم ابيات وجدتها في تدبير الحلم والغضب وهذا التدبير
انما يستعمل فيما لا يجد الانسان بدا من معارفته ولا سبيل الى اطراحه
ومتاركته اما لخوف شره او للزوم امره فاما من امكن اطراحه ولم يضر
ابعاده فالحلم به اولى والاعراض عنه اصوب فاذا كان على ما وصفت
استفاد بتحريك الغضب فضايله وامن بكف نفسه عن الانقياد لرذايله
وصار الحلم مدبرا للامور المغضبة بمقدار لا يعتوره نقص لعدم الغضب
ولا يلحقه زيادة بفقد الحلم ولو عزب عنه الحلم حتى انقاد لغضبه ضل
عنه وجه الصواب فيه وضعف رايه عن خبرة اسبابه ودواعيه
حتى يصير بليد الراي مغمور الروية مقطوع الحجة مسلوب العقل قليل
الحيلة مع ما يناله من اثر ذلك في نفسه وجسده حتى يصير غضبه عليه
اضر مما غضب له وقد قال بعض الحكما من كثر شططه كثر غلطه وقال
سلمان لعلي رضي الله تعالى عنه ما الذي يباعدني من غضب الله تعالى
قال ان لا تغضب قال بعض السلف اقرب ما يكون العبد من غضب الله
تعالى اذا غضب وقال بعض البلغا من رد غضبه هد من اغضبه وقال
بعض الادبا ما هيج جاشك لغيظ اجاشك وقال رجل لبعض الحكما
عظني قال لا تغضب فينبغي لذي اللب السوي والحزم القوي ان يتلقى قوة
الغضب بحلمه فيصدها ويقابل دواعي شرته بحزمه فيردها ليحظى بالاجلا
الخير ويسعد بحميد العاقبة وقال بعض الادبا في اعصايك راحة اعضايك
وسبب الغضب هجوم ما تكرهه النفس ممن دونها وسبب الحزن هجوم ما
تكرهه النفس ممن فوقها والغضب يتحرك من داخل الجسد الى خارجه
والحزن يتحرك من خارج الجسد الى داخله ولذلك قتل الحزن ولم يقتل الغضب
لبروز الغضب وكمون الحزن وصار الحادث عن الغضب السطوة والانتقام

والحادث عن الحزن المرض والاسقام المكونه فمن اجل ذلك افضى الحزن
الى الموت ولم يفض الغضب فهذا فرق ما بين الحزن والغضب واعلم
ان لتسكين الغضب اذا هجم اسبابا يستعان بها على الحلم منها ان يذكر
الله تعالى فيدعوه ذكره الى الخوف منه ويبعثه الخوف منه على الطاعة
له فيرجع الى ادبه وياخذ بندبه فعند ذلك يزول عنه الغضب قال
الله تعالى واذكر ربك اذا نسيت قال عكرمة معناه اذا غضبت وقال
تعالى واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ومعنى قوله ينزغنك
اي يغضبنك فاستعذ بالله انه سميع بجهل من جهل عليم بما يذهب عنك
الغضب وذكر ان في التوراة مكتوبا يا ابن ادم اذكرني حين تغضب اذكرك
حين اغضب ولا امحقك فيمن امحق وكتب بعض ملوك الفرس كتابا ودفعه
الى وزيره وقال له اذا غضبت فناولنيه وكان فيه مكتوب ما لك وللغضب
انما انت بشر ارحم من في الارض يرحمك من في السما وقال بعض الحكما
من يذكر قدرة الله لم يستعمل قدرته في ظلم العباد وقال عبد الله بن مسلم
بن محارب لهارون الرشيد يا امير المومنين اسالك بالذي انت بين يديه
اذل مني بين يديك وبالذي هو اقدر على عقابك منك على عقابي لما عفوت
عني فعفا عنه لما اذكره قدرة الله تعالى عليه وروي ان رجلا شكى الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم القسوة فقال اطلع في القبور واعتبر
بالنشور وكان بعض ملوك الطوايف اذا غضب القى اليه مفاتيح ترب
الملوك فيزول عنه غضبه ولذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه
من اكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ومنها ان ينتقل عن الحالة التي هو
فيها الى غيرها فيزول عنه الغضب بتغير الاحوال والتنقل من حال الى حال
وكان هذا مذهب المامون اذا غضب او شتم وكانت الفرس تقول اذا
غضب القايم فليجلس واذا غضب الجالس فليقم ومنها ان يذكر ما تؤول
اليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام كتب ابرويز الى ابنه شيرويه
ان كلمة منك تسفك دما وان اخرى منك تحقن دما وان نفاذ امرك

مع من

مع ظهور كلامك فاحترس في غضبك من قولك ان تخطي ومن لونك ان يتغير
ومن جسدك ان تخف فان الملوك تعاقب قدرة وتعفوا حلما وقال بعض
الحكما الغضب على من لا يملك عجز وعلى من يملك لوم وقال بعض الادبا اياك
وعزة الغضب فانها تفضي الى ذلة العذر وقال بعض الشعرا

واذا ما اعترتك في الغضب العزة فاذكر تذلل الاعتذار

ومنها ان يذكر ثواب العفو وجزا الصفح فيقهر نفسه عن الغضب رغبة في
الجزا والثواب وحذرا من استحقاق الذم والعقاب روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال ينادي منادٍ يوم القيامة من له اجر على الله عز وجل فليقم
فيقوم العافون عن الناس ثم تلا فمن عفا واصلح فاجره على الله وقال رجا
بن حيوة لعبد الملك بن مروان في اسارى بن الاشعث ان الله تعالى قد اعطاك
ما تحب من الظفر فاعط الله ما يحب من العفو وقال صلى الله عليه وسلم
الخير ثلاث خصال من كن فيه استكمل الايمان من اذا رضي لم يدخله رضاه
الى باطل واذا غضب لم يخرجه غضبه من حق واذا قدر عفا واسمع رجل
عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه كلاما فقال عمر رضي الله تعالى عنه
اردت ان يستفزني الشيطان بعزة السلطان فانال منك اليوم ما تناله
مني غدا انصرف رحمك الله ومنها ان يذكر انعطاف القلوب عليه وميل
النفوس اليه فلا يرى اضاعة ذلك بتغير الناس عنه وبعدهم منه فيكف
عن متابعة الغضب رغبة في التالف وجميل الثنا روي ابن ابي ليلى عن
عطية عن ابي سعيد رضي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ما ازداد احد بعفو الا عزا فاعفوا يعزكم الله وقال بعض البلغا ليس
من عادة الكرام سرعة الانتقام ولا من شروط الكرم ازالة الانعام (الكرام ازالة النعم)
وقال المامون لعمه ابرهيم بن المهدي اني شاورت في امرك فاشاروا علي
بقتلك الا اني وجدت قدرك فوق ذنبك فكرهت القتل للازم حرمتك فقال
ابرهيم يا امير المومنين ان المشير اشار عليك بما جرت به العادة في السياسة
الا انك ابيت ان تطلب النصر الا من حيث عودته من العفو فان عاقبت

فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك وانشا يقول

البر لي منك وطي العذر عندك لي فيما فعلت فلم تعذل ولم تلم
وقام علمك بي فاحتج عندك لي مقام شاهد عدل غير متهم
لين جحدتك معروفًا مننت به اني لفي اللوم احظي منك في الكرم
تعفوا بعدل وتسطوا ان سطوت به فلا عدمناك من عاف ومنتقم

الفصل الخامس في الصدق والكذب قال الله تعالي وهو اصدق القايلين ثم نبتهل فنجعل لعنة الله علي الكاذبين وقال تعالي انما يفتري الكذب الذين لا يومنون بايات الله وروي عن النبي صلي الله عليه وسلم انه قال للحسن بن علي رضي الله تعالي عنهما دع ما يريبك الي ما لا يريبك فان الكذب ريبة والصدق طمانينة وقال صلي الله عليه وسلم رحم امرا اصلح من لسانه وقصر من عنانه ولزم طريق الحق بقوله ولم يعود الخطل بفضليه وروي صفوان بن سليم قال قيل للنبي صلي الله عليه وسلم ايكون المومن جبانا قال نعم قال افيكون بخيلا قال نعم قال افيكون كذابا قال لا وقال ابن عباس رضي الله تعالي عنه في قوله تعالي لا تلبسوا الحق بالباطل اي لا تخلطوا الصدق بالكذب وقيل في منثور الحكم الكذاب لص لان اللص يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك وقال بعض الحكما الخرس خير من الكذب وصدق اللسان اول السعادة وقال بعض البلغا الصادق مصان خليل والكذاب مهان ذليل وقال بعض الادبا لا سيف كالحق ولا عون كالصدق وقال بعض الشعرا

وما شي اذا فكرت فيه باذهب للمروة والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه وابعد بالبها من الرجال

فالكذب جماع كل شر واصل كل ذم لسوء عواقبه وخبث نتايجه لانه ينتج النميمة والنميمة تنتج البغضا والبغضا تؤول الي العداوة وليس مع العداوة امن ولا راحة ولذلك قيل من قل صدقه قل صديقه والصدق والكذب يدخلان الاخبار الماضية كما ان الوفا والخلف يدخلان المواعيد المستقبلة فالصدق هو الاخبار عن الشي علي ما هو عليه والكذب الاخبار عن الشي بخلاف ما كان عليه ولكل واحد منهما دواع فدواعي الصدق لازمة ودواعي الكذب عارضة لان الصدق يدعوا اليه عقل موجب وشرع مورد والكذب يمنع منه العقل ويصد عنه الشرع ولذلك جاز ان تستفيض الاخبار الصادقة حتي تصير متواترة ولم يجز ان تستفيض الاخبار الكاذبة لان اتفاق الناس في الصدق والكذب انما هو لاتفاق الدواعي فدواعي الصدق يجوز ان يتفق الجمع الكثير عليها حتي اذا نقلوا خبرا وكانوا عددا ينتفي عن مثلهم المواطاة وقع في النفس صدقه لان الدواعي اليه نافعة واتفاق الناس في الدواعي النافعة ممكن ولا يجوز ان يتفق العدد الكثير الذي لا يمكن مواطاة مثلهم علي نقل خبر يكون كذبا لان الدواعي اليه غير نافعة ولذلك جاز اتفاق الناس علي الصدق لجواز اتفاق دواعيهم ولم يجز ان يتفقوا علي الكذب لامتناع اتفاق دواعيهم واذا كان للصدق والكذب دواع فلا بد من ذكر ما يسمح به الخاطر من دواعيهما اما دواعي الصدق فمنها العقل لانه موجب لقبح الكذب لا سيما اذا لم يجلب نفعا ولم يدفع ضررا وموجب لحسن الصدق لا سيما اذا لم يفت نفعا ولم يجلب ضررا والعقل يدعوا الي فعل ما كان فيه مستحسنا ويمنع من اتيان ما كان فيه مستقبحا وليس مما استحسن من مبالغات الشعرا حتي صار كذبا صراحا استحسانا للكذب في العقل كالذي انشده الازدي لبعض الشعرا

توهمه فكري فاصبح خده وفيه مكان الوهم من فكرتي اثر
وصافحه كفي فالم كفه فمن لمس كفي في اناملة عقر
ومر بقلبي خاطرا فجرحته ولم ار شيا قط يجرحه الفكر

وكقول العباس بن الاحنف وان كان دون هذه المبالغة يقول

وقد كتبت دقيق خطي اليها لم تجتنب الجليلا
فقلت لها نحلت فصار خطي مساعدة لكاتبه نحيلا

لانه قد خرج مخرج المبالغة في التشبيه والاقتدار علي صنعة الشعر

وان شواهد الحال تخرجه عن تلبيس الكذب ولذلك استحسن في
الصنعة ولم يستقبح في العقل ولو كان الكذب مستقبحا في العقل
ومنها الدين الوارد باتباع الصدق وحظر الكذب لان الشرع لا يجوز
ان يرد بارخاص ما حظره العقل بل قد جا الشرع زايدا على ما اقتضاه
العقل من حظر الكذب لان الشرع ورد بحظر الكذب وان جر نفعا
او دفع ضررا ومنها المروة فانها مانعة من الكذب باعثة على الصدق لانها
قد تمنع من فعل ما كان مستكرها فاولى ان تمنع من فعل ما كان مستقبحا
ومنها حب الثنا والاشتهار بالصدق حتى لا يرد عليه قول ولا يلحقه
ندم وقال بعض البلغا ليكن مرجعك الى الحق ومنزعك الى الصدق فالحق
اقوى معين والصدق افضل قرين وقال بعض الشعرا

عود لسانك قول الصدق تحظ به ... ان اللسان لما عودت معتاد

موكل بتقاضي ما سننت له ... في الخير والشر فانظر كيف ترتاد

واما دواعي الكذب فمنها اجتلاب النفع واستدفاع الضرر فيرى ان الكذب
اسلم واغنم فيرخص لنفسه فيه اغترارا بالخدع واستشفافا للطمع وربما
كان الكذب ابعد لما يؤمل واقرب لما يخاف لان القبيح لا يكون حسنا والشر
لا يصير خيرا وليس يجنى من الشوك العنب ولا من الكرم الحنظل وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تحروا الصدق وان رايتم فيه الهلكة
فان فيه النجاة وتجنبوا الكذب وان رايتم فيه النجاة فان فيه الهلكة
وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لان يضعني الصدق وقل ما يفعل
احب الي من ان يرفعني الكذب وقل ما يفعل وقال بعض الحكما الصدق منجيك
ولو خفته والكذب مرديك ولو امنته وقال الجاحظ الصدق والوفا توامان
والصبر والحلم توامان فيهم تمام كل دين وصلاح كل دنيا واضدادهم سبب كل فرقة
واصل كل فساد ومنها ان يوثر ان يكون حديثه مستغربا وكلامه مستظرفا
فلا يجد صدقا يعذب ولا حقا يطرب فيستعذب الكذب الذي ليست غرايبه
معوزة ولا طرايفه معجزة وهذا النوع اسوا حالا مما قبل لانه يصدر عن مهانة

النفس ودناءة الهمة وقد قال الجاحظ لم يكذب احد قط الا لصغر قدر نفسه
عنده وقال ابن المقفع لا تتهاون بارسال الكذبة من الهزل فانها تسرع
الى ابطال الحق ومنها ان يقصد بالكذب التشفي من عدوه فيسمه بقبايح يخترعها
عليه ويصفه بفضايح ينسبها اليه ويرى ان معرة الكذب غنم وان ارسالها
في العدو سهم وسم وهذا اسوا حالا من النوعين الاولين لانه قد جمع بين
الكذب المعر والشر المضر ولذلك ورد الشرع برد شهادة العدو على عدوه
ومنها ان تكون دواعي الكذب قد ترادفت عليه حتى الفها فصار الكذب
له عادة ونفسه اليه منقادة حتى لو رام مجانبة الكذب عسر عليه لان
العادة طبع ثان وقد قالت الحكما من استحلى رضاع الكذب عسر عليه
فطامه وقيل في منثور الحكم لا يلزم الكذاب شيا الا غلب عليه واعلم ان
للكذاب قبل خبرته امارات داله عليه فمنها انك اذا لقنته الحديث تلقنه ولم
يكن بين ما لقنته وبين ما اورده فرق عنده ومنها انك اذا شككته فيه
تشكك حتى يكاد يرجع فيه ولولاك ما تخالجه الشك فيه ومنها انك اذا
رددت عليه قوله حصر وارتبك ولم يكن عنده نصرة المحتجين ولا برهان
الصادقين ولذلك قال علي رضي الله تعالى عنه الكذب كالسراب ومنها
ما يظهر عليه من ريبة الكذابين وينم عليه من ذلة المتوهمين لان هذه
امور لا يمكن الانسان دفعها عن نفسه لما في الطبع من اثارها
ولذلك قالت الحكما العينان انم من اللسان وقال بعض البلغا الوجوه
مرايا تريك اسرار البرايا وقال بعض الشعرا

تريك اعينهم ما في صدورهم ... ان العيون يؤدي سرها النظر

واذا اتسم بالكذب نسبت اليه شوارد الكذب المجهولة واضيف الى اكاذيبه
زيادات مفتعله حتى يصير الكاذب مكذوبا عليه فيجمع بين معرة الكذب منه ومضرة
الكذب عليه وقد قال الشاعر

حسب الكذوب من البلية ... بعض ما يحكى عليه

فمتى سمعت بكذبة ... من غيره نسبت اليه

ثم ان تحري الصدق انهم وان جانب الكذب حتى لا يعتقد له حديث
مصدق ولا كذب مستنكر قال الشاعر

اذا عرف الكذاب بالكذب لم يكن ... يصدق في شيء ولو كان صادقا
ومن آفة الكذاب نسيان كذبه ... وتلقاه ذا حفظ اذا كان صادقا

وقد وردت السنة بارخاص الكذب في الحروب واصلاح ذات
البين على وجه التورية والتاويل دون التصريح به فان السنة لا تجيز ان
يصرح بالكذب لما فيه من التنفير وانما ذلك على طريق التورية والتعريض
كما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تطرف بدرا وانفرد عن اصحابه
فقال له رجل ممن انت فقال من ماء فورى عن الاخبار بنسبه بامر محتمل فظن
السائل انه عنى القبيلة المنسوبة الى ذلك وانما اراد رسول الله صلى الله
عليه وسلم المني فبلغ ما احب من اخفا نسبه وصدق في خبره صلى الله عليه
وسلم وكذلك حكي عن ابي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه انه كان يسير خلف
رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر معه فتلقاه العرب وهم يعرفون
ابا بكر رضي الله تعالى عنه ولا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون
يا ابا بكر من هذا فيقول يهديني السبيل فيظنون انه يعني هداية الطريق
وانما هو يريد سبيل الخير فيصدق في قوله ويوري عن مراده وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب وقال
عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ان في المعاريض ما يكفي ان يعف الرجل عن
الكذب وقال بعض اهل التاويل في قوله تعالى لا تؤاخذني بما نسيت انه
لم ينس ولكنه معاريض الكلام وقال ابن سيرين الكلام اوسع من ان
يصرح فيه بالكذب واعلم ان من الصدق ما يقوم مقام الكذب في
القبح والمعرة ويزيد عليه في الاذى والمضرة وهو الغيبة والنميمة والسعاية
فاما الغيبة فانها خيانة وهتك ستر يحدثان عن حسد وغدر قال الله
تعالى ولا يغتب بعضكم بعضا ايحب احدكم ان ياكل لحم اخيه ميتا يعني انه
كما لا يحل له ان ياكل لحمه ميتا لا يحل غيبته حيا وروي ان امرأتين صامتا

علي عهد

على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فاخبر
بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال صامتا عما احل الله لهما وافطرتا
على ما حرم عليهما وروت اسماء بنت يزيد قالت قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم من ذب عن لحم اخيه بظاهر الغيب كان حقا على الله
تعالى ان يحرم لحمه على النار وقال عدي بن حاتم الغيبة مرعى اللئام
وكان الحسن البصري يقول الغيبة فاكهة النساء وقال رجل لابن سيرين
اني اغتبتك فاجعلني في حل فقال ما احب ان احل لك ما حرم الله عليك
وقال ابن السماك لا تعن الناس على غيبتك بسوء غيبتك وقال الشاعر

لا تلتمس من مساوي الناس ما ستروا ... فيهتك الله سترا من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم اذا ذكروا ... ولا تعب احدا منهم بما فيكا

وربما اعتذر المغتاب نفسه بانه يقول حقا ويعلن فسقا ويستشهد
بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاثة ليست غيبتهم بغيبة
الامام الجائر وشارب الخمر والمعلن بفسقه فيبعد من الصواب ويجانب
الاداب لانه وان كان بالغيبة صادقا فقد هتك سترا كان بصونه اولى
وجاهر من يعلم السر واخفى وربما دعا المغتاب ذلك الى اظهار ما كان
يستره والمجاهرة بما كان يضمره فلم يعد ذلك الا فسادا لكلامه من غير
ان يكون فيه صلاح لغيره وقد قيل لانوشروان ما الشي الذي لا خير
فيه قال ما اضرني ولم ينفع غيري او ضر غيري ولم ينفعني لا اعلم
فيه خيرا وقيل في منثور الحكم لا تبد من العيوب ما ستره علام الغيوب
وقد روى العلاء بن عبد الرحمن عن ابيه عن ابي هريرة رضي الله تعالى
عنه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة فقال هو ان
تقول في اخيك ما فيه فان كنت صادقا فقد اغتبته وان كنت كاذبا فقد
بهته وقال عبد الرحمن بن زيد في قوله تعالى يا ايها الذين امنوا لا يسخر
قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم انه استهزاء المسلم بمن اعلن بفسقه
ودخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم فلما خرجت قالت عائشة

رضي الله عنها يا رسول الله ما اقصرها فقال لها رسول الله صلي الله
عليه وسلم مهلا يا عايشة اياك والغيبة قد اغتبتيها قالت يا رسول
الله انما قلت فيها ما فيها فقال اجل ولو ذاك لكان بهتانا وسيل بعض
الادبا عن صفة اللييم فقال اللييم اذا غاب عاب واذا حضر اغتاب
واما الخبر فمحمول علي الانكار لا فعال هولا ولا يكون الانكار غيبة لانه
نهي عن منكر وفرق بين انكار المجاهر وغيبة المساتر واما النميمة فهي تجمع
الي مذمة الغيبة رداءة وشرا وتضم الي لومها دناءة وغدرا ثم تؤول
الي تقاطع المتواصلين وتباعد المتقاربين وتباغض المتحابين وقد روي
شهر بن حوشب عن اسما بنت يزيد عن النبي صلي الله عليه وسلم انه قال
الا اخبركم بشراركم قالوا بلي يا رسول الله قال من شراركم المشاون
بالنميمة المفسدون بين الاحبة الباغون العيوب وقد روي محمد بن عمرو
عن ابي سلمة عن ابي هريرة رضي الله تعالي عنه قال قال رسول الله صلي
الله عليه وسلم ملعون ذو الوجهين ملعون ذو اللسانين ملعون كل شغاز
ملعون كل قتات ملعون كل منان الشغاز المحرش بين الناس يلقي بينهم العداوة
والقتات النمام وقيل النمام هو الذي يكون مع القوم يتحدثون فينم حديثهم
والقتات هو الذي يتسمع عليهم ولا يعلمون ثم ينم حديثهم والمنان هو الذي
يصنع الخير ويمن به وقيل في منثور الحكم النميمة سيف قاتل وقال
بعض الادبا لم يمش ماش شر من واش واما السعاية فهي شر الثلاثة
لانها تجمع الي مذمة الغيبة ولوم النميمة التغرير بالنفوس والاموال
والقدح في المنازل والاحوال وروي ابن قتيبة ان النبي صلي الله عليه وسلم
قال الجنة لا يدخلها ديوث ولا قلاع الديوث الذي يجمع بين الرجال
والنسا سمي بذلك لانه يدث بينهم والقلاع هو الساعي الذي يقع في
الناس عند الامرا سمي قلاعا لانه ياتي الرجل المتمكن عند الامير فلا يزال
يقع فيه حتي يقلعه وقال بعض الحكما الساعي بين منزلتين
قبيحتين اما ان يكون صدق فقد خان الامانة واما ان يكون كذب فخالف

المروة

المروة وقال بعض حكما الفرس الصدق يزين كل احد الا السعاة فان
الساعي اذم واثم ما يكون اذا صدق وقال غيره النميمة دناءة والسعاية
رداءة وهما راس الغدر واساس الشر فتجنب سبلهما واجتنب اهلهما ووقع
الفضل بن سهل علي قصة لساع سعي اليه نحن نري قبول السعاية شرا
منها لان السعاية دلالة والقبول اجازة فاتقوا الساعي فانه ولو كان
في سعايته صادقا كان في صدقه اثما اذ لم يحفظ الحرمة ويستر العورة
وقال الاسكندر لساع سعي اليه برجل اتحب ان اقبل منك ما تقول
فيه علي ان نقبل منه ما تقول فيك قال لا قال فكف عن الشر يكف عنك
الشر وحكي ان الله سبحانه وتعالي اوحي الي موسي عليه الصلاة والسلام
ان في بلدك ساعيا ولست امطرك وهو في ارضك قال يا رب دلني عليه
حتي اخرجه قال يا موسي اكره النميمة وانم الفصل السادس في
الحسد والمنافسة ٥ ان الحسد خلق ذميم مع اضراره بالبدن وافساده
للدين حتي لقد امر الله تعالي بالاستعاذة من شره فقال تعالي ومن شر
حاسد اذا حسد وناهيك بحال ذلك شرا وروي عن النبي صلي الله عليه
وسلم انه قال دب اليكم دا الامم قبلكم البغضا والحسد هي الحالقة حالقة
الدين لا حالقة الشعر والذي نفس محمد بيده لا تومنوا حتي تحابوا الا
انبيكم بامر اذا فعلتموه تحاببتم افشوا السلام بينكم فاخبر صلي
الله عليه وسلم بحال الحسد وان التحابب معه ينفيه وان السلام
يبعث علي التحابب اذا ما نفيا للحسد وقد جا كتاب الله تعالي بما يوافق هذا
القول قال الله تعالي ادفع بالتي هي احسن الي حميم قال مجاهد معناه
ادفع بالسلام اساءة المسي وقال الشاعر
قد ملت الناس حسنا ليس بينهم ود يزرعه التسليم واللطف
وقال بعض السلف الحسد اول ذنب عصي الله تعالي به في الارض
يعني حسد ابن ادم لاخيه حتي قتله وقال بعض البلغا الناس
حاسد ومحسود ولكل نعمة حسود وقال بعض الحكما من رضي بقضا

الله تعالى لم يسخطه احد ومن قنع بعطايه لم يدخله حسد وقال بعض الادبا
ما رايت ظالما اشبه بمظلوم من الحسود نفس دايم وهم ملازم
وقلب هايم فاخذه بعض الشعرا فقال

ان الحسود الظلوم في كرب يخاله من يراه مظلوما
ذا نفس دايم على نفس يظهر منه ما كان مكتوما

ولو لم يكن من ذم الحسد الا ما روي من قوله صلى الله عليه وسلم ان الحسد
ياكل الحسنات كما تاكل النار الحطب الا انه خلق دني يتوجه نحو الاكفا
والاقارب ويختص بالمخالط والمصاحب لكانت النزاهة عنه كرما والسلامة
منه مغنما فكيف وهو بالنفس مضر وعلى الهم مصر حتى ربما افضى بصاحبه
الى التلف من غير نكاية في عدو ولا اضرار بمحسود وقد قال معاوية
رضي الله تعالى عنه ليس في خصال الشر اعدل من الحسد يقتل الحاسد
قبل ان يصل الى المحسود وقال بعض الحكما يكفيك من الحسود انه يغتم في
وقت سرورك وقيل في منثور الحكم عقوبة الحاسد من نفسه وقال الاصمعي
قلت لاعرابي ما اطول عمرك فقال تركت الحسد فبقيت وقال رجل لشريح
القاضي اني لاحسدك على ما ارى من صبرك على الخصوم ووقوفك على
غامض الحكم فقال له ما نفعك ذلك ولا اضرني وقال عبد الله بن المعتز
في معنى ذلك

اصبر على كيد الحسود فان صبرك قاتله فالنار تاكل بعضها ان لم تجد
ما تاكله

وحقيقة الحسد شدة الاسى على الخيرات التي تكون للناس الافاضل
وهو غير المنافسة وربما غلط قوم فظنوا ان المنافسة في الخير هي الحسد
وليس الامر على ما ظنوا لان المنافسة في طلب التشبه بالافاضل من
غير اظهار ضرر عليهم والحسد مصروف الى الضرر لان غايته — اضرار
ان يعدم الفاضل فضله من غير ان يصير الفضل له فهذا هو الفرق
بين المنافسة والحسد فالمنافسة اذا فضيلة لانها داعية الى اكتساب

الفضايل

الفضايل بالاقتدا بالاخيار الافاضل وقد روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال المومن يغبط والكافر يحسد ٥ وقال الشاعر

نافس على الخيرات اهل العلا فانما الدنيا احاديث
كل امري في شانه كادح فوارث منهم وموروث

واعلم ان دواعي الحسد ثلاثة احدها بغض المحسود فياسى عليه
بفضيلة تظهر او منقبة تشكر فيثير حسدا قد خامر بغضا وهذا
النوع لا يكون عاما وان كان اضرها لانه ليس يبغض كل الناس والثاني
ان يظهر من المحسود فضل يعجز عنه الحاسد فيكره تقدمه فيه واختصاصه — صح
به فيثير ذلك حسدا لولاه لكف وهذا اوسطها لانه لا يحسد الاكفا
ومن دنا وانما يختص بحسد من علا وقد يمتزج بهذا النوع ضرب من
المنافسة ولكنها مع عجز فلذلك صارت حسدا والثالث ان يكون
في الحاسد شح بالفضايل وبخل بالنعم وليست اليه فيمتنع منها ولا
بيده فيدفع عنها لانها مواهب قد منحها الله تعالى من شا فيسخط على الله
تعالى في قضايه ويحسد على ما منح من عطايه وان كانت نعم الله عنده اكثر
ومنحه عليه اظهر وهذا النوع من الحسد اعمها واخبثها اذ ليس لصاحبه
راحة ولا لرضاه غاية فان اقترن بشر وقدرة كان بوارا وانتقاما وان
صادف عجزا ومهانة كان كمدا ومقتا وسقاما وقال عبد الحميد الحسود
من الهم كساقي السم فاذا سرى سمه زال عنه همه واعلم ان بحسب
فضل الانسان وظهور النعمة عليه يكون حسد الناس له فان كثر فضله
كثر حساده وان قل قلوا لان ظهور الفضل يثير الحسد وحدوث النعمة
يضاعف الكمد ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم استعينوا على
قضا الحوايج بسترها فان كل ذي نعمة محسود وقال عمر بن الخطاب
رضي الله تعالى عنه ما كانت لله على احد نعمة الا وجد لها حاسدا ولو كان
الرجل اقوم من القدح لما عدم غامزا وقد قال الشاعر
ان يحسدوني فاني غير لايمهم قبلي من الناس اهل الفضل قد حسدوا

يدوم لي ولهم ما بي وما بهم ومات اكثرنا غيظا بما يجده وربما
كان الحسد منبها على فضل المحسود ونقص الحسود كما قال ابو تمام الطائي

ه واذا اراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود ه
ه لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود ه
لولا التخوف للعواقب لم تزل للحاسد النعمى على المحسود ه

فاما ما يستعمل من كان الحسد عليه غالبا وكان طبعه اليه مائلا لينتفي
عنه ويكفاه ويسلم من ضرره وعدواه فامور يحسم له ان صادفها
عزم منها اتباع الدين في اجتنابه والرجوع اليه في ادبه واداه فيقهر
نفسه على مذموم خلقها وينقلها عن لئيم طبعها ولئن كان نقل الطباع
عسرا لكن بالرياضة والتدريج يسهل منها ما استصعب ويحب منه ما
اتعب واذا تقدم قول القايل ه من ربه خلقه كيف على خلقه
غير انه ان عانا تهذيب نفسه تظاهر بالتخلق دون الخلق ثم بالعادة
يصير كالخلق قال ابو تمام الطائي رحمه الله تعالى

فلم اجد الاخلاق الا تخلقا ولم اجد الافضال الا تفضلا ه

ومنها العقل الذي يستقبح به من اسباب الحسد ما لا يرتضيه ويستنكف
من هجنة مساويه فيذلل نفسه انفة ويقهرها حمية فتذعن لرشدها
وتجيب الى صلاحها وهذا انما يصح لذوي النفوس الابية والهمم العلية
وان كان ذو الهمة يجل عن دناءة الحسد وقد قال الشاعر في معنى ذلك
ه ابى له نفسان نفس زكية ونفس اذا ما خافت الظلم تشمس ه ومنها
ان يستدفع ضرره ويتوقى اثره ويعلم ان نكايته في نفسه ابلغ ومن المحسود
ابعد فيستعمل الحزم في دفع ما اكده والمده ليكون اطيب نفسا واهنا
عيشا وقد قيل العجب لغفلة الحساد عن سلامة الاجساد وقال الشاعر

بصير باعقاب الامور كانما يرى بصواب الراي ما هو واقع ه

ومنها ما يرى من نفور الناس عنه وبعدهم منه فيخافهم اما على نفسه
من عداوة او على عرضه من ملامة فيتالفهم بمعالجة نفسه ويراهم

اصفيا

ان صلحوا اجدى نفعا واخلص ودا وقال ابن العميد في معنى ذلك
داو جوى بجوى وليس بحازم من يستكف النار بالحلفاه ه وقال
المومل بن ا...
لا تحسبوا عنيا عن مودتكم اني اليكم وان ايسرت مفتقر ه ومنها
ان يساعد القضا ويسلم للمقدور ولا يرى ان يغالب قضا الله فيرجع
مغلوبا ولا ان يعارضه في امره فيرد مسلوبا ومحروبا وقد قال ازدشير
بن بابك اذا لم يساعدنا القضا ساعدناه وقد قال محمود الوراق في معنى
ذلك

قدر الله كاين حين يقضي وروده قد مضى فيك علمه وانتهى ما يريده

فان اظفرته السعادة باحد هذه الاسباب وهدته المراشد الى استعمال
الصواب سلم من سقامه وخلص من غرامه واستبدل بالنقص فضلا
واعتاض من الذم حمدا ولمن استنزل نفسه عن مذمة وصرفها عن
لائمة اظهر جزما واقوى عزما ممن كفته النفس جهادها واعطته قيادها
ولذلك قال علي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه خياركم كل مفتن تواب
ولئن صدته القسوة عن مراشده واضله الحرمان عن مقاصده وانقاد
للطبع اللئيم وغلب عليه الخلق الذميم حتى ظهر حسده واشتد كمده فقد
باء باربع مذام احداهن حسرات الحسد وسقام الجسد ثم لا يجد لحسرته
انتهاء ولا يامل لسقامه شفا وقال ابن المعتز الحسد دا الجسد والثانية
انخفاض المنزلة وانحطاط الرتبة لانحراف الناس عنه ونفورهم منه وقد قيل
في منثور الحكم الحسود لا يسود والثالثة مقت الناس له حتى لا يجد فيهم
محبا وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم وليا فيصير بالعداوة موتورا وبالمقت مدحورا
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم شر الناس من يبغض الناس ويبغضونه
والرابعة اسخاط الله تعالى في معارضته واجتناب الاوزار في مخالفته
اذ ليس يرى قضا الله تعالى عدلا ولا لنعمه من الناس اهلا ولذلك
قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الحسد ليأكل الحسنات كما تاكل النار

الخطب وقال عبد الله بن المعتز الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له بخيل
بما لا يملكه طالب لما لا يجده واذا بلي الانسان بمن هذه حالة من حساد
النعم واعدا الفضل استعاذ بالله تعالى من شرهم وتوقى مصارع كيدهم
وتحرز من غوايل حسدهم وبعد عن ملابستهم وادناهم لتفضل دايهم واعواز
دوايهم فقد قيل حاسد النعمة لا يرضيه الا زوالها وقال بعض الحكماء
من ضر بطبعه فلا تانس بقربه فان قلب الاعيان صعب المرام وقال
عبد الحميد اسد تقاربه خير من عدو تراقبه وقال محمود الوراق

اعطيت كل الناس من نفسي الرضا ... الا الحسود فانه اعياني
ما ان لي ذنبا اليه علمته ... الا تظاهر نعمة الرحمن
وابى فلا يرضيه الا ذلتي ... وذهاب اموالي وقطع لساني

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاثة لا يسلم منهن احد الطيرة
وسوء الظن والحسد فاذا تطيرت فلا ترجع واذا ظننت فلا تحقق واذا
حسدت فلا تبغ فضلا فصل واما ادب المواضعة والاصطلاح
فضربان احدهما ما يكون فروعه واصوله وذلك متضح في الفصول التي
نذكرها اذا سبقت وهي ثمانية الفصل الاول في الكلام والصمت
اعلم ان الكلام ترجمان يعبر عن مستودعات الضماير ويخبر بمكنونات السراير
لا يمكن استرجاع بوادره ولا يقدر على رد شوارده فحق على العاقل ان يتحرز
من زلله بالامساك عنه او بالاقلال منه روي عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال رحم الله من قال خيرا فغنم او سكت فسلم وقال النبي صلى
الله عليه وسلم لمعاذ يا معاذ انت سالم ما سكت فاذا تكلمت فعليك او
لك وقال علي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه اللسان معيار اطاشه الجهل
او ارجحه العقل وقال بعض الحكما الزم الصمت تعد حكيما جاهلا
كنت او عليما وقال بعض الادبا سعد من لسانه صموت وكلامه قوت
وقال بعض العلما من اعوذ ما يتكلم به العاقل ان لا يتكلم الا لحاجته او

خ حاسد نعمة وذو فضيلة

خ لبعض العلما خ الادبا

تجنبه ولا

تجنبه ولا يتفكر الا في عاقبته او اخرته وقال بعض البلغا الزم الصمت فانه
يكسبك صفو المحبة ويومنك سو المغبة ويلبسك ثوب الوقار ويكفيك مونة
الاعتذار وقال بعض الفصحا اعقل لسانك الا عن حق توضحه او باطل تدحضه
او حكمة تنشرها او نعمة تشكرها وقال الشاعر هو الحطيئة فاجاد جودة معنى
ذلك

عجبت لازرا الغبي بنفسه ... وصمت الذي قد كان بالعلم احزما
وفي الصمت ستر للغبي وانما ... صحيفة لب المرء ان يتكلما

وقال بعض الشعرا

رايت العز في ادب وعقل ... وفي الجهل المذلة والهوان
وما حسن الرجال لهم بحسن ... اذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيبا ان تراه ... له وجه وليس له لسان

واعلم ان للكلام شروطا لا يسلم المتكلم من الزلل الا بها ولا يعرى من النقص الا
ان يكون يستوعبها وهي اربعة شروط فالشرط الاول ان يكون الكلام لداع
يدعوا اليه اما في اجتلاب نفع او دفع ضرر والشرط الثاني ان ياتي به في
موضعه ويتوخى به اصابة فرصته والشرط الثالث ان يقتصر منه على
قدر حاجته والشرط الرابع ان يتخير اللفظ الذي يتكلم به فهذه اربعة
شروط متى اخل المتكلم بشرط منها فقد اوهن فضيلة باقيها وسنذكر
من تعليل كل شرط منها ما ينبي عن لزومه فاما الشرط الاول وهو الداعي
الى الكلام فان ما لا داعي اليه هذيان وما لا سبب له هجر ومن سامح نفسه
في الكلام ولم يراع صحة دواعيه واصابة معانيه كان قوله مرذولا ورايه
معلولا كالذي حكي ان انسانا كان يجالس الاحنف بن قيس ويطيل الصمت
فاعجب ذلك الاحنف فخلت الحلقة يوما فقال له الاحنف تكلم يا ابن اخي
فقال يا عم ارايت لو ان رجلا سقط من شرافة هذا المسجد كان يضره شي
فقال يا ابن اخي ليتنا تركناك مستورا ثم تمثل الاحنف بقول الاعور الشني
حيث يقول

وكاين ترى من صامت لك معجب ... زيادته او نقصه في التكلم

لسان الفتى نصف ونصف فواده فلم يبق الا صورة اللحم والدم
وكالذي حكي عن ابي يوسف الفقيه ان رجلا كان يجلس اليه فيطيل
الصمت فقال له ابو يوسف الا تسال فقال بلى متى يفطر الصايم فقال
اذا غربت الشمس قال فان لم تغرب الشمس الى نصف الليل فتبسم ابو
يوسف وتمثل بقول الخطفي جد جرير
عجبت لازرا الغبي بنفسه وصمت الذي قد كان بالصمت اعلما
وفي الصمت ستر للغبي وانما صحيفة لب المرء ان يتكلما
قال اقضى القضاه رحمه الله تعالى كنت يوما في مجلسي بالبصرة وانا
مقبل على تدريس اصحابي اذ دخل شيخ مسن قد ناهز الثمانين او جاوزها
فقال لي قصدتك بمسلة اخترتك لها فقلت سل عافاك الله وظننته
يسال عن حادث نزل به فقال اخبرني عن نجم ابليس ونجم ادم ما هما فان
هذين لعظم شانهما لا يسال عنهما الا العلما الدين فعجبت وعجب من في مجلسي
عن سواله وبدر اليه قوم منهم بالانكار والاستخفاف فكففتهم وقلت
هذا لا يقنع مع ما يظهر من حاله الا بجواب مثله فاقبلت عليه وقلت
يا هذا ان المنجمين يزعمون ان نجوم الناس لا تعرف الا بمعرفة مواليدهم فان
ظفرت بمن يعرف ذلك فسله فقال جزاك الله خيرا ثم انصرف مسرورا
فلما كان بعد ايام عاد وقال ما وجدت الى وقتي هذا من يعرف مولد هذين
فانظر الى هولا كيف ابان الكلام عن جهلهم واعرب السوال عن نقصهم
اذ لم يكن لهم داع يدعوا اليه ولا روية فيما تكلموا به ولو صدر عن روية
او دعا اليه داع لسلموا من شينه وبريوا من عيبه ولذلك قال النبي
صلى الله عليه وسلم لسان العاقل من ورا قلبه فاذا اراد الكلام رجع
الى قلبه فان كان له تكلم وان كان عليه امسك وقلب الجاهل من ورا
لسانه يتكلم بكل ما عرض له وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه
من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه وقال بعض الحكما عقل المرء مخبو
تحت لسانه وقال بعض البلغا احبس لسانك قبل ان يطيل حبسك او

يتلف نفسك

يتلف نفسك فلا شي اولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب
ويسرع الى الجواب وقال ابو تمام الطائي
وما كانت الحكما قالت لسان المرء من تبع الفواد
وكان بعض العلما يحسم الرخصة في الكلام ويقول اذا جالست الجهال
فانصت لهم واذا جالست العلما فانصت لهم فان في انصاتك للجهال
زيادة في الحلم وفي انصاتك للعلما زيادة في العلم واما الشرط الثاني
وهو ان ياتي الكلام في موضعه فلان الكلام في غير حينه لا يقع موقع
الانتفاع به وما لا ينتفع به من الكلام فقد تقدم القول فيه بانه هذيان ن
وهجر فان قدم ما يقتضي التاخير كان عجلة وخرقا وان اخر ما يقتضي خ
التقديم كان توانيا وعجزا لان لكل مقام مقالا وفي كل وقت انفصالا وقد ومان عملا
قال الشاعر يضع الحديث على مواضعه وكلامه من بعده نزر
واما الشرط الثالث وهو ان يقتصر منه على قدر حاجته فلان الكلام
اذا لم ينحصر بالحاجة ولم يتقدر بالكفاية لم يكن لحده غاية ولا لقدره نهاية
وما لم يكن من الكلام محصورا كان اما حصرا ان قصر او هذرا ان كثر وروي
ان اعرابيا تكلم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وطول فقال النبي
صلى الله عليه وسلم كم دون لسانك من حجاب قال شفتاي واسناني
قال فان الله عز وجل يكره الانبعاق في الكلام فنضر الله وجه امرى
اوجز في كلامه واقتصر على حاجته وحكي ان بعض الحكما راى رجلا يكثر
الكلام ويقل السكوت فقال ان الله تعالى انما خلق لك اذنين ولسانا واحدا
ليكون ما يسمعه ضعف ما يتكلم به وقال بعض الحكما من كثر كلامه كثرت اثامه
وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه احذركم فضول المنطق وقال
بعض البلغا كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله فاقصره على الجميل واقتصر
منه على القليل واياك ما يسخط سلطانك او يوحش اخوانك فمن اسخط
سلطانه تعرض للمنية ومن اوحش اخوانه تبرا من الحرية وقال
بعض الشعرا في معنى ذلك

وزن الكلام اذا نطقت فانما يبدي عيوب ذوي الصمات المنطق
ولمخالفة قدر الحاجة من الكلام حالتان تقصير يكون حصرا وتكثير
يكون هذرا وكلاهما شين وشين الهذر اشنع وربما كان في الغالب
اخوف قال النبي صلى الله عليه وسلم وهل يكب الناس على مناخرهم
في النار الا حصايد السنتهم وقال بعض الحكما مقتل الرجل بين فكيه
وقال بعض البلغا الحصر خير من الهذر لان الحصر يضعف الحجة
والهذر يتلف المهجة وقال الشاعر
راينا اللسان على اهله اذا ساسه الجهل ليثا عقورا وقال اخر
يا رب السنة كالسيوف تقطع اعناق اصحابها
وكم يتقص من سباب الرجال برد في نهاها والبابها وقد ذهب
بعضهم الى ان الكلام اذا كثر على قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية
وكان صوابا لا يشوبه خطل وسليما لا يعتوره زلل فهو البيان والسحر
الحلال وقال سليمان بن عبد الملك وقد ذم الكلام في مجلسه كلا ان
من تكلم فاحسن قدر على ان يسكت فيحسن وليس من يسكت فيحسن بقادر
على ان يتكلم فيحسن ووصف بعضهم الكاتب فقال الكاتب ان اخذ شبر القناة
وان وجد طوما را املاه وانشد بعضهم في خطبا اياد
يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء
وقال الهيثم ابرهيم بن صالح لابنه يا بني
اذا اقللت من الكلام اكثرت من الصواب قال يا ابت فان انا اكثرت
واكثرت يعني خطا وصوابا قال يا بني ما رايت موعوظا احق بان يكون واعظا
منك وانشدت لابي الفتح البستي
تكلم وسدد ما استطعت فانما كلامك حي والسكوت جماد
فان لم تجد قولا سديدا تقوله فصمتك عن غير السداد سداد
وقيل لاياس بن معاوية ما فيك عيب الا كثرة الكلام قال افتسمعون صوابا
او خطا قالوا الا بل صوابا قال فالزيادة من الخير خير وقال ابو عثمان

الجاحظ

الجاحظ ليس كما قال للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية
وما فضل عن مقدار الاحتمال او دعا الى الاستثقال والملال
فذلك الفاضل هو الهذر وصدق ابو عثمان في هذا لان الاكثار
منه وان كان صوابا على السامع ويكل الخاطر فهو صاد عن اعجابه
به ولولاه قصر عنه ومن اعجب بكلامه استرسل فيه والمسترسل
في الكلام كثير الزلل دايم العثار قال بعض الحكما من اعجب بقوله اصيب
بعقله وليس للكثير الهذر رجا يقابل خوفه ولا نفع يماثل ضرره
لانه يخاف من نفسه الزلل ومن سامعيه السامة والملل وليس في
مقابلة ذلك حاجة داعية ولا نفع موجود وقد روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال ابغضكم الي الثرثارون المتفيهقون
المتشدقون والثرثار والملح المهذار وسئل رجل حكيما فقال متى
اتكلم قال اذا اشتهيت الصمت قال ومتى اصمت قال اذا اشتهيت
الكلام وقال جعفر بن يحيى اذا كان الايجاز كافيا كان الاكثار عيا
واذا كان الاكثار واجبا كان التقصير عجزا وقيل في منثور الحكم
ادا تم العقل نقص الكلام وقال بعض الادبا من اطال صمته اجتلب
من الهيبة ما ينفعه ومن الوحشة ما لا يضره وقال بعض الحكما احسن
الكلام ما لا يحتاج الى الكلام وقال بعض البلغا عي تسلم به خير
من نطق تندم عليه فاقتصر من الكلام ما يقيم حجتك ويبلغ به حاجتك
واياك وفضوله فانها تزل القدم وتورث الندم وقال الشاعر
اذا انت عن لم يحسن الصمت عاجزا فانت عن الابلاغ في القول اعجز
وقال بعض الفصحا في العاقل في بلج اذا همهم بالكلام احجم
وفم الجاهل مطلق كلما شا اطلق وقال بعض الشعرا
ان الكلام يعز القوم حلوته حتى يلج به عي واكثار
واما الشرط الرابع فهو اختيار اللفظ الذي يتكلم به فان اللسان
عنوان الانسان يترجم عن مجهوله ويبرهن عن محصوله فلو منه ان يكون

رجو
المتفيهقون

بتهذيب الفاظه حريا وبتقويم لسانه مليا روي عن النبي صلي الله عليه
انه قال لعمه العباس يعجبني جمالك قال وما جمال الرجل يا رسول الله قال
لسانه وقال خالد بن صفوان ما الانسان لولا اللسان هل هو
الا بهيمة مهملة او صورة ممثلة وقال بعض الحكما اللسان وزير الانسان
وقال بعض الادبا كلام المرء وافد ادبه وقال بعض البلغا يستدل
علي عقل الرجل بقوله وعلي اصله بفعله وقال بعض الشعرا ه

ه وان لسان المرء ما لم تكن له حصاه علي عوراته لدليل ه وليس يصح اعتبار
الكلام الا لمن اخذ نفسه بالبلاغة وكلفها لزوم الفصاحة حتي يصير
متدربا بها معتادا لها فلا ياتي الكلام مستكره اللفظ ولا مختل المعني
لان البلاغة ليست معاني مفردة ولا الفاظا عادية وانما البلاغة
ان تكون المعاني هي البلاغة وقد قيل لليوناني ما البلاغة فقال اختيار
الكلام وتصحيح الاقسام وقيل للرومي ما البلاغة فقال حسن الاقتصاد
عند البديهة والغزارة يوم الاطالة وقيل للهندي ما البلاغة فقال
معرفة الفصل من الوصل وقيل للعربي ما البلاغة قال ما حسن ايجازه
وقل مجازه وقيل للبدوي فقال ما دون السحر وفوق الشعر يفت الخردل
ويحط الجندل وقيل للحضري فقال ما كثر اعجازه وتناسبت صدوره واعجازه
وقال ابن المقفع البلاغة قلة الحصر والجراة علي البشر وسال الحجاج بن
القبعثري عن الايجاز فقال ان تقول فلا تبطي وان تصيب فلا تخطي
ثم قال املني قال قد فعلت قال هو ان لا تبطي ولا تخطي وقال

الشاعر في معني ذلك

ه خير الكلام قليل علي كثير دليل والعي معني قصير يحويه لفظ طويل ه

ه وفي الكلام فضول وفيه قال وقيل ه

فاما صحة المعاني فتكون من ثلاثة اوجه احدها ايضاح تفسيرها حتي لا
تكون مشكلة ولا مجملة والثاني استيفا تقسيمها حتي لا يدخل فيها
ما ليس منها ولا يخرج عنها ما هو منها والثالث صحة مقابلتها والمقابلة تكون

من وجهين

خ اختبار

خ الندم

من وجهين احدهما مقابلة المعني بما يوافقه وحقيقة هذا المعني المقاربة
لان المعاني تصير متشاكلة والثاني مقابلته بما يضاده وهو حقيقة المقابلة
وليس للمقابلة الا احد هذين الوجهين الموافقة في الايتلاف والمضادة مع
الاختلاف واما فصاحة الالفاظ فتكون بثلاثة اوجه احدها مجانبة
الغريب الوحشي حتي لا يمجه سمع ولا ينفر منه طبع والثاني تنكب اللفظ
المستبذل والعدول عن الكلام المسترذل حتي لا يستنقصه خاصي ولا ينبو
عن فهمه عامي كما قال الجاحظ في كتاب البيان اما انا فلم ار قوما امثل
طريقة في البلاغة من الكتاب وذلك انهم قد التمسوا من الالفاظ ما لم يكن متوعرا
وحشيا ولا ساقطا عاميا والثالث ان تكون بين الالفاظ ومعانيها مناسبة
ومطابقة اما المطابقة فهو ان تكون الالفاظ كالقوالب لمعانيها فلا تزيد عليها
ولا تنقص عنها وقد قال بشر بن المعتمر في وصيته في البلاغة اذا لم تجد
اللفظة واقعة موقعها ولا صايرة الي مستقرها ولا حالة في مركزها بل وجدتها
قلقة في مكانها نافرة في موضعها فلا تكرهها علي القرار في غير موضعها فانك
اذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم
يعبك بترك ذلك احد واذا انت تكلفتهما ولم تكن حاذقا فيهما عابك من انت
اقل عيبا منه وازري عليك من انت فوقه واما المناسبة فهو ان تكون المعاني
يليق بعض الالفاظ اما لعرف مستعمل او لاتفاق مستحسن حتي اذا ذكرت
تلك المعاني بغير تلك الالفاظ كانت نافرة عنها وان كانت اوضح وافصح
لاعتياد ما سواها وقد قال بعض البلغا لا يكون البليغ بليغا حتي يكون
معني كلامه اسبق الي فهمك من لفظه الي سمعك فاما معاطاة الاعراب وتجنب
اللحن فانما هو من صفات الصواب والبلاغة اعلا منه رتبة واشرف منزلة
وليس لمن لحن في كلامه مدخل في الادبا فضلا عن ان يكون في عداد البلغا والفصحا
واعلم ان للكلام ادابا ان اغفلها المتكلم ذهب رونق كلامه وطمس بهجة
بيانه والهي الناس عن محاسن فضله بمساوي ادابه وعدلوا عن نشر
مناقبه بذكر مثالبه فمن ادابه ان لا يتجوز في مدح ولا يسرف في ذم وان

خ واما معانيه

خ العظما

كانت النزاهة عن الذم كرمًا والتجوز في المدح ملقًا يصدر عن مهانة والسرف
في الذم انتقام يصدر عن شر وكلاهما شين وان سلم من الكذب روي
انه لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد تميم سال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ابن الاهتم عن قيس بن عاصم فمدحه فقال قيس يا رسول
الله لقد علم اني خير مما وصفه ولكنه حسدني فذمه عمرو وقال يا رسول
الله لقد صدقت في الاولى وما كذبت في الاخرى لاني رضيت في الاولى
فقلت له احسن ما علمت وسخطت في الاخرى فقلت اقبح ما علمت فقال
النبي صلى الله عليه وسلم ان من البيان لسحرًا على ان السلامة من الكذب في
المدح والذم متعذرة لا سيما اذا مدح تقربا وذم تحنقا حكي عن الاحنف بن قيس
انه قال سهرت ليلتي افكر في كلمة ارضي بها سلطاني ولا اسخط بها ربي فما وجد
وقال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه ان الرجل ليدخل على السلطان
ومعه دينه فيخرج وما معه دينه قيل وكيف ذلك قال يرضيه بما يسخط
الله تعالى وسمع ابن الرومي رجلًا يصف رجلًا ويبالغ في مدحه فانشا يقول
في معنى ذلك

اذا ما وصفت امرًا لامرئ   فلا تغل في وصفه واقصد
فانك ان تغل تغل الظنون   فيه الى الامد الابعد
فيضؤل من حيث عظمته   لفضل المغيب على المشهد

ومن ادابه ان لا تبعثه الرهبة والرغبة على الاسترسال في وعد
او وعيد يعجز عنهما ولا يقدر على الوفاء بهما فان من اطلق بهما لسانه وارسل
فيهما عنانه ولم يستثقل من القول ما يستثقله من العمل صار وعده نكثا و
وعيده عجزا وقد حكي ان سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام مر بعصفور
يدور بعصفورة فقال لاصحابه هل تدرون ما يقول لها قالوا لا يا نبي الله
قال انه يخطبها الى نفسه ويقول زوجيني نفسك اسكنك اي غرف دمشق
شئت قال سليمان عليه السلام وكذب العصفور غرف دمشق مبنية
بالصخر لا يقدر ان يسكنها هناك ولكن كل خاطب كاذب ومن ادابه

حول عصفورة

انه اذا قال قولًا حققه بفعله واذا تكلم بكلام صدقه بعمله فان ارسال القول
اختيار والعمل به اضطرار ولأن يفعل ما لم يقل اجمل من ان يقول ما لا يفعل
وقد قال بعض الحكما احسن الكلام ما لا يحتاج فيه الى الكلام اي يكتفي
بالفعل من القول وقال محمود الوراق

القول ما صدقه الفعل   والفعل ما وكده العقل
لا يثبت القول اذا لم يكن   يقله من تحته الاصل

ومن ادابه ان يراعي مخارج كلامه بحسب مقاصده واغراضه فان كان
ترغيبًا قرنه باللين واللطف وان كان ترهيبًا خلطه بالخشونة والعنف فان
لين اللفظ في الترهيب وخشونته في الترغيب خروج عن موضعهما وتعطيل
للمقصود بهما فيصير الكلام لغوًا والغرض المقصود لهوًا وقد قال ابو الاسود
الدؤلي لابنه يا بني اذا كنت في قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك ولا بكلام
من هو دونك فيزدروك ومن ادابه ان لا يرفع بكلامه صوتًا مستكرهًا ولا ينزعج
له انزعاجًا مستهجنًا وليكف عن حركة تكون طيشًا وعن اساءة تكون عجزًا فان
نقص الطيش اكثر من فضل البلاغة وقد حكي ان الحجاج قال لاعرابي
اخطب قال نعم لولا انك تكثر الرد وتشير باليد وتقول اما بعد ومن ادابه
ان يتجافى هجر القول ومستقبح الكلام وليعدل الى الكناية عما يستقبح
صريحه ويستهجن فصيحه ليبلغ الغرض ولسانه نزه وادبه مصون وقال
محمد بن علي رضي الله عنه في تاويل قوله تعالى واذا مروا باللغو مروا كرامًا
قال كانوا اذا ذكروا الفروج كنوا عنها وكما انه يصون لسانه عن ذلك فهكذا
يصون سمعه فلا يسمع خنا ولا يصغي الى فحش فان سماع الفحش داع الى اظهاره
وذريعة الى اكثاره فاذا وجد عن الفحش معرضًا كف قايله وكان اعراضه
احد النكيرين كما ان استماعه احد الباعثين انشدني ابو الحسن
ابن ابي الحارث الهاشمي

وسمعك صن عن سماع القبيح   كصون اللسان عن النطق به
فانك عند استماع القبيح   شريك لقايله فانتبه

ومما يجري مجرى فحش القول وهجره في وجوب اجتنابه ولزوم تنكبه
ما كان شنيع البديهة مستنكر الظاهر وإن كان مع التأمل سليمًا
وبعد الكشف والروية مستقيمًا كالذي رواه الازدي عن الصولي لبعض
المتكلفين من الشعرا

انني شيخ كبير كافر بالله سوى انت ربي والامي رازق الطفل الصغير

يريد بقوله كافر اي لابس لان الكفر التغطية ولذلك سمي الكافر
بالله كافرًا لانه قد غطا نعمة الله بمعصيته وقوله بالله سوى اقسم بالله ان
سيرق قوله ربي يعني ربي ولدك من التربية والامي رازق الطفل
الصغير كانه رازق الجد الكبير فانظر الى هذا التكلف الشنيع والتعمق
الشنيع ما اعتاض من خبث البديهة اذا سلم بعد الكد والروية
الا لوما ان حسن فيه الظن او ذما ان قوي فيه الارتياب فاقل ما يكون
ذلك الا من خليع بطر او مرتاب اشر فاما الحديث المروي عن النبي صلى
الله عليه وسلم انه قال لا تصلوا على النبي خارج عن هذا النوع من اللبس
وفي تاويله وجهان احدهما انه اراد النهي عن الصلوة في المكان المرتفع المحدودب
ماخوذ من النبوة والثاني انه اراد الطريق منه ومنه سمي رسل الله انبيا الله
لانهم الطرق اليه وانما زال عن التلبيس اذ قاله النبي صلى الله عليه وسلم
وان كان من قول غيره تلبيسًا شنعًا لان موضوع خطابه وشواهد احواله
يصرفان كلامه عن التجوز والاسترسال في امر او نهي الى ما يجوز ان يرد به
شرع ويرى عنه نبي وليس يمتنع ذلك في غيره ولذلك ما افترق وجوه
منه من غيره ومن ادابه ان يجتنب امثال العامة الغوغا ويتخصص بامثال
العلما والادبا فان لكل صنف من الناس امثالًا تشاكلهم فلا تجد لسافط
الامثال ساقطًا وتشبيها مستقبحًا وقد قال الصوري

وللساقط امثال فمنها تمثلهم لدى الشي المريب
اذا ما كنت ذا بول صحيح الا فاضرب به وجه الطبيب

ولذلك علتان

ولذلك علتان احداهما ان الامثال من هواجس الهمم وخطرات
النفوس ولم يكن لذي الهمة الساقطة الا مثلًا مرذولًا وتشبيهًا معلولًا
والثانية ان الامثال مستخرجة من احوال المتمثلين بها فبحسب ما هم
عليه تكون امثالهم فلهاتين العلتين ما وقع الفرق بين امثال الخاصة
والعامة وربما الف المتخصص مثلًا عاميًا وتشبيهًا ركيكًا لكثرة ما يطرق ق
سمعه من مخاطبة الارذال فيسترسل في ضربه مثلًا فيصير به مثلًا
كالذي حكي عن الاصمعي ان الرشيد يومًا ساله عن انساب بعض العرب
فقال على الخبير سقطت يا امير المومنين فقال له الفضل بن الربيع اسقط
الله حسك اتخاطب امير المومنين بمثل هذا الخطاب وكان الفضل بن الربيع
مع قلة علمه اعرف بما يستعمل من الكلام في محاورة الخلفا من الاصمعي
الذي هو واحد عصره وفريد دهره وللامثال في الكلام مواقع في الاسماع
وتاثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها ولا يوثر تاثيرها لان
المعاني لا يجد الشواهد بها واضحة النفوس بها وامقة القلوب بها واثقة
والعقول لها موافقة ولذلك ضرب الله الامثال في كتبه وجعلها من دلايل
رسله واوضح بها الحجة على خلقه لانها في المعقول مقبولة وفي القلوب معقولة
فلها اربعة شروط احدها صحة التشبيه واصابة التمثيل والثاني
ان يكون العلم بها سابقًا والكل عليه موافقًا والثالث ان يسرع وصولها
الى الفهم ويعجل صورها في الوهم من غير ارتيا في استخراجها ولا كد فكر
في استنباطها والرابع ان يناسب حال السامع ليكون ابلغ تاثيرًا
واحسن موقعًا فاذا اجتمعت هذه الامثال المضروبة هذه الشروط الاربعة
كانت زينة الكلام وحلا المعاني وتدبر الافهام وجلاء ع

الفصل الثاني في الصبر والجزع

ان من حسن التوفيق وامارة السعادة الصبر في الملمات والرفق عند
النوازل وبذلك نزل الكتاب وجاءت السنة قال الله تعالى يا ايها الذين
امنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون يعني اصبروا

على ما افترض عليكم وصابروا عدوكم ورابطوا فيه تاويلان احدهما
رابطوا على الجهاد والثاني رابطوا على انتظار الصلوات روى ابو هريرة
رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا ادلكم على ما
يمحوا الله به الخطايا الحديث فنزل الكتاب بتاكيد الصبر فيما امر به
وندب اليه وجعله من عزايم التقوى فيما افترضه وحث عليه وروى
عن النبي صلى الله عليه وسلم الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب
وقال علي رضي الله تعالى عنه الصبر مطية لا تكبوا والقناعة سيف
لا ينبوا وقال عبد الحميد لم اسمع اعجب من قول عمر بن الخطاب رضي الله
عنه لو ان الصبر والشكر بعيران ما باليت ايهما ركبت وقال ابن عباس
رضي الله عنه افضل العدة الصبر على الشدة وقال بعض البلغا من خير
خلال الصبر على اختلال وقيل في منثور الحكم من احب البقا فليعد
للمصايب قلبا صبورا وقال بعض الحكما بالصبر على مواقع الكره يدرك
الحظوظ وقال بعض الشعرا وهو عبيد بن الابرص

اجمل الصبر عند كل ملم ان في الصبر حيلة المحتال
لا تضيقن في الامور فقد تكشف غماوها بغير احتيال
ربما تجزع النفوس من الامر له فرجة كحل العقال

وقال ابن المقفع في كتاب اليتيمة الصبر صبران فالليام اصبر اجساما
والكرام اصبر نفوسا وليس الصبر الممدوح صاحبه ان يكون الرجل قوي
الجسد على الكد والعمل لان هذا من صفات الحمير ولكن ان يكون للنفس
غالبا وللامور محتملا ولجاشه عند الحفاظ مرتبطا واعلم ان الصبر
على ستة اقسام وهو في كل قسم منها محمود فاول اقسامه واولاه الصبر
على امتثال ما امر الله تعالى به والانتهاء عما نهى الله تعالى عنه لان به تخلص
الطاعه وبخلوص الطاعة يصح الدين وتودى الفروض ويستحق الثواب
كما قال في محكم الكتاب انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب ولذلك
قال النبي صلى الله عليه وسلم الصبر من الايمان بمنزلة الراس من الجسد

وليس

اذا فات الصبر

لانه به يصح ادا
الفرايض واكمال
السنن وبعضها
استجلاب الثواب

118

وليس لمن قل صبره على طاعة الله حظ من بر ولا نصيب من صلاح
ومن لم ير لنفسه صبرا يكسبها ثوابا ويدفع عنها عقابا كان مع سوء
الاختيار بعيدا من الرشاد حقيقا بالضلال وقد قال الحسن البصري
يا من يطلب من الدنيا ما لا يلحقه اترجوا ان تطلب من الاخرة ما لا تطلبه
وقال ابو العتاهية

اراك امرا ترجو من الله عفوه وانت على ما لا يحب مقيم
تدل على التقوى وانت مقصر فيا من يداوي الناس وهو سقيم

وهذا النوع من الصبر انما يكون لفظ الجزع وشدة الخوف فان من خاف
الله صبر على طاعته ومن جزع من عقابه وقف عند اوامره والقسم
الثاني الصبر على ما فات ادراكه من مسرة وانقضت اوقاته من مضرة
فانه يتعجل به الراحة مع اكتساب المثوبة فان صبر طايعا والا احتمل
هما لازما وصبر كارها كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
يقول الله تعالى من لم يرض بقضائي ويصبر تحت بلائي فليتخذ ربا سوائي
وقال علي رضي الله عنه للاشعث بن قيس انك ان صبرت جرى القلم
عليك وانت ماجور وان جزعت جرى القلم عليك وانت مازور وفي ذلك
ابو تمام الطائي في شعره

وقال علي في التعازي لاشعث وخاف عليه بعض تلك الماثم
اتصبر للبلوى عزاء وحسبة فتوجر ام تسلو سلو البهايم

وقال شبيب بن شيبة للمهدي ان احق ما صبرت عليه ما لم تجد سبيلا
الى دفعه وانشد واذا اصابتك مصيبة فاصبر لها عظمت رزية من بلي مصيبة
لا يصبر والقسم الثالث الصبر على ما فات ادراكه من رغبة مرجوة
واعوز نيله من مسرة مامولة فان الصبر عنها يعقب السلوة منها والاسف
بعد الياس خرق روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اعطي فشكر
ومنع فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر اولئك لهم الامن وهم مهتدون
وقال بعض الحكما اجعل ما طلبت من الدنيا فلم تنله مثل ما لم يخطر ببالك

بقضا وفات من رد
ما جهده الجزع
عليها او حادثة
قد استكمل الالم
والم بها فان الصبر
الهها تعقبه الراحة
منها وحسبه المثوبة
عنها

وبالصبر والتلطف
يرجع عادة ما نجا
من الشرور وبالجزع
ما يرجوه من الخير

فلم تنقله وقال بعض الشعرا

اذا ملك القضا عليك امرا ... فليس يحله غير القضا

فما لك والمقام بدار ذل ... ودار العز واسعة الفضا

وقال بعض الحكما ان كنت تجزع على ما فات من يدك فاجزع على ما لم يصل اليك
فاخذه بعض الشعرا فقال

لا تطل الحزن على فايت ... فقل ما يجدي عليك الحزن

سيان محزون على فايت ... ومضمر حزنا لما لم يكن

والقسم الرابع الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها او يحذر حلوله من
نكبة يخشاها فلا يتعجل هم ما لم يات فان اكثر الهموم كاذبة والاغلب من الخوف
مدفوع وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم انه قال بالصبر يتوقع الفرج
ومن يدمن قرع الابواب يلج وقال الحسن لا تحملن على يومك هم غدك فحسب
كل يوم همه وانشد الجاحظ لحارثة بن بدر

اذا الهم امسى وهو دا فامضه ... ولست بممضيه وانت تعادله

ولا تنزلن امر الشديدة بامرئ ... اذا هم امرا عوقته عواذله

وقل للفواد ان نزا بك نزوة ... من الروع افرخ اكثر الهم باطله

والقسم الخامس الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها وينتظر من نعمة ياملها
فان ادهشه التوقع لها واذهله التطلع اليها انسدت عليه سبل المطالب
واستفزه تسويل المطامع فكان ابعد لراحته واعظم لبلايه واذا كان مع الرغبة
وقورا وعند الطلب صبورا انجلت عليه عمايه الدهش وانجابت عنه حيرة
الوله فابصر رشده وعرف قصده وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال الصبر ضيا يعني والله اعلم انه يكشف ظلم الحيرة ويوضح حقايق الامور
وقال اكثم بن صيفي من صبر ظفر وقال ابن المقفع كان في قصار الانشا
مكتوبا الصبر مفتاح الدرك وقال بعض الحكما بحسن التاني تسهل المطالب
وقال بعض البلغا من صبر نال المنى ومن شكر حصن النعما وقال محمد بن بشير

ان الامور اذا انسدت مطالبها ... فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا

[margin: عن]

[catchword: لا]

لا تياسن وان طالت مطالبة ... اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا

اخلق بذي الصبر ان يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للابواب ان يلجا

والقسم السادس الصبر على ما نزل من مكروه او حل من امر مخوف وبالصبر
في هذا تنفتح وجوه الارا وتستدفع مكايد الاعدا فان من قل صبره عزب
رايه واشتد جزعه فصار صريع همومه وفريسة غمومه وقد قال تعالى
واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور وروى ابن عباس رضي الله
عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان استطعت ان تعمل لله تعالى
بالرضى في النفس فافعل فان لم تستطع فان في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا
واعلم ان النصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر
وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه الصبر مناضل الحدثان والجزع من
اعوان الزمان وقال بعض الحكما بمفتاح عزيمة الصبر تعالج مغاليق الامور
وقال بعض الادبا عند انسداد الفرج تبدو مطالع الفرج وروى ابن
عباس رضي الله عنه ان سليمان بن داود عليهما السلام لما استكد الشياطين
في البنا شكوا ذلك الى ابليس لعنه الله تعالى فقال الستم تذهبون فرغا
وترجعون مشاغل قالوا بلى قال ففي هذا لكم راحة فبلغ ذلك سليمان بن داود
عليهما السلام فشغلهم ذاهبين وراجعين فشكوا ذلك الى ابليس لعنه الله
فقال الستم تستريحون بالليل قالوا بلى قال ففي هذا راحة لكم نصف دهركم
فبلغ ذلك سليمان عليه السلام فشغلهم بالليل والنهار فشكوا ذلك الى
ابليس لعنه الله فقال الان جاكم الفرج فما لبثوا ان اصيب سليمان عليه
السلام ميتا على عصاه فاذا كان هذا في نبي من انبيا الله يعمل بامره ويقف
على حده فكيف بما جرت به الاقدار من ايدي عاديه وساقه القضا من حوادث
نازلة هل تكون مع التناهي الا منقرضة وعند بلوغ الغاية الا منحسرة
وانشد بعض الادبا لعثمان بن عفان رضي الله عنه

خليلي لا والله ما من ملمة ... تدوم على حي وان هي جلت

فان نزلت يوما فلا تخضعن لها ... ولا تكثر الشكوى اذا النعل زلت

[margin: طين]

[margin: شغلهم]

فكم من كريم قد بلي بنوايب فصابرها حتى مضت فاضمحلت
وكم غمرة هاجت بامراج غمرة تلقيتها بالصبر حتى تجلت
وكانت على الايام نفسي عزيزة فلما رات صبرا على الذل ذلت

ولتسهيل المصايب وتخفيف الشدايد اسباب اذا قارنت حزما وصادفت عزما هان وقعها وقل تاثيرها وضررها فمنها اشعار النفس بما تعلم من حلول الفنا وتقضي المساد وان لها اجالا منصرمة ومددا منقضية اذ ليس للدنيا حال تدوم ولا لمخلوق فيها بقا روي ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم انه قال انما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب مال الي ظل شجرة في يوم صايف ثم راح وتركها وسيل علي بن ابي طالب رضي الله عنه عن الدنيا فقال تغر وتضر وتمر وسال بعض خلفا بني العباس جليسا له عن الدنيا فقال اذا اقبلت ادبرت وقال عمرو بن عبيد الدنيا امد والاخرة ابد وقال انوشروان ان احببت لن لا تغتم فلا تقتن فاخذه بعض الشعرا فقال

الم تر ان الدهر من سوء فعله يكدر ما اعطي ويسلب ما اسدا
فمن سره ان لا يري ما يسوه فلا يتخذ شيا يبالي له فقدا

وانشد بعض الحكما فقال

حكيمنا بقراط خير من قضية ووصية تنفي الهموم الوكدا
قال الهموم تكون من طمع الورا في لبث ما في طرفة لن يعقدا
فاذا اقتنيت من الزجاجة قابلا للكسر فانكسرت فلا تكمدا

وانشدني بعض اهل العلم لسعيد بن مسلم

انما الدنيا هبات وعوار مستردة ه شدة بعد رخا ورخا بعد شدة ه ولما قتل بزرجمهر وجد في جيب قميصه رقعة فيها مكتوب اذا لم يكن جد ففيم الكد واذا لم يكن للامور دوام ففيم السرور واذا لم يرد الله دوام ملك ففيم الحيلة

وقال ابن الرومي

رايت حياة المرء رهنا بموته وصحته رهنا لذلك بالسقم

اذا طاب لي عيش تنغصت طيبه بصدق يقين لن سيذهب
ومن كان في عيش يراعي زواله فذلك في بوس وان كان في نعم كالحلم

ومنها ان يتصور انجلا الشدايد وانكشاف الهموم وانها تتقدر باوقات لا تنصرم قبلها ولا تستديم بعدها ولا تقصر بجزع ولا تطول بصبر ولن كان كل يوم يمر بها فهو يذهب منها بشطر وياخذ منها بنصيب حتي تنجلي وهو عنها غافل حكي ان الرشيد حبس رجلا ثم سال عنه بعد زمان فقال الرجل للموكل به قل له كل يوم يمضي من نعيمك يمضي من بوسي مثله والامر قريب والحكم الله تعالي فاخذ هذا المعني بعض الشعرا فقال

لو لن ما انتم فيه يدوم لكم ظننت ما انا فيه دايما ابدا
لكنني عالم اني وانكم سنستجد خلاف الحالتين غدا

وانشدت لبعض الشعرا

عواقب مكروه الامور خيار وايام شر لا تدوم قصار
وليس بباق بوسها ونعيمها اذا كر ليل ثم كر نهار

وانشد عمر بن الخطاب رضي الله تعالي عنه حين حضرته الوفاة

الم تر ان ربك ليس تحصي اياديه الحديثة والقديمة
تسل عن الهموم فليس شي بمقيم ولا همومك بالمقيمة
لعل الله ينظر بعد هذا اليك بنظرة منه رحيمة

ومنها ان يعلم ان فيما وقي من الرزايا وكفي من الحوادث ما هو اعظم من رزيته واشد من حادثته ليعلم انه ممنوع بحسن الدفاع ولذلك قال النبي صلي الله عليه وسلم ان لله تعالي في اثنا كل محنة منحة وقيل للشعبي في نايبة كيف اصبحت قال بين نعمتين خير منشور وشر مستور وقال بعض الشعرا لا تكره المكروه عند حلوله ان العواقب لم تزل متباينة

كم نعمة لا تستقل بشكرها لله في طي المكاره كامنة

ومنها ان يتاسي بذوي الغير ويتسلي باولي العبر ويعلم انهم الاكثرون عددا والاسرعون مددا فيستجد من سلوة الاسا وحسن العزا ما

يخفف شجوه ويقل هلعه وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصقوا
بذوي الغير تسع قلوبكم وعلى مثل ذلك كانت مراثي الشعرا حتى
قال البحتري

فلا عجب للاسد ان ظفرت بها كلاب الاعادي من فصيح واعجم
فحربة وحشي سقت حمزة الردى وموت علي من حسام ابن ملجم

وقال ابو فراس في ذلك

المرء نصب مصايب لا تنقضي حتى يوارى جسمه في رمسه
فموجل يلقى الردى في اهله ومعجل يلقى الردى في نفسه

ومنها ان يعلم ان النعم زايرة وانها لا محالة زايلة وان السرور بها اذا
اقبلت مشوب بالحذر من فراقها اذا ادبرت ولانها لا تفرح باقبالها فرحا
حتى تعقب بفراقها ترحا فعلى قدر السرور يكون الحزن وقد قيل في منثور
الحكم المفروح به هو المحزون عليه وقد قيل من بلغ غاية ما يحب فليتوقع
غاية ما يكره وقال بعض الحكما من علم ان كل حادث الى انقضا حسن
عزاوه عند نزول البلا وقيل للحسن البصري رضي الله عنه كيف ترى الدنيا
قال شغلني توقع بلايها عن الفرح برخايها اخذه ابو العتاهية
فقال

تريك الايام ان اقبلت شدة خوف لتصاريفها
كانها في حال اسعافها تسمعه وقعة تخويفها

ومنها ان يعلم ان سروره مقرون بمساه غيره ولذلك حزنه مقرون
بسرور غيره اذا كانت الدنيا تنتقل من صاحب الى صاحب وتصل
صاحبا بفراق صاحب فيكون سرورا لمن وصلته وحزنا لمن فارقته
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما قرعت عصي على عصي الا فرح
قوم وحزن اخرون وقال البحتري

متى ارت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب الا خمول نبيه

وانشد بعض اهل الادب

الا انما

١٢١

الا انما الدنيا غضارة ايكة اذا اخضر منها جانب جف جانب
فلا تفرحن منها بشي تفيده سيذهب يوما مثل ما انت ذاهب
وما هذه الايام الا فجايع وما العيش واللذات الا مصايب

فلا تفرحن منها لعينه

ومنها ان يعلم ان طوارق الانسان من دلايل فضله ومحنه من شواهد
نبله وذلك لاحدى علتين اما لان الكمال معوز والنقص لازم فاذا توفر
الفضل عليه صار الفضل فيما سواه وقد قيل من زاد في عقله نقص من
رزقه وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما انتقصت جارحة من
انسان الا كانت ذكا في عقله وقال ابو العتاهية

ما جاوز المرء من اطرافه طرف الا تخونه النقصان من طرف

تخونه

وانشد بعض اهل الادب لابرهيم بن هلال الكاتب

اذا جمعت بين امرين صناعة فاحببت ان تدري الذي هو احذق
فلا تتفقد منهما غير ما جرت به لهما الارزاق حين تفرق
فحيث يكون النقص فالرزق واسع وحيث يكون الفضل فالرزق ضيق

واما لان ذا الفضل محسود وبالاذى مقصود فهو لا يسلم من ترح معاد
وانتشاط فساد وقد قال الصنوبري

محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى كالنار مخبرة بفضل العنبر

وقلما تكون محنة فاضل الا من جهة ناقص وبلوى عالم الا على يد جاهل
لاستحكام العداوة بينهما بالمباينة وحدوث الانتقام لاجل التقدم وقد
قال الشاعر

فلا غرو ان يمنى اديب بجاهل فمن ذنب التنين تنكسف الشمس

ومنها ما يعتاضه من الارتياض بنوايب عصره ويستفيده من الحنكة ببلاوا
دهره فيصلب عوده ويستقيم عموده ويكمل تادي شده ودربته
ويتعظ بحالتي عفوه وبلايه حكي عن ثعلب قال دخلت على عبيد الله
بن سليمان بن وهب وعليه خلع الرضا بعد النكبة فلما مثلت بين يديه
قال لي يا ابا العباس

نوايب الدهر ادبني وانما يوعظ الاديب

قد ذقت حلوا وذقت مرا كذاك عيش الفتى ضروب
لم يمض بوس ولا نعيم الا ولي فيهما نصيب
كذاك من صاحب الليالي تغدو بي مرها خطوب

قلت لمن هذه الابيات قال لي ومنها ان يخبر امور زمانه ويتنبه على صلاح
شانه فلا يغتر برخاء ولا يطمع في استواء ولا يامن ان تبقى الدنيا على حالة
او تخلو من تقلب واستحالة فانه من عرف الدنيا واختبر اهلها هان عليه
بوسها ونعيمها وانشد بعض الادبا

اني رايت عواقب الدنيا فتركت ما اهوى لما اخشى
فكرت في الدنيا وعالمها فاذا جميع امورها تفنى
وبلوت اكثر اهلها فاذا كل امرئ في شانها يسعى
اسنى منازلها وارفعها في العز اقربها من المهوى
تعفو مساويها محاسنها لا فرق بين النعي والبشرى
ولقد مررت على القبور فما فرقت بين العبد والمولى
اتراك تذكر كم رايت من الاحياء ثم رايتهم موتى

فاذا ظفر المصاب باحد هذه الاسباب تخففت عنه احزانه وتسهلت عليه
اشجانه فصار وشيكا السلوة قليل الجزع حسن العزا قال بعض الحكما
من حاذر لم يهلع ومن راقب لم يجزع ومن كان متوقعا لم يلف متوجعا وقال
بعض الشعرا

ما يكون الامر سهلا كله انما الدنيا سهول وحزون
هون الامر تعش في راحة قل ما هونت الا سيهون
تطلب الراحة في دار الفنا ضل من يطلب شيا لا يكون

فان اغفل نفسه عن دواعي السلوة ومنعها من اسباب الصبر تضاعف
عليه من شدة الاسى وهم الجزع ما لا يطيق صبرا عليه ولا يجد سلوة عنه
وقال ابن الرومي

ان البلا يطاق غير مضاعف فاذا تضاعف صار غير مطاق

عندي من

فان ساعد جزعه بالاسباب الباعثة عليه وامد هلعه بالدواعي الداعية
اليه فقد سعى في حتفه واعان على تلفه فمن اسباب ذلك تذكر المصاب حتى
لا ينساه وتصوره حتى لا يعزف عنه ولا يجد مع التذكار سلوة ولا يخلط
مع التصور تعزية وقد قال عمر بن الخطاب لا تستفزوا الدموع وتبعث
الاحزان مثل التذكر وقال الشاعر

ولا يبعث الاحزان مثل التذكر

ومنها الاسف وشدة الحسرة
فلا يرى من مصابه خلفا ولا يجد لمفقوده بدلا فيزداد بالاسف ولها وبالحسرة
هلعا قال تعالى لكيلا تاسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما اتاكم وقال بعض الشعرا

اذا ابتليت فثق بالله وارض به ان الذي يكشف البلوى هو الله
اذا قضى الله فاستسلم لقدرته ما لامرئ حيلة فيما قضى الله
الياس يقطع احيانا بصاحبه لا تياسن فان الصانع الله

ومنها كثرة الشكوى وبث الجزع وقد قيل في قوله تعالى فاصبر صبرا جميلا انه
الصبر الذي لا شكوى فيه ولا بث روى انس بن مالك رضي الله عنه ان النبي
صلى الله عليه وسلم قال ما صبر من بث وحكى كعب الاحبار انه مكتوب في
التورية من اصابته مصيبة فشكى الى الناس فانما يشكو ربه وحكى ان اعرابية
دخلت في البادية فسمعت صوارخ في دار فقيل لها مات لهم انسان فقالت
ما اراهم الا من ربهم يستغيثون وبقضايه يتبرمون وعن ثوابه يرغبون وقيل
في منثور الحكم من ضاق قلبه اتسع لسانه وانشدني بعض اهل العلم

لا تكثر الشكوى الى الصديق وارجع الى الخالق لا المخلوق
لا يخرج الغريق بالغريق

وقال بعض الشعرا

لا تشك دهرك ما صححت به ان الغنى هو صحة الجسم
هبك الخليفة كنت منتفعا بغضارة الدنيا مع السقم

ومنها الياس من خير مصابه ودرك طلابه فيقترن بحزن الحادثة قنوط
الاياس فلا يبقى معهما صبر ولا يتسع لهما صدر ولذلك قيل المصيبة بالصبر

اعظم المصيبتين وقال ابن الرومي
اصبري ايتها النفس فان الصبر احجا
ربما خاب رجاء واتي ما ليس رجا ٥ وانشد بعض اهل
الادب ٥ احسب لن ابوس لمحرد ايم ولو دام شي عده الناس في العجب
٥ لقد عرفت الحادثات نفوسها وقد ادبت ان كان ينفعك الادب
٥ ولو طلب الانسان من صرف دهره دوام الذي يخشاه اعياه ما طلب
ومنها ان يروي حوادث ملاحظة من حفظت سلامته وحرست نعمته
حتي التحف بالامن والدعة واستمتع بالثروة والسعة ويري انه قد
خص من بينهم بالرزية بعد ان كان متساويا وافرد بالحادثة بعد ان
كان مكافيا فلا يستطيع صبرا علي بلوي ولا يلتزم شكرا علي نعما ولو قابل
بهذه النظرة ملاحظة من شاركه في الرزية وساواه في الحادثة لتكافي
عنده الامران فهان عليه الصبر وحان منه الفرج وانشدت لامراة من
العرب
ايها الانسان صبرا ان بعد العسر يسرا كم راينا اليوم حرا لم يكن بالامس حرا
ملك الصبر فاضحي مالكا خيرا وشرا اشرب الصبر وان كان من الصبر امرا
وانشد بعض اهل الادب
راع الفتي للخطب تبدو صدوره فياسي وفي عقباه ياتي سروره
الم تر ان الليل لما تراكمت دجاه بدا وجه الصباح ونوره
فلا تصحبن الناس ان كنت عالما لبيبا فان الدهر شتي اموره
واعلم انه قل من صبر علي حادثة وتماسك في نازلة الا كان انكشافها وشيكا
وكان الفرج منه قريبا اخبرني بعض اهل الادب ان ابا ايوب الكاتب
حبس في السجن خمس عشرة سنة حتي ضاقت حيلته وقل صبره فكتب الي
بعض اخوانه يشكو طول حبسه وقلة صبره فكتب اليه بعض اخوانه
جواب رقعته
صبرا ابا ايوب صبر مبرح فاذا عجزت عن الخطوب فمن لها

ان الذي

ان الذي عقد الذي انعقدت له عقد المكاره فيه يملك حلها
صبرا فان الصبر يعقب راحة ولعلها ان تنجلي ولعلها
فاجابه ابو ايوب
صبرتني ووعظتني وانا لها بل اقول لعلها
ويحلها من كان صاحب عقدها كرما به اذ كان يملك حلها
قال فلم يلبث بعد ذلك في السجن الا اياما ثم اطلق مكرما معظما وانشد
ابن ابي دريد عن ابي حاتم
٥ اذا اشتملت علي الياس القلوب وضاق لما به الصدر الرحيب
٥ واوطنت المكاره واطمانت وارست في اماكنها الخطوب ظ مكامنها
٥ ولم تر لانكشاف الضر وجها ولا اغني بحيلته الاريب
٥ اتاك علي قنوط منك غوث يمن به القريب المستجيب
٥ وكل الحادثات وان تناهت فموصول بها فرج قريب

الفصل الثالث في المشورة

الحزم لكل ذي لب ان لا يبرم امرا ولا يمضي عزما الا بمشورة ذي الراي
الناصح ومطالعة ذي العقل الراجح فان الله تعالي امر بالمشورة نبيه
صلي الله عليه وسلم لاصحابه مع ما تكفل به من ارشاده ووعد به من
تاييده فقال عز من قائل وشاورهم في الامر واختلف في معني امره بالمشا ورة
فقال قتادة امره بمشاورتهم تالفا لهم وتطييبا لانفسهم وقال الضحاك
امره بمشاورتهم ليستن بذلك المسلمون ويتبعه فيها المومنون وان كان
عن مشورتهم غنيا وروي عن النبي صلي الله عليه وسلم انه قال المشاورة
حصن من الندامة وامان من الملامة وقال علي بن ابي طالب رضي الله
عنه نعم الموازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد وقال عمر بن الخطاب
رضي الله عنه الرجال ثلاثة رجل ترد عليه الامور فيسددها برايه ورجل
يشاور فيما اشكل عليه وينزل حيث ما امره اهل الراي ورجل جائر حائر
لا ياتمر رشدا ولا يطيع مرشدا وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله

عنه ان المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة لا يضل معهما راي ولا يفقد معهما حزم وقال سيف بن ذي يزن من اعجب برايه لم يشاور ومن استبد برايه كان من الصواب بعيدا وقال عبد الحميد المشاور في رايه كالناظر من ورايه وقيل في منثور الحكم المشورة راحة لك وتعب على غيرك وقال بعض الحكما الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برايه وقال بعض الادبا ما خاب من استخار ولا ندم من استشار وقال بعض البلغا من حق العاقل ان يضيف الى عقله ارا العقلا ويجمع الى عقله عقول الحكما فالراي الفذ ربما زل والعقل الفرد ربما ضل

وقال بشار بن برد

اذا بلغ الراي المشورة فاستعن براى نصيح او نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فكان الخوافي قوة للقوادم

فاذا عزم على المشاورة ارتاد لها من اهلها من قد استكمل فيه خمس خصال احداهن عقل كامل مع تجربة سالفة فان بكثرة التجارب تصح الروية وقد روى ابو الزناد عن الاعرج عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا وقال عبد الله بن الحسين لابنه محمد احذر مشورة الجاهل وان كان ناصحا كما تحذر عداوة العاقل اذا كان عدوا فانه يوشك ان يورطك في مشورته فيسبق اليك مكر العاقل وتورط الجاهل وقيل لرجل من عبس ما اكثر صوابكم قال نحن الف رجل وفينا حازم ونحن نطيعه فكانا الف حازم وكان يقال اياك ومشاورة رجلين شاب معجب بنفسه قليل التجارب في غيره او كبير قد اخذ الدهر من عقله كما اخذ من جسمه وقيل في منثور الحكم كل شي محتاج الى العقل والعقل محتاج الى التجارب ومن ذلك قيل الايام تهتك لك عن الاسرار الكامنة وقال بعض الحكما التجارب ليس لها غاية والعاقل منها في زيادة وقال بعض البلغا من استعان بذوي العقول فاز بدرك المامول وقال ابو الاسود

الدولي

الدولي

وما كل ذي نصح بموتيك نصحه وما كل موت نصحه بلبيب
ولكن اذا ما استجمعا عند صاحب فحق له من طاعة بنصيب

والخصلة الثانية ان يكون ذا دين وتقى فان ذلك عماد كل صلاح وباب كل نجاح ومن غلب عليه الدين فهو مامون السريرة موفق العزيمة روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اراد امرا فشاور فيه امرا مسلما وفقه الله لارشد اموره والخصلة الثالثة ان يكون ناصحا ودودا فان النصح والمودة يصدقان الفكر ويمحضان الراي وقد قال بعض الحكما لا تشاور الا الحازم غير الحسود واللبيب غير الحقود واياك ومشاورة النسا فان رايهن الى الافن وعزمهن الى الوهن وقال بعض الادبا مشورة المشفق الحازم ظفر ومشورة غير الحازم خطر وقال بعض الشعرا

اصف ضميرا لمن تعاشره واسكن الى ناصح تشاوره
وارض من المرء في مودته بما يودي اليك ظاهره
من يكشف الناس لا يجد احدا تصح منه له سرايره
اوشك ان لا يدوم وصل اخ في كل زلاته تنافره

والخصلة الرابعة ان يكون سليم الفكر من هم قاطع وغم شاغل فان من عارضت فكره شوايب الهموم لم يسلم له راي ولم يستقم له خاطر وقد قيل في منثور الحكم بترداد الفكر تنجاب لك الغمر وكان كسرى اذا دهمه امر بعث الى مرازبته فاستشارهم فان قصروا في الراي ضرب قهارمته وقال ابطاتم بارزاقهم فاخطوا في رايهم وقال صالح بن عبد القدوس

وما مشير كذي نصح ومقدرة في مشكل الراي فاختر ذاك منتصحا

والخصلة الخامسة الا يكون له في الراي المستشار غرض يتابعه ولا هوى يساعده فان الاغراض جاذبة والهوى صاد والراي اذا عارضه الهوى وجاذبته الاغراض فسد وقد قال الفضل بن العباس بن عتبة بن ابي لهب

لقد يحكم الايام من كان جاهلا ويردي الهوى ذا الراي وهو لبيب

وقد يجد الراي الغبي وهو مخطي ويعدل في الاحسان وهو مصيب
فاذا استكملت هذه الخصال الخمس في رجل كان اهلاً للمشورة ومعدناً
للراي فلا تعدل عن استشارته اعتماداً على ما تتوهمه من فضل رايك
وثقة بما تستشعره من صحة رويتك فان راي غير ذي الحاجة اسلم وهو
من الصواب اقرب لخلوص الفكر وخلو الخاطر مع عدم الهوي وارتفاع
الشهوة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال راس العقل
بعد الايمان بالله التودد الى الناس وما استغنى مستبد برايه ولا
هلك احد من مشورة واذا اراد الله بعبد هلكة كان اول ما يهلكه برايه
وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه الاستشارة عين الهداية وقد خاطر
من استغنى برايه وقال لقمان لابنه شاور من جرب الامور فانه يعطيك
من رايه ما قام عليه بالغلا وانت تاخذه بالمجان وقال بعض الحكما
نصف رايك مع اخيك فشاوره ليكمل لك الراي وقال بعض الادبا من
استغنى برايه ضل ومن اكتفى بعقله زل وقال بعض البلغا الخطا مع
الاسترشاد احمد من الصواب مع الاستبداد وقال بعض الشعرا
خليلي ليس الراي في صدر واحد اشيرا على اليوم ما تريان
فلا ينبغي للعاقل ان يتصور في نفسه انه ان شاور ظهر منه للناس ضعف
رايه وفساد رويته حتى افتقر الى راي غيره فان هذه معاذير النوكى وليس
يراد الراي للمباهاة به وانما يراد للانتفاع بنتايجه والتحرز من الخطا عند
زلله وكيف يكون عاراً ما ادى الى الصواب وصد عن الخطا وقد روي عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لقحوا عقولكم بالمذاكرة واستعينوا على
اموركم بالمشاورة وقال بعض الحكما من كمال عقلك استظهارك على عقلك
وقال بعض البلغا اذا اشكلت عليك الامور وتغير لك الجمهور فارجع الى
راي العقلا وافزع الى استشارة العلما ولا تانف من الاسترشاد ولا
تستنكف من الاستمداد فلان تسال وتسلم خير لك من ان تستبد

وتندم وينبغي ان يكثر من استشارة ذوي الالباب لا سيما في الامر
الجليل فقل ما يضل عن الجماعة راي او يذهب عنهم صواب لارسال
الخواطر الثاقبة واجالة الافكار الصادقة لا يعزب عنها ممكن ولا يخفى
عليها جائز وقد قيل في منثور الحكم من اكثر المشورة لم يعدم عند الصواب
مادحاً ولا عند الخطا عاذراً وان الخطا من الجماعة بعيد فاذا استشار
الجماعة فقد اختلف اهل الراي في اجتماعهم عليه او افراد كل واحد منهم
به فمذهب الفرس ان الاولى اجتماعهم على الاديبا واجالة الفكر ليذكر كل
واحد من الجماعة ما قدحه خاطره ونتجه فكره حتى اذا كان فيه قدح
عورض وان توجه عليه رد نوقض بالجدل الذي تجود فيه المناظرة
وتقع فيه المنازعة والمشاجرة فانه لا يبقى فيه مع اجتماع القرايح عليه
خلل الا ظهر ولا زلل الا بان وذهب غيرهم من اصناف الامم الى ان الاولى
استسرار كل واحد بالمشورة ليجيل كل واحد منهم فكره في الراي طمعاً
في الحظوة بالصواب فان القرايح اذا انفردت استكدها الفكر واستفرغها
الاجتهاد واذا اجتمعت فوضت وكان الاول من ارايها متبوعاً ولكل واحد
من المذهبين وجه ووجه الثاني اظهر والذي اراه في الاولى غير هذين
المذهبين على الاطلاق ولكن ينظر في الشورى فان كانت في حال واحدة
هل هي خطا او صواب كان اجتماعهم عليها اولى لان ما تردد بين امرين والمراد
منه الاعتراض على فساده او ظهور الحجة في صلاحه فهذا مع الاجتماع ابلغ
وعند المناظرة اوضح وان كانت الشورى في خطب قد استبهم صوابه
واستعجم جوابه في امور خافية واحوال غامضة لم يحصرها عدد ولم يجمعها
تقسيم ولا عرف لها جواب فيكشف عن خطايه وصوابه فالاولى في مثله
انفراد كل واحد بفكره وخلوه بخاطره ليجتهد في الجواب ثم يقع الكشف عنه
اخطا هو ام صواب فيكون الاجتهاد في الجواب منفرداً والكشف عن الصواب
مجتمعاً لان الانفراد في الاجتهاد اصح والاجتماع على المناظرة ابلغ وينبغي
ان يسلم اهل الشورى من حسد او تنافس يمنعهم من تسليم الصواب

ثم يعرض المستشير ذلك على نفسه مع مشاركتهم في الارتيا والاجتهاد
فاذا تصفح اقاويل جميعهم كشف عن اصولها واسبابها وبحث عن نتايجها
وعواقبها حتى لا يكون في الامر مقلدا ولا في الراي مفوضا فانه
يستفيد بذلك مع ارتياضه بالاجتهاد ثلاث خصال احداهن معرفة
وعقل وصحة رويته والثانية معرفة عقل صاحبه وصواب رايه
والثالثة وضوح ما استبهم من الراي وانفتاح ما انغلق من الصواب
فاذا تقرر له الراي امضاه ولم ياخذه تعاقب الالداء فانما على الناصح
الاجتهاد وليس عليه ضمان النجح لا سيما والمقادير غالبة ومتى عرف
منه تعقب المشير وكل الى رايه واسلم الى نفسه فصار فردا لا يعان
براي ولا يمد بمشورة وقد قالت العرب في حكمها اضعف الحيلة خير
من اقوى الشدة واقل التاني خير من اكثر العجلة والدولة رسول
القضا المبرم واذا استبد الملك برايه عميت عليه المراشد فاذا ظفر
براي من جاهل لا يراه للراي اهلا ولا للمشورة مستوجبا اغتنمه عفوا
فان الراي كالضالة توخذ اين وجدت ولا يهون لمهانة صاحبها فان (لمهانة صاحبها)
الدرة لا يضعها مهانة غايصها والضالة لا تترك لذلة واجدها وليس
يراد الراي لمكان المشير به فيراعي قدره وانما يراد لانتفاع المستشير
به وانشد ابو العينا عن الاصمعي

النصح ارخص ما باع الرجال فلا ترد على ناصح نصحا ولا تلم
ان النصايح لا تخفى مناهجها على الرجال ذوي الالباب والفهم

ثم لا وجه لمن تقرر له راي ان يتانى في امضايه فان الزمان غادر
والفرص منتهز والثقة عجز قيل لملك زال عنه ملكه ما الذي سلبك
ملكك قال تاخير عمل اليوم الى غد وقال الشاعر

اذا كنت ذا راي فكن ذا عزيمة ولا تكثر الترداد للراي مفسدا
فاني رايت الريث في العزم محنة وانفاذ ذي الراي الغريمة ارشدا

وينبغي لمن انزل منزلة المستشار واحل محل الناصح الواحد

صار مامول

صار مامول النصح مرجو الصواب ان يودي حق هذه النعمة باخلاص
السريرة ويكافي على الاستسلام ببذل النصح فقد روي عن النبي صلى
الله عليه وسلم انه قال من حق المسلم على المسلم اذا استنصحه ان ينصحه
وربما ابطرته المشاورة فاعجب برايه فاحذره في المشورة فليس للمعجب
راي صحيح ولا روية سليمة وربما تحيف بالراي لعداوة او حسد او مكر
توريا فاحذر العدو ولا تثق بحسود ولا عذر لمن استشار حسودا
او ضدا ان يكتم رايا وقد استرشد ولا لمن يخون وقد اوتمن روى محمد
ابن المنكدر عن عايشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال المستشير معان والمستشار موتمن وقال سليمان بن يزيد العدوي

اخاك اذا استشارك ناصحا وعلى اخيك نصيحة لا ترد

ولا ينبغي ان يشير قبل ان يستشار الا فيما مس ولا يتبرع في الراي
الا فيما لزم فانه لا ينفك من ان يكون رايه متهما ومطرحا وفي اي هذين
كان وصمة وانما يكون الراي مقبولا اذا كان عن رغبة وطلب او كان لباعث
وسبب وروى ابو هلال العجلي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن النبي
صلى الله عليه وسلم قال قال لقمان لابنه يا بني اذا استشهدت فاشهد
واذا استعنت فاعن واذا استشرت فلا تعجل حتى تنظر وقال ابن هبيس
الكلابي من الناس من يستشرك فيجهد له الراي ويستغشك ما لا يتابعه
في رايه ان كان موقع رايه صوابا

اذا ما الراي عيب مواقعه
فلا تمنح الراي من ليس اهله فلا انت محمود ولا الراي نافعه

الفصل الرابع في كتمان السر

اعلم ان كتمان السر من اقوى اسباب النجاح وادوم احوال الصلاح
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال استعينوا على حوايجكم بالكتمان (الحاجات)
فان كل ذي نعمة محسود وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه سرك
اسيرك فاذا تكلمت به صرت اسيره وقال بعض الحكما لابنه كن جوادا
بالمال في موضع الحق ضنينا بالاسرار عن جميع الخلق فان احمد جود

المرء الانفاق في وجه البر والبخيل بمكتوم السر وقال بعض الادبا من
كتم سره كان الخيار اليه ومن افشاه كان الخيار عليه وقال بعض الفصحا
البلغا ما اسرك ما كتمت سرك وقال بعض الحكما ما لم تغيبه الاضالع
فهو منكشف ضايع وقال انس بن اسيد

فلا تفش سرك الا اليك فان لكل نصيح نصيحا

فاني رايت غواة الرجال لا يدكون اديما صحيحا لا يتركون

وكم من اظهار سر اراق
دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه ولو كتمه كان من سطواته امنا ومن
عواقبه سالما ولنجاح حوايجه راجيا قال انوشروان من حصن سره
فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته والسلامة من السطوات
واظهار الرجل سر غيره اقبح من اظهار سر نفسه لانه لا يبوء باحدى يبوه
وصمتين اما الخيانة ان كان موتمنا او النميمة ان كان مستودعا فاما الضرر
فربما استويا فيه او تفاضلا عنه وكلاهما مذموم وهو فيهما ملوم وفي
الاسترسال بابداء السر دلايل على ثلاثة احوال مذمومة احدها
ضيق الصدر وقلة الصبر حتى لم يتسع لسر ولم يقدر على صبر وقال
الشاعر

اذا المرء افشى سره بلسانه ولام عليه غيره فهو احمق

اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذي يستودع السر اضيق

والثاني الغفلة عن تحرز العقلا والسهو عن يقظة الاذكيا وقد قال
بعض الحكما انفرد بسرك ولا تودعه حازما فيزل ولا جاهلا فيخون
والثالث ما ارتكبه من الغرر واستعمله من الخطر وقد قال بعض الحكما
سرك من دمك فاذا تكلمت به فقد ارقته واعلم ان من الاسرار ما لا
يستغنى فيه عن مطالعة صديق مساهم واستشارة ناصح مسالم
فليختر العاقل لسره امينا ان لم يجد الى كتمه سبيلا وليتحر في اختيار
من يامنه عليه ويستودعه اياه فليس كل من كان على الاموال امينا
كان على الاسرار موتمنا والعفة عن الاموال ايسر من العفة عن

اذاعة

اذاعة الاسرار لان الانسان قد يذيع سر نفسه بمبادرة لسانه
وسقط كلامه ويشح على اليسير من ماله حفاظا له وضنا به ولا يرى
ما اذاع من سره كبيرا في جنب ما حفظه من يسير ماله مع عظم الضرر
الداخل عليه فمن اجل ذلك كان امنا الاسرار اشد تعذرا واقل
وجودا من امنا الاموال وكان حفظ المال ايسر من كتم الاسرار
لان احراز المال منيعة واحراز الاسرار يذيعها لسان ناطق ويشيعها
كلام سابق وقال عمر بن عبد العزيز القلوب اوعية السراير والشفاه
اقفالها والالسن مفاتيحها فليحفظ كل امرئ مفتاح سره ومن صفات
امين السر ان يكون ذا عقل صاد ودين حاجز ونصح مبذول
وود موفور وكتوما بالطبع فان هذه امور تمنع من الاذاعة وتوجب
حفظ الامانة فمن كملت فيه فهو عنقا مغرب وقيل في منثور الحكم
قلوب العقلا حصون الاسرار وليحذر صاحب السر ان يودع سره
من يتطلع اليه ويوثر الوقوف عليه فان طالب الوديعة خاين وقد
قيل في منثور الحكم لا تنكح خاطب سرك وقد قال صالح بن عبد
القدوس لا تذع سرا الى طالب منك وان كنت للسر مذيع ولتحذر
كثرة المستودعين لسره فان كثرتهم سبب للاذاعة وطريق للاشاعة وداع الى الاستطالة
لامرين احدهما ان اجتماع هذه الشروط في العدد الكثير معوز ولا
بد اذا كثروا من ان يكون فيهم من اخل ببعضها والثاني ان كل واحد
منهم يجد سبيلا الى نفي الاذاعة عن نفسه واحالة ذلك على غيره
فلا يضاف اليه ذنب ولا يتوجه عليه عتب وقد قال الحكما
كلما كثرت خزان الاسرار ازدادت ضياعا وقال بعض الشعراء

وسرك ما كان عند امرئ وسر الثلاثة غير الخفي

وقال اخر

فلا تنطق بسرك كل سر اذا ما جاوز الاثنين فاش

ثم لو سلم
من اذاعتهم لما سلم من ادلالهم واستطالتهم فان لمن ظفر بسر
من فرط الادلال وكثرة الاستطالة ما لم يجرم عنه عقل

ولم يلعه عنه فضل كان اشد من ذل الرق وخضوع التعبد ولذلك
قال بعض الحكما من افشى سره كثر عليه المتامرون فاذا استودع
سره عند الذي اختاره وايتمنه وجب على المستودع له ادا الامانه
بالحفظ والتناسي حتى لا يخطر له ببال ولا يتدود له في خلد ثم يري ذلك
حرمة يرعاها ولا يذل اذلال اللئام حكي ان رجلا اسر الي صديق له حديثا
ثم قال له افهمت قال بل قد جهلت قال احفظت قال بل نسيت وقيل
لرجل كيف كتمانك للسر قال اجحد المخبر واحلف للمستخبر وقال
بعض الشعرا

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت مني الضلوع على الاسرار والخبر
لكنت اول من ينسى سرايره اذ كنت من نشرها يوما على خطر

لو استطع

وحكي ان عبيد الله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه حفظ السر
فقال عبيد الله

ومستودعي سرا تضمنت سره فاودعته في مستقر الحشا قبرا

فقال ابنه عبيد الله

وما السر في قلبي كميت بحفرة لاني ارا المدفون ينتظر النشرا
ولكنني اخفيه حتى كانه من الدهر يوما ما احطت به خبرا

الفصل الخامس في المزاح والضحك

اعلم ان المزاح ازاحة عن الحقوق ومخرج الى القطيعة والعقوق يصم
المازح ويودي الممازح فوصم المازح ان يذهب عنه الهيبة والبها
ويجري عليه الغوغا والسفها واما اذية الممازح فلانه يوذيه بقول
كريه وفعل ممض ان امسك عنه احزن قلبه وان قابل عليه جانب
ادبه فحق على العاقل ان يتقيه وينزه نفسه عن وصم مساويه فقد
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المزاح استدراج من
الشيطان واختداع من الهوي وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
اتقوا المزاح فانها حماقة تورث ضغينة وقال انما المزاح سبابا

الا ان صاحبه يضحك وقيل انما سمي المزاح مزاحا لانه يزيح عن الحق
وقال ابرهيم النخعي المزاح من سخف او بطر وقيل في منثور الحكم
المزاح ياكل الهيبة كما تاكل النار الحطب وقال بعض الادبا
من كثر مزاحه زالت هيبته ومن كثر خلافه طابت غيبته وقال
بعض البلغا من قل عقله كثر هزله وذكر خالد بن صفوان المزاح
فقال يصك احدهم صاحبه باشد من الجندل وينشقه باحرق
من الخردل ويفرغ عليه احر من المرجل ثم يقول انما كنت امازحك
وقال بعض الحكما خير المزاح لا ينال وشره لا يقال فنظمه السابوري
في قصيدته الجامعة للاداب فقال

شر مزاح المرء لا يقال وخيره يا صاح لا ينال
وقد يقال كثرة المزاح من الفتى يدعو الى التلاحي
ان المزاح اوله حلاوه لكنما اخره عداوه
يحقد منه الرجل الشريف ويجتري بسخفه السخيف

لكنما
ظ
السخيف

وقال ابو نواس

خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام مت بدا الصمت خير لك من
دا الكلام
انما السالم من الجم فاه بلجام ربما استفتح بالمزح مغاليق الحمام
والمنايا آكلات شاربات للانام

واعلم انه قل من يعري من المزاح من كان سهلا فالعاقل يتوخى بمزحه
احدي حالتين لا ثالثة لهما احدهما ايناس المصاحبين والتودد
الي المخالطين وهذا يكون بما انس من جميل القول وبسط من مستحسن
الفعل كما قال سعيد بن العاص لابنه اقتصد في مزاحك فان الافراط
فيه يذهب البها ويجري عليك السفها وان التقصير فيه يغض عنك
المؤانسين ويوحش منك المصاحبين والحالة الثانية ان ينفي المزاح
ما طرا عليه من سام او حدث به من هم فقد قيل لا بد للمصدور ان ينفث
وانشدت لابي الفتح البستي
افد طبعك المكدود بالجد راحة يجم وعلله بشي من المزح

الى المخالطين

٥ ولكن اذا ما اعطيته المزح فليكن بمقدار ما تعطى الطعام من الملح ٥
وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح على هذا الوجه وقال اني لا امزح
ولا اقول الا حقا فمن مزاحه صلى الله عليه وسلم ان عجوزا من الانصار
اتته فقالت يا رسول الله ادع لي بالمغفرة فقال لها عليه الصلاة
والسلام اوما علمت ان الجنة لا يدخلها العجائز فصرخت فتبسم رسول الله صلى
الله عليه وسلم وقال لها اما قرات قول الله تعالى انا انشاناهن انشاء
فجعلناهن ابكارا عربا اترابا لاصحاب اليمين واتت اخرى في حاجة
لزوجها فقال لها من زوجك فقالت فقال لها الذي في عينه بياض فقالت
لا فقال بلى فانصرفت عجلى الى زوجها وجعلت تتامل عينه فقال لها ما
شانك فقالت اخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في عينك بياض
فقال لها اما ترين بياض عيني اكثر من سوادها واتى رجل علي بن ابي
طالب رضي الله عنه فقال اني احتلمت البارحة على امي فقال اقيموه
في الشمس واضربوا ظله الحد وسيل الشعبي عن اكل لحم الشيطان
فقال نحن نرضى منه بالكفاف وقيل له ما اسم امراة ابليس فقال ذاك
نكاح ما شهدناه وقال رجل لغلام بكم تعمل معي قال بطعامي قال
له احسن قليلا قال فاصوم الاثنين والخميس وحكي عن ابي صالح بن حسان
وكان محدثا انه قال يوما لاصحابه ما رجلا افقه الناس وصاح اليمين
في قوله اذا قلت هاتي ناوليني تبرمت وقالت معاذ الله من فعل ما حرم
فما نولت حتى تضرعت عندها وانباتها ما رخص الله في اللمم ٥
فاما الخروج الى الخلاعة فهجنة ومذمة كالذي حكي عن ابي معاوية الضرير
وكان محدثا انه خرج يوما الى اصحابه وهو يقول فاذا المعدة جاشت
فارمها بالمنجنيق ٥ بثلاث من نبيد ليس بالحلو الرقيق ٥ اما ترى كيف
طرق بخلاعته التهمة على نفسه في هذا المزاح فيما لعله بري منه
وبعيد عنه وقد كان ابو هريرة رضي الله عنه مسترسلا في مزاحه
حكى ابن قتيبة في كتاب المعارف ان مروان ربما كان يستخلفه
على المدينة

تأولت

129

فما نولت حتى تضرعت عندها ٥ وانباتها ما رخص الله في اللمم ٥
فاما الخروج الى حد الخلاعة فهجنة ومذمة كالذي حكي عن ابي
معاوية الضرير وكان محدثا انه خرج يوما الى اصحابه وهو يقول

فاذا المعدة جاشت ٥ فارمها بالمنجنيق ٥
بثلاث من نبيذ ٥ ليس بالحلو الرقيق ٥

اما ترى كيف بخلاعته التهمة على نفسه بهذا المزاح فيما لعله بري
منه وبعيد عنه وكان ابو هريرة رضي الله تعالى عنه مسترسلا في مزاحه
فحكى ابن قتيبة في المعارف ان مروان ربما كان يستخلفه على المدينة
فركب حمارا قد شد عليه برذعة فيسير فيلقى الرجل فيقول الطريق قد
جاء الامير وربما اتى الصبيان وهم يلعبون لعبة الاعراب فلا يشعرون
حتى يلقي نفسه بينهم ويضرب برجله فيفزع الصبيان فيتفرقون
وهذا خروج للقدر المستسمح به ويوشك ان يكون لهذا الفعل منه
تاويل شايع وقد كان صهيب بن سنان رمدا فقال له النبي صلى الله
عليه وسلم واله وسلم اتاكل التمر وبك رمد فقال يا رسول الله صلى الله عليك انما
امضغ على الناحية الاخرى وانما اختار صهيب ان يعرض لرسول الله
صلى الله عليه وسلم بالمزاح في جوابه لان استخباره قد كان يتضمن المزح
فاجابه عن استخباره بما وافقه من المزح مساعدة لعرضه وتقربا
من قلبه والا فليس لاحد ان يجعل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم
المبين عن الله عز وجل احكامه المؤدي الى خلقه اوامره هزلا ومزاحا
فقد عصى الله تعالى ورسوله وصهيب كان اطوع لله ورسوله من ان يكون
بهذه المنزلة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انا سبق العرب وصهيب
سابق الروم وسلمان سابق فارس وبلال سابق الحبش ومن مستحسن
ومستسمح الدعابة ما حكى الزهري بن بكار عن الكثيري ان القشيري

ووقف عليه شيخ من الاعراب فقال يا اعرابي ممن انت فقال من بني عقيل قال
من اي عقيل قال من بني خفاجة قال القشيري رايت شيخا من بني خفاجة
فقال الاعرابي ما شانه فقال ان لي اذا اجن الظلام حاجة
كحاجة الديك الى الدجاجة فاستغرب الاعرابي وقال قاتلك الله ما اعرفك
بسراير القوم فانظر كيف بلغ هذا المزاح غايته ولسانه وعرضه مصون
وهذا غاية ما يتمازح به الفضلاء من الخلاعة وان كان مستكره الفحوى والتنزه
عن مثله اولى وليحذر ان يسترسل في ممازحة عدو فيجعل له طريقا الى اظهار
المساوي وهو يجد ويفتح له في التشفي مزحا وقد قال بعض الحكما اذا
مازحت عدوك اظهرت عيوبك فاما الضحك فان اعتياده شاغل عن النظر
في الامور المهمة فذهل عن الفكر في النوايب الملمة وليس لمن اكثر منه هيبة
ولا وقار ولا لمن وسم به خطر ولا مقدار وروى ابو ادريس عن ابي ذر الغفاري قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب ويذهب
بنور الوجه وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ما لهذا الكتاب لا
يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ان الصغيرة الضحك وقال عمر بن الخطاب رضي
الله عنه من كثر ضحكه قلت هيبته وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه اذا ضحك العالم
ضحكة مج من العلم مجة وقيل في منثور الحكم ضحك المومن غفلة من قلبه والقول
في الضحك كالقول في المزاح ان يجافاه الانسان فينفر عنه او حشه منه وان الضحكة
خالفها وصفها فليكن بدل الضحك عند الايناس تبسما وبشرا وقد قال عمر بن
الخطاب التبسم دعابة وهذا ابلغ في الايناس من الضحك الذي قد يكون استهزا
وتعجبا وليس يكره منه المرة الواحدة لطارئ استعمل النفس عن دفعه هذا رسول
صلى الله عليه وسلم وهو املك الخلق لنفسه وقد تبسم حتى بدت نواجذه ثم
كان ذلك منه على وجه الخلق كما ذكرناه الفصل السادس في الطيرة
والفال اعلم انه ليس شي اضر بالراي ولا افسد للتدبير من اعتقاد الطيرة ومن

ان خوار بقرة او نعيب غراب يرد قضاء او يدفع مقدورا فقد جهل وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا عدوى ولا هامة ولا طيرة ولا صفر فالعدوى
ما يظنه الناس من تعدي الامراض والعلل فاخبر انه لا تعدي فقيل يا رسول
الله انا نرى الذنبة من الجرب في مشفر البعير فتعدى الى جميعه فقال صلى الله عليه
وسلم فمن اعدى الاول واما الهامة فهو ما كانت العرب في الجاهلية تعتقده
من ان القتيل اذا طل دمه فلم يدرك بثاره صاحت هامته في القبر اسقوني
وقال الزبرقان بن بدر ؛ يا عمرو ان لم تدع شتمي ومنقصتي ؛ اضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وقال ابرهيم بن هرمة

وكيف وقد صاروا عظاما وافترا ؛ يصيح صداها بالعشي وهامها
تفانوا ولم ينفوا وكل قبيلة ؛ سريع الى ورد الفناء كرامها

واما الصفر فهو كالحية يكون في الجوف يصيب الماشية والناس وهو اعدى عند
من الجرب وفيه يقول الشاعر ؛ لا يمسك الساق من اين ولا وصب ؛
؛ ولا يعض على شرسوفه الصفر ؛ وروى ابو هريرة رضي الله عنه ان رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم قال اذا ظننتم فلا تحققوا واذا حسدتم فلا تبغوا واذا تطيرتم
فامضوا وعلى الله فتوكلوا وقال الشاعر

طيرة الناس لا ترد قضاء ؛ فاعذر الدهر لا تشبه بلوم
اي يوم تخصه بسعود ؛ والمنايا ينزلن في كل يوم
ليس يوم الا وفيه سعود ؛ ونحوس تجري لقوم وقوم

وقد كانت الفرس اكثر الناس طيرة وكانت العرب اذا ارادت سفرا نفرت اول
طاير تلقاه فان طارت يمنة سارت وان طارت يسرة رجعت وتشاءمت فنهى النبي
صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال اقروا الطير على وكراتها وحكي عن عكرمة
قال كنا جلوسا عند ابن عباس رضي الله عنهما فمر طاير يصيح فقال رجل من القوم
خير خير فقال ابن عباس لا خير ولا شر وقال لبيد

ه لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ∴ ولا زاجرات الطير ما الله صانع

واعلم انه اقل ما يخلو من الطيرة احد لاسيما من عارضته المقادير في ارادته

وصده القضا عن طلبته فهو يرجو واليا س عليه اغلب ويامل والخوف اليه

اقرب فاذا عاقه القضا وخانه الرجا جعل الطيرة اعذر خيبته وغفل عن قضاء

الله تعالى ومشيئته فهو اذا تطير من بعد احجم عن الاقدام ويئس من الظفر

وظن ان القياس فيه مطرد وان العبرة فيه مستمرة ثم يصير ذلك له عادة فلا

ينجح له سعي ولا يتم له قصد واما من ساعدته المقادير ووافقه القضا

فهو قليل الطيرة لاقدامه ثقة باقباله وتعويلا على مساعدته فلا يصدته

خوف ولا يكفه حزن فلا يؤب الا ظافرا ولا يعود الا منجحا لان الغنم بالاقدام

والخيبة مع الاحجام فصارت الطيرة من سمات الادبار واطراحها من امارات

الاقبال فينبغي لمن مني بها وملي ان يصرف عن نفسه وساوس التوكل

ودواعي الخيبة وذرائع الحرمان ولا يجعل للشيطان سلطانا في نقض عزائمه

ومعارضة خالقه ويعلم ان قضاء الله غالب وان رزق العبد له طالب وان

الحركة سبب البركة فلا يثنيه عنها ما لا يضر مخلوقا ولا يدفع مقدورا وليمض

في عزايمه واثقا بالله تعالى ان اعطى وراضيا به ان منع فقد روى ابو هريرة رضي

الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في الانسان ثلاثة الطيرة والظن

والحسد فمخرجه من الطيرة ان لا يرجع ومخرجه من الظن ان لا يحقق ومخرجه

من الحسد ان لا يبغي وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال كفارة الطيرة التوكل

على الله تعالى وقيل في منثور الحكم الخير في ترك الطيرة وليقل ان عارضه في الطيرة

ريب او خامره فيها وهم ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من تطير فليقل

اللهم لا ياتي بالخيرات الا انت ولا يرفع السيئات الا انت ولا حول ولا قوة الا بالله

العلي العظيم وقد روي ان رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انا

نزلنا دارا فكثر فيها عددنا وكثر فيها اموالنا ثم تحولنا منها الى اخرى فقلت فيها

امو النا وقل فيها عددنا وقال صلى الله عليه وسلم فذروها ذميمة وليس هذا منه صلى الله عليه وسلم على وجه الطيرة ولكن على طريق التبرك بما فارقه وترك ما استوحش منه الى ما انس به فاما الفال ففيه تقوية للعزم وباعث على الجد ومعونة على الظفر فقد تفاءل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته وحروبه وروى ابو هريرة رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع كلمة فاعجبته فقال اخذنا فالك من فيك فينبغي لمن تفاءل الفال ان يتاوله باحسن تاويلاته ولا يجعل لسوء الظن سبيلا على نفسه فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان البلاء موكل بالنطق حكي ان يوسف عليه السلام شكى الى الله طول الحبس فاوحى الله تعالى اليه يا يوسف انت حبست نفسك حيث قلت رب السجن احب الي مما يدعونني اليه ولو قلت رب العافية احب الي لعوفيت وحكي ان المؤمل ابن اميل الشاعر لما قال شعرا

شفى المؤمل يوم الحيرة النظر
ليت المؤمل لم يخلق له بصر

عمي فاتاه آت في منامه وقال له هذا ما طلبت وحكي ان الوليد بن الوليد بن عبد الملك تفاءل يوما في المصحف فخرج عليه قوله تعالى واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد فمزق المصحف وانشد يقول

اتوعد كل جبار عنيد ... فها انا ذاك جبار عنيد
اذا ما جئت ربك يوم حشر ... فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث اياما حتى قتل شر قتلة وصلب راسه على قصره ثم على سور بلده ونعوذ بالله تعالى من البغي ومصارعه والشيطان ومكائده وهو حسبنا وعليه توكلنا

الفصل السابع في المروة

اعلم ان من شواهد الفضل ودلائل الكرم المروة التي هي حلية النفوس وزينة الهمم والمروة مراعاة الاحوال ان تكون على افضلها حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد ولا يتوجه اليها ذم باستحقاق وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن

كملت مروته وظهرت عدالته ووجبت محبته وقال بعض البلغا من شرايط المروة
ان يتعفف عن الحرام ويتنظف عن الاثام وينصف في الحكم ويكف عن الظلم ولا
يطمع فيما لا يستحق ولا يستطيل على من لا يسترق ولا يعين قويًا على ضعيف ولا
يؤثر دنيًا على شريف ولا يسر بما يعقب الوزر والاثم ولا يفعل ما يقبح الذكر والاسم
وسيل بعض الحكما عن الفرق بين العقل والمروة فقال العقل يامرك بالانفع
والمروة تامرك بالاجمل ولا تجد الاخلاق على ما وصفناه من حد المروة ::
منطبعة ولا عن المراعات مستغنية وانما المراعات هي المروة لا ما انطبعت
عليه النفوس من فضايل الاخلاق لان غرور الهوى ونازع الشهوة يصرفان
النفس عن الافضل من خلايقها والاجمل من طرايقها وان سلمت منهما وبعيد
ان تسلم لما استكملت شرف الاخلاق تطبعًا ولا استغنت عن تهذيبها
تكلفا وتصنعًا قال الشاعر

من لك بالمحض وليس محض ∴ يخبث بعض ويطيب بعض

ثم لو استكملت الفضل طبعًا وفي المعوز ان يكون مستكملا لكان في المستحسن
من عادات دهره والموضوع من اصطلاح عصره من حقوق المروة وشروطها
ما لا يتوصل اليه الا بالمعاناة ولا يوقف عليه الا بالتفقد والمراعاة فثبت
ان مراعاة النفس على افضل احوالها هي المروة واذا كانت كذلك فليس ينقاد
لها مع ثقل كلفها الا من تسهلت عليه المشاق رغبة في الحمد وهانت عليه
الملاذ حذرًا من الذم ولذلك قيل سيد القوم اشقاهم وقال ابو تمام

ولحسد يشهد ان يرى مستاره ∴ يجنيه الا من نقيع الحنظل
غل لحامله ويحسبه الذي ∴ لم يؤده عاتقه خفيف المحمل

لولا المشقة ساد الناس كلهم ∴ الجود يفقر والاقدام قتال

وقد لحظ هذا المتنبي في قوله

واذا كانت النفوس كبارا ∴ تعبت في مرادها الاجسام

والداعي الى استسهال ذلك شيئان هما علو الهمة وشرف النفس اما علو الهمة
فلانه باعث على التقدم وداع الى التخصيص انفة من خمول الضعة و
استكبارا لمهانة النقص ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يحب
معالي الامور واشرافها ويكره سفسافها وروي عن عمر بن الخطاب رضي
الله عنه انه قال لا تصغرن هممكم فاني لم ار من قعد من المكرمات الا من صغر
الهمم وقال بعض العلما اذا طلب رجلان امرا ظفر به اعلاهما مروة وقال
بعض الادبا من ترك التماس المعالي بسوء الرجا لم ينل جسيما واما شرف
النفس فان به يكون قبول التاديب واستقرار التقويم والتهذيب لان
النفس ربما جمحت عن الافضل وهي به عارفة ونفرت من التاديب وهي له
مستحسنة لانها عليه غير مطبوعة وله غير ملايمة فتصير منه انفر ولضده
الملايم آثر ولذلك قيل ما اكثر من يعرف الحق ولا يطيعه فاذا شرفت
النفس كانت للاداب طالبة وفي الفضايل راغبة فاذا مازجها صارف
طبعا ملايما فنمى واستقر فاما من مني بعلو الهمة وسلب شرف النفس فقد
صار عرضه لامر اعوزته آلته وافسدته جهالته فصار كضرير يروم
الكتابة واخرس يروم الخطابة فلا يزيده الاجتهاد الا عجزا والطلب الا
عوزا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ما هلك امرء عرف قدره وقيل
لبعض الحكما من اسوء الناس حالا قال من بعدت همته واتسعت امنيته
وقصرت آلته وقلت مقدرته وقد قيل

ولا خير فيما يكذب المرء نفسه ۝ وتقواله للشيء يا ليت ذا ليا ۝
لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي ۝ اذا هو لم يجعل له الله واقيا ۝

وقال بعض الحكما تجنبوا المنى فانها تذهب ببهجة ما خولتم وتستصغرون بها
نعمة الله عندكم وقيل في منثور الحكم المنى من بضايع النوكى وان صادف
بخته حظا نال به املا كان فيما نال كالمغتصب وفيما وصل اليه كالمتغلب

اذ ليس في الحظوظ تقدير بحق ولا تمييز تستحق وانما هي كالسحاب الذي قد يمسك
عن منابت الاشجار وينزل حيث صادف من خبيث وطيب فانه صادف
ارضا طيبة نفع وان صادف ارضا صلبه ضر وكان نعمة طامنطيبة وحكي
ان موسى بن عمران دعا على قوم بالعذاب فاوحى الله سبحانه وتعالى اليه قد ملكت
سفلتها على عليتها فقال يا رب كنت احب لهم عذابا عاجلا فاوحى الله تعالى اليه
اوليس هذا كله لعذاب العاجل الاليم فاما شرف النفس اذا تجرد عن علو الهمة فان
الفضل به عاطل والقدر به خامل وهو كالقوة في الجلد الكسل والجبان الفشل
وقد قيل في منثور الحكم من دام كسله خاب امله وقال بعض الحكما نكح
العجز التواني فخرج بينهما الندامة ونكح الشؤم الكسل فخرج بينهما الحرمان
وقال بعض الشعرا

اذا انت لم تعرف لنفسك حقها ... هوانا بها كانت على الناس اهونا
فنفسك اكرمها وان ضاق مسكن ... عليها لها فاطلب لنفسك مسكنا
واياك والسكنا بدار مذلة ... يعد مسيئا فيه من كان محسنا

وشرف النفس مع صغر الهمة اولى من علو الهمة مع دناءة النفس لان من علت
عليه همته مع دناءة نفسه كان متعديا الى طلب ما لا يستحقه ومتخطيا
الى التماس ما لا يستوجبه ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما
يستحقه ومقصر عما يجب له وفضل ما بين الامرين ظاهر وان كان لكل واحد
منهما من الذم نصيب وقد قيل لبعض الحكما ما اصعب شي على الانسان قال ان
يعرف نفسه ويكتم الاسرار فاذا اجتمع الامران واقترن بشرف النفس علو
الهمة كان الفضل بينهما ظاهرا والادب بهما وافرا ومشاق الحمد بينهما
مستسهلة وشروط المروة منهما متباينة وقد قال الحصين بن المنذر الرقاشي
ان المروة ليس يدركها امرؤ ورث المكارم عن اب فاضاعها فاذا اصاب من المكارم
خلة واعلم ان حقوق المروة اكثر من ان تحصى واخفى من ان تظهر لان منها

اي كبيته

امرته النفس بالدناوة والكبا ونهته عن سبل العلى فاطاعها صح

ماسقود

الطرف والثاني اتباع الشهوة وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال لعلي رضي الله عنه لا تتبع النظرة فان الاولى لك والثانية عليك
وفي قوله صلى الله عليه وسلم لا تتبع النظرة النظرة تاويلان احدهما لا

النظرة

ما يقوم في الوهم حسًا ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حدسًا ومنها
ما يظهر بالفعل ويخفي بالتغافل فلذلك اعوز استيفا شروطها الا
حملا بتنبه الفاضل عليها بفطنته ويستدل العاقل عليها بفطرته
وان كان جميع ما تضمنه كتابنا هذا من حقوق المروة وشروطها
وانما نذكر في هذا الفصل الاشهر من قواعدها واصولها والاظهر
من شروطها وحقوقها محصورة في تقسيم جامع وهي تنقسم قسمين احدهما
شروط المروة في نفسه والثاني شروطها في غيره بثلاثة امور وهي العفة
والنزاهة والصيانة فاما العفة فنوعان احدهما ضبط الفرج عن الحرام
والثاني كف اللسان عن الاعراض فاما ضبط الفرج عن الحرام فلانه
مع وعيد الشرع وزاجر العقل معرة فاضحة وهتكة واضحة ولذلك قال
النبي صلي الله عليه وسلم من وقي شر ذبذبه ولقلقه وقبقبه فقد وقي
يريد بذبذبه الفرج وبلقلقه اللسان وبقبقبه البطن وروي عن النبي
صلي الله عليه وسلم انه قال احب العفاف الي الله عز وجل عفاف
البطن والفرج وحكي ان معاويه سال عمرو رضي الله عنهما عن المروة
فقال تقوي الله وصلة الرحم وسيل المغيرة فقال هي العفة عما حرم
الله والحرفة فيما احله الله تعالي وسيل يزيد فقال هي الصبر علي البلوي
والشكر علي النعما والعفو عند المقدرة فقال انت مني حقا وقال ابو شروان
لابنه هرمز الكامل المروة من حصن دينه ووصل رحمه واكرم اخوانه
وقال بعض الحكما من احب المكارم اجتنب المحارم وقيل عار الفضيحة
يكدر لذتها وانشد بعض اهل الادب للحسين بن علي رضي الله عنهما

الموت خير من ركوب العار ۝ والعار خير من دخول النار ۝

والله من هذا وهذا جار ۝ والداعي الي ذلك شيان احدهما ارسال
الطرف والثاني اتباع الشهوة وقد روي عن النبي صلي الله عليه وسلم
انه قال لعلي رضي الله عنه لا تتبع النظرة فان الاولي لك والثانية عليك
وفي قوله صلي الله عليه وسلم لا تتبع النظرة النظرة تاويلان احدهما لا النظرة

تتبع نظر عينك نظر قلبك والثاني لا تتبع النظرة الاولى التي وقعت سهوًا
بالنظرة الثانية التي توقعها عمدًا وقال عيسى عليه السلام اياكم والنظرة
بعد النظرة فانها تزرع في القلب الشهوة وكفى بها صاحبها فتنة وقال
علي رضي الله عنه العيون مصايد الشيطان وقال بعض الحكماء من ارسل
طرفه استدعى حتفه وقال بعض الشعراء

وانت متى ارسلت طرفك رايدًا لقلبك يومًا اتعبتك النواظر
رايت الذي لا كله انت قادر عليه ولا عن بعضه انت صابر

فاما الشهوه فهي خادعة العقول وغارة الالباب ومحسنة القبايح
ومسولة الفضايح وليس عطب الادمي له سبب وعليه الب ولذلك
قال النبي صلى الله عليه وسلم اربع من كن فيه وجبت له الجنة وحفظ
من الشياطين من ملك نفسه حين يرغب وحين يرهب وحين يشتهي
وحين يغضب وقهرها عن هذه الحال يكون بثلاثة امور احدها
غض الطرف عن اثارتها وكفه عن مساعدتها فانه الرايد المحرك والقايد
المملك روى سعيد بن سنان عن انس بن ملك رضي الله عنه عن النبي صلى
الله عليه وسلم انه قال تقبلوا الي بست اتقبل لكم بالجنة قالوا وما هي
يا رسول الله قال اذا حدث احدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا
اوتمن فلا يخن غضوا ابصاركم واحفظوا فروجكم وكفوا ايديكم والثاني
ترغيبها في الحلال عوضًا واقناعها بالمباح بدلًا فان الله تعالى ما حرم
بدلًا الا واغنى عنه بمباح من جنسه لما علمه من نوازع الشهوات وتركيب
الفطرة ليكون ذلك عونًا على طاعته وحاجزًا عن مخالفته وقد قال
عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما امر الله بشي الا واعان عليه ولا نهى عن
شي الا واغنى عنه والثالث اشعار النفس تقوى الله تعالى في اوامره
واتقاوه في زواجره والزامها ما الزم من طاعته وتحذيرها ما حذر عن
معصيته واعلامها انه لا يخفى عليه ضمير ولا يعزب عنه قطمير وانه يجازي
المحسن ويكافي المسي وبذلك نزلت كتبه وبلغت رسله روى ابن مسعود رضي

الله عنه

١٣٠

١٤ تاويلان احدهما لا تتبع نظر عينك بنظر قلبك والثاني لا تتبع النظرة
الاولى التي وقعت سهوًا بالنظرة الثانية التي تو تعها وقال عيسى بن مريم
عليه السلام اياكم والنظرة بعد النظرة فانها تورع في القلب الشهوة وكفى
بها صاحبها فتنة وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه العيون مصايد
الشيطان وقال بعض الحكما من ارسل طرفه استدعى حتفه وقال بعض الشعر

وانت متى ارسلت طرفك رايدا لقلبك يومًا اتعبتك المناظر
رايت الذي لا كله انت قادر عليه ولا عن بعضه انت صابر

واما الشهوة فهي خادعة العقول وغادرة الالباب ومحسنة القبايح وليس
عطب الاو هي له سبب وعليه الب ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم
اربع من كن فيه وجبت له الجنة وحفظ من الشياطين من ملك نفسه
حين ترغب وحين ترهب وحين تشتهي وحين تغضب وقهرها عن هذا
الحال يكون بثلاثة امور احدها غض الطرف عن اثارتها وكفه عن مساعد
فانه الرايد المحرك والقايد المملك وروى سعيد بن سنان عن انس بن مالك
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تقبلوا الي بست اتقبل لكم الجنة قالوا
وما هن يا رسول الله اذا حدث احدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا
اوتمن فلا يخن وغضوا فروجكم وكفوا ايديكم والثاني ترغيبها في الحلال
عوضًا واقناعها بالمباح بدلا فان الله تعالى ما حرم شيئًا الا واغنى عنه بمباح
من جنسه لما علم من نوازع الشهوة وتركيب الفطرة ليكون ذلك عونًا على
طاعته وحاجزا عن مخالفته وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما امر الله
بشيء الا اغنى عنه والثالث اشعار النفس بتقوى الله تعالى في اوامره واتقاوه
في زواجره والزامها من طاعته وتحذيرها ما حذر من معصيته واعلامها
انه لا يخفى عليه ضمير ولا يعزب عنه قطمير وانه يجازي المحسن ويكافي المسي
بذلك نزلت كتبه وبلغت رسله روى ابن عباس رضي الله عنهما ان اخر ما
نزل من القران واتقوا يومًا ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعايه اللهم اني اعوذ بك

وهم لا يبطلون وآخر ما نزل من التورية اذا لم تستح فاصنع ما شئت وآخر
ما نزل من الزبور من يزرع خيرا يحصد غبطة فاذا اشعرها ما وصفت لكم
انقادت الى الكف واذعنت بالانقياد فسلم دينه وظهرت مروته فهذا شرط
واما كف اللسان عن الاعراض فلانه ملاذ السفها وانتقام الغوغا وهو
مستسهل الكف ان لم يقهر نفسه برادع كاف وزاجر صاد يلبط بمعاره
ويحيط بمضاره وظن انه لتخافي الناس عنه حمى يتقى ورتبة ترتقى فهلك
واهلك ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الا ان دماءكم واموالكم واعراضكم
حرام عليكم فجمع بين الدم والعرض لما فيه من ايغار الصدور وابدا الشرور
واظهار البذا واكتساب الاعداء ولا يبقى مع هذه الامور لمرموق الا مروة
الملحوظ ثم هو بها موتور وموزور لاجلها مهجور ومزجور وقد روي
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال شر الناس من اكرمه الناس اتقاء لسانه وقال
بعض الحكما انما يهلك الاعراض من الكلام وفضول المال وما قدح في الاعراض من الكلام نوعان احدهما ما قدح في عرض صاحبه
ولم يتجاوزه الى غيره وذلك شيئان الكذب وفحش القول والثاني ما يتجاوزه الى
غيره وذلك اربعة اشياء الغيبة والنميمة والسعاية والسب بقذف او شتم وربما
كان السب اذكاها للقلوب وابلغها اثرا في النفوس ولذلك زجر الله عنه
بالحد تغليظا وبالتعزير تشديدا او تصعيبا وقد يكون ذلك لاحد شيئين اما
انتقام يصدر عن سفه او بذاء يحدث عن لوم وقد روى ابو سلمة عن ابي هريرة
رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال المومن غر كريم والفاسق خب لئيم
وقال ابن المقفع الاستطالة لسان الجهالة وكف النفس عن هذه الحالة بما يصدها
من اسلم وهو بذي المروة اجمل وهذا شرط واما العفة عن الماثم فنوعان
احدهما الكف عن المجاهرة بالظلم والثاني زجر النفس عن الاستسرار بخيانة واما
المجاهرة بالظلم والثاني زجر النفس عن الاستسرار بخيانة فعتو مهلك وطغيان
متلف وهو يؤول ان استمر الى فتنة او جلا اما الفتنة في الاغلب فتحيط بصاحبها

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه اللهم اني اعوذ بك

المحسن ويكافي المسي وبذلك نزلت كتبه وبلغت رسله روي ابن مسعود

الله عنه

١٣٩

وتنعكس على البادي بها فلا ينكشف الا وهو بها مصروع كما قال الله تعالى ولا يحيق المكر السيئ الا باهله وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الفتنة نائمة فمن ايقظها صار طعاما لها وقال جعفر بن محمد رضي الله عنه الفتنة حصاد الظالمين وقال بعض الحكما صاحب الفتنة اقرب شي اجلا واسوا شي عملا وقال بعض الشعرا

وكنت كعير السو قامت لحتفها ... الى مدية تحت التراب تثيرها

واما الجلا فقد يكون مع فوق الظالم وتطاول مدته فيصير ظلمه في المكنة جلا او فنا كالنار اذا وقعت في يابس الشجر فلا تبقى منه مع تمكنها شيا حتى اذا افنت ما خمدت كذلك الشكر لمتحال الظالم مهلك ثم هالك والباعث على ذلك شيئان الجراة والفسوق ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اطلبوا الفضل والمعروف عند الرحما من امتي تعيشوا في اكنافهم والصاد عن ذلك ان ترا اثر الله عز وجل في الظالمين فان له فيهم عبرا ويتصور عواقب ظلمهم فان فيهما مزدجر وقد روي عن النبي صلى الله عليه انه قال من اصبح ولم ينو بظلم احد غفر له ما اجترم وروى جعفر بن محمد عن ابيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا علي اتق دعوة المظلوم فانما يسال الله حقه وان الله عز وجل لا يمنع ذا حق حقه وقيل في منثور الحكم ويل للظالم من يوم المظالم وقال بعض البلغاء من جار حكمه اهلكه وقال بعض الشعرا

وما من يد الا يد الله فوقها ... ولا ظالم الا سيبلى بظالم

واما الاستسرار بالخيانة فيعطف وصفه لانه بذل الخيانة مهين ولقلة الثقة به مستكين وقد قيل في منثور الحكم من يخن يهن وقال خالد الربعي قرات في بعض الكتب السالفة ان مما يعجل عقوبته ولا يوخر الامانة تخان والاحسان يكفر والرحم يقطع والبغي على الناس ولو لم يكن ذم الخيانة الا ما يجده الخائن في نفسه من المذلة لكفاه زاجرا ولو تصور عقبى امانته وجدوى نفسه

نعم

لعلم

والثاني قلة الامانة فاذا حسمها عن نفسه بما وصفت ظهرت مروته فهذا شرط قد استوفينا به اقسام العفة واما النزاهة فنوعان احدهما النزاهة عن المطامع الدنيه فان الطمع ذل والدناة لوم وهما ادفع شي للمروة وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعايه اللهم اني اعوذ بك من

... ابن مسعود ...

الله عنه

مهين ولقلّ الثقة به مستكين وقد قيل في منثور الحكم من يخن يهن وقال
خالد الربعي قرات في بعض الكتب السالفة ان مما يعجل عقوبته ولا يوخر
الامانة تخان والاحسان يكفر والرحم تقطع والبغي على الناس ولو لم يكن
من ذم الخيانة الا ما يجده الخاين في نفسه من المذلة لكفاه زاجرا ولو
تصور عقبى امانته وجدوى ثقته لعلم ان ذلك من اربح بضايع
جاهه واقوى شفعا تقدمه مع ما يجده في نفسه من العز ويقابل
عليه من الاعظام وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ادّ الامانة
الى من ايتمنك ولا تخن من خانك وروي سعيد بن جبير قال لما نزلت
هذه الاية ومن اهل الكتاب من ان تامنه بقنطار يوده اليك ومنهم من ان
تامنه بدينار لا يوده اليك الا ما دمت عليه قايما ذلك بانهم قالوا ليس
علينا في الاميين سبيل يعنون اموال العرب حلال لهم لانهم من غير
اهل الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذب اعدا الله ما من
شي كان في الجاهلية الا وهو تحت قدمي الا الامانة فانها موداة الى البر
والفاجر ولا يجعل ما يتظاهر به من الامانة زورا ولا ما يبديه من العفة
غرورا فينهتك الزور وينكشف الغرور فيكون مع هتك التدليس اقبح
وبعرة الريا افضح وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا
تزال امتي بخير ما لم تر الامانة مغنما والصدقة مغرما وقال بعض الحكما
من التمس اربعا باربع التمس ما لا يكون من التمس الجزا بالريا التمس
ما لا يكون ومن التمس مودة الناس بالغلظة التمس ما لا يكون ومن
التمس وفا الاخوان بغير وفاء التمس ما لا يكون ومن التمس العلم براحة
الجسد التمس ما لا يكون والداعي الى الخيانة شيئان احدهما المهانة
والثاني قلة الامانة فاذا حسمها عن نفسه بما وصفت ظهرت مروته فهذا
شرط قد استوفينا به اقسام العفة وأما النزاهة فنوعان احدهما
النزاهة عن المطامع الدنية فان الطمع ذل والدناة لوم وهما ادفع شي للمروة
وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعايه اللهم اني اعوذ بك من

طمع يدني الى طبع وقال بعض الشعرا

لا تضرعن لمخلوق على طمع فان ذلك نقص منك في الدين
واسترزق الله مما في خزاينه فانما هو بين الكاف والنون

والباعث على ذلك شيان الشره وقلة الانفه فلا يقتنع باادنى ولئن
كان كثير الاجل شرهه ولا يستنكف مما منع ولئن كان حقيرا لقلة انفته
وهذه حال من لا يرى لنفسه قدرا ويرى المال اعظم خطرا فيرى
البذل اهون الامرين لاجلها وليس فيمن كان المال عنده اجل ونفسه
عليه اقل اصغا لتانيب ولا قبولا لتاديب روي ان رجلا قال
لرسول الله صلى الله عليه وسلم اوصني فقال عليك باليأس مما في
ايدي الناس واياك والطمع فانه فقر حاضر واذا صليت صلاة
فصل صلاة مودع واياك وما يعتذر منه وقال بعض الحكما عز
النزاهة اشرف من سرور الفايدة وقال بعض الشعرا

ومن كانت الدنيا مناه وهمه سبته المنى واستعبدته المطامع

وحسم مادة المطامع شيان اليأس والقناعة وقد روى عبد الله
بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان روح
القدس نفث في روعي ان نفسا لن تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا
الله واجملوا في الطلب ولا يحملنكم ابطآ الرزق على ان تطلبوه بمعاصي
الله تعالى فان الله لا يدرك ما عنده الا بطاعته فهذا شرط
واما مواقف الريبة فهي التردد بين منزلتي حمد وذم والوقوف
بين حالتي سلامة وسقم فتوجه اليه لايمة المتوهمين وينال ذاله
المذنبين وكفى بصاحبها موقفا ان صح افتضح وان لم يصح اثم وسئل
محمد بن علي رضي الله عنه عن المروة فقال لا تعمل في السر عملا تستحيي
منه في العلانية وقال حسان بن ابي سنان رضي الله عنه
ما وجدت شيا هو اهون من الورع قيل له وكيف قال اذا ارتبت بشي
تركته والداعي الى هذه الحال شيان الاسترسال وحسن الظن

والمانع منه

والمانع منه شيان الحيا والحذر وربما انتفت الريبة بحسن الثقة
وارتفعت التهمة بطول الخبرة كالذي حكي عن عيسى عليه السلام
انه راه بعض الحواريين وقد خرج من منزل امراة ذات فجور فقال
له يا روح الله ما تصنع هاهنا فقال الطبيب انما يداوي المرضى لكن
لا ينبغي ان يجعل ذلك طريقا الى استرسال وليكن الحذر عليه
اغلب والى الخوف من تصديق التهم اقرب فما كل ريبة ينفيها حسن الثقة
هذا رسول الله وهو ابعد خلق الله من الريب واصونهم من التهم وقف
مع زوجته صفية ذات ليلة على باب مسجد يحادثها وكان معتكفا
فمر بهما رجلان من الانصار فلما راياه اسرعا فقال لهما على رسلكما انها
صفية بنت حيي فقالا سبحان الله يا رسول الله انخالجنا فيك شك
فقال مه ان الشيطان يجري من احدكم مجرى لحمه ودمه فخشيت
ان يقذف في قلوبكما سوا فكيف بمن تخالجت فيه الشكوك وتقابلت فيه
الظنون فهل يعرى في مواقف الريب من قادح محقق ولايم مصدق
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا لم يسع المرء الا بما
عمل واذا استعمل الحزم وغلب الحذر وترك مواقف الريب ومظان
التهم ولم يقف موقف اعتذار ولا عذر محاذر لم تختلج في نزاهته
شك ولم يقدح في عرضه افك وقد قال الشاعر

اصونك ان احيك عليك ظنا لان الظن مفتاح اليقين

وقال سهل بن هارون مونة التوقف ايسر من تكلف التعسف وقال
بعض الحكما من حسن ظنه بمن لا يخاف الله فهو مخدوع وانشدني بعض
اهل الادب لابي بكر الصولي

احسنت ظني باهل دهري فحسن ظني بهم دهاني
لا امن الناس بعد هذا ما الخوف الا من الامان

فهذا شرط قد استوفينا فيه نوعي النزاهة واما الصيانة
وهو الثالث من شروط المروة فنوعان احدهما صيانة النفس بالتماس

كفايتها وتقدير مادتها والثاني صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال
في الاستعانة فاما التماس الكفاية وتقدير المادة فلان المحتاج الى
الناس مهتضم وذليل مستثقل وهو لما فطر عليه محتاج الى ما يستمده
ليقيم اود نفسه ويدفع ضرورة وقته ولذلك قالت العرب كلب جوال
خير من اسد رابض وما يستمده نوعان لازم وندب فاما اللازم فما
قام بالكفاية وافضى الى سد الخلة وعليه في طلبه ثلاثة شروط احدها
استطابته من الوجوه المباحة وتوقي الوجوه المحظورة فان المواد المحرمة
مستخبثة الاصول محوقة الفروع ان صرفها في بر لم يوجر ولن صرفها
في مدح لم يشكر ثم هو لاوزارها محتقب وعليها معاقب وقد قال النبي
صلى الله عليه وسلم لا يعجبك رجل اكتسب مالا من غير حله فان
انفقه لم يقبل منه ولن امسكه فهو زاده الى النار وقال بعض الحكما
شر الاموال ما لزمك اثم مكسبه وحرمت اجر انفاقه ونظر بعض الخوا
الى رجل من اصحاب السلطان يتصدق على مسكين فقال انظر اليهم
حسناتهم من سياتهم وقال علي بن الجهم
سر من عاش ماله فاذا حاسبه الله سره الاعدام
والثاني طلبه من احسن جهاته التي لا لحقه فيها غض ولا يتدنس له بها
عرض فان المال يراد لصيانة الاعراض لا لابتذالها ولعز النفوس
لا لاذلالها وقد قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يا حبذا المال
اصون به عرضي وارضي به ربي وقال ابو بشر الضرير
كفى حزنا انى اروح واغتدي وما لي من مال اصون به عرضي
وسئل ابن عايشة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم اطلبوا الحوايج
من حسان الوجوه فقال من احسن الوجوه التي تحل والثالث ان يتانى
في تقدير مادته وتدبير كفايته بما لا يلحقه خلل ولا يناله زلل فان يسير
المال مع حسن التقدير واصابة التدبير اجدى نفعا واحسن
موقعا من كثيره مع سوء التدبير وفساد التقدير كالبذر في الارض

استطابته من الوجوه المباحة وتوقي الوجوه المحظورة فان المواد المحرمة
مستخبثة الاصول محوقة الفروع ان صرفها في بر لم يوجر وان صرفها في
مدح لم يشكر ثم هو لاوزارها محتقب وعليها معاقب قال النبي صلى الله عليه
وسلم لا يعجبك رجل اكتسب مالا من غير حله فان انفقه لم يقبل منه وان
امسكه فهو زاده الى النار وقال بعض الحكما شر الامور ما لزمك اثم
مكتسبه وحرمت اجر انفاقه ونظر بعض الخوارج الى رجل من اصحاب
السلطان يتصدق على مسكين فقال انظر اليهم حسناتهم من سيئاتهم
سر من عاش ماله فاذا حاسبه الله سره الاعدام والثاني
طلبه من احسن جهاته التي لا يلحقه فيها غض ولا يتدنس له بها عرض فان المال
طلبه يراد لصيانة الاعراض لا لابتذالها ولعز النفوس لا لاذلالها وقد قال
عبد الرحمن بن عوف يا حبذا المال اصون به عرضي وارضي به ربي وقال ابو بشر الضرير
كفى حزنا انى اروح واغتدي وما لي من مال اصون به عرضي
ولكنني الفى صديقي مرحبا وذلك لا يكفي صديقي ولا يرضى
وسئل ابن عايشة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم اطلبوا الحوايج من حسان
الوجوه فقال معناه انه من احسن الوجوه التي تحل والثالث ان يتانى
في تقدير مادته وتدبير كفايته بما لا يلحقه خلل ولا يناله زلل لان يسير المال مع
حسن التقدير واصابة التدبير وفساد التقدير كالبذر في الارض اذا روعي
زكا وان اهمل كثيره اضمحل وقال محمد بن علي الكمال في ثلث العفة في الدين والصبر
على النوايب وحسن التقدير في المعيشة وقيل لبعض الحكما فلان غني فقال
لا اعرف ذلك ما لم اعرف تدبيره في ماله فاذا استكمل هذه الشروط فيما يستمده من
قدر كفايته فقد ادى حق المروة في نفسه وسئل الاحنف بن قيس عن المروة
فقال العفة والحرفة وقد قال لابنه لا تكن على احد كلا فانك تزداد ذلا
واضرب في الارض عودا وبدا ولا تاسفن بما لكان فذهب ولا تعجز لعله عن

الطلب لرغبة ولا ينصب لهذا حال الزاهد وقد كان ذوو الهمم العالية والنفوس الابية يرون ما وصل الى الانسان كسبًا افضل مما وصل اليه ارثًا لانه في الارث جدوى غيره وبالكسب مجدٍ على غيره وفضل ما بينهما في الفضل ظاهر وقال كشاجم

لا استلذ العيش ولا ادب له ... طلبًا وسعيًا في الهواجر والغلس

واراه حرامًا اذ لم ابتني الغنا ... حتى يحاول بالغنى ويلتمس

فاما الندب فهو ما فضل عن الكفاية وزاد على قدر الحاجة فان الامر فيه معتبر بحال طالبه فان كان ممن تقاعد عن مراتب الرؤسا وتقاصر عن مطاولة النظراء وانقبض عن منافسة الاكفا فحسبه ما كفاه فليس في الزيادة الا شره ولا في الفضول الا نهم وكلاهما مذموم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الذكر الخفي وقال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه الدنيا كلها على العاقل وقال عبد الله بن مسعود المستغني بالدنيا عن الدنيا كالمطفي النار بالتبن وقال بعض الحكما ستر ما وجهك بالقناعة وتسل عن الدنيا بتجافيها عن الكرام وان كان ممن قد مني بعلو الهمة وتحركت فيه اريحية الكرم واثر ان يكون راسًا او مقدما وان يرى في النفوس مفخما معظما فالكفاية لا تقله حتى يكون ماله فاضلًا ونائله فايضًا فقد قيل لبعض العرب ما المروة فيكم قال طعام ونايل مبذول وبشر مقبول وقال الاحنف بن قيس

فلو مد سروي بمال كثير ... لجدت وكنت له باذلا

فان المروة لا تستطاع ... اذا لم يكن مالها فاضلا

وقال احيحة بن الجلاح

جمعت مالا ولم ارزق مروته ... وما المروة الا كثرة المال

اذا اردت مساماة تقاعد بي ... عما ينوه رقة الحال

وقال صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال في الاستعانة فلان المحتضن في

استرقاق الاحرار تحدث ذلة فى النفوس وسطوة لما ان بعد الاسترسال
فى الاستعانة تثقيل ومن ثقل على الناس هان ولا قدر عندهم لمهان
وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه خدمك بنوك قال اغنانى
الله عنهم وقال على بن ابى طالب كرم الله وجهه لابنه الحسن فى وصيته ان
استطعت ان لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ولا تكن عبد غيرك وقد
جعلك حرا فان اليسير من الله اكرم واعظم من الكثير من غيره وان كان كل منه
وقال زياد لبعض الدهاقين ما المروة فيكم قال اجتناب الريب فانه لا ينبل
مريب واصلاح الرجل ماله فانه من مروته وقيامه بحوايجه وحوايج اهله
الى غيره وانشد تغلب

من عف خف عن الصديق لقاؤه ٭ واخو الحوايج وجهه مملول ٭
واخوك ان وفرت ما فى كيسه ٭ فاذا عبثت به فانت ثقيل ٭

وان كان الناس لحمة لا يستغنون عن التعاون ولا يستقلون عن المساعدة
والتظاهر فانما ذلك تعاون ايتلاف يتكافون فيه ولا يتفاضلون وربما كان
المستغنى فيه متفضلا والمعين مستفضلا كاستعانة السلطان بجنده والمزارع
بالكرية فليس من هذا ابدا ولا ياخذ عنه غنا واما الذى يتصون عنه الكرام
تعاون التفضل فيتقبضون عن ان يستعينوا الئلا يكون عليهم يد ويباعدون
الى ان يعينوا الئلا يكون لهم يد ومن اقدم من غير اضطرار على الاستعانة بجاه او
بمال فقد ادهن مروته واستبدل صيانته ومن ادعاه الاضطرار النايب الم
وحادث هجم الى الاستعانة بمن تنفس به عن خناق كربه وتخلص به من
وثاق نوايبه فلا لوم على مضطر فان اغناه الاستعانة بالجاه عن الاستعانة
بالمال فلا عذر له فى التعرض للمال ويعدل الى ولاة الامور فان الحوايج عندهم
انجح وهى عليهم اسهل وهم لذلك مندوبون فانهم لا يجدون لهم مشقة ولبصره على
ابطايهم فان تراكم الامور عليهم يشغلهم الا عن الملح الصبور ولذلك قيل

قد رمى لحاجتك بعض حاجته وقد تقدم قول الحكما ريح السلطان على قوم نسيم وعلى قوم سموم ٠ وقال عبد الله بن المعتز من صحب السلطان فليصبر على قسوته كصبر الغواص على ملوحة بحره وقال ابن سارة سحيم بن الاعرف

٠ تعد قرابة وتعد صهرا ٠ ويبعد بالقرابة من رعاها ٠
٠ وما نزدنا عن عدم ولكن ٠ يهش الى الامارة من رجاها ٠
٠ وايا ما فعلت فان نفسي ٠ تعد صلاح نفسك من غناها ٠

فان تعذر عليه صلاح حاله الا بمال يستعين به على نوائبه كان له مع الضرورة فسحة فيه لكن ان وجد قرضا مردودا لم ياخذه صلة وجودا فان القرض مستسمح به في المروات هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما اعلا الله تعالى من قدره وفضله على خلقه قد اقترض ثم قضى فاحسن وقال صلى الله عليه وسلم المستدين تاجر الله في ارضه وقال ابو العتاهية

٠ ان لم يكن كنز فقل عطية ٠ يبغي بها باغي الرضا بعض الرضا ٠
٠ او لا يكن هبة فقرض يسرت ٠ اسبابه وكواهب من اقرضا ٠

ولئن كان الدين رقا فهو اسهل من رق الافضال وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اراد البقا ولا بقا فليباكر الغدا وليخفف الردا قيل فما خفة الردا من البقا قال قلة الدين فان اعوزه ذلك الا استماحا فهو الرزق المذل ولذلك قيل لا مروة لمقل وقال بعض الحكما من قبل صلتك فقد باعك مروته واذل لقدرك عزه وجلالته والذي يتماسك به الباقي في مروة الراغبين واليسير التافه من صيانة السائلين وان لم يبق لذي رغبة مروة ولا لمسائل تصون اربعة امور تجهد المضطر احدها ان يتجافى ضرع السائلين وابهة المستقلين فيذل بالضرع ويحرم بالابهة وليكن من التجمل على ما يقتضيه حال مثله من ذوي الحاجات وقد قيل لبعض الحكما متى يفحش زوال النعم قال اذا زال معها التجمل وانشد بعض اهل الادب لعلي بن الجهم

هي النفس ما حملتها تتحمل ... وللدهر ايام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة ... واحسن خالات الرجال التفضل
ولا عار ان زالت على الحر نعمة ... ولكن عارا ان يزول التجمل

والثاني يقتصر بالسؤال على ما دعته الضرورة وقادته اليه الحاجة ولا يجعل ذلك ذريعة الى الاغتنام فيحرم باغتنامه فلا يعذر في ضرورته وقال بعض الحكما من الف المسئلة الفه المنع والثالث يعذر في المنع ويشكر على الاجابة فانه ان منع فعما لا يملك وان اجيب فالى ما لا يستحق قال النمر بن تولب

لا تغضبن على امرئ في ماله ... وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

والرابع ان يعتمد على سوال من كان للمسالة اهلا وكان النجح عنده مامولا فان ذوي المكنه كثير والمعين منهم قليل ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الخير كثير وقليل فاعله والمرجو للاجابة من تكاملت فيه خصالها وهي ثلاث احداهن كرم الطبع فان الكريم مساعد واللئيم معاند وقد قيل المحروم من كانت الى اللئام حاجته والثانية سلامة الصدر فان العدو الب على نكبتك وحرب على محنتك وقد قيل من اوغرت صدره استدعيت شره فان رق لك بكرم طبعه ورحمه بحسن ظفره فاعظم بها محنة ان يصير عدوك راحما لك وقد قال الشاعر

وحسبك من حادث بامرئ ... ترى حاسديه له راحمينا

والثالثه ظهور المكنه فان من سال ما لا يمكن فقد احال وكان كمستنجح المسجون ومستسعف المديون وكان بالرد خليقا وبالحرمان حقيقا وقد قال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه [illegible] حتى يقال له لا فهو [illegible] واوصى عبد الله بن الاهتم ابنه فقال يا بني لا تطلب الحوايج الى غير اهلها ولا تطلبها في غير حينها ولا تطلب ما لست مستحقا فانك ان فعلت ذلك كنت حقيقا بالحرمان قال الشاعر

ولا

ولا تسألن امرءً حاجة يحاول من ربها مثلها
فترك ماكنت حملته ويبدا بحاجته قبلها

فهذا ما يختص بشروط المروة في نفسه فاما شروط المروة في غيره فثلاثة الموازرة والمياسرة والافضال فاما الموازرة فنوعان احدهما الاسعاد بالجاه والثاني الاسعاف في النوايب فاما الاسعاد بالجاه فقد يكون من الاعلى قدرًا والانفذ امرًا وهو ارخص المكارم ثمنًا والطف الصنايع موقعًا وربما كان اعظم من المال نفعًا وهو الظل الذي يلجأ اليه المضطر والحمى الذي ياوي اليه الخايفون فان وطاه اتسع بكثرة الانصار والمشيع وان قبضه انقطع بنفور الغاشية والتبع فهو بالبذل ينمي ويزيد وبالكف ينقص ويبيد فلا عذر لمن منح جاهًا ان يبخل به فيكون اسوء حالًا من البخيل بماله لان البخيل بماله قد يبعثه لنوايبه ويستبقيه للذاته ويستكثره لذريته ويصد ذلك من بخل بجاهه لانه اضاع بالشح وبدده بالبخل وحرم نفسه غنيمة مكنته وفرصة قدرته فلم يعقبه الا ندمًا على ما فات واسفًا على ضايع ومقتا يستحكم في النفوس وذمًا قد ينتشر في الناس وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الخلق كلهم عيال الله عز وجل فاحب خلق الله احسنهم صنعًا الى عياله وقد قال بعض الحكما اصنع الخير عند امكانه يبق لك حمدًا عند زواله واحسن والدولة لك يحسن اليك والدولة عليك واجعل زمان رخايك عدة لزمان بلايك وقال بعض البلغا من علامة الاقبال اصطناع الرجال وقال بعض الادبا بذل الجاه احد الحباين وقال ابن الاعرابي العرب تقول من امل امرا هابه ومن جهل شيا عابه وبذل الجاه قد يكون من كرم النفس وشكر النعمة وصدق ضده وليس بذل الجاه التماس الحبا بذلا مشكورًا وانما هو بايع جاهه ومعارض على نعم الله تعالى والايه فكان بالذم احق وانشد

بعض اهل الادب لعلي بن العباس الرومي

لا يبذل العرف حين يبذله ... كمشتري الحمد وكمعتاضه
بل يفعل العرف حين يفعله ... لجوهر العرف لا لاعراضه

وعلى من اسعد بجاهه ثلاثة حقوق ليستكثر بها الشكر ويستمد بها المزيد احدها ان يستسهل المعونة مسرورا بها ولا يستثقلها كارها فيكون بنعم الله تعالى متبرما ولاحسانه متسخطا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من عظمت نعم الله عنده عظمت مونة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المونة عرض تلك النعمة للزوال الثاني مجانبة الاستطالة وترك الامتنان فانهما من لوم الطبع وضيق الصدر وفيهما هدم الصنيع واحباط الشكر وقد قيل لحكيم اليونان من اضيق الناس طريقا واقلهم صديقا قال من عاشر الناس بعبوس وجهه واستطال عليهم بنفسه والثالث ان لا يقرن بمشكور سعيه تقريعا بذنب ولا توبيخا على هفوة فلا يفي مضض التوبيخ بادراك النجح ويصير الشكر وزرا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم وقال النابغة

الم تعلما ان الملامة نفعها ... قليل اذا ما الشيء ولى وادبرا

واما الاسعاف في النوايب فلان الايام غادرة والنوازل عاثرة والحوادث عارضة والنوايب راكضة فلا يعدو فيها الا عليم ويستنقذ منها الا كريم

وقال عدي بن زيد

كفى زاجرا للمرء ايام دهره ... تروح له بالواعظات وتغتدي

فاذا وجد الكريم مصابا بحوادث وجب الكرم وشكر النعم على الاسعاف فيها بما استطاع سبيلا اليه ووجد قدرة عليه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير من الخير معطيه وشر من الشر فاعله وقيل لبعض الحكماء هل شي خير من الذهب والفضة قال معطيهما والاسعاف في النوايب نوعان واجب وتبرع فاما الواجب فما اختص بثلاثة اصناف وهم الاهل والاخوان والجيران اما الاهل

فلمماسة الرحم وتعاطف النسب وقد قيل لمريسد من احتاج اهله الى غيره

وقال حسان بن ثابت

ان امرء نال المنى ثم لم يند … قريبا ولا ذا حاجة لزهيد

وان امرء عاد الرجال على الغنا … ولم يسال الله الغنا لحسود

واما الاخوان فلمستحكم الود ومتاكد العهد سئل الاحنف بن قيس عن المروة فقال الصدق اللسان ومواساة الاخوان وذكر الله في كل مكان وقال بعض الحكما من الفرس صفة الصديق ان يبذل لك ماله عند الحاجة ونفسه عند النكبة ويحفظك عند المغيب وراى بعض الحكما رجلين يصطحبان ولا يفترقان فسال عنهما فقال هما صديقان فقال ما بال احدهما غنيا والاخر فقيرا واما الجار فلدنو داره واتصال مزاره وقد قال علي كرم الله وجهه ليس حسن الجوار كف الاذى ولكنه الصبر على الاذى وقال بعض الحكما من اكرم جاره اعانه اسوا جاره وقال بعض البلغا ان احسن الى جاره دل على حسن نجاره قال بعض الشعرا

وللجار حق فاجتنب من اذاته … وما خير جار لا يزال مداريا

فيجب في حقوق المروة وشروط الكرم في هولاء الثلاثة افعالهم واسعافهم في نوايبهم ولا فسحة لذي مروة مع ظهور المكنة ان يكلهم الى غيره او يلجئهم الى سوال وليكن سايل نفسه عنهم فانهم عيال كلهم واضيافه الى الطلب والرغب فهكذا من عالم كرمه واضاف مروته وقد قال بعض الشعرا

حق على السيد المرجو نائله … والمستجار به في العرب والعجم

ان لا ينيل الاقاصي صوب راحته … حتى يخص به الادنى من الخدم

ان الغراب اذا احاسب عواريه … يروي السواحل ثم امتد في الامم

واما التبرع فيما عدا هولاء الثلاثة من البعد الذين لا يدلون بنسب ولا يتعلقون بسبب فان تبرع بفضل الكرم وفائض المروة فنهض في حوادثهم

١٤٩ ٤

وتكفل نوائبهم فقد زاد على شروط المروة وتجاوزها الى شروط الرياسة
وقيل لبعض الحكماء اي شيء من افعال الناس يشبه افعال الاله جل وعلا
قال الاحسان الى الناس واذ كف تشاغل عن لزم فلا يؤثم ما لم يجد اليه مضطرا
اذ القيام بالكل معوز والتكفل بالجميع معتذر فهذا حكم المؤازرة واما
المياسرة فنوعان احدهما العفو عن الهفوات والثاني المسامحة في الحقوق
فاما العفو عن الهفوات فانه لا مبرأ من سهو وزلل ولا سليم من نقص و
خلل ومن رام سليما من هفوة والتمس بريا من نبوة فقد تعدى على الدهر
بشططه وخادع نفسه بغلطه وكان من وجود بغيته بعيدا وصار باقتراحه
فردا وحيدا وقد قالت الحكماء لا صديق لمن اراد صديقا لا عيب فيه وقد
قيل لانوشروان هل من احد لا عيب فيه قال من لا موت له واذا كان
الدهر لا يوجد ما طلب ولا ينيله ما احب وكان الوحيد في الناس مرفوضا
مكانا قصيا والمنقطع عنهم بهيما وحشيا لزمه مساعدة زمانه في القضاء ومسا
محة اخوانه في الصفح والاغضاء روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله
امرني بمداراة الناس كما امرني باقامة الفرائض وقال بعض الادباء ثلاث
خصال لا تجتمع الا في كريم حسن المنظر واحتمال الذل وقلة الملال وقال ابن الرومي

فعذرك مبسوط لذنب مقدم ... وودك مقبول باهل ومرحب
ولو بلغتني عنك اذني اقمتها ... لدي مقام الكاشح المتكذب
فلست بتقليب اللسان مصارما ... خليلا اذا ما القلب لم يتقلب

واذا كان الاغضاء حتما والصفح لازما ترتب الهفوة ويترك بقدر الذنب والهفو
نوعان صغائر وكبائر فالصغائر مغفورة والنفوس بها معذورة لان الناس
مع اطوارهم المختلفة واخلاقهم المتفاضلة لا يسلمون منها وكان الوجه فيها
مطرحا والعتب فيها مستقبحا وقد قال بعض الحكماء من هجر اخاه بغير ذنب كان
كمن زرع زرعا حصده قبل اوانه وقال ______ ابو العتاهية

وشر الاخلاء من لم يزل ... يعاتب طورا وطورا يذم
يريك النصيحة عند اللقا ... ويبريك في السر بري القلم

وانما الكبائر فنوعان احدهما ان يهفو بها خاطيا ويزل بها ساهيا فالحرج فيها مرفوع والعتب عنها موضوع لان هفوة الخاطي هدرة ولومه هدر وقال بعض الحكما لا تقطع اخاك الا بعد عجز الحيلة عن اصطلاحه وقال الاحنف بن قيس حق الصديق ان يحتمل له ثلاثا ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة وحكى ابن ابي عون ان غلاما هاشميا عربد على قوم فاراد عمه ان يسيء اليه فقال يا عم اني اسات وليس معي عقلي فلا تسيء ومعك عقلك

وقال ابو فراس

لم اواخذك اذ جنيت فانى ... واثق منك بالاخاء الصحيح
فجميل العدو غير جميل ... وقبيح الصديق غير قبيح

ان تشبه خطاؤه بالعمد وسهوه بالقصد تثبت ولم يلم بالتوهم يكون ملوما ولا يذم بالظن فيصير مذموما فلذلك قيل التثبت نصف العفو وقال بعض الحكما لا يفسدنك الظن على صديق قد اصلحك اليقين وقال بعض شعراء هذيل

فبعض الامر يصلحه ببعض ... فان الغيث يحمد السمين
ولا تعجل بظنك قبل خبر ... فعند الخبر تنقطع الظنون
ترى بين الرجال العين فضلا ... وفيما اضمروا الفضل المبين
كلون الما مشتبها وليست ... تخبر عن مذاقته العيون

والثاني ان يتعمد ما اجترم من كبايره ويقصد ما اجترح من سيئاته فلا يخلو حاله فيما اتاه من احوال اربعة فالحالة الاولى ان يكون موتورا قد قابل على بوادره وكافا على مسائته فاللايمة على من وتره والبادي بها راجعه لان المكافى اعذر وان كان الصفح اجمل ولذلك

والمشاورة

١٥١

قال النبي صلى الله عليه وسلم اياكم والمشاورة فانها تقيت العزة وتحيي الغرة
ولذلك قال بعض الحكما من فعل ما شا لقي ما لم يشا وقال بعض الادبا من
نالته اساتك همته مساونك وقال بعض البلغا من بلغ بقبح المعاملة اوجع
بقبح المقاتله وقال صالح بن عبد القدوس

اذا وترت امرا فاحذر عداوته ٭ من يزرع الشوك لم يحصد به عنبا
ان العدو وان ابدا مسالمة ٭ اذا راى منك يوما فرصة وثبا

والاغضا عن هذا الذنب اوجب وان لم تكن المكافاة ذنبا الا انه راى عقبا
اساءته فان واصل البشر واصلته المكافاه وقد قيل باعتزالك الشر
يعتزلك وبحسن النصفه يكثر الواصفون وقد قال بعض الحكما من كنت
سببا لبلايه وجب عليك التلطف له في علاجه من دايه ببيت

اذا انت لم تعرض عن الجهل والخنا ٭ اصبت حليما او اصابك جاهل

والحالة الثانية ان يكون عدوا قد استحكمت شحناوه واستوعرت شراوه
واستخشنت ضراوه فهو يتربص بدوابر السو انتهاز فرصة ويتجرع
بمهانة العجز مرايرغصصه فاذا ظفر بنايبة ساعدها وان شاهد نعمة
عاندها فالبعيد منه حذرا اسلم والكف منه متاركة اغنم فانه لا اسلم
من عواقب شره ولا يفلت من غوايل مكره وقد قالت الحكما لا
تعرض لعدوك في دولته فاذا زالت كفيت شره وقد قال لقمان لابنه يا
بني كذب من قال ان الشر بالشر يطفى فان كان صادقا فليوقد نارين ولينظر
هل تطفي احديهما الاخرى وانما يطفي الخير الشر كما يطفي الما النار وقال
جعفر بن محمد رضي الله عنهما كفاك من الله نصرا ان ترى عدوك يعصي الله تعالى
وقال بعض الادبا بالسيرة العادلة يقهر المعادي

فاقسم لا اجزيك بالشر مثله ٭ وكفى بالذي جاربتني لك جاربا

والحالة الثالثة ان يكون لئيم الطبع خبيث الاصل قد اغرا لوم الطبع على

انظر قول لقمان لابنه الخ

تنبيه على قول بعض الادبا

سوء الاعتقاد وبعث خبث الاصل على ايثار الفساد فهو لا يستقبح الشر ولا يكف عن المكروه فهذه الحالة اطم لان الاضطرار بها اعم ولا سلامة من مثله الا بالبعد والانقباض ولا خلاص الا بالصفح والاعراض فانه كالشجر الضاري في سوارح النعم كالنار المتاججه في يابس الحطب لا يقربها الا تالف ولا يدنو منها الا هالك روى مكحول عن ابي امامة عن النبي صلى الله عليه وسلم الناس كشجرة ذات جني ويوشك ان يعودوا كشجرة ذات شوك فان ناقدتهم ناقدوك وان هربت منهم طلبوك وان تركتهم لم يتركوك قيل يا رسول الله كيف المخرج قال اقرضهم من عرضك ليوم فاقتك وقال عبد الله بن عباس العاقل الكريم صديق كل احد الا من ضره والجاهل اللئيم عدو كل احد الا من نفعه وقال بعض الحكما شر ما في الكريم ان يمنعك خيره وخير ما في اللئيم ان يكف عنك شره وقال بعض البلغاء اعداؤك وفي البعد منهم شفاؤك وقال بعض الادبا شرف الكريم تغافله عن اللئيم واوصى بعض الحكما ابنه فقال يا بني اذا سلم الناس منك فلا عليك ان لا تسلم منهم فانه قلما اجتمعت هاتان النعمتان

والخير والشر مقرونان في قرن فالخير متبع والشر محذور والحالة الرابعة ان يكون صديقا قد استحدثت نبوه وتغيرا واخا قد استجد جفوة وتنكرا فابدى صفحه عفوقه واطرح لازم حقوقه وعدل عن بر الاخاء الى جفوة الاعدا فهذا يعرض في المودات المستقيمة كما تعرض الامراض في الاجسام السليمة فان عولجت اقلعت وان اهملت اسقمت ثم اتلفت ولذلك قالت الحكما دواء المودة بكثرة التعاهد

انا الذي الود عثرته وقفه ... على سنن الطريق المستقيم
ولا تسرع بمعتبة اليه ... فقد يهفو ونيته سليمة

ومن الناس من يرى ان متاركة الاخوان اذا تغيروا اصلح واطراحهم اذا

اولى كاعضاء الجسد اذا افسدت كان قطعها اسلم فان شئ بها سرت الى نفسه وكالثوب اذا اخلق كان اطراحه بالجديد اجمل من لبسه وقد قال بعض الحكماء رغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفس وزهدك فيمن يرغب فيك صغر همة وقال بزرجمهر من تغير عليك في مودته فدع صحبته كان عمل معرفته

قال البحتري

ه صل من دنا وتناس من بعدا ؛ لا تكرهن على الهوى احدا ه
ه قد اكثرت حوى اذ ولدت ؛ فاذا جفا ولد فخذ ولدا ه

وهذا مذهب من قلت وفاؤه وضعف اخاؤه وساءت طرايقه وضاقت خلايقه ولم يكن فيه فضل الاحتمال ولا صبر على الادلال وقابل على العفو بالعقوق لا بالفضل اخذ ولا الى العفو احلد وقد علم ان نفسه قد تطغى عليه فتزديه وان جسمه قد يسقم عليه فيولمه ويوذيه وهما اخص به واحنى عليه من صديق قد تميز بذاته وانفصل بدواته فيزيد من غيره لنفسه ما لا يجد من نفسه هذا عين المحال ومحض الجهل مع ان من لم يحتمل يبقى فرد او انقلب الصديق فصار عدوا وعداوة من كان صديقا اعظم من عدا ومن لم يزل عدوا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم احبب حبيبك هونا ما وقال اوصاني ربي بسبع الاخلاص في السر والعلانية وان اعفو عمن ظلمني واعطي من حرمني واصل من قطعني وان يكون صمتي فكرا ونظري عبرا ونطقي ذكر قال لقمن لابنه يا بني لا تترك صديقك الاول فلا يطمئن اليك الثاني يا بني اتخذ الف صديق والف قليل ولا تتخذ عدوا واحدا فالواحد كثير وقيل للمهلب بن ابي صفرة ما تقول في العفو والعقوبة قال هما بمنزلة الجود والبخل فتمسك بايهما شيت وانشد ثعلب

ه اذا انت لم تستقبل الامر لم تجد ؛ بكفيك في ادباره متعلقا ه
ه اذا انت لم تترك اخاك وزله ؛ اذن لها اوشكتما ان تفرقا ه

فاذا كان الامر على ما وصفت فمن حقوق الصفح الكشف عن سبب الهفوة لتعرف
الداء فتعالجه فان لم تعرف الداء لم تقف على الدوا وكان كما قال المتنبي
فان الجرح ينفر بعد حين ... اذا كان البنا على الفساد
وان كان كذلك فلا يخلو حال ذلك السبب من ان يكون لملل وزلل
فصفوات الملوك ظل الغمام وحلم المنام وقد قيل في منثور الحكم لا
تامنن ملولا وان تحلى بالصله وعلاجه ان يترك على ملله فسيمل
الجفا كما مل الاخا وان كان لزلل لوحظت اسبابه فان كان لها مدخل
في التاويل وشبهة تاول الى الجميل حمله على اجمل تاويله وصرفه الى احسن
جهته كالذي حكي عن خالد بن صفوان انه مر به صديقان له فعرج
عليه احدهما وطواه الاخر فقيل له في ذلك فقال نعم عرج علينا هذا
بفضله وطوانا هذا النفقة. وانشد بعض الادبا لمحمد يزداد الاصبهاني

وتزعم للواشين اني فاسد ... عليك واني لست فيما عهدتني
وما فسدت لي يعلم الله نية ... عليك ولكن خنتني فاتهمتني
غدرت بعهدي عامدا فاخفتني ... فخنت ولو انصفتني لامنتني

وان لم يكن لزلله في التاويل مدخل نظر حاله بعد زلله فان ظهر ندمه وبان
خجله فالندم توبة والخجل انابه ولا ذنب لتائب ولا لوم على منيب ولا
يكلف عما سلف فيلجا الى ذل التعريف وخجل التعنيف ولذلك قال النبي صلى
الله عليه وسلم اياكم والمعاذر فان كثرها مفاخر وقال علي بن ابي طالب كرم
الله وجهه كفى بما يعتذر منه تهمة وقال مسلم بن قتيبة لرجل اعتذر اليه
لا يدعونك امر قد تخلصت الى الدخول في امر لعلك لا تتخلص منه وقال بعض
الحكما شفيع المذنب اقراره وتوبته اعتذاره وقال بعض البلغا من لم يقبل
التوبة عظمت خطيئته ومن لم يحسن الى التائب قبحت اساته وقال بعض الادبا

الكريم اوسع ما يكون مغفرة اذا ضاقت بالمذنب المعذرة وقال الشاعر
○ العذر يلحقه التحريف والكذب ○ وليس في عفو ما يرضيك لي اربُ
○ وقد اسأت فبالنعما التي سكنت ○ الا منننت بعفو ماله سبب ○
وان عجل العذر قبل توبته وقدم التفضل قبل انابته فالعذر توبة
والتفضل انابة فلا يكشف عن باطن عذره ولا يعنف بظاهر عذره فيكون
لئيم الظفر سيئ المكافاة وقد قيل من غلبته الحدة فلا تغتر بموده
وقال بعض الحكما شافع المذنب خضوعه الى عذره وقال الشاعر
○ اقبل معاذير من ياتيك معتذرا ○ ان بر عندك فيما قال او فجرا ○
○ فقد اطاعك من يرضيك ظاهره ○ وقد اجلك من يعصيك مستترا ○
وان تارك نفسه في زلله ولم يتدارك بعذره وتنصله ولا محاه بتوبته
واعنت حاله في المنازل فللسيئة لا ينفك فيها من امور ثلاثة اما ان يكون
قد كف عن سيئ عمله واقلع عن سالف زلله فالكف احد التوبتين و
الاقلاع احدى المعذرتين فكن ازاء المتعذر عنه بصفحك والمتفضل
له بفضلك فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه المحسن على المسيء امير
والثاني ان يكون قد وقف على ما سلف من زلله ولا متجاوز فوق المرض
اخذ البرين وكفه عن الزيادة احدى الحسنيين وقد استبقى بالوقوف على
التجاوز احدى شطريه فعول به على الشطر الاخير واياك وارجاوه فان
الارجا يفسد شطر صلاحه والتلافي يصلح شطر فساده فان من سقم
ولم يعالجه سرى السقم الى صحته وان عالجه سرت الصحة الى سقمه والثالث
ان يتجاوز مع الاوقات ويزيد فيه على مرور الايام فهذا هو الداء العضال
فان امكن استدراكه وتاتى استصلاحه باستنزاله عند ان علا وبدعايه
ان دنا وبعتابه ان ساوى والا فاخر الداء العيا الكي ومن بلغت به الاعذار

انظر قوله من غلبته الحدة فلا تغتر بمودته

غير تارك صح

الى غايتها فا[...] عليه والمقيم على شقاقه باغ مصروع وقد قيل
من سل سيف البغي اغمده في راسه فهذا شرط واما المسامحة في الحقوق
فلان الاستيفا موحش والاستقصا منفر ومن اراد كل حقه من النفوس
المستصعبة بشح وطمع لم يصل اليه الا بالمنافرة والمشاقة ولم يقدر
عليه الا بالمحاسبة والمشاحة وقد استقر في الطبايع مقت من شاقها
او نافرها وبغض من شاحها ونازعها كما استقر فيها حب من سامحها
وياسرها وكان اليق الامور بالمروة استعطاف النفوس بالمسامحة والمبا[سطة]
وتالفها بالمقاربة والمساهلة وقال بعض الحكما من عاشر اخوانه
بالمسامحة دامت لهم مودتهم وقال بعض الادبا ان اخذت عفو القلوب زكا
ربعك وان استقصيت اكديت والمسامحة نوعان في عقود وحقوق فاما
العقود فهو ان يكون فيها سهل المناجزة قليل المحاجزة مامون الغيبة بعيدا
من المكر والخديعة وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اجملوا في طلب
الدنيا فان كلا ميسر لما كتب له فيها وقال صلى الله عليه وسلم الا ادلكم على شي
يحبه الله قالوا بلى يا رسول الله قال اللين للضعيف وحكي بن عوف ان عمرو بن
عبيد اشترى للحسن البصري ازارا بستة دراهم ونصف فاعطى التاجر سبعة
فقال له ثمنه ستة ونصف فقال اني اشتريته لرجل لا يقاسم اخاه درهما
ومن الناس من يرى ان المساهلة في العقود عجز وان الاستقصا فيها حزم
حتى ليماكس في التافه الحقير وان جاد بالجزل الكثير كالذي حكي عن عبد الله
ابن جعفر وقد ماكس في درهم وهو يجود به فقيل في ذلك فقال ذلك
مالي اجود به وهذا عقلي بخلت به وهذا انما يستساغ من اهل المروة في دفع
ما يخدعهم به الادنيا ويعابثهم به الاشحا وهكذا كانت حالة عبد الله بن جعفر
فاما مماكسة الاسترذال والاستسماح فكلا فانه مناف للكرم ومباين للمروة و
واما الحقوق فيتنوع المسامحة فيها نوعين احدهما في الاحوال والثاني في

الأموال فأمّا المسامحة في الأحوال فهو اطراح المنازعة في الرتب وترك
المنافسة في التقدم فان مساحة النفوس فيها اعظم وعنادها عليها
أكثر فان سامح فيها ولم ينافس كان مع اخذه بافضل الاخلاق واستعماله
لاحسن الاداب اوقع في النفوس من افضاله برغايب الاموال ثم هو احفظ
لمرتبته وابلغ في تقدمه وان شاح فيها ونازع كان مع ارتكابه لاسوء
الاخلاق واستعماله لاحسن الاداب انكا في النفوس من حد
السنان ثم هو احفظ للرتبة وامنع من التقدم حكي ان رجلا
تخطى رقاب الناس عند ابن ابي داود فقال له يا بني ان الادب ميراث الاشراف
ولست اري عندك من اسلافك ارثا واما المسامحة في الاموال فتتنوع
ثلاثة انواع مسامحة اسقاط لعدم ومسامحة تخفيف لعجز ومسامحة
انظار لعسرة وهي مع اختلاف اسبابها تفضل مأثور وتألف مشكور وقد
كان الكريم قد يجود بما تحويه يده وينفذ فيه تصرفه كان وفي موجود
خرج عن يده وطاب نفسا بفراقه وقد يتصل المسامحة في تعريض من
يقبل البر ويأتي الصلة فيكون احسن موقعا وازكي محلا ... فكانت
فيها الآم من رد المسائل ومنع المجتدي لان السائل ...
فيتجري ان رددته على سؤال غيرك وليس كل من ...
دينك تجد بدا من مسامحتك ومباشرتك ثم لك ...
الاجر قال محمود الوراق

○ المرء بعد الموت احدوثة يفنى ويبقى منه آثاره
○ فاحسن الحالات حال امرئ تطيب بعد الموت اخباره

فهذه حال المباشرة واما الافضال فنوعان افضال ...
استكفاف وزفاع اذا افضال الاصطناع فنوعان احدهما ...
شكور والثاني ما يألف به شرور ... وكلاهما ...

من ظهور الاصطناع وتكاثر الاشياع والاتباع ومن قل اصطناعه
في الناس رفضوه وعزل عن تالف النافرين كان فردا مهجورا وتابعا
محقورا ولا مروة لمتروك مطرح ولا قدر لمحقور ممتهن وقال عمر بن
عبد العزيز ما طاوعني الناس على شيء اردته من الحقوق حتى بسطت لهم
طرفا من الدنيا وقال بعض ـــــ احق ما يجب للمنعم بحق نعمته ان لا يتوصل
بها الى معصية وانشد بعض الاعراب من جمع المال ولم يجد له

وجمع المال لعام جدبه ۞ هان على الناس هوان كلبه

وقال ـــــ اسحق بن ابرهيم الموصلي

يبقى الثنا وتذهب الاموال ۞ ولكل دهر دولة ورجال
ما نال محمدة الرجال وشكرهم ۞ الا الجواد بماله المفضال
لا ترض من قول حلاوة قوله ۞ حتى يصدق ما يقول فعال

فان ضاق بالحال عن الاصطناع بماله فقد عدم من آلة المكارم عمادها
ويفقد من شروط الرياسة بناءها فليواس بنفسه مواساة المساعف
ويسعد بها اسعاد متالف كما قال المتنبي فليسعد النطق ان لم يسعد الحال
وان كان لا يراها وان جهدها الا تبعا للمفضلين قليلة بين المكثرين فان
الناس لا يساوون بين المانع والمعطي ولا يقنعهم القول دون الفعل ولا
يغنيهم الكلام عن المال ويرونه كالصدى ان رد صوتا لم يجد نفعا
كما قال الشاعر: يجود بالوعد ولكنه ۞ يدهن من قارورة فارغه
فكلما خرج عندهم عن المال كان فارغا وكلما عدم الافضال به كان هينا
وقد قدمنا القول في شروط الافضال ما اقنع وانما الافضال
بلا استكفاف فلان ذا المفضل لا يعدم نعمه ومعاند فضيلة يعترضه الجهل
باظهار عناده ويبعثه اللوم على البذا بسفهه فان غفل عن استكفاف
السفهاء واعرض عن استدفاع اهل البذا صار عرضه هدفا للمثالب

وحاله عرضه للنوايب واذا استكف السفيه واستدفع البذي صان عرضه
وحمى نعمته وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما وقي المرء عرضه
فهو صدقه وقالت عايشة رضي الله عنها ذبوا باموالكم عن اعراضكم
وامتدح رجل الزهري فاعطاه قميصه فقال له رجل اتعطي على كلام
الشيطان فقال ان من ابتغاء الخير اتقاء الشر ولذلك قال النبي صلى الله عليه
وسلم من اراد بر الوالدين فلا يعطي الشعراء وهذا صحيح لان الشعر اسائر
سيرته ما تضمن من مدح او هجاء ولاجل ذلك قيل لا تواخ شاعرا فانه
يمدح بثمن ويهجو مجانا ولاستكفاف السفهاء بالافضال شرطان ان
يخفيه حتى لا ينتشر فيه مطامع السفهاء فيتوصلون الى اجتذابه بسبه
والى ماله بثلبه والثاني ان يتطلب له في المجاملة وجها يجعله في
الافضال سببا لان يرى انه على السفه قد اعطى ولاجل البذا قد حبي
فيغريه ذلك بزيادة السفه واستدامة البذا واعلم انك ما حييت
ملحوظ المحاسن محفوظ المساوي لم تعدم لك حديث منتشر لا يراقب
صديق ولا يحامي عنك شفيق فكن احسن حديث ينشر يكن سعيك في
الناس مشكورا واجرك عند الله مذخورا فقد روى زياد بن الجراح
عن عمرو بن ميمون الاودي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتنم خمسا
قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك
وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك وهذا ما اقتضاه هذا
الفصل من شروط المروة وان كنا بناهذا من شروطها وما اتصل بحقوقها

الفصل الثامن في اداب منثورة

اعلم ان الاداب مع اختلافها بتنقل الاحوال وتغير العادات لا يمكن استيعابها
ولا يقدر على حصرها وانما يذكر كل انسان ما بلغه الوسع من اداب زمانه
واستحسن بالعرف من عادات دهره ولو امكن ذلك لكان الاول قد اغنى عن

الثاني منها او المتقدم فوفقا للمتاخر كلفها وانما حظ الاخير ان يعاني حفظ
الشارد وجمع المتفرق ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته
فيثبت ما كان موافقا وينفي ما كان مخالفا ثم يستمد خاطره في استنباط
زيادة واستخراج فائدة فان اسعف بشيء فاز بدركه وحظي بفضيلته ثم
يعبر عن ذلك كله بما كان مالوفا من كلام الوقت وعرف اهله فان لاهل كل وقت
في الكلام عادة تولف وعبارة تعرف ليكون اوقع في النفوس واسبق الى
الافهام ثم يرتب ذلك على ابوابه ومقدماته ويبنيه على اصوله و
قواعده بحسب ما يقتضيه الجنس فان لكل نوع في العلوم طريقة هي اوضح
مسلكا واسهل ماخذا فهذه خمسة شروط وهي حظ الاخير
فيما يعانيه وكذا القول في كل تصنيف مستحدث ولولا ذلك لكان تعاطي
ما تقدم به الاول عناء ضائعا وتكلفا مستهجنا وارجو ان يمدنا الله
بالتوفيق لتادية هذه الشروط وينهضنا المعونة بتوفية هذه الحقوق حتى
نسلم من نقص التكلف ونبرا من عيب التقصير وان كان اليسير مغفورا والخاطي
معذورا فقد قيل من صنف كتابا فقد استهدف فان احسن فقد استعطف
وان اسا فقد استقذف وقد مضت ابوابا تضمنت فصولا رايت اتباعها
بما يراحب الاخلال به فمن ذلك حال الانسان في ماكله ومشربه فان الداعي الى
ذلك شيئان احدهما حاجة ماسة وشهوة باعثة فاما الحاجة فتدعو الى
ما سد الجوعة وسكن الظما وهذا مندوب اليه عقلا وشرعا لما فيه من حفظ
النفس وحراسة الحواس ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال بين صوم
اليومين لانه يضعف الجسد ويميت النفس ويعجز عن العبادة وكل ذلك يمنع
الشرع ويدفع عنه العقل وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا
نصيب من زهد لان ما حرمها من فعل الطاعة بالعجز والضعف اكثر
ثوابا واعظم اجرا اذ ليس في ترك المباح ثوابا يفي بل فعل الطاعة واتيان

القرب ومن اخذ نفسه بتجافي المحبوب وحرمها ما يؤثر كان زهده في
الجزاء اقوى من رغبته ولم يبق عليه من هذا التكليف الا اليسير مع براءة وسمعة

وأما الشهوة فتتنوع نوعين احدهما شهوة في الاكثار والزيادة
والثاني شهوة في تناول الالوان الملذة فاما النوع الاول وهو شهوة الزيادة
على قدر الحاجة والاكثار على مقدار الكفاية فهو ممنوع منه في العقل والشرع
كما كان قدر الحاجة مندوبا اليه في العقل والشرع لان تناول ما زاد على
الكفاية نهم مضر وشره مضر وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم
والبطنة فانها مفسدة للدين مورثة للسقم مكسلة عن العبادة وقال علي
كرم الله وجهه اذا كنت بطينا فعد نفسك زمنا وقال بعض العلماء اقلل الطعام
فمعه الصحة وقال بعض البلغاء لا يسكن العلم معدة ملئت طعاما وقال
اقلل طعاما تحمد مناما وقال بعض الادبا الرغيب شوم والنهم لوم وقال بعض
الحكما اكبر الدوا تقدير الغذا وقال بعض الشعراء

وكم من اكلة منعت اخاها ... بلذة ساعة اكلات دهر
وكم طالب يسعى لامر ... وفيه هلاكه لو كان يدري

وروى ابو زيد المدني عن عبد الرحمن بن المرقع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ان الله لم يخلق وعاء شرا من البطن فان كان لا بد فاعلا فاجعلوا ثلثا للطعام
وثلثا للشراب وثلثا للريح واما النوع الثاني وهو شهوة الاشيا الملذة
ومنازعة النفس الى طلب الانواع الشهية فمذاهب الناس في تمكين النفس منها
مختلفة فمنهم من يرى ان صرف النفس عنها اولى وقهرها عن اتباع شهواتها
احرى ليذل له قيادها ويهون عليه عنادها لان تمكينها وما تهوى بطر
واشر يردى لان شهواتها غير متناهية فاذا اعطاها المراد من شهوة وقتها
تعدتها الى شهوات قد استحدثتها فتصير الانسان اسير شهوات لا تنقضي
وعبد هوى لا ينتهي ومن كان بهذه الحالة لم يرج له صلاح ولم يوجد فيه

خير

فضل وانشد بعض الادباء لابي الفتح البستي

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته ... اتطلب الربح مما فيه خسران
اقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فانت بالنفس لا بالجسم انسان

ولتحذر من هذه الحالة كما حكي ان ابا حازم كان يمر على الفاكهة
فيشتهيها فيقول موعدك الجنة وقال اخرون تمكين النفس من لذاتها
اولى واعطاؤها ما اشتهت من المباحات احرى لما فيه من ارتياح النفس
بنيل شهواتها ونشاطها بادراك ارادتها فيتحسر عنها ذلة المقهورة
وبلادة المغمورة فلا تقصر عن درك ولا تبطي في نهضة ولا تكل عن معونة
وقال اخرون بل توسط الامرين اولى لان في اعطائها كل شهوتها سلاطة
والنفس السليطة معاندة وفي منعها من جميع شهواتها بلادة والنفس البليدة
عاجزة وفي منعها من البعض كفها عن السلاطة وفي تمكينها من البعض حسم
لها عن البلادة وهذا لعمري اشبه المذاهب بالسداد لان التوسط في الامور
احمد واذا انقضى الكلام في الماكول والمشروب فينبغي ان يتبع بذكر
الملبوس اعلم ان الحاجة وان كانت الى الماكول والمشروب ادعى فهي الى
الملبوس ماسة ولها اليه فاقة لما في اللباس من حفظ الجسد ودفع الاذى
وستر العورة وحصول الزينة قال الله تعالى يا بني ادم قد انزلنا عليكم
لباسا يواري سواتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير فمعنى قوله تعالى
قد انزلنا عليكم لباسا اي خلقنا لكم ما تلبسون من الثياب يواري سواتكم
اي يستر عليكم عوراتكم وسميت العورة سوءة لانه يسوء صاحبها انكشافها
من جسده وقوله وريشا فيه اربع تاويلات احدها انه المال وهو قول
مجاهد والثاني انه اللباس والعيش والنعيم وهذا قول ابن عباس والثالث
انه المعاش وهو قول معبد الجهني والرابع انه الجمال وهو قول عبد الرحمن بن زيد
وقوله تعالى ولباس التقوى فيه ست تاويلات احدها ان لباس التقوى هو الايمان

١٦٣

الله عنه ان اخر ما نزل من القرآن واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله
ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون واخر ما نزل من التورية اذا
لم تستحي فافعل ما شئت واخر ما نزل من الانجيل شر الناس من
لا يبالي ان يراه الناس مسيئا واخر ما نزل من الزبور من يزرع خيرا
يحصد غبطة فاذا اشعرها ما وصفت انقادت الى الكف وادعنت
بالانتها فسلم دينه وظهرت مروته فهذا شرط واما كف اللسان
عن الاعراض فلانه ملاذ السفها وانتقام الغوغا وهو مستسهل
الكف ان لم يقهر نفسه برادع كاف وزاجر صاد تلبط بمعاره وتخبط في
مضاره وظن انه لتجافي الناس عنه حمى يتقى ورتبة ترتقي فهلك واهلك
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم الا ان دماكم واموالكم واعراضكم
حرام عليكم فجمع بين الدم والعرض لما فيه من ايغار الصدور وابدا
الشرور واظهار البذا واكتساب الاعدا ولا يبقى في هذه الامور وقار
لمرموق ولا مروه لملحوظ ثم هو بها موتور وموزور ولاجلها مجهود ومزجور
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال شر الناس من اكرمه الناس
اتقا لسانه وقال بعض الحكما انما يهلك الناس فضول الكلام وفضول المال
وما يقدح في الاعراض من الكلام نوعان احدهما ما يقدح في عرض صاحبه
ولم يتجاوزه الى غيره وذلك شيان الكذب وفحش القول والثاني
ما تجاوزه الى غيره وذلك اربعة اشيا الغيبة والنميمة والسعاية
والسب بقذف او شتم وربما كان السب انكاها للقلوب وابلغها اثرا في
النفوس ولذلك ما زجر الله تعالى عنه بالحد تغليظا او بالتفسيق
تشديدا وتصعيبا وقد يكون ذلك لاحد سببين اما انتقام يصدر
عن سفه او بذا يحدث عن لوم وقد روى ابو سلمة عن ابي هريرة رضي الله
عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم انه قال المومن غر كريم والفاجر
خب لئيم وقال ابن المقفع الاستطالة لسان الجهالة وكف النفس
عن هذه الحالة بما يصدها عن الزواجر اسلم وهو بذي المروة اجمل

هذا شرط واما العفة عن المآثم فنوعان احدهما الكف عن المجاهرة
بالظلم والثاني زجر النفس عن الاسترسال بخيانة فاما المجاهرة بالظلم
فعتو مهلك وطغيان متلف وهو يول ان استمر الى فتنة او جلا اما
الفتنة فهي الاغلب فتحيط بصاحبها وتنعكس على البادي بها فلا تنكشف
الا وهو بها مصروع كما قال الله تعالى ولا يحيق المكر السيء الا باهله
وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الفتنة نايمة فمن ايقظها
صار طعاما لها وقال جعفر بن محمد رضي الله عنهما الفتنة حصاد
الظالمين وقال بعض الحكما صاحب الفتنة اقرب شي اجلا واسوا
شي عملا وقال بعض الشعرا

وكنت كعنز السو قامت بحتفها الى مدية تحت التراب تثيرها

واما الجلا فقد يكون مع قوة الظالم وتطاول مدته فيصير ظلمه مع
المكنة جلا وفنا كالنار اذا وقعت في يابس الشجر فلا تبقي منه
مع تمكنها شيا حتى اذا افنت ما وجدت خمدت كذلك حال الظالم يهلك
ثم هالك والباعث على ذلك شيئان الجراة والقسوة ولذلك قال
النبي صلى الله عليه وسلم اطلبوا الفضل والمعروف عند الرحما من
امتي تعيشوا في اكنافهم والصاد عن ذلك ان يرى اثار الله تعالى في
الظالمين فان له فيهم عبرا وتصور عواقب ظلمهم فان فيها مزدجرا
وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من اصبح ولم ينو ظلم
احد غفر الله ما اجترم وروى جعفر بن محمد عن ابيه عن جده
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا علي اتق دعوة المظلوم فانما
يسال حقه ان الله عز وجل لا يمنع ذا حق حقه وقيل في منثور الحكم
ويل للظالم من يوم المظالم وقال بعض البلغا من جار حكمه اهلكه ظلمه
وقال بعض الشعرا

وما من يد الا يد الله فوقها ولا ظالم الا سيبلى بظالم

واما الاستسرار بالخيانة فضعة لانه بذل الخيانة

فيطيق

في هذا

اذا روعي يسير زكا ولن اهمل كثيره اضمحل وقد قال محمد بن علي الكمال
في ثلاث العفة في الدين والصبر على النوايب وحسن التقدير في المعيشة
وقيل لبعض الحكما ما الذي غنى فقال الا اعرف ذلك ما لا اعرف تدبيره
في مالي فاذا استكمل هذه الشروط فيما يستمده من قدر كفايته فقد
ادى حق المروة في نفسه وسيل الاحنف بن قيس عن المروة فقال
العفة والحرفة وقال بعض الحكما لابنه يا بني لا تتكل على احد كلا فانك تزداد
بذلك ذلا واضرب في الارض عودا وبدا ولا تاسفن بما كان فذهب ولا
تعجزن عن الطلب لوصب ولا نصب فهذا حال الملازم وقد كان ذو
الهمم العلية والنفوس الابية يرون ما وصل الى الانسان كسبا افضل
مما وصل اليه ارثا لانه في الارث في حدود غيره وبالكسب مجد على
غيره وفرق ما بينهما في الفضل ظاهر وقال الشاعر

لا استلذ العيش لم ادأب له طلبا وسعيا في الهواجر والغلس
واري حراما ان يواتيني الغنى حتى يحاول بالعناء ويلتمس
فاصرف نوال الدهر عن اخيك موفرا فالليث ليس يسيغ الا ما افترس

واما الندب فهو ما فضل عن الكفاية وزاد على قدر الحاجة فان الامر
فيه معتبر بحال طالبه فان كان ممن تقاعد عن مراتب الروسا وتقاصر
عن مطاولة النظرا وانقبض عن منافسة الاكفا فحسبه ما كفاه فليس في
الزيادة الا شره ولا في الفضول الا نهم وكلاهما مذموم ولذلك قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم خير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفي وقال
علي بن ابي طالب رضي الله عنه الدنيا ظل على العاقل وقال عبد الله بن مسعود
رضي الله عنه المستغني عن الدنيا بالدنيا كالمطفي النار بالتبن وقال بعض
الحكما استر ما وجهك بالقناعة وتسل عن الدنيا بتجافيها عن الكرام وان
كان ممن قد مني بعلو الهمم وتحركت فيه الكرم فاثر ان يكون مرئيسا ومقدما
وان يرى في النفوس مفخما ومعظما فالكفاية لا تقله حتى يكون ما له فاضلا
ونايله فايضا قيل لبعض العرب ما المروة فيكم قال طعام ماكول ونايل مبذول

وبشر مقبول وقال الاحنف بن قيس
فلو مد سروري بمال كثير لجدت وكنت له باذلا
فان المروة لا تستطاع اذا لم يكن مالها فاضلا
وقال احيحة بن الجلاح
ودقت لباولم تودق مروته وما المروة الا كثرة المال
اذا اردت مساماة تقاعدني عما ينوه باسمي رقة الحال
واما صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال في الاستعانة فلان المنن في
استرقاق الاحرار تحدث ذلة في الممنون عليه وسطوة في المان به
والاسترسال في الاستعانة تثقيل ومن ثقل على الناس هان ولا
قدر عندهم لمهان قال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لابنه الحسن
في وصيته له يا بني ان استطعت ان لا يكون بينك وبين الله نعمة فافعل
ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا فان اليسير من الله اكرم واعظم
من الكثير من غيره وان كان كل منه وقال زياد لبعض الدهاقين ما المروة
فيكم قال اجتناب الريب فانه لا ينبل مريب واصلاح الرجل ماله فانه من
مروته وقيامه بحوائجه وحوائج اهله فانه لا ينبل مريب من احتاج الى
اهله ولا من احتاج اهله الى غيره وانشد ثعلب
من عف خف على الصديق لقاؤه واخو الحوائج وجهه مملول
واخوك من وفرت ما في كيسه فاذا عبثت به فانت ثقيل غرة
ولئن كان الناس لحمة لا يستغنون عن التعاون ولا يستقلون عن المسا
والتظافر فانما ذلك تعاون ائتلاف يتكافؤن فيه ولا يتفاضلون وربما
كان المستعين فيه متفضلا والمعين مستفضلا كاستعانة السلطان
بجنده والزارع باكرته فليس من هذا بد ولا لاحد عنه غنى وانما الذي
يصون عنه الكرام تعاون التفضل فيتمضوا عن ان يستعينوا الا بلا
لكون عليهم يد وربما دعوا الى ان يعينوا لان يكون لهم يد ومن اقدم من
غير

غير اضطرار على الاستعانة بجاه او بمال فقد اذهب مروته واستبدل
صيانته ومن دعاه الاضطرار لنائبة المت او حادث هجم الى الاستعانة
بمن يتنفس به من خناق كربه ويتخلص به من وثاق نوائبه فلا لوم على
مضطر فان اغناه الاستعانة بالجاه عن الاستعانة بالمال فلا عذر له
في التعرض بالمال ويعدل الى ولاة الامور فان الحوائج عندهم انجح وهم
عليهم اسهل وهم لذلك مندوبون فهم لا يجدون له مسا وليصبر على البطا بهم
فان تراكم الامور عليهم تشغلهم عن الملح والصبور ولذلك قيل قدم لحاجتك
بعض لجاجتك وقد تقدم من قول الحكماء ان السلطان على قوم نسيم
وعلى قوم سموم وقال عبد الله بن المعتز من صحب السلطان فليصبر
على قسوته كصبر الغواص على ملوحة بحره وقال ابو سفيان سحيم بن الاعرف
بعد قرابة وتعد صبرا وتسعد بالقرابة من رعاها
وما درناك من عدم ولكن يهش الى الامارة من رجاها
وانا ما فعلت ولن تبغى تعود صلاح نفسه من عناها
فان تعذر عليه صلاح حاله الا بمال يستعين به على نوائبه كان له من القرض
فسحة فيه لكن ان وجد قرضا مردودا لم ياخذه صلة وجودا فان ق
القرض يستسمح به في المروات هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما
اعلى الله من قدره وفضله على خلقه قد اقترض ثم قضى احسن وقال
صلى الله عليه وسلم رزق الله حلالا فليستدن على الله وعلى رسوله
وقال صلى الله عليه وسلم المستدين تاجر الله في ارضه وقال
البحتري
لن لا تكن كثر فقل عطية يبلغ بها باغي الرضا عين الرضا
او لا تكن هبة فقرض يسترق اسبابه وكواهب من اقرضا
ولئن كان الدين رقا فهو اسهل من رق الافضال وقد روي عن علي
بن ابي طالب رضي الله عنه انه قال من اراد البقا ولا بقا فليباكر الغدا
وليخفف الردا قيل فما خفة الردا في البقا قال قلة الدين فان عون

ذلك إلا استسماحًا فهو الرق المذل ولذلك قيل لا مروءة لمقل وقال
بعض الحكماء من قبل صلاتك فقد باعك مروءته وأذل لقدرك عزه
وجلالته والذي يتماسك به الباقي من مروءة الراغبين واليسير التافه
من صيانة السائلين ولم يبق لذي رغبة مروءة ولا لسائل تصون أربعة
أمور هي جهد المضطر أحدها أن يتجافى في ضرع السائلين وأبهة المستقلين
فيذل بالضرع ويحرم بالأبهة وليكن من التجمل على ما يقتضيه حال
مثله من ذوي الحاجات فقد قيل لبعض الحكماء متى يفحش زوال النعم
قال إذا زال معها التجمل وأنشد بعض أهل العلم لعلي بن الجهم

هي النفس ما حملتها تتحمل ... وللدهر أيام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة ... وأحسن أخلاق الرجال التفضل
ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ... ولكن عارًا أن يزول التجمل

والثاني أن يقتصر بالسؤال على ما دعته إليه الضرورة وقادته إليه
الحاجة ولا يجعل ذلك ذريعة إلى الاغتنام فيحرم باغتنامه ولا يعذر
في ضرورته وقد قال بعض الحكماء من ألف المسألة ألفه المنع والثالث
أن يعذر في المنع ويشكر على الإجابة فإنه إن منع فعن ما لا يملك وإن أجيب
فإلى ما لا يستحق وقال النمر بن تولب

لا تغضبن على امرئ في ماله ... وعلى كرائم صلب مالك فاغضب

والرابع أن يعتمد على سؤال من كان للمسألة أهلًا وكان النجح عنده
مأمولًا فإن ذوي المكنة كثير والمعين منهم قليل ولذلك قال النبي صلى
الله عليه وسلم الخير كثير وقليل فاعله والمرجو للإجابة من تكاملت
فيه خصال هي ثلاث إحداهن كرم الطبع فإن الكريم مساعد واللئيم
معاند وقد قيل المخذول من كانت له إلى اللئام حاجة والثانية
سلامة الصدر فإن العدو إلب على نكبتك وحرب على محنتك وقد قيل
من أوغرت صدره استدعيت شره فإن رق لك الكرم طبعه ورحمك
بحسن طويته فأعظم بها محنة أن يصير عدوك راحمك وقد قال الشاعر

وحسبك من حادث بامرئ ... ترى حاسديه له راحمينا

والثالث ظهور المكنة فإن من سأل ما لا يمكن فقد أحال وكان
كمستنهض المسجون ومستسعف المديون وكان بالرد خليقًا وبالحرمان
حقيقًا وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه من لا يعرف لا حتى يقال
له لا فهو أحمق ووصى عبد الله بن أهتم لابنه فقال يا بني لا تطلب الحوائج
إلى غير أهلها ولا تطلبها في غير حينها ولا تطلب ما لست مستحقًا فإنك
إن فعلت ذلك كنت بالحرمان حقيقًا وقال الشاعر

ولا تسألن امرأ حاجة ... تحاول من ربها مثلها
فيترك ما كنت حملته ... ويبدأ بحاجته قبلها

فهذا ما يختص بشروط المروءة في نفسه فأما شروط المروءة في غيره فثلاثة
المؤازرة والمياسرة والإفضال فأما المؤازرة فنوعان أحدهما الإسعاف
بالجاه والثاني الإسعاف في النوائب فأما الإسعاف بالجاه فقد يكون من
الأعلى قدرًا والأنفذ أمرًا وهو أرخص المكارم ثمنًا وألطف الصنائع موقعًا
وربما كان أعظم من المال نفعًا وهو الظل الذي يلجأ إليه المضطرون
والحمى الذي يأوي إليه الخائفون فإن وطأه اتسع بكثرة الأنصار والشيع
وإن قبضه انقطع بنفور الغاشية والتبع فهو بالبذل ينمي ويزيد وبالكف
ينقص ويبيد فلا عذر لمن منح جاهًا أن يبخل به فيكون أسوأ حالًا من
البخيل بماله لأن البخيل بماله قد يعده لنوائبه ويستبقيه لذاته ويستلذه
لذريته وبضد ذلك من بخل بجاهه لأنه قد أضاعه بالشح وبذله
بالبخل وحرم على نفسه غنيمة مكنته وفرصة قدرته فلم يعقبه إلا ندمًا
على فائت وأسفًا على ضائع ومقتًا يستحكم في النفوس وذمًا ينتشر في
الناس وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الخلق كلهم
عيال الله فأحب خلق الله إليه أحسنهم صنيعًا إلى عياله وقال
بعض الحكماء اصنع الخير عند إمكانه يبق لك حمدًا عند زوال أيامه
وأحسن والدولة لك يحسن إليك والدولة عليك واجعل زمان

رخايك عدة لزمان بلايك وقال بعض البلغا من علامة الاقبال
اصطناع الرجال وقال بعض الادبا بذل الجاه احد الحبايين وقال
ابن الاعرابي العرب تقول من امل امرا هابه ومن جهل شيا عابه
وبذل الجاه قد يكون من كرم النفس وشكر النعمة وضده من ضده وليس بذل
الجاه من التماس الجزا بذلا مشكورا وانما هو بايع جاهه ومعاوض على
نعم الله والايه وكان بالذم احق وانشد بعض الادبا لعلي بن العباس الرومي

لا تبذل العرف حين تبذله لمشتري الحمد او لمعاوضه
بل تفعل العرف حين تفعله لجوهر العرف لا لاعراضه

وعلى من اسعف بجاهه ثلاثة حقوق يستكثر بها الشكر ويستمد بها المزيد
احدها ان يستسهل المعونة مسرورا بها ولا يستثقلها كارها فيكون بنعم الله
متبرما ولاحسانه متسخطا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
من عظمت نعمة الله تعالى عنده عظمت مونة الناس عليه فمن لم يحتمل
تلك المونة عرض تلك النعمة للزوال والثاني مجانبة الاستطالة وترك الامتنان
فانهما من لوم الطبع وضيق الصدر وفيهما هدم الصنيع واحباط الشكر
وقد قيل للحكيم اليوناني طوبيا والهم صديقا من عاشر الناس بعبوس وجهه
واستطال عليهم بنفسه والثالث ان لا يقترن بمسلوب سعيه تعريفا
بذنب ولا توبيخا على هفوة فلا يفي مضض التوبيخ بادراك النجح وتصير الشكر
وجدا والحمد عيبا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اقيلوا ذوي
الهيات عثراتهم وقال النابغة الجعدي الم تعلما ان الملامة نفعها قليل
اذا ما الشي ولى فادبره واما الاسعاف في النوايب فلان الايام غادره
والنوازل غايره والحوادث عارضة والنوايب راكضة فلا يعدو
فيها الا عليم ولا يستنقذه منها الا سليم وقال عدي بن زيد

كفى زاجرا للمرء ايام دهره تروح له بالواعظات وتغتدي

فاذا وجد الكريم مصابا بحوادث دهره حثه الكرم وشكر النعم على
الاسعاف فيها بما استطاع سبيلا اليه ووجد قدرة عليه

عن

عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال خير من الخير معطيه وشر من الشر
فاعله وقيل لبعض الحكما هل شي خير من الذهب والفضة قال معطيهما
والاسعاف في النوايب نوعان واجب وتبرع فاما الواجب فما اختص بثلاثة
اصناف وهم الاهل والاخوان والجيران فاما الاهل فلمماسة الرحم
وتعاطف النسب وقد قيل لم يسد من احتاج اهله الى غيره وقال
حسان بن ثابت

وان امرا نال الغنى ثم لم ينل قريبا ولا ذا حاجة لزهيد
ولن امرا عادا الرجال على الغنى ولم يسل الله الغنى لحسود

واما الاخوان فلمستحكم الود ومتاكد العهد وسيل الاحنف بن قيس عن المروة
فقال صدق اللسان ومواساة الاخوان وذكر الله في كل مكان وقال
بعض الحكما من الغرس صفة الصديق ان يبذل لك ماله عند الحاجة
ونفسه عند النكبة ويحفظك عند المغيب وراى بعض الحكما رجلين
يصطحبان ولا يفترقان فسال عنهما فقيل هما صديقان فقال ما بال
احدهما غني والاخر فقير واما الجار فلدنو داره واتصال مزاره وقد
قال علي بن ابي طالب رضي الله عنه ليس حسن الجوار كف الاذى
ولكنه الصبر على الاذى وقد قال بعض الحكما من اجار جاره اعانه
الله واجاره وقال بعض البلغا من احسن الى جاره دل على حسن
نجاره وقال بعض الشعرا

وللجار حق فاحترس من اذاته وما خير جار لا يزال مداربا

فيجب في حقوق المروة وشروط الكرم في هولا الثلاثة تحمل اثقالهم
واسعافهم في نوايبهم ولا فسحة لذي مروة مع ظهور المكنة ان يكلهم الى
غيره او يلجيهم الى سواه وليكن سايل نفسه عنهم فانهم عيال كرمه
واضياف مروته فكما انه لا يحسن ان يلجي عياله واضيافه الى الطلب
والرغبة فهكذا من عياله كرمه واضافته مروته وقد قال بعض الشعرا

حق على السيد المرجو نائله   والمستجار به في العرب والعجم
ان لا ينيل الاقاصي صوب راحته   حتى يخص به الادنى من الكرم
ان الفرات اذا جاشت غواربه   روى السواحل ثم امتد في الامم

واما المتبرع فمن عدا هولا الثلاثة من البعدا الذين لا يدلون بنسب فان تبرع بفضل الكرم وفائض المروة فنهض في حوادثهم وتكفل بنوايبهم فقد زاد على شروط المروة وتجاوزها الى شروط الرياسة وقيل لبعض الحكما اي شي من افعال الناس يشبه افعال الاله سبحانه وتعالى قال الاحسان الى الناس وان كف متشاغلا بمن لزم فلا لوم ما لم يلجا اليه مضطر اذ القيام بالكل معوز والتكفل بالجميع متعذر فهذا حكم المؤازرة فاما المياسرة فنوعان احدهما العفو عن الهفوات والثاني المسامحة في الحقوق فاما العفو عن الهفوات فلانه لا مبرا من هفوة ولا خلو من زلل ولا سلم من نقص او خلل ومن رام سليما من هفوة والتمس بريا من نبوة فقد تعدى على الدهر بشططه وخادع نفسه بغلطه وكان من وجود بغيته بعيدا وصار باقتراحه فردا وحيدا وقيل لانوشروان هل من احد لا عيب فيه قال من لا موت له واذا كان الدهر لا يوجد ما طلب ولا يلبي ما احب لزمه مساعدة زمانه في القضا ومياسرة اخوانه في الصفح والاغضا وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله امرني بمداراة الناس كما امرني باقامة الفرائض وقال بعض الادبا ثلاث خصال لا تجتمع الا في كريم حسن المحضر واحتمال الزلة وقلة الملل وقال ابن الرومي

فعذرك مبسوط لذنب مقدم   وودك مقبول باهل ومرحب
ولو بلغتني عنك اذني اقمتها   لدى مقام الكاشح المتكذب
فلست بتقليب اللسان مصارما   خليلا اذا ما القلب لم يتقلب

واذا كان الاغضا حتما والصفح كرما ترتب بحسب الهفوة وتنزل بقدر الذنب والهفوات نوعان صغاير وكباير فالصغاير معفو عنها والنفوس بها معذورة لان الناس مع اطوارهم المختلفة واخلاقهم

المتفاضلة لا يسلمون منها وكان الواجد بها مطرحا والعتب فيها مستقبحا وقد قال بعض الحكما من هجر اخاه من غير ذنب كان كمن زرع زرعا ثم حصده قبل اوانه وقال ابو العتاهية

وشر الاخلا من لم يزل   يعاتب طورا وطورا يذم
يريك النصيحة عند اللقا   ويبريك في السر بري القلم

واما الكباير فنوعان احدهما ان يهفو بها خاطيا او يزل بها ساهيا فالحرج فيها مرفوع والعتب عنها موضوع لان هفوة الخاطي هدر ولومه هدر وقال بعض الحكما لا تقطع اخاك الا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه وقال الاحنف بن قيس حق الصديق ان تحتمل له ثلاث ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة وحكى ابن الاعرابي ان غلاما هاشميا عربد على قوم فاراد عمه ان يسي اليه فقال يا عم اني اسات وليس معي عقلي فلا تسي ومعك عقلك وقال ابو فراس

لم اواخذك اذ جنيت لاني   واثق منك بالاخا الصحيح
فجميل العدو غير جميل   وقبيح الصديق غير قبيح

ولن تشبه خطاه بالعمد وسهوه بالقصد تثبت ولا تلم بالتوهم فتكون ملوما ولا تذم بالظن فتصير مذموما ولذلك قيل التثبت نصف العفو وقال بعض الحكما لا يفسدنك الظن على صديق قد اصلحك اليقين له وقال بعض شعرا هذيل

فبعض الامر تصلحه ببعض   فان الغث يحمله السمين
فلا تعجل بظنك قبل خبر   فعند الخبر تنقطع الظنون
ترى بين الرجال العين فضلا   وفيما اضمروا الفضل المبين
كلون الما مشتبها وليست   تخبر عن مذاقته العيون

والثاني ان يتعمد ما اجترم من كبايره ويقصد ما اجترح من سيايه فلا يخلو حاله فيها من اربع احوال فالحال الاولى ان يكون موتورا قد

قابل على سريرته وكافا على مساته فالملامة على من ترك عادته والى البادي بها راجعة لان المكافي معذور ولئن كان الصفح اجمل ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اياكم والمشارة فانها تميت الغرة وتحيي العرة وقال بعض الحكما من فعل ما شا لاقى ما لم يشا وقال بعض الادبا من نالته اساتك همته مساتك وقال بعض البلغا من ولع بقبيح المعاملة اوجع بقبيح المقابلة وقال صالح بن عبد القدوس

اذا وترت امرا فاحذر عداوته … من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا
ان العدو وان ابدا مسالمة … اذا راى منك يوما فرصة وثبا

والاغضا عن هذا الذنب اوجب وان لم تكن المكافاة ذنبا لانه قد اعقبي اساته فان واصل الشر واصلته المكافاة وقد قيل باعد الشر يعتزلك وحسن الصنعة يكثر الواصلون وقال بعض الحكما من كنت سببا لبلائه وجب عليك التلطف في علاجه من دائه وقال زهير

اذا انت لم تعرض عن الجهل والخنا … اصبت حليما او اصابك جاهل

والحال الثانية ان يكون عدوا قد استحكمت شحناوه واستوعرت سراوه واستخشنت ضراوه فهو يتربص بدواير السو انتهاز فرصة ويتجرع لمهانة العجز مرارة غصصه واذا ظفر بنايبة ساعدها وان شاهد نعمة عاندها فالبعد منه حذرا اسلم والكف عنه متاركة اغنم فانه لا يسلم من عواقب شره ولا يفلت من غوايل مكره وقد قالت الحكما لا تعرض لعدوك في دولته فاذا زالت كفيت شره وقال لقمان لابنه يا بني كذب من قال ان الشر بالشر يطفى فان كان صادقا فليوقد نارين ولينظر هل يطفي احداهما الاخرى وانما يطفي الخير الشر كما يطفي الما النار وقال جعفر بن محمد رضي الله عنهما كفاك من الله نصرا ان ترى عدوك يعصي الله فيك وقال بعض الادبا بالسيرة العادلة يقهر المعادي

وقال البحتري

فاقسم لا اجزيك بالشر مثله … كفى بالذي جازيتني لك جازيا

والحال

١٦٩

والحال الثالثة ان يكون لئيم الطبع خبيث الاصل قد اغراه لوم الطبع على سو الاعتقاد وبعثه خبث الاصل على ايثار الفساد فهو لا يستقبح الشر ولا يكف عن المكروه فهذا الحال اعظم لان الاضرار بها اعم ولا سلامة من مثله الا بالبعد والانقباض ولا خلاص منه الا بالصفح والاعراض فانه كالسبع الضاري في سوارح النعم وكالنار المتاججة في يابس الحطب لا يقربها الا تالف ولا يدنو منها الا هالك روى مكحول عن ابي امامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الناس كشجرة ذات جنا ويوشك ان يعودوا كشجرة ذات شوك ان ناقدتهم ناقدوك وان هربت منهم طلبوك وان تركتهم لم يتركوك قيل يا رسول الله وكيف المخرج قال اقرضهم من عرضك ليوم فاقتك وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما العاقل الكريم صديق لكل احد الا من ضره والعدو الجاهل اللئيم عدو كل احد الا من نفعه وقال بعض الحكما شر ما في الكريم ان يمنعك خيره وخير ما في اللئيم ان يكف عنك شره وقال بعض البلغا اعداوك داوك وفي البعد منهم شفاوك وقال بعض الادبا شرف الكريم تغافله عن اللئيم ووصى بعض الحكما ابنه فقال يا بني اذا سلم الناس منك فلا عليك ان لا تسلم منهم فانه قل ما اجتمعت هاتان النعمتان وقال عبد المسيح بن عمر بن نفيلة

والخير والشر مقرونان في قرن … فالخير متبع والشر محذور

والحال الرابعة ان يكون صديقا قد استحدث نبوة وتغيرا واخا قد استجد جفوة وتنكرا فابدا صفحه عقوقه واطرح لازم حقوقه وعدل عن بر الاخاء الى جفوة الاعدا فهذا قد تعرض في المودات المستقيمة كما قد تعرض الامراض في الاجسام السليمة فان عولجت اقلعت وان اهملت استحكمت ثم اتلفت ولذلك قالت الحكما دا المودة بطرح التعاهد وقال كشاجم

اقل اذا الود عثرة ووقفه … على سنن الطريق المستقيمة
ولا تسرع بمعتبة اليه … فقد يهفو وتنيته سليمة

ومن الناس من يرى ان متاركة الاخوان اذا تغيروا اصلح واطراحهم
اذا فسدوا اولى كاعضا الجسد اذا فسدت كان قطعها اسلم فان
شح بها سرت الى نفسه وكالثوب اذا اخلق كان اطراحه بالجديد اجمل
من لبسه وقد قال بعض الحكما رغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفس وزهدك
فيمن يرغب فيك صغر همة وقال بزرجمهر من تغير عليك في مودته
فدعه حيث كان قبل معرفته وقال نصر بن محمد الخبزارذي

صل من دنا وتناس من بعدا … لا تكرهن على الهوى احدا
قد اكثرت حوا اذ ولدت … فاذا جفا ولد فخذ ولدا

وهذا مذهب من قل وفاوه وضعف اخاوه وساءت طرايقه وضاقت
خلايقه ولم يكن فيه فضل للاحتمال ولا صبر على الاذلال فقابل على الجفوة
وعاقب على الهفوة واطرح سالف الحقوق وقابل على العقوق بالعقوق
فلا بالفضل اخذ ولا الى العفو اخلد وقد علم ان نفسه تطغى عليه
فترديه وان جسمه قد يسقم عليه فيولمه ويوذيه وهما اخص به واحنى
عليه من صديق قد تميز بذاته وانفصل باداوته او يريد من غيره لنفسه
ما لا يجده من نفسه هذا عين المحال ومحض الجهل مع ان من لم يحتمل بقي
فردا وانقلب الصديق فصار عدوا وعداوة من كان صديقا اعظم من
عداوة من لم يزل عدوا ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم احبب حبيبك
هونا ما وقال صلى الله عليه وسلم اوصاني ربي بسبع بالاخلاص في
السر والعلانية وان اعفو عمن ظلمني واعطي من حرمني واصل من
قطعني وان يكون صمتي فكرا ونظري عبرا ونطقي ذكرا وقال لقمان لابنه
يا بني لا تترك صديقك الاول فلا يطمين اليك الثاني يا بني اتخذ الف
صديق والالف قليل ولا تتخذ عدوا واحدا فالواحد كثير وقيل
للمهلب بن ابي صفرة ما تقول في العفو والعقوبة فقال هما بمنزلة الجود
والبخل فتمسك بايهما شيت وانشد ثعلب

اذا انت لم تستقبل الامر لم تجد … بكفيك في ادباره متعلقا

اذا انت لم تترك اخاك وزلة … اذا زلها اوشكتما ان تفرقا

وان كان الامر على ما وصفت فمن حقوق الصفح الكشف عن سبب الهفوة لتعرف
الدا فتعالجه فمن لم يعرف الدا لم يقف على الدوا وكان كما قال المتنبي

فان الجرح ينفر بعد حين … اذا كان البنا على فساد

واذا كان ذلك كذلك فلا يخلو حال ذلك السبب ان يكون لملل او زلل
فان كان لملل فمودات الملول ظل الغمام وحلم المنام وقد قيل في منثور
الحكم لا تامنن ملولا وان تحلى بالصلة وعلاجه ان يترك على ملله فيستمل
الجفا كما مل من الاخا وان كان للزلل روعيت اسبابه فان كان لها
مدخل في التاويل وشبهة يول الى الجميل حمله على احمل تاويله وصرفه
الى احسن جهته كالذي حكي عن خالد بن صفوان انه مر به صديقان
له فعرج عليه احدهما وطواه الاخر فقيل له في ذلك فقال نعم عرج
علينا هذا بفضله وطوانا ذاك لثقته وانشد بعض اهل الادب لمحمد بن
داود الاصبهاني

وتزعم للواشين اني فاسد … عليك واني لست فيما عهدتني
وما فسدت لي يشهد الله نية … عليك ولكن خنتني فاتهمتني
غدرت بعهدي عامدا واخفتني … فخفت ولو امنتني لامنتني

وان لم يكن للزلة في التاويل مدخل نظر في حاله بعد زلته فان ظهر
ندمه وبان خجله فالندم توبة والخجل انابة ولا ذنب لتايب ولا لوم على
منيب ولا يكلف عذرا عما سلف فيلجا الى بذل التحريف او تحمل التعنيف
ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم اياكم والمعاذر فان اكثرها مفاجر
وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه كفى بما يعتذر منه تهمة وقال
مسلم بن قتيبة لرجل اعتذر اليه لا يدعونك امر قد تخلصت منه
الى الدخول في امر لعلك لا تتخلص منه وقال بعض الحكما شفيع المذنب
اقراره وتوبته اعتذاره وقال بعض البلغا من لم يقبل التوبة عظمت
خطيته ومن لم يحسن الى التايب قبحت اساته وقال بعض الادبا

الكريم اوسع ما يكون مغفرة اذا ضاقت بالمذنب المعاذر وقال بعض

الشعراء

العذر يلحقه التحريف والكذب وليس في غير ما يرضيك لي ادب

وقد اسات فبالنعم التي سلفت الا مننت بعفو ما له سبب

وان عجل العذر قبل توبته وقدم التنصل قبل انابته فالعذر توبة

والتنصل انابة فلا يكشف عن باطن عذره ولا يعنف بظاهر عذره فيكون

لسيم الظفر سيئ المكافاة وقد قيل من غلبته الحدة فلا تغتر بمودته وقال

بعض الحكما شافع المذنب خضوعه الى عذره وقال بعض الشعراء

اقبل معاذر من ياتيك معتذرا ان بر عندك فيما قال او فجرا

فقد اطاعك من يرضيك ظاهره وقد اجلك من يعصيك مستترا

وان تارك نفسه في ذلك ولم يبادله بعذره وتنصله ولا تجاه بتوبته

وانابته راعيت حاله في المتاركة فستجده لا ينفك منها من امور ثلاثة

اما ان يكون تزلف عن سي عمله واقلع عن سالف زلله فالكف احدى

التوبتين والاقلاع احدى العذرين فكن انت المعتذر عنه بصفحك والمتصل

له بفضلك فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه المحسن على المسي امير

والثاني ان يكون قد وقف على ما اسلف من زلله غير تارك ولا مستجاد و زايد

فوقوف المرض احدى البرئين ولعله عن الزيادة احدى الحسنيين وقد

استبقا بالوقوف على التجاوز احد شطريه فعول به على صلاح شطره

الاخر واياك وارجاه فان الارجا يفسد شطر صلاحه والثالث يصلح

شطر فساده فان من لم يعالج ما سقم من جسمه سرى السقم الى صحته

ولو عالجه سرت الصحة الى سقمه والثالث ان يتجاوزه مع الاوقات

ويزيد فيه على مرور الايام والساعات فهذا هو الدا العضال فان

امكن استدراكه وتاتا استصلاحه باستنزال عنه ان غلا وبا رعايته

ان دنا ويعتنا به ان سنا والا فاخر الدا العيا الكي ومن يلغت به الاعداد

الى غايتها فلا لايمة عليه والمقيم على سفاهة باغ مصروع وقد قيل من

سل سيف

سل سيف البغي اغمد في راسه واما المسامحة في الحقوق فلان

الاستيفا موحش والاستقصا منفر ومن اراد كل حقه من النفوس المستصعبة

بشح اوطمع لم يصل اليه الا بالمنافرة والمشاقة ولم يقدر عليه الا بالمجا سنة

والمشاحنة وقد استقر في الطباع مقت من شاقها ونافرها وبغض

من شاكها ونازعها كما استقر فيها حب من سامحها وياسرها فكان اليق

الامور بالمروة استعطاف النفوس بالمسامحة والمياشره وتالفها بالملا دبة

والمساهلة وقال بعض الحكما من عاشر اخوانه بالمسامحة دامت له

مودتهم وقال بعض الادبا اذا اخذت عفو القلوب زكا ربعك واذا

استقصيت اكديت والمسامحة نوعان في عقود وحقوق فاما العقود فهو

ان يكون فيها سهل المناجزة قليل المحاجزة ماموت الغيبة بعيدا من المكر

والخديعة روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اجملوا في طلب الدنيا

فان كلا ميسر لما كتب له منها وقال صلى الله عليه وسلم الا ادلكم على

شي يحبه الله ورسوله قالوا بلى يا رسول الله قال التغابن للضعيف وحكي

ابن عون ان عمر بن عبيد اشترى للحسن البصري رضي الله عنه ازارا

بستة دراهم ونصف فاعطى التاجر سبعة فقال له عند سبعة ونصف

فقال اني اشتريته لرجل لا يقاسم اخاه درهما ومن الناس من يرى

ان المساهلة في العقود عجز وان الاستقصا فيه حزم حتى انه ليماكس

في التافه الحقير واذا جاد بالجزيل الكثير كالذي حكي عن عبد الله

بن جعفر رضي الله عنه وقد ماكس في درهم وهو يجود بما يجود به

فقيل له في ذلك فقال ذاك مالي اجود به وهذا عقلي بخلت به

وهذا انما يتساع من اهل المروة في دفع ما يخادعهم به الادنيا ويغابنهم

به الاشحا وهكذا كانت حال عبد الله بن جعفر فاما مماكسة الاسترسال

والاستسماح فكلا لانه مناف للكرم ومباين للمروة واما الحقوق فتتنوع

المسامحة فيها نوعين احدهما في الاحوال فهو اطراح المنازعة في

الرتب وترك المنافسة في التقدم فان مسامحة النفوس فيها اعظم

والعناد عليها الا ان سامحهم فيها ولم ينافس كان مع اخذه بافضل
الاخلاق واستعماله لاحسن الاداب اوقع في النفوس من افضاله
برغايب الاموال ثم هو زايد في رتبته وابلغ في تقدمه وان شاح
فيها ونازع كان مع ارتكابه لاخشن الاخلاق واستعماله لاهجن
الاداب انكا في النفوس من حد السيف ووحز السنان ثم هو اخفض
للرتبة وامنع في التقدم حكي ان فتي من بني هاشم تخطى رقاب الناس
عند ابي داود فقال له يا بني ان الادب ميراث الاشراف ولست اري
عندك من سلفك ارثا واما المسامحة في الاموال فتتنوع ثلثة انواع
مسامحة اسقاط لعدم ومسامحة تخفيف لعجز ومسامحة انظار لعسرة
وهي مع اختلاف اسبابها تفضل ماثور وتالف مشكور واذا كان
الكريم يسمح بما يجود به بره وينفذ فيه تصرفه كان اولي ان يجود بما
خرج عن يده فطاب نفسا بفراقه وقد تفضل المساحة في الحقوق
ولكن لمن لا يقبل البر ويابي الصلة فيكون احسن موقعا وازكي محلا وربما
كانت المساحة فيها الم من رد السايل ومنع المجتري لان السايل كما
اجتري علي سوالك فستجري ان رددته علي سوال غيرك وليس كل من
صار اسير حقك ورهين دينك تجد بدا من مسامحتك ومياسرتك ثم لك
مع ذلك حسن الثنا وجزيل الاجر وقال محمود الوراق

المر بعد الموت احدوثة يفني وتبقي منه اثاره
فاحسن الحالات حال امري يطيب بعد الموت اخباره

فهذا حال المياسرة واما الافضال فنوعان افضال اصطناع وافضال
استكفاف واندفاع فاما افضال الاصطناع فنوعان احدهما ما
اسدله جودا في شكور والثاني ما يتالف به نفور وكلاهما من شروط
المروة لما فيهما من ظهور الاصطناع وتكاثر الاشياع والاتباع ومن قلت
صنايعه في الشاكرين واعرض عن تالف النافرين كان فردا مهجورا وتابعا
محقورا ولا مروة لمتروك مطرح ولا قدر لمحقور مهتضم وقال عمر بن عبد العزيز

رضي الله عنه

رضي الله عنه ما طاوعني الناس علي شي اردته من الحق حتي بسطت لهم
طرفا من الدنيا وقال بعض الحكما اقل ما يجب للمنعم بحق نعمته ان لا يتوصل
بها الي معصيته وانشد لبعض الاعراب

من جمع المال ولم يجد به وجمع المال لعام جدبه
هان علي الناس هوان كلبه

وقال اسحق بن ابرهيم الموصلي

يبقي الثنا وتذهب الاموال ولكل دهر دولة ورجال
ما نال محمدة الزمان وشكرهم الا الجواد بماله المفضال
لا ترض من رجل حلاوة قوله حتي تصدق ما يقول فعال

فان ضاقت به الحال عن الاصطناع بماله فقد عدم من الة المكارم عمادها
وفقد من شروط الرياسة مبادها فليواس بنفسه مواساة المساعف
وليسعد بها اسعاد مسالف كما قال المتنبي فليسعد النطق ان لم يسعد الحال
وان كان لا يراها ولا اجرها الا تبعا الا كالمصلي فليلة بن المكرم قال
الناس لا يساوون بين المعطي والمانع ولا يقنعهم القول دون الفعل
ولا يغنيهم الكلام عن المال وتروته كالصدي الذي ان رددته تا
لم تجد نفعا وكما قال الشاعر يجود بالوعد والنية يرهن من قادورة فارغة
وكل ما خرج عندهم عن المال كان فارغا وكل ما عدا الافضال به كان
هينا وقد قدمنا من القول في شروط الافضال ما اقنع واما الافضال
للاستكفاف فلان ذا الفضل لا يعدم حاسد نعمة ومعاند فضيلة يعربه
الجهل باظهار عناده وبعثه اللوم علي البذا بسفهه فان غفل عن استكفاف
السفها واعرض عن استدفاع اهل البذا صار عرضه هدفا للمثالب
وحاله غرضا للنوايب واذا استكف السفيه واستدفع البذي
صان عرضه فهو صدقة وقالت عايشة رضي الله عنها ذبوا باموالكم
عن احسابكم وامتدح رجل الزهري فاعطاه قميصه فقال له رجل
اتعطي علي كلام الشيطان فقال ان من ابتغا اتقا الشر ولذلك قال
النبي صلي الله عليه وسلم من اراد بر الوالدين فليعط الشعرا وهذا صحيح

تفضل
تزري
المتقا

لان الشعر سائر يسير به ما ضمن من مدح او هجاء ولاجل ذلك قيل
لا تواخ شاعرا فانه يمدحك بثمن ويهجوك مجانا ولاستكفاف السفها
بالافضال شرطان احدهما ان يخفيه حتى لا تنتشر فيه مطامع
السفها فيتوصلوا الى اجتذابه بسلبه والى ما لا يسلبه والثاني ان يطلب
له في المجامله وجها يجعله في الافضال عليه سببا لان لا يرى انه
على السفه واستدامة البدا واعلم انك ما حييت ملحوظ المحاسن
محفوظ المساوي ثم من بعد ذلك حديث منتشر لا يرابك صديق
ولا يحابي عنك شقيق فكن احسن حديث ينشر لك سعيك في الناس
مشكورا واجرك عند الله مذخورا فقد روى زياد بن الجراح عن عمرو
ابن ميمون الاودي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتنم
خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل
فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك فهذا ما اقتضاه هذا
الفصل من شروط المروة وان كان ما من شروطها وما اتصل بحقوقها

الفصل الثامن في اداب منثورة

اعلم ان الاداب مع اختلافها بتنقل العادات وتغير الاحوال لا يمكن
استيعابها ولا يقدر على حصرها وانما يذكر كل انسان ما بلغه الوسع من
اداب زمانه واستحسن بالعرف من عادات دهره ولو امكن ذلك لكان
الاول قد اغنى الثاني عنها والمتقدم قد كفى المتاخر تكلفها وانما حظ الاخير
ان يعاني حفظ الشارد وجمع المتفرق ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه
وعادات وقته فيثبت ما كان موافقا وينفي ما كان مخالفا ثم يستمد
خاطره في استنباط زيادة واستخراج فائدة فان اسعف بشي فاز
بدركه وحظي بفضيلته ثم يعبر عن ذلك بما كان مالوفا من كلام الوقت
وعرف اهله فان لاهل كل وقت في الكلام عادة تولف وعبارة تعرف
ليكون اوقع في النفوس واسبق الى الافهام ثم يرتب ذلك على اوايله ومقدماته
ويبنيه على اصوله وقواعده حسبما يقتضيه الجنس فان لكل نوع من
العلوم

[illegible] زيادة السفه
[illegible]

العلوم طريقة هي اوضح مسلكا واسهل ماخذا فهذه خمسة شروط
هي حظ الاخير فيما يعانيه وكذا القول في كل تصنيف مستحدث
ولولا ذلك لكان تعاطي ما تقدم به الاول عناء ضايعا وتكلفا مستهجنا
وارجوا ان يمدنا الله سبحانه بالتوفيق لتاديه هذه الشروط وينهضنا
المعونة بتوفية هذه الحقوق حتى نسلم من ذم التكلف ونبرا من عيب
التقصير ولئن كان اليسير مغفورا والخاطي معذورا فقد قيل من صنف
كتابا فقد استهدف فان احسن فقد استعطف وان اسا فقد استقذف
وقد مضت ابواب تضمنت فصولا رايت اتباعها بما لا احب الاخلال
به فمن ذلك حال الانسان في ماكله ومشربه فان الداعي الى ذلك
شيان حاجة ماسة وشهوة باعثة فاما الحاجة فتدعوا الى ما سد
الجوعة وسكن الظما وهذا مندوب اليه عقلا وشرعا لما فيه من
حفظ النفس وحراسة الحواس ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال
وهو صوم اليومين لانه يضعف الجسد ويميت النفس ويعجز عن العبادة
وكل ذلك يمنع منه الشرع ويدفع عنه العقل وليس لمن منع نفسه قدر
الحاجة حظ في بر ولا نصيب من اجر لان ما حرمها من فعل الطاعة
بالعجز والضعف اكثر ثوابا واعظم اجرا اذ ليس في ترك المباح ثواب يقابل
فعل الطاعات واتيان القرب وهو قد يخص نفسه زهدا موفورا وحرمها
وكا اجرا مذخورا لكان زهده في الخير اقوى من رغبته ولم يعد عليه من هذا
التكلف الا الشهرة برياه وسمعته واما الشهوة فتتنوع نوعين احدهما
الملذة في شهوة الاكثار والثاني شهوة في تناول الالوان الملذة فاما النوع الاول
وهو شهوة الزيادة على قدر الحاجة والاكثار على قدر الاكثار على قدر الكفاية
~~فهو ممنوع منه في العقل والشرع كما كان قدر الكفاية فهو ممنوع منه في~~
~~العقل والشرع~~ كما كان قدر الكفاية مندوبا اليه في العقل والشرع لان
تناول ما زاد على الكفاية نهم معد وشره مضر وقد روي عن النبي صلى الله
عليه وسلم انه قال اياكم والبطنة فانها مفسدة للدين مورثة للسقم مكسلة

نعدك

عن العبادة وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه اذا كنت بطنا فعد
زمنا وقال بعض العلما اقلل طعامك تحمد الصحة وقال اقلل طعاما
تحمد مناما وقال بعض العلما لا يسكن العلم معدة مليت طعاما وقال
بعض الادبا الرغب لوم والنهم شوم وقال بعض الحكما اكثر الدوا تقدير
الغدا وقال الشاعر

فكم من اكلة منعت اخاها بلذة ساعة اكلات دهر
وكم من طالب يسعي لامر وفيه هلاكه لو كان يدري

روي ابو يزيد المدني عن عبد الرحمن بن المرقع قال قال رسول الله صلي
الله عليه وسلم ان الله سبحانه وتعالي لم يخلق وعا ملي شرا من بطن
فان كان لا بد فاعلا فاجعلوا ثلثا للطعام وثلثا للشراب وثلثا للريح
واما النوع الثاني وهو شهوة الاشيا الملذة ومنازعة النفس الي طلب
الانواع الشهية فمذاهب الناس في تمكين النفس فيها مختلفة فمنهم يري ان
صرف النفس عنها اولي وقهرها عن اتباع شهواته احري ليذل له قيادها
ويهون عليه عنادها لان تمكينها وما تهوي مضر يطغي واشر يردي لان
شهواتها غير متناهيه فاذا اعطاها المراد من شهوات وقتها تعدتها
الي شهوات قد استحدثتها فيصير الانسان اسير شهوات لا تنقضي وعبد
هوي لا يهتدي ومن كان بهذه الحال لم يرج له صلاح ولم يوجد
فيه فضل وانشدت لابي الفتح البستي

يا خادم الجسم كم تشقي بخدمته لتطلب الربح فيما فيه خسران
اقبل علي النفس واستكمل فضايلها فانت بالنفس لا بالجسم انسان

والحد من هذه الحال ما حكي ان ابا حازم كان يمر علي الفاكهة
فيشتهيها فيقول موعدك الجنة وقال اخرون تمكين النفس من لذاتها اولي
واعطاوها ما اشتهتها من المباحات احري لما فيه من ارتياح النفس
بنيل شهواتها ونشاطها بادراك اراداتها فتنحسر عنها ذلة المقهور وبلادة
المغمور فلا تقصر عن درك ولا تبطي في نهضة ولا تكل عن استعانة وقال

آخرون

آخرون بل توسط الامرين اولي لان في اعطايها كل شهواتها بلادة والنفس
البليدة عاجزة وفي منعها عن البعض كف لها عن السلاطة وفي تمكينها من
البعض حسم لها عن البلادة وهذا لعمري اشبه المذاهب بالسداد لان
التوسط في الامور احمد واذ قد مضي الكلام في الماكول والمشروب
فينبغي ان نتبع بذكر الملبوس اعلم ان الحاجة وان كانت الي الماكول والمشروب
ادعي فهي الي الملبوس ماسة وبها اليه فاقة لما في اللباس من حفظ الجسد
ودفع الاذي وستر العورة وحصول الزينة قال الله تعالي يا بني ادم قد انزلنا
عليكم لباسا اي خلقنا لكم ما تلبسون من الثياب يواري سواتكم اي استر
عليكم عوراتكم وسميت العورة سوءة لانه يسوء صاحبها انكشافها من جسده
وقوله وريشا فيه اربع تاويلات احدها انه المال وهو قول مجاهد
والثاني انه اللباس والعيش والنعيم وهو قول ابن عباس رضي الله عنه
والثالث انه المعاش وهو قول معبد الجهني والرابع انه الجمال وهو قول
عبد الرحمن بن زيد وقوله ولباس التقوي هو الايمان وهذا قول
قتادة والسدي والثاني انه العمل الصالح وهذا قول بن عباس رضي الله عنه
والثالث انه السمت الحسن وهذا قول عثمان بن عفان رضي الله عنه والرابع
هو خشية الله تعالي وهذا هو قول عروة بن الزبير والخامس هو الحيا وهذا
قول معبد الجهني والسادس هو ستر العورة وهو قول عبد الرحمن بن زيد
وقوله ذلك خير فيه تاويلان احدهما ان ذلك راجع الي ما تقدم من
قوله قد انزلنا عليكم لباسا يواري سواتكم وريشا ولباس التقوي ثم قال
ذلك الذي ذكرته خير كله والثاني ان ذلك راجع الي لباس التقوي
ومعني الكلام ان لباس التقوي خير من الرياش واللباس وهذا
قول قتادة والسدي فلما وصف الله تعالي حال اللباس واخرجه
مخرج الامتنان علم انه معونة منه لشدة الحاجة اليه وان كان ان لك
في اللباس ثلاثة اشيا احدها دفع الاذي والثاني ستر العورة والثالث
الجمال والزينة فاما دفع الاذي فواجب بالعقل لان العقل يوجب

والله جعل لكم مما
دفع المضار واجتلاب المنافع وقد قال الله تعالى
خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال اكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر
وسرابيل تقيكم باسكم فاخبر بها ولم يامر بها اكتفاء بما يقتضيه العقل
واستغناء بما يبعث عليه الطبع ويعني بالظلال الشجر وبالاكنان
جمع كن وهو الموضع الذي يستكن فيه ويعني بقوله سرابيل تقيكم
الحر ثياب القطن والكتان والصوف ويقوله سرابيل تقيكم باسكم
الدروع التي تقي الباس وهو الحرب فان قيل فكيف قال تقيكم الحر ولم يذكر
البرد وقال جعل لكم من الجبال اكناناً ولم يذكر السهل ففي ذلك
جوابان احدهما ان القوم كانوا اصحاب جبال وخيام فذكر لهم الجبال
وكانوا اصحاب حر دون برد فذكر لهم نعمة الله عليهم فيما هو مختص بهم وهذا
قول عطا والجواب الثاني انه اكتفى بذكر احدهما عن ذكر الاخر وكان معلوماً
ان السرابيل التي تقي الحر تقي ايضاً البرد ومن اتخذ من الجبال اكناناً اتخذ
من السهل وهذا قول الجمهور واما ستر العورة فقد اختلف الناس فيه
هل وجب بالعقل او بالشرع فقالت طايفة وجب سترها بالعقل لما في
ظهورها من القبيح وما كان قبيحاً فالعقل مانع منه الا ترى ان ادم وحوا لما
اكلا من الشجرة التي نهيا عنها بدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق
الجنة فتنبها بعقولهما في ستر ما رأياه مستقبحاً من سواتهما لانهما لم يكونا قد كلفا
ستر ما لم يبد لهما ولا كلفاه بعد ان بدت لهما وقيل سترها شرعاً وجب
وقالت طايفة اخرى بل ستر العورة واجب بالشرع لانه بعض الجسد
الذي لا يوجب العقل ستر باقيه وانما اختصت العورة بحكم شرع فوجب
ان يكون ما لزم من سترها حكماً شرعياً وقد كانت قريش واكثر العرب مع ما
كانوا عليه من وفور العقل وصحة الالباب يطوفون بالبيت عراة ويحرمون
على انفسهم اللحم والودك ويرون ذلك ابلغ في القربة وانما القرب ما استحسن
في العقل حتى انزل الله يا بني ادم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا
ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين يعني بقوله خذوا زينتكم الثياب
الّتي

التي تستر عوراتكم وكلوا واشربوا ما حرمتموه على انفسكم من اللحم والودك
وفي قوله ولا تسرفوا تاويلان احدهما لا تسرفوا في التحريم وهذا
قول السدي والثاني لا تاكلوا حراماً فانه اسراف وهذا قول ابن زيد
فاوجب بهذه الاية ستر العورة بعد ان لم يكن العقل موجباً لها ودل
ذلك على ان سترها وجب بالشرع دون العقل واما الجمال به والزينة
فهو مستحسن بالعرف والعادة من غير ان يوجبه عقل او شرع وفي
هذا النوع قد يقع التجاوز والتقصير والتوسط والمطلوب فيه معتبر
من وجهين احدهما في صفة الملبوس وكيفيته والثاني في جنسه
وقيمته فاما صفته فمعتبرة بالعرف من وجهين احدهما عرف البلاد
فان لاهل المشرق زياً مالوفاً ولاهل المغرب زياً مالوفاً ولما الذي بينهما
من البلاد المختلفة عادات في اللباس مختلفة والثاني عرف الاجناس
فان للاجناد زياً مالوفاً وللتجار زياً مالوفاً ولما من سواهما من الاجناس
المختلفة عادات في اللباس مختلفة وانما اختلفت عادات الناس
في ملابسهم من هذين الوجهين ليكون اختلافهم بها سمة يتميزون
بها وعلامة لا يخفون معها فان عدل احد في لباسه عن عرف بلده
وجنسه كان ذلك منه خرقاً وحمقاً ولذلك قيل العري القادح
خير من الزي الفاضح واما جنس الملبوس وقيمته فمعتبر من وجهين
احدهما بالمكنة في اليسار والاعسار فان للموسر في الزي قدراً
وللمعسر دونه والثاني بالمنزلة والحال فان لذي المنزلة الرفيعة
في الزي قدراً وللمنخفض عنه دونه ليتفاضلوا فيه على حسب تفاضل
احوالهم فيصيروا به متميزين فان عدل الموسر الى زي المعسر
كان شحاً وبخلاً فان عدل الرفيع الى زي الدني كان مهانة وذلاً وان
عدل المعسر الى زي الموسر كان تبذيراً وسرفاً وان عدل الدني
الى زي الرفيع كان جهلاً وتخلعاً ولزوم العرف المعهود واعتبار الحد
المقصود ادل على العقل وامنع من الذم ولذلك قال عمر بن الخطاب

رضي الله عنه ايكم ولبستين لبسة مشهورة ولبسة محقورة وقال بعض الحكما البس من الثياب ما لا يزدريك فيه العظما ولا يعيبك فيه العلما وقال بعض الحكما من الشعرا

ان العيون رمتك اذ فاجاتها   وعليك من شهر الثياب لباس
اما الطعام فكل لنفسك ما تشا   واجعل ثيابك ما اشتهاه الناس

واعلم ان من المروة ان يكون الانسان معتدل الحال في مراعاة لباسه من غير اكثار ولا اطراح فان اطراح مراعاتها وترك تفقدها مهانة وذل وكثرة مراعاتها وصرف الهمة الي العناية بها دناة ونقص وربما توهم بعض من خلا من فضل وعري عن تمييز ان ذلك هو المروة الكاملة والزينة الفاضلة لما يري من تميزه بذلك عن الاكثرين وخروجه عن جملة العوام المسترذلين وخفي عنه انه كل من عدا طوره وتجاوز قدره كان اقرب لذمه وابعث علي ذمه وكان كما قال المتنبي فيه

لا يعجبن مضيما حسن بزته   وهل يروق دفينا جودة الكفن

حكي المبرد ان رجلا من قريش كان اذا اتسع لبس ارث ثيابه واذا اضاق لبس احسنها فقيل له في ذلك فقال اذا اتسعت تزينت بالجود واذا اضقت فبالهيئة وقد اتي ابن الرومي بالمعني من هذا في شعره

وما الحلي الا زينة لنقيصة   يتمم من حسن اذا الحسن قصرا
فاما اذا كان الجمال موفرا   كحسنك لم يحتج الي ان يزورا

ولذلك قالت الحكما ليست العزة في حسن البزة وقال بعض الشعرا

وتري سفيه القوم يدنس عرضه   سفها ويمسح نعله وشراكها

واذا اشتد كلفه بمراعاة لباسه قطعه ذلك عن مراعاة نفسه وصار الملبوس عنده انفس وهو علي مراعاته احرص وقد قيل في منثور الحكم البس من الثياب ما يخدمك ولا تلبس ما يستخدمك وقال خالد بن صفوان لاياس بن معاوية اراك ما تبالي ما لبست قال البس ثوبا اقي به نفسي احب الي من لبس ثوب اقيه بنفسي وكما انه لا يكون شديد الكلف

بها ولذلك

بها ولذلك لا يكون شديد الاطراح لها فقد حكي ابن عايشة ان رجلا جا الي النبي صلي الله عليه فنظر اليه رث الهيئة فقال له ما مالك قال من كل مال قد اتاني الله قال فان الله يحب اذا انعم علي امري نعمة ان ينظر الي اثرها عليه وقيل المروة الظاهرة في الثياب الطاهرة وهكذا القول في غلمانه وحشمه ان اشتد كلفه بهم صار عليهم قيما او لهم خادما وان اطرحهم قل رشادهم وظهر فسادهم وصاروا سببا لمذمته وطريقا الي ذمه ولكن يكفهم عن مساوي الاخلاق ويأخذهم باحسن الاداب كما قال فيهم الشاعر سهل الفنا اذا مررت ببابه طلق اليدين مودب الخدام وليكن في تفقد احوالهم علي ما يحفظ تجمله ويصون تبذله فقد روي عن النبي صلي الله عليه وسلم انه قال ادهنوا يذهب البوس عنكم والبسوا تظهر نعمة الله عليكم واحسنوا الي مماليككم فانه اكبت لعدوكم وليتوسط فيهم حالي اللين والخشونة فانه ان لان هان عليهم وان خشن مقتوه وكان علي خطر منهم حكي ان الموبذ سمع ضحك الخادم في مجلس انوشروان فقال له اما تمنع هولا الغلمان فقال انوشروان ~~فقال له اما تمنع هولا الغلمان~~ فقال انوشروان انما يهابنا اعداونا وقال ابو تمام الطائي

حشم الصديق عيونهم بحاثة   لصديقه عن صدقه ونفاقه
فلينظرن المرء من غلمانه   فهم خلايفه علي اخلاقه

فاما المنكوح فقد تقدم من القول فيه ما تقدم ان للنفس حالتين حالة استراحة ان حرمتها اياه كلت وحالة تعب ان ادمتها فيه اختلت فالاولي بالانسان تقدير حالتيه حالة نومه ودعته وحالة تصرفه ويقظته فان لها حدا محدودا وزمانا مخصوصا يضر بالنفس مجاوزة حدهما وتغيير زمانهما وقد روي عن النبي صلي الله عليه وسلم انه قال نومة الصبحة معجزة مكسلة مورخمة مكسلة منساة للحاجة وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما النوم ثلاثة نومة خرق وهي نومة الصبح ونومة خلق وهي القايلة

ونوم حمق وهي نومة العشا وعن ابي [زائد] رضي الله عنه قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم نوم الضحى خرق والقيلولة خلق ونوم العشا
حمق وقيل في منثور الحكم من لزم الرقاد عدم المراد فاذا اعطى النفس
حقها من النوم والدعة واستوفى حقه منها بالتصرف واليقظة خلص
بالاستراحة من عجزها وكلالها وسلم بالرياضة من بلادتها وفسادها
حكي ان عبد الملك ابن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما دخل على ابيه فوجده
نائما فقال يا ابت تنام في وقت والناس بالباب فقال يا بني نفسي مطيتي واخاف
ان ابعثها فتقوم بي وينبغي ان يقسم حال تصرفه ويقظته على المهم من حاجاته
فان حاجة الانسان لازمة والزمان مقصر عن استيعاب المهم فكيف
به ان تجاوز الى ما ليس بمهم هل يكون الا كما ترك بعضها وملبسه بعض اخرى
جناحا ثم عليه ان يتصفح في ليله ما صدر من افعال نهاره فان الليل
اخصر للخاطر واجمع للفكر فان كان محمودا امضاه واتبعه بما شاكله وضاهاه
وان كان مذموما استدركه ان امكن وانتهى عن مثله في المستقبل فانه
اذا فعل ذلك وجد افعاله لا تنفك من اربعة احوال اما ان يكون قد اصاب
فيها الغرض المقصود بها واما ان يكون قد اخطا بوضعها في غير مواضعها او يكون
قد قصر فيها فنقصت عن حدودها او يكون قد زاد فيها حتى تجاوزت محدودها
وصرفها بعد ذلك انما هو استظهار بعد تقديم الفكر قبل الفعل العلم بمواقع
الاصابة وينتهز استدراك الخطا وقد قيل من كثر اعتباره قل عثاره
وكما يتصفح افعال نفسه فكذا يجب عليه ان يتصفح افعال غيره فربما كان
استدراك الصواب منها اسهل لسلامة النفس من شبه الهوى وخلو
الخاطر من حسن الظن فان ظفر بجواب وجده من غيره او اعجبه جميل
من فعله زين نفسه بالعمل به فان السعيد من تصفح افعال غيره فاقتدى
باحسنها وانتهى عن سيئها وقد روى زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال السعيد من وعظ بغيره وقال

الشاعر ان السعيد له من غيره عظة وفي التجارب تحكيم ومعتبر
وانشدني بعض اهل الادب لطاهر بن الحسين
اذا اعجبتك خصال امرئ فكنه يكن منك ما يعجبك
فليس على المجد والمكرمات اذا جئتها حاجب يحجبك
فاما ما يرومه من اعماله ويوثر الاقدام عليه من مطالبه فيجب ان يتقدم
فكره فيه قبل دخوله فان كان الرجا فيه اغلب من الياس منه وحمدت
العواقب فيه فقد لك من اسهل مطالبه والطف جهاته وبعد ويسوغه يكون
الاقدام عليه وان كان الياس اغلب عليه من الرجا مع شدة التغرير ودناة
الامر المطلوب فليحذر ان يكون له متعرضا فقد روي عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال اذا هممت بامر فتدبر في عاقبته فان كان رشدا فامضه وان كان
غيا فانته عنه وقالت الحكما طلب ما لا يدرك عجز وقال بعض الشعراء
واياك والامر الذي ان توسعت موارده ضاقت عليك المصادر
فما حسن ان يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر
وليعلم ان لكل حين من ايام عمره تخلقا وفي كل وقت من اوقات دهره عملا فان تخلق
في كبره باخلاق الصغر وتعاطى افعال الفكاهة والبطر استصغره من هو
اصغر وحقره من هو اقل واحقر وصار كالمثل المضروب بقول الشاعر
وكل باز يسنه هرم تخرا على راسه العصافر
فكن ايها العاقل مقبلا على شانك راضيا عن زمانك سلما لاهل دهرك جاريا
على عادة عصرك منقادا لمن تقدمه الناس عليك متحببا الى من تقدمك الناس
عليه ولا تباينهم بالعزلة عنهم فيمقتوك ولا تجاهرهم بالمخالفة لهم فيعادوك فلا
عيش لممقوت ولا راحة لمعادي وانشدني بعض اهل الادب
اذا اجمع الناس في واحد وخالفهم في الرضا واحد
فقد دل اجماعهم دونه على عقله انه فاسد
اجعل نصح نفسك غنيمة عقلك ولا تداهنها باخفاء عيبك واظهار عذرك
فيصير عذرك احظى منك في زجر نفسه بانكارك وتجاهرك من نفسك

التي هي اخص [illegible] عدوه [illegible] بنفسه وقال بعض الحكماء [illegible] تبعا لذلك وقال بعض البلغاء من اصلح نفسه ارغم انف اعاديه ومن اعمل جده بلغ [illegible] امانيه وقال بعض الادبا من عرف معايبه [illegible] ابو ثابت النحوي لبعض الادبا

ولو كان ذا الانسان ينصف نفسه لامسك عن عيب الصديق [illegible]

فهذب ايها العاقل نفسك بانكار عيوبك وادفنها كدفنك لعدوك [illegible] واشتغل بها تشتغل عن ودودك

من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ اعاننا الله واياك على القول بالعمل وعلى النصح بالقبول بحوله وقوته وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم فرغ من هذا الكتاب المسمى ادب الدنيا والدين في يوم السبت المبارك عاشر شهر رمضان المعظم قدره الذي من شهور عام احد وثمانين احسن الله عاقبتها بخير امين وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم تسليما كثيرا وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

٢٠٣
٢٠٦
١١٤
٢٠٧